2020
4.1.2020

هوشنك أوسي

وطأة اليقين

محنة السؤال وشهوة الخيال

رواية

دار سؤال

هوشنك أوسي

وطأة اليقين

محنة السؤال وشهوة الخيال

رواية

دار سؤال؟

وطأة اليقين

الطبعة الأولى، 2016
عدد الصفحات: 384
القياس: 5 .14 × 5 .21
جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة
دار سؤال للنشر
لبنان - بيروت
الحمراء - شارع ليون - بناية برج ليون - الطابق السادس
ص.ب: 58-360-11
هاتف: 740437 1 00961

www.darsoual.com
@darsouall2014
dar_souaal@outlook.com
Dar Soual

ISBN: 978-614-8020-35-3

لوحة الغلاف للفنان العراقي ستّار نعمة

إن دار سؤال للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء مؤلّفه، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الدار.

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الإهداء

إلى مدينة أوستند البلجيكيّة. . . حبّاً وتكريماً.

وإلى كل من ظلم هذه الرواية.

هوشنك أوسي

2016 /10 /21

العابرون بهذه الأسطر، عابرون بأنفسهم. والماكثون فيها، ربما ينتظرون عابراً معيّناً، ينتشلهم مما يجهلونه ويجهلهم! منهم من يعتبرُ الخشيةَ من الحقيقةِ حقيقةً. والمروق منها باطلاً. والباطل بتجلّياته، هو أيضاً حقيقة. ومنهم من يخشى أن تكون الروحُ رسالة الجسدِ، والجسدُ آبداً، والروحُ فانية. وثمّة من يخشى أن تكون الروحُ والجسدُ، رسالتين متضاربتين، خطّهما، ويخطّهما المجهولُ لمجهولٍ آخر.

ثمّة هاجسٌ يحاصرُ جميع الماكثين والعابرين في آن، قائلاً:

- فائضُ الخراب والدمار الذي تعيشونه، وترونه وتُعلونه، تمعّنوا فيه جيّداً، لكونهِ سيصبح مداميك عمارة الذاكرة التي ستتوارثونها، جيلاً إثرَ آخر، وستتصارعون على هذا الإرث، حتى يقضيَ الليلُ فجراً كان منتظراً. حياتكم ليست لكم. وموتكم ليس لكم. فانتظروا... انتظروا أكثر! هي الحياة، آلامُ المجهول في تدوينه سِيَرَ المعاليم. والموت، منطوقُ المعلوم بلسان المجهول، سِفراً يوثّق تناوبَ المجاهيل والمعاليم في تعاقبِ الأمكنة والأزمنة. لذا، اروِوا الحياة ولا تواروها. اروِوها، لا كما عشتموها، بل كما عاشتكم الحياة. واروِوا الموت، لا كما متّموه، بل كما عاشكم.

... ولكن، هل حَدَثَ كلُّ هذا، كما رويَ، أم أن الأمرَ محضُ التباسٍ، لا أكثر؟!

أكادُ أختنق

From: Ha-L.Sinjariy@hotmail.com
To: h.zaradashtyan@yahoo.se
Subject: أكاد أختنق
Date: Mon, 25 Okt 2007 19:07:21 +0000

صديقي هاغوب،

آمل أن تكون بخير وصحّة جيّدة.

بالنسبة لي، لا تسأل! الزمن يمضي بطيئاً دبِقاً، بلزوجةِ مخاطٍ دامٍ. أحسّه قيداً يشتدُّ رويداً على خناقي، كاشتداد الأصفاد على المعاصم، ودبابيسَ مستعرة تنعرُ جسدي. بات الزمنُ شديدَ الانحطاط والتدهور، كغولٍ يحاصركَ، ولا يتيحُ لكَ الفكاك من دنسهِ. حينَ يدنّسكَ الزمنُ، ماذا بوسع الأمكنة فعله لكَ، كي تتطهّر من هذا الرجس الأعمى والعاصف؟!

أشعرُ بأنني هيولى عمياء، لا ملامح لها، وظلّي غبارٌ فاحمٌ وواخز، يصفعني بشدّة، ويعصرني بقسوة. أحياناً، أجدني ظلاً وحشيّاً أبكمَ يبحث عن صاحبه! أعماقي صقيعُ صحارٍ لا نهاية لها. أنا قاحلٌ ومتشقّق من الداخل، ويحول جلدي السميك، كجلد

الفيلة، دون خروج فيض الديدان من جسدي المتعفّن. أنفاسي، أبخرةٌ كريهةٌ، كأنني بئرٌ مردومةٌ بجيفٍ متفسّخة، متحللة.

قضي الأمر بالنسبة لي، وانتهى كل شيء. أكاد اختنق بصراخي الذي لا يعبأ به أحد. لم أعدْ أقوى على الكتابة التي كانت بالنسبة لي الرئة والشرفة التي أتنفّس منها، والدم الجاري في العروق. فقدتُ الإحساس بكل شيء. هذه هي رسالتي الأخيرة التي أكتبها لك. غدا اليأسُ روحاً لهذه الأرض التي نخرها ونهشها الفساد. كل شيء مُنتهَكٌ ومنهوب! كل شيء مُغتصب. إنه الهتكُ العميم. زمن الهتك، الذي غدا فيه كل شيءٍ ينتهك أيّ شيء! كل شيء متهتّك، ومتهالك. الهواء فاسد، الماء فاسد. النهار، الليل، الكلام، الأفكار، الأحلام، الغناء، الشعر، الموسيقا، الرسم... فاسد. فقدَ كل شيء براءتهُ، مذاقهُ وجدواه، بفقدانه معناه وجوهره. استدرارٌ للبغاء الروحي والعقلي، لا يمكنكَ تصوّر مداه، وإعادةُ إنتاج هذا البغاء، أصبح دِين وديدن هذه اللحظاتِ التي تشتدُّ على الأعناق كحبلِ المشنقة. إننا نعيش فوضى الخواء، وخواء الفوضى. الكلام يخون معانيه ومقاصده. والمعاني تخون الكلام. كل شيء يخون أيّ شيء، وأيّ شيء يخون كل شيء! بتنا لسان حال الخيانات الذاتية والموضوعيّة. انعدمت قيم الإخلاص والوفاء والتفاني، قيم الحبّ والخير والجمال في حياتنا. تجاوزنا الحالة النفسيّة والعقليّة التي دفعت محمد الماغوط إلى كتابة «سأخون وطني»، ولم نعد نعلم؛ إن كان وطننا يخوننا أم نحن نخونه؟! ثمّة نهرٌ هادرٌ من الخيانات، كلّنا ضالعون فيه، ونشتكي منه، وخائفون من توقّفه في آن!

نعيش طاعوناً أسوأ وأحقر وأشدُّ حصاراً وفتكاً من «طاعون» ألبير

كامو. موبوؤون بالضلال، ومتاريسُ الدجل والتضليل معشّشة ومتعشّشة في العقول. نقضي أيّامنا في كنفِ الفسادِ والاستبداد، وهما يُعليان أمجادهُما وصروحهُما على أنقاضنا. تتمسحنا. نعم، تتمسحنا، تخنزرنا، حين بلغ بنا ابتلاع الذّل والهوان وهضمنا لهما على أنه قدرنا الذي لا مفرّ منه، ولا رادّ له، ولا محيد عنه. نحن السجن والسجّان والسجين في آن، الجلّاد والضحيّة في آن، ضمن حياة نمطيّة مميتة، ورتابة قاتلة. الموت البطيء بات سيّد الموقف والقرار ويتسنّم مشهد الجريمة التي نرتكبها بحقّ أنفسنا. نعيش سرديّات وحكايات موتٍ قذرٍ معلن، بكل ما امتلكت كلمة القذارة من دلالة وطاقة ومعنى.

كل شيء يكرّر نفسه، بنهمٍ وشهوانيّة مريعة، وسط نفاق فظيع وشنيع. حالة من التكاذب السياسي والاجتماعي والثقافي على الذات، لا أستطيع أن أجد لها معادلاً لغويّاً يصفُها. نظامٌ يجد في التنوّع مقتله، فيضخُّ في المجتمع فاشيّة بطيئة وناعمة تجاه الآخر. بلغ بنا استمراء الذلّ والمهانة وخيانة الذات، مبلغاً تجاوز البشر، ليصل إلى الحيوان والنبات والشجر والحجر أيضاً. قطيعُ حملانٍ أمام المستبدّ، وقطعان ذئاب على بعضنا البعض. مدنّسون بالفساد والاستبداد، ولا مطهرَ لنا من آثامنا بحقّ أنفسنا. نعيشُ جحيماً وقودهُ عجزنا وخوفنا، مُذْ افترسنا الاستبداد، وافترشنا العارَ على أنه الأمانُ والعيشُ الكريم!

نظام سياسي مستبدّ وفاسد، متغوّل، متوحّش، ومعارضة سياسيّة فاسدة، مشتتة، مشلولة ومترعة بإرث النظام وميكروباته. لا صوتَ يعلو على جلجلة الغشّ والخداع، في محاولة تبرير الطغيان،

والإذعان له، بشكل مباشر أو بغيره، سياسيّاً وثقافيّاً واجتماعيّاً. إذعانٌ مطبق ومبرم. النظام يهوّل من البديل، إن حلَّت الديمقراطيّة في هذه البلاد. والكل يصدّق هذا التهويل ويصادق عليه، ويصفّق له.

نعم، هنالك حركيّة اجتماعيّة، في هذا الوطن، ولكنها شديدة السمّيّة والتلوّث، ومخاتلة، توحي بوجود حياة ها هنا، أو وجود هامش من الحداثة والنظام الدولتي - المؤسساتي. لكن الوطن بات قبراً جماعيّاً مفتوحاً، نحن الجثث المتكدّسة فيه، وروائح تفسّخنا تزكم السموات السبع. الخوف والذعر من كلمة «لا» لهذا الواقع المميت، هما لسان حالنا. ولو كنتُ أمتلك شجاعة فلاديمير مايكوفسكي أو خليل حاوي، لانتحرت. ولكنني أجبن من أن أنتحر أيضاً. لقد سلبنا النظامُ القدرةَ على الانتحار، تماماً كما سلبنا القدرةَ على الحياة. فلا نحن محسوبون على الموتى، ولا على الأحياء. مخصيون في حياةٍ مخصيّة، مخصيون في مماتٍ خصيب وفحل.

قياساً على حالنا هذه، من أين سيأتي التغيير الذي ربما يلقي بحجرٍ في هذا المستنقع الآسن الذي نعيشه، ونسمّيه وطناً؟!

أشعرُ بأنّ عظامي أنفاقٌ تُصدر صفيراً أسود. صفيرُ ريحٍ جائلةٍ بين المجازر غير المعلن عنها. بقلبٍ مهشّم، وعقلٍ متفحّم، وإرادةٍ متفحّمة، أكتب لكَ، تحت وطأة يقين يزدادُ تراكماً، لسان حاله؛ ألّا تزحزُح عن هذه الحال التي نعيشها.

صديقي...

حتّى الذاكرة، باتت مصابة بشلل نصفي، ويكاد بؤسُ حالنا يودي بها أيضاً. ولا أعرف كيف أنني ما زلت أذكر أوّل لقاء جرى بيننا.

كان ذلك في المستشفى العسكري، كلانا جريحان أثناء مواجهة الاحتلال الإسرائيلي للبنان سنة 1982. كنت في العشرين من عمري. حين استغربت من الرتم الموسيقي لكنيتكَ، ذكرت لي أن اختيار أبيك لكنية زرادشتيان، كان تيمّناً بزرادشت. لأن عائلة كرديّة أيزيديّة، هي التي أنقذته من المذابح وربّته. وبعدَ أن شبّ عن الطوق، أخبرَته بأصله ودينه، وساعدته في البحث عن أهله، لحين التقاطه رأس الخيط الذي بدأ من حلب فلبنان، فالقاهرة ثم باريس. ولكن والدكَ آثر البقاء في القامشلي ودُفن فيها.

كذلك أطلقتُ اسم نوروز على ابنتي، لأن جنديّاً كرديّاً حملني على ظهره جريحاً. ولم يمضِ أشهر على مجيء نوروز للدنيا، حتّى دخلنا السجن.

ربما من العسير نسيان أنكَ مَن نسبتني إلى حزب العمل الشيوعي، وأنني من دفعك للتوجّه نحو الأدب وكتابة الشعر، حين لمست لديك الموهبة. والمفارقةُ أنه بعد خروجنا من السجن، بقيتُ في الحزب بينما أنت تركته، واستمررتَ في عالم الأدب، في حين غادرتهُ أنا! تتراءى أمام عينيَّ كل الأحداث والأيّام التي تقاسمناها، خارج وداخل السجن، كشريط سينمائي، وكأنني الآن أعيش لحظة مواجهة كتيبة الإعدام، والرصاص في طريقه للانغراس في جسدي.

حين دخلنا السجن، ورأينا فيه كل صنوف العذاب والألم والحرمان، كان قلبانا يخفقان للحريّة والوطن. وحلمنا معاً بغدٍ أفضل لنا ولأولادنا وأحفادنا. وقُلنا لأنفسنا: مسؤوليّتنا هي دفع أكلاف حريّة الآخرين من أبناء وطننا. وحين خرجنا، بعد مضي خمس عشرة سنة، كنّا شديدي اللهفة والتوق لعناق الحريّة والوطن

والهواء والأشجار ونور الشمس. ولكننا اكتشفنا في ما بعد، أننا فقدنا الوطن والحريّة خارج السجن، أكثر من فقدانهما، داخله. كُنَّا أحراراً داخل السجن، وصرنا عبيداً خارجه. لا أخفيكَ أنني أحنُّ كثيراً إلى أيّام السجن. إلى الجلّاد. إلى المنفردات وجولات التعذيب النفسي والجسدي. وأحسبها أخفّ وطأة وفداحة مما أعيشه الآن من هول الصدمة والخيبة والمرارة التي تنهشُ أعماقي. يا ليتني متُّ في السجن، وما رأت عيناي الواقع الذي حوّلنا إلى ممسوخين، بحيث أصبحت حياةُ الحشراتِ أشرفَ من حياتنا المغموسة في الذلّ والنفاق والتكاذب.

لم يسلبنا السجنُ الحماسَ والهيجانَ والأحلامَ الثوريّة التي أدخلتنا إيّاه، بل ما هو خارج السجن، الذي أخصانا تماماً، روحيّاً وعقليّاً، وسلبنا إرادتنا، ودمّر كينونتنا وأحلامنا التي لم تكن تعرف حدوداً. أحلامنا التي كانت وقودنا، سلبونا إيّاها. وإذا كان هنالك ثمّة شعب بلا أحلام، فهو نحن. إذا كان هنالك ثمّة وطن بلا أحلام، فهو حيث نعيش.

يبدو أن حبّي للحريّة، هو حبّ من طرف واحد. لماذا لا تحبّني الحريّة؟! بماذا بخلتُ عليها؟! ما الذي عليّ فعله، حتّى تحبّني الحريّة؟! لا.. لا.. نحن لا نحبّ الحريّة، بل نكرهُ من يحبّها. نحن عبيد العبيد. تجاوزنا في عبوديّتنا للخوف والذل، عبادة الآلهة. فكيف ستحبّنا الحريّة؟ ولماذا؟!

فقدتُ مذاق ورائحة كلّ شيء. التصنّع والافتعال والرياء وصل إلى الخضروات والفاكهة. فتراها لامعة، تثير الشهيّة، وحين تأكلها، لا طعم لها. أقلعت عن التدخين ليس لأنه ضار، ويستنزفني ماديّاً

وصحيّاً، أو نزولاً عند نصيحة الأطباء! أقلعت عن معاقرة الخمر، ليس لأن الأطبّاء حذّروني منه. ومنذ سنتين، لم أمارس الجنس مع زوجتي، ليس لأنني فقدتُ القدرة على ذلك. لم أكتب الشعر، ولم أقرأ قصيدة واحدة منذ أمد، ليس لأنني لا أحبّ الشعر. لم أرتد صالة عرض تشكيليّة، كما كنت أفعل سابقاً. ولم أكتب مقالاً واحداً للصحافة منذ عدّة أشهر. وما نشرته لي صحيفة «الحياة» في الخامس من هذا الشهر، بعنوان: «الخشية من البديل»، كتبته مطلع هذه السنة، ولم أرسله للنشر إلّا قبل أسبوع! حتّى أنني لم أكتب لك أيّة رسالة منذ ستة أشهر تقريباً. ولولا ثرثرة زوجتي، لما حلقت شعري وذقني. لم أعد أزاول ما كنت أمارسه بحبّ، لأنني فقدت لذّة الحياة.

سابقاً، كنت أقول في نفسي: ثمّة أناس، يجب أن أعيش لأجلهم، ليس حبّاً في العيش، بل لأن موتي ربما يسبب لهم الكدر والتعاسة والحزن. وثمّة أناس، يجب أن أسعى لأن أكون قيمة جماليّة في حياتهم. رصيدي في هذه الحياة، هو محبّة واحترام بعض الناس لي. كان هذا في ما مضى.

أمّا الآن، فقد فقدت هذا الإحساس أيضاً. أقلعت عن الحياة، وهي أقلعت عنّي. ولكنني جبان، لا أمتلك شجاعة المُنتحر.

الوعي، في هذه البلاد، هو ممارسة الألم والهمّ والغمّ والنكد. في وضعٍ كالذي نعيشه، الجهل والجهالة والأميّة، كنزٌ يستحيلُ الحصولَ عليه. وكلما ازددتَ وعياً بواقعك، وما يدور حولك من خراب، تفاقمَ حجمُ ألمك وحزنك وبؤسك. فلا أنت قادرٌ على الانتماء إليه، ولا تمتلك القدرة على التحرر منه أو تغييره. مقولة شكسبير؛ «إنْ لم تعجبكَ حياتكَ فغيّرها» لا تنطبق عليّ. أنا عاجز

تماماً عن تغيير ولو جزء من حياتي، ليس لأنني أرى نفسي ملاكاً نازلاً من السماء. وهذه ليست «الأرض اليباب» كما كتب إيلوت ذات يوم، بل أفظع من ذلك بكثير. الأرض الملعونة التي تنتج العبيد الخانعين الأذلاء، منذ صلب المسيح، ومروراً بحكم معاوية وآله، وصولاً إلى يومنا هذا. لا أخفيك، بدتُ أحسدُ المجانين على جنونهم. أحسدُ الموتى على موتهم.

حين دخلنا السجن سنة 1989، كان عمري 27 سنة. كنتَ تكبرني بسنتين. وحين أُطلق سراحنا، صار عمري 42 عاماً. لم أكن قد برأت من أهوال الحرب في لبنان، حتى زجّت بي الأقدار في أتون سجن تدمر الرهيب. في السجن، كانت الذاكرة حصني وحصاني وأجنحتي. ولكن هول وبشاعة ما رأيته خارج السجن، أفقدني تلك الذاكرة، بحيث ما عدتُ أقوى على تذكّر أيّام الطفولة والشباب والانخراط في الرابطة. ما أذكره هو يوم ميلادي، كونه صادف يوم جلاء الفرنسيين عن سورية. ويا ليتهم بقوا هنا، لربما كانوا أرحم وأرأف بحالنا من العصابة التي تحكمنا.

يوم 17 نيسان، يمتلك رزمة من المصادفات في حياتي. فهو أيضاً تاريخ ميلاد ابنتي نوروز. تصوّر هذه المصادفة التي لا يمكن أن يتصوّرها أحد، أن يكون يوم وعيد ميلادنا واحداً!؟ إن ذكرت ذلك لأحد، لربما اعتبرني أهذي؟! أو أنني أتحدّث عن خرافة!؟ وفي هذا التاريخ، تم الإفراج عنّا! هذا اليوم، لم يعد يعنيني في شيء، ولا أكترث لِما يخبّئه لي أيضاً؟!

باختصار، ما نعيشه من استمراء الذل والإذعان والمهانة، وتفشّي الفساد والنفاق والدجل وتضليل الذات، والعجز المطلق عن التغيير،

هو لواطة سياسيّة وثقافيّة وأخلاقيّة، بكل ما في العبارة من قسوةِ المعنى. لقد حوّلوا الوطن والمجتمع إلى ماخور مفتوح، حانة «كوباكابانا» في رواية باولو كويليو، أفضل منه بكثير. ويبدو لي أنه لن ينفع معنا شيء، إلا طوفان، يتجاوز في شدّته وحجمه طوفان نوح، بحيث يمكنه الإطاحة بكل شيء، ولا يُبقي حجراً على حجر، أو بشراً أو دابة أو طيراً. لأن هذه الأرض، لم يعد عليها ما يستحق الحياة. ولم يعد عليها ما يستحق الموت أيضاً. شعبٌ ووطنٌ، يصنع طغاته ويعبدهم، محالٌ تغييره وتنويره. العبد الذي يكره الحريّة لنفسه ولغيره، ويحاربها أكثر من سيّده الذي يستعبده، لا تليق به الحياة. وأنا أوّل هؤلاء العبيد.

من قال لك؛ إن أمهاتنا يلدننا أحراراً؟! الأمُّ زوجة العبد، لا تلدُ طفلاً حراً. إنهنَّ يلدننا مثقلين بالأغلال والأقفال، الدينيّة والمذهبيّة، القوميّة والقبليّة. . . ، ثم يرضعننا هذه العبوديّة المتعددة الأوجه، مع حليبهنّ. يهمسن في آذاننا التمتمات والتكبيرات والتعويذات. يأخذننا للتعميد في الكنائس والمعابد، ويحددن لنا ما يجب أن نعبد؟ نولد وفي انتظارنا إرث هائل من الخوف والأحقاد والخلافات والتناقضات بين الأديان والطوائف والأعراق، ورِثها آباؤنا عن أجدادهم، ويورّثوننا إيّاها، ويريدون لنا أن نورّثها لأولادنا وأحفادنا. يلقّنوننا العبوديّة، ثم يقولون لنا: ولدتكم أمهاتكم أحراراً!؟

إن قلتُ لك إنني الآن «غريغور سامسا» فيجب أن تصدّقني. إذ لا أجد نفسي فقط حشرة، بل كلباً في لحظة ما، وضبعاً في لحظةٍ أخرى، ونعجة، وأحياناً كبشاً أو تيساً أو ثوراً مخصيّاً للحرث فقط، ثم الذبح.

نريدُ طوفاناً، بلا سفينة، وبلا نوح. نريد زلزالاً يبتلع هذه الأرض، بمن عليها. هذه الأرض الممسوسة بلعنة العبوديّة، آن لها أن تنخسف على نفسها، ولكن تأخّر ذلك كثيراً.

أرسل لك نصّ المقال الذي نشرته لي الصحيفة، قبل فترة، للاطلاع، كما كنت أفعل في السابق. ويمكن أن تعتبر هذا المقال، هو الأخير. بعد نشره بعدّة أيّام، تمّ استدعائي للتحقيق لدى المخابرات السياسيّة. وأجبرتُ على الاستماع لنفس الأسئلة، ونفس التهديدات، ونفس الأسطوانة....

أوووووف... أوف، أشعر بالقرف.

اختتمت المقال بالقول: «يبقى المواطن السوري هكذا، على أنقاض حاله، محكوماً بالاستبداد، والخشية من الديموقراطية في آن، إلى أن تحدث معجزة ما في زمنٍ ما، تعيد ترتيب سورية بما ينسجم مع إرثها الحضاري، وروح العصر».

لكن، انتهى عصر المعجزات والأنبياء والرسل. وإنه عصر العبيد، عملاً بقول: «كما تكونون، يُولَّى عليكم».

تحياتي

الخشية من البديل...

....

....

القطار

قيظٌ مشوبٌ بريحٍ دبقةٍ، ثقيلةِ المرور والوطأة، محمّلة بالغبار، يخيّمُ على الرصيف المكتظّ بالمنتظرين. تداخل أصواتهم واشتباك أحاديثهم، بات أشبه بالتمتمات والتعاويذ التي يردّدها السحرة والمشعوذون، أو أقرب إلى ثرثرات الكهنة في المعابد، أثناء تأدية الصلوات والأدعية. الروائح المنبعثة من أجسادهم، تزيد من قلق المكان وازدحامهِ. روائح تعرّقٍ واخزة، تصدرها أجساد بعضهم، كأنّهم لم يستحمّوا منذ أشهر، تخالطها روائح عطور رجّاليّة رخيصة، وعطور نسائيّة فاخرة، تزيد من ثِقَلِ الانتظار. بينما الانتظار ضرام المحنة، وسط تكالب الهواجس، بحيث يجعل الزمن شديدَ اللزوجة والملوحةِ والحموضة. الانتظار، التياعٌ مرّ، وضجرٌ كابس على الأنفاس، ومنشارٌ يحزّ ببطء، عظام المُنتظر. الانتظار، أحد وكلاء الموت في عَصرِ أحوال البشر بلينٍ، وتنشيفِ أوردتهم وشرايينهم من ترياق الحياة. الانتظار، جلّاد، سوطهُ الأمل في قدوم شيء لن يأتي. لا يهمّ. كل ما أراه الآن، وأشعر به، سيصبح من الماضي.

هكذا كان يتمتم، هو أيضاً، في نفسه، متوسّطاً تلكَ الجمهرة من البشر. يقابله، على الرصيف الآخر، جمهرة أخرى، مفتّشاً عن وجهٍ يألفهُ، دون جدوى. بدت له الوجوه غريبة، متداخلة القسمات

والملامح، لكنها لا تشي كثيراً بدواخل أو أمزجة أصحابها، بعكس الحال في وجوهِ أبناء بلده.

تعتريه دهشة الغريب، وقلق التائه، وتوجّس المُحاصر بالمخاوفِ والأسئلة، أثناء تفحّصه المكان. يُسائل نفسه:

- كل شخصٍ، ممن ينتظرون القطار، هو عالمٌ بحدّ ذاته، له همومه ومشاغله، أحزانه وأفراحه، اهتماماته، انكساراته وخيباته، نحن الواقفون معه هنا، بالنسبة إليه، كومبارس، مبرّر وجودنا، هو استكمالُ المشهد العارض بالنسبة له، لا غير، وهو البطل في وسطنا.

هؤلاء المنتظرون، هل يشعرون بي، كما أشعر بهم؟ هل يطرحون على أنفسهم، السؤال الذي أطرحه الآن على نفسي؟ إذا حدّثتهم عن محنتي وألمي، هل سيتفهّمون حالتي وما أعانيه، ويتعاطفون معي؟

يتوقّف قطار في الجهة المقابلة، قاطعاً عليه تساؤلاته، فاتحاً في زحمة خواطرهِ، جهةً أخرى لهبوب أسئلة مختلفة، تنعرُ ذاكرتهُ، وتحفّزها على الاستحضار. صدمةُ القطار، بهدوئه ووقارهِ، جعله منقاداً لفيض الأسئلة:

- لا الصوت صوته؟! ولا الصفير صفيره؟! يشبهه، لكنه ليس هو!

هذه هي المرّة الأولى التي يرى فيها قطاراً، عن قرب، وجهاً لوجه! أعادهُ المشهد إلى سِنِي الطفولة، حين كان يقضي المساء في بيت جدّه، قريباً من الحدود التركيّة - السوريّة، حيث تشطرُ سكّةُ القطارِ البلدةَ شطرين، على جانبي الحدود. تلك السكّة الموازية

لحقول الألغام والأسلاك الشائكة، لطالما سَمِعَ قصص العابرين لها، من وإلى تركيا!

تذكّر رواية أمّهِ، حين عبرت الحدود، بصحبة جدّه وجدّته ووالده، وسط إطلاق الجندرمة الرصاص الكثيف عليهم. وكيف أن أمّهُ كلما وضعت طفلتها على ظهرها، تخشى أن يصيبها الرصاص من الخلف. وإذا حملتها محتضنةً إيّاها، تخشى أن يصيبها الرصاص من الأمام. في خضمّ هذا الرعب والذعر والإعياء، وبكاء الطفلة، والليل الحالك، وأزيز الرصاص والشرر المتطاير الذي يقدحه من ارتطامه بالصخور والحجارة، عبروا سكّة القطار والحدود، ركضاً وهرولةً وزحفاً، إلى الشطر السوريّ من البلدة.

حدّثته جدّته عن جدّه، وكيف كان يزاول التهريب، بين تركيا وسورية، وقطعه الحدود عشرات المرّات. حدّثته عن مجزرة أودت بحياة نحو عشرة مهرّبين، سقطوا برصاص الجندرمة، وبقيت جثثهم عالقة بين حقول الألغام والقشّ والنباتات الشائكة اليابسة، منتفخةً في قيظ الصيف، متفسّخة، تفوح روائحها، دون أن يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منها. لم ينجُ إلّا شخص واحد، أصيب بعدّة رصاصات، ونجح في العبور زحفاً.

لكنّه تساءل مجدداً:

- لا الصوت صوته؟! ولا الصفير؟!

هديرٌ مموسقٌ، مصحوبٌ بصفيرٍ رهيب، تعبثُ النسائم به، تخفضهُ وتعليه. على الطريق الواصل بين بلدته والقرية المجاورة لها، وقف محدّقاً في تلك الأفعى الرفيعةِ الزاحفة، والشمسُ ماثلةٌ للغروب. كان ذلك أوّل قطارٍ يراه في حياته.

ما زالت ذاكرتهُ مُحتفظةً بسحر وألق ذلك المشهد والأصوات المشاركة في تشكيله؛ هدير القطار ساعة الغروب، مصحوباً بصوت محرّكات آبار البساتين. ومع بدء الشمس بزوغِ فيضها، هديرُ القطار المتداخل مع خوارِ البقرة وصياح الديك، وثغاء الأغنام، الآتي من الحظيرة الموجودة في زاوية حوش الدار، هو الذي يوقظهُ، بعد فشل النسائم العليلة في إيقاظه.

قطارات أتت ومضت، لكنّه ينتظر القطار الذي سيقلّه من بروكسل إلى أوستند، على ساحل بحر الشمال. تناهى إلى خاطره تساؤلٌ مفاجئ:

- من قال: إن الأمكنة ثابتة، والزمن وحده المتحوّل؟ الزمنُ، قطارٌ يسير متعرّجاً من الأزل إلى الأبد. وهل الأبد، هو المحطّة الأخيرة لقطار الزمن؟ وهل هنالك سير معاكس، بحيث يعود قطار الزمن من الأبد إلى الأزل؟ لكن القطار، مكانٌ متحرّك في أمكنة وأزمنة متحرّكة. إذاً: القطار، هو التعبير المكثّف عن الحياة. الحياة قطار، الأوطان والمجتمعات، والأشخاص والتجارب والأفكار هي محطّاته. ثمّة من ينزل في محطّة ما، ويصعدُ آخر إلى محطّة جديدة. ثمّة تناوب أو تبادل في هذه اللعبة التي اسمها الحياة، بحيث يمكن للمرء أن يغيّر الكثير من القطارات. وفي مسيرة القطار الواحد، يمكن أن يمرّ المرء بالكثير من المحطّات، حتّى الوصول إلى المحطّة الأخيرة، وهي الموت، ليركب قطاراً آخر، يقلُّهُ إلى محطّات أخرى. وهكذا، لا تنتهي رحلة السفر في قطارَي الحياة والموت.

* * *

كمنْ يودُّ طمأنة قلبهِ، متردداً، متلعثماً، اقترب من امرأةٍ عجوز، وقورة، بشعرٍ أحمر، مصبوغ، ترتدي سترةً صيفيّة خفيفة، وتحمل حقيبة يد، واقفة إلى جوار اللوحة الإلكترونيّة التي تشير إلى وِجهة القطار الآتي، وتوقيت توقّفه ومغادرتهِ المحّطة. سألها، بإنكليزيّة جد ركيكة، قلقة، مرتعدة وخجولة:

- معذرة سيدتي، هل هذا القطار، يتجه إلى أوستند؟

- نعم. أجابته بابتسامةٍ خفيفة، ونظراتٍ ودودة، في مسعى إزالة الارتباك عنه. سألته هي بعربيّة، لا تختلف ركاكةً ورخاوة من إنكليزيّته:

- هل أنت إيراني؟

- لا.

- عراقي؟

- سوري. ولكن، كيف عرفتِ أنني أفهم العربيّة؟

- ملامحك، ولكنتكَ الإنكليزيّة تفصح بأنه إمّا أن تكون إيرانياً أو تركياً أو عربياً. وحين أجبت بالعربيّة، عرفت أنك إمّا عراقي أو سوري.

أجابته، بابتسامةٍ تنمُّ عن فضولٍ غريب. سألته بشكل مباشر، دون أيّة مقدّمات:

- هل أنت مع النظام أم مع المعارضة؟

تفاجأ بهذا السؤال، غير المتوقّع، من امرأة بلجيكيّة، فأجابها بثقة يخالطها الامتعاض، وبصوتٍ مشوب بضحكة:

- طبعاً مع المعارضة. هربت من وطني، تحت ضغط الملاحقة الأمنيّة.

حينها، شعرت المرأة بالسرور والارتياح، وكأنها التقت صديقاً فارقها منذ زمن. رفعت ياقة سترتها، لتريه علم الثورة السوريّة، مغروساً على شكل بروش.

اندهش الشاب، وارتسمت على محيّاه علامات البهجة، لكن، ليس بمستوى السعادة التي كانت تعتمل قلب السيّدة. فقالت له:

- أنا أيضاً ذاهبة إلى أوستند، تعال نتشارك الرحلة.

توقّف القطار، فتزاحم حشد المنتظرين. تذكّر دمشق، وتزاحم الركّاب على حافلات النقل الداخلي.

- تعال نجلس هنا. لا تخشَ شيئاً. في ساعة الزحمة والذروة، يتجاهل الجابي التدقيق في نوعيّة التذاكر. الناس متجهة بكثافة الى أوستند لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

جلسا متجاورين، وحاول الشاب إخفاء خجله، ظنّاً منه أن كل الركّاب يشككون في طبيعة علاقته بهذه السيّدة العجوز.

- لنتعرّف على بعضنا أولاً. اسمي كاترين دو وينتر. متقاعدة. عملت مترجمة مباشرة في البنك الدولي. وأبلغ من العمر 77 سنة. وأنت؟

اتسعت حدقة الشاب من شدّة الاندهاش والتعجّب، لأن ملامحها وهيئتها لا توحيان بهذا العمر! فالنسوة في بلاده، اللاتي عمرهن 75 سنة، بالكاد يستطعن المشي والكلام. وما زاد اندهاشه أكثر أنها كانت تعمل في البنك الدولي، الذي لطالما سمع به في نشرات الأخبار.

- اسمي ولات أوسو. كاتب وشاعر كردي سوري. عمري 35

سنة. هربت من وطني منتصف 2009، نتيجة تهديدات وملاحقة المخابرات السوريّة. أعيش الآن في مركز اللجوء، «بيتي شاتو» ببروكسل.

- أعرف هذا المركز. في الخمسينيات، حين كان تابعاً للجيش، عملت نادلة في مطعمه، لفترة وجيزة، كي أؤمّن مصروف دراستي. هل أنت من أكراد القامشلي أم عفرين؟

أجاب مستغرباً:

- من القامشلي. ولكن، هل تعرفين هذه المناطق؟!

- طبعاً أعرفها. زرت القامشلي وعفرين، أثناء إقامتي في سورية من 2002 ولغاية 2007. بعدها، طردني الأمن السوري، ومنعني من العودة إليها، دون ذكر السبب؟! وختموا جواز سفري بذلك.

بفضولٍ حذر، سألها:

- ماذا كنتِ تفعلين في سورية، طيلة هذه المدّة؟!

- أدرس اللغة العربيّة.

- في هذه السن؟!!

- نعم، أجيد الإنكليزيّة والفرنسيّة، والقليل من الألمانيّة والإيطاليّة والهولنديّة والإسبانيّة. سأذهب قريباً إلى اسطنبول لتعلّم التركيّة أيضاً. كل لغة، هي ثقافة. وكل ثقافة، هي حضارة.

لن أنسى ما حييت، السنوات الخمس التي عشتها في سورية. كانت من أجمل سنوات حياتي. أحببت هذا البلد وشعبه. منحني الكثير من المتعة وأعاد إليّ الرغبة في الحياة، بعد أن كنت موشكة على الانتحار، بسبب وفاة زوجي السابق. فقررت البقاء في هذا

البلد. ولكن قرار منعي من السفر الى سورية نسف هذا الحلم. لذا، أنا مع الثورة على نظام الأسد، وأريد أن أرى سورية حرّة، كي أحقق حلم العودة إليها. اشتقت إلى الشام، إلى حواريها، شوارعها، مقاهيها، جوامعها، كنائسها، إلى كل تفصيل من تفاصيلها.

أنهت دمعتان دفق كلامها عن سورية. وصارت تنظر إلى نافذة القطار، بصمتٍ تكتنفه الغصّة، التوق، الحزن والألم. أدخلت كلمات كاترين الطمأنينة والثقة إلى قلب ولات، وزادت من إعجابه ودهشته بهذه العجوز البلجيكيّة التي تتحدّث عن بلده بحرقة ومرارة واشتياقٍ والتياعٍ عظيم. فقطع عليها تأمّلها وصمتها، مطمئناً إيّاها:

- سنعود. أنا واثق من ذلك، ثقتي بوجودي الآن معكِ. سنعود إلى أحضان الشام، شام الياسمين والشعر. سنعود.

سيطر عليه إحساس غريب، مزيج من التعاطف والإعجاب إزاء هذه المرأة. وبشيءٍ من الفضول الصحافي، وكأنه اكتشف كنزاً يريد أن يكون سبق الحصول عليه له وحده، صار يسأل نفسه:

- ما الذي يدفع هذه العجوز الأجنبيّة إلى هذا القدر من التفاعل والارتباط الحميم مع سورية والتضامن مع ثورتها؟ في حين أن الكثير من السوريين، غير مكترثين لهذه الثورة؟ بل البعض منهم يناهضها ويستهدفها؟!

برقت في ذهنه فكرة الاستماع إلى قصة هذه العجوز البلجيكيّة، كاملةً، مدفوعاً برغبة استكشاف سيرتها وسبر دواخلها، وصولاً إلى فهم هذا الهيام والوله الشديد الموجود لديها تجاه سورية. فقرر توثيق وتعزيز العلاقة والتواصل معها. وقطع عليها صمتها مجدداً، طارحاً فكرته:

- سيدتي، معذرة منك على تطفّلي وفضولي الشديد. يبدو لي أنني إزاء حكاية مهمّة، فهل يمكن أن تطلعيني على تفاصيل أكثر عن وجودك في سورية؟

ردّت عليه بابتسامة خفيفة، مشوبةٍ بألم وحسرة:

- دمشق، هذا الجرح الغائرُ في قلبي وذاكرتي، هي محطّة من محطات قطار حياتي. كنت أتمنّى أن تكون المحطّة الأخيرة. ولكن!

صمتت برهةً، وبعد إطلاق تنهيدة عميقة، عاودت كلامها:

- منذ أسبوع أو أكثر، أشعر باحتقان نفسيّ شديد، وأبحث عمّن يمكنني البوح له، ويمكنه الاستماع لي. حكايتي مريرة وأليمة، ماراثونية، فيها الكثير من الهزائم والانكسارات، بالإضافة إلى لحظات الحب والأمل والطموح بيومٍ أفضل من الذي مضى. أحياناً، أشعر أن ما عشته، ومررت به، يستحق أن يروى في كتاب. وأحياناً أخرى، أشعر بسخف وتفاهة هذه الفكرة، وأسائل نفسي: ماذا تعني حياتي على امتداد هذه السنوات السبع والسبعين أمام لحظة ألم وذعر طفل سوري او فلسطيني يعاني الجوع والبرد والحزن على فقدان الأهل والوطن. لكن أعود وأقول: ذاكرتنا ليست لنا وحدنا. ذاكرتنا ملك الحياة، يجب أن يستمتع أناس آخرون في الاستماع لها أو قراءتها. أشكركَ على طلبكَ. وسررتُ بالتعرّف عليكَ والتحدّث إليكَ. هل لديك كارت بأرقام هواتفك وبريدك الإلكتروني؟

- سيدتي، أنا لاجئ. صحيح أن لي علاقة بالكتابة والأدب والصحافة، لكن، لست بذلك الكاتب الكبير والمعروف. لذا، ليس لدي كارت. معذرة منك.

قالها بشيء من الحرج، ضاحكاً.

- أوه، نسيت. آسفة. سامحني. عموماً! دقيقة واحدة.

تناولتْ ورقة وكتبتْ عليها رقم هاتفها الجوّال وإيميلها، وقدّمتها إليه:

- تفضّل. يمكنك الاتصال بي في أي وقت تشاء. صحيح أنني أسكن في بروكسل، ولكنني استأجرت شقة صغيرة، قبالة البحر، في قرية «دوهان»، قريبة من أوستند، أقضي فيها عطلة نهاية الأسبوع. أنا في الخدمة، في حال احتجتَ إلى شيء.

- سيدة كاترين، أشكرك على هذا الكرم والذوق الرفيع. أنا أيضاً، سأمضي هذين اليومين في أوستند، ولكن في البحث عن شقة للإيجار. لأنني أريد أن أبتعد عن ضجيج بروكسل، وأكون أكثر قرباً وتواصلاً مع البحر.

- أنا كاترين. نادني كاترين فقط. صرنا صديقَين. سأحاول أنا أيضاً البحث لك عن شقّة. كم عدد الغرف التي تريدها؟

- غرفتان وصالون.

- وهو كذلك. سأحاول. عموماً، غالباً ما أشارك في الاعتصامات التي تنظمها المعارضة السوريّة في بروكسل، أمام مبنى البورصة. يمكننا الالتقاء هناك، يوم الجمعة القادم. ينتابني إحساس بأنّك ربما تكون الصديق الذي يمكن أودع لديه تفاصيل حكايتي. وصلنا إلى أوستند. مضطرة لمغادرتك. سأستقلّ الترام إلى قرية دوهان. هل من خدمة أقدّمها لك؟ يمكنني البقاء معك، لحين مجيء صديقك.

- شكراً. لا أريد تعطيلك. سأنتظره. نلتقي قريباً.

قالها ولات، رغم رغبته الشديدة في الاستماع لهذه المرأة أكثر. بينما كاترين، كل عشر خطوات، وهي تلتفت للخلف، ملوّحةً بديها، وينتابها إحساس بأنه ما كان عليها تركهُ وحده، خاصة أنه لا يعرف المدينة. لكنها ما كانت تريد أن تشعرهُ بأنها تتطفّل عليه.

مات بروميثيوس

From: Ha-L.Sinjariy@hotmail.com
To: h.zaradashtyan@yahoo.se
Subject: الآن مات بروميثيوس
Date: Mon, 23 Jan 2011 20:09:12 +0000

عزيزي هاغوب

مات بروميثيوس، بعد أن أضرم النار في هشيمنا، وبعث فينا بصيص الكرامة والأمل والرغبة في التحرر. سيتوقّف التاريخ عند يوم 17/ 12/ 2010 مليّاً، هذا إن كان هنالك تاريخ. لأن هذه الأوطان والمجتمعات التي حوّلها الفساد والاستبداد إلى هشيم، يخيّم عليهِ ظلام ورطوبة أقبية السجون والمعتقلات هذا الهشيم، كان ينتظر الشرارة، وصفعة تلك الشرطيّة لشاب لا يملك في هذا الوطن، سوى رصيد هائل من الذلّ والفقر والمهانة وانعدام الكرامة والحريّة، وعربة خضار يدفع بها، كأنّها قدره الذي دفعه إلى أن ينهي جحيم حياته بتحويل حياة الطاغية، المسؤول عن كل ذلك، إلى جحيم.

عزيزي، صحيح أن نهضة العرب على ذلّ واحتقار العثمانيين وجماعة «الاتحاد والترقّي» للشعوب العربيّة، بدأت شرقاً، من الشام

وبيروت، ونظّر لها مثقفون كبار، مطلع القرن العشرين، لكن نهضة العرب وبلدان المنطقة، مطلع هذا القرن، بدأت من الغرب، من تونس، وستمتدّ شرقاً، ودون منظّرين وفلاسفة، بحسب التعريفات التقليديّة والنمطيّة للثورات الشعبيّة، وضرورة أن يكون لها مفكّرون وفلاسفة ونظريات ومخططات وبرامج وأحزاب ثوريّة. وسنشهد مفاجآت وأحداث دراماتيكيّة، خارج نطاق التكهّن والتوقّع والخيال. ستهتزّ عروش وجيوش الكثير من طغاة الشرق.

لو حذا كل مواطن بسيط حذو البوعزيزي، لأضرمت شعوب بأكملها النيران بنفسها؟ حياة البوعزيزي، ونهايته، والارتدادات الناجمة عنها، يلزمها روائيون كبار، يترجمونها إبداعاً أدبيّاً، أنا واثق من أنها ستكون من أهمّ الأعمال الأدبيّة العالميّة. تراجيديا هذا الشاب، يلزمها شعراء وأدباء أهمّ من هوميروس، دانتي، غوته، طاغور، نيرودا، السيّاب... حتّى يمكنهم الإحاطة بها وعكسها شعريّاً.

لو كان أبو قاسم الشابي حيّاً، لَكتبَ في بروميثيوس تونس، أجمل مما كتبه في قصيدته «نشيد الجبّار - هكذا غنّى بروميثيوس».

لا أعرف، كمّ مرّة، قرأت هذه القصيدة، هذا اليوم؟! حفظتها عن ظهر قلب. وفي كل قراءة، أنتشي وأكتشف جديداً على أن الشابي لم يخاطب فيها مستقبل تونس وثورتها التي أشعلتها نيران البوعزيزي وحسب، بل يخاطب ما بعد الثورة، وكيف أن هنالك أناساً آخرين سيسطون عليها ويركبونها، ويستغلّونها، كما جرت العادة في تاريخ الثورات. إنها نبوءة الشاعر، الذي يستشرف المستقبل شعريّاً.

أرجوك، اقرأ معي هذه الأبيات:

سَـأعـيـشُ رَغْـمَ الـدَّاءِ والأَعْـداءِ
كـالـنِّـسْـر فـوقَ الـقِـمَّـةِ الـشَّـمَّـاءِ
أَرْنو إِلَى الشَّمْسِ المضِيئَّةِ، هازِئاً
بـالـسُّـحْـبِ، والأمـطـارِ، والأَنـواءِ
وأسيرُ في دُنيا المشاعِر، حَالماً
غـرِداً- وتـلـكَ سـعـادةُ الـشـعـراءِ
لا أرمقُ الظلَّ الكئيبَ، ولا أَرى
مـا فـي قـرار الـهَـوّةِ الـسـوداءِ
أُصغِي لموسيقى الحياةِ، وَوَحْيِها
وأذيـبُ روحَ الـكـونِ فـي إنْـشـائـي
وأُصِيخُ للصّوتِ الإلهيِّ، الذي
يُـحـيـي بـقـلـبـي مَـيِّـتَ الأصْـداءِ
وأقول للقَدَرِ الذي لا يَنْثني
عـن حـرب آمـالـي بـكـل بـلاءِ:
لا يطفئ اللهبَ المؤجَّجَ في دَمي
مـوجُ الأسـى، وعـواصـفُ الأرْزاءِ
فاهدمْ فؤادي ما استطعتَ، فإنَّهُ
سيكون مثلَ الصَّخْرة الصَّمَّاءِ

لا يعرفُ الشكْوى الذَّليلة وَالبُكا،
وضَراعَة اَلأَطْفالِ والضُّعَفاءِ
ويعيشُ جبَّاراً، يحدِّق دائماً
بالفَجْرِ..، بالفجرِ الجميلِ، النَّائي
واملأْ طريقي بالمخاوفِ، والدّجى
وزَوابعِ الأشْواكِ، والحَصْباءِ
وانشُرْ عليْهِ الرُّعْبَ، وانثُرْ فَوْقَهُ
رُجُمَ الرّدى، وصواعِقَ البأساءِ
سَأَظلُّ أمشي رغْمَ ذلك، عازفاً
قيثارتي، مترنِّماً بغنائي
أمشي بروحٍ حالمٍ، متَوَهِّجٍ
في ظُلمةِ الآلامِ والأدواءِ
النّور في قلبِي وبينَ جوانحي
فَعَلامَ أخشى السَّيرَ في الظلماءِ
إنّي أنا النّايُ الذي لا تنتهي
أنغامُهُ، ما دامَ في الأحياءِ
وأنا الخِضَمُّ الرحْبُ، ليس تزيدُهُ
إلا حياةً سَطْوةُ الأنواءِ
أمَّا إذا خمدَتْ حَياتي، وانْقَضَى
عُمُري، وأخرسَتِ المنيَّةُ نائي

وخبا لهيبُ الكون في قلبي الذي
قدْ عاشَ مثلَ الشُّعْلةِ الحمْراءِ
فأنا السَّعيدُ بأنني مُتَحوِّلٌ
عَنْ عَالمِ الآثامِ، والبغضاءِ
لأذوبَ في فجر الجمال السرمديِّ
وأَرْتوي مِنْ مَنْهَلِ الأَضْواءِ
وأقولُ للجَمْعِ الذينَ تجشَّموا
هَدْمي ووُدُّوا لو يخرُّ بنائي
ورأوْا على الأشواك ظلِّيَ هامِداً
فتخيّلوا أنِّي قَضَيْتُ ذَمائي
وغدوْا يَشُبُّون اللَّهيبَ بكلِّ ما
وجدوا..، ليشوُوا فوقَهُ أشلائي
ومضُوْا يمدُّونَ الخوانَ، ليأكُلوا
لحمي، ويرتشفوا عليه دِمائي
إنّي أقول - لَهُمْ - ووجهي مُشْرقٌ
وَعلى شِفاهي بَسْمة اسْتِهزاءِ:
إنَّ المعاوِلَ لا تهدُّ مَناكِبي
والنَّارَ لا تَأتي عَلَى أعْضائي
فارموا إلى النَّار الحشائش، والعبوا
يا مَعْشَرَ الأَطفالِ تحتَ سَمائي

وإذا تـمـرّدتِ الـعَـواصـفُ، وانـتـشـى
بـالـهـول قَـلْـبُ الـقـبّـةِ الـزَّرقـاءِ
ورأيــتــمــونــي طــائــراً، مــتــرنِّــمــاً
فـوقَ الـزّوابـعِ، فـي الـفَـضـاءِ الـنـائـي
فارموا على ظلّي الحجارةَ، واختفوا
خَــوْفَ الــرِّيــاحِ الْــهــوجِ والأَنــواءِ
وهُـنـاك، فـي أمْـنِ البُـيوتِ، تَـطارَحُـوا
عــثَّ الــحــديــثِ، ومــيِّــتَ الآراءِ
وتـرنَّـمـوا - مـا شـئـتـمُ - بِـشَـتَـائـمـي
وتــجــاهَــرُوا، مــا شــئــتــمُ، بِـعـدائـي
أمــا أنــا فــأجــيــبــكــم مــن فــوقِــكــم
والـشـمـسُ والـشـفـقُ الـجـمـيـلُ إزائـي
مَـنْ جـاشَ بِـالـوَحْـيِ الـمـقـدَّسِ قـلـبُـه
لـم يـحـتـفِـلْ بـفـداحـة الأعـبـاءِ

تأمّل معي القصيدة! إنها خلاصة ما جرى، وسيجري من ثورة، ومن يسطو عليها! ومشككٌ فيها، كما جرت العادة! لكنّها تبقى ثورات، و«عربات التاريخ»، بحسب ما علّمتنا الماركسيّة. إن هذه القصيدة، تنبئ أيضاً، بما سيتعرض له البوعزيزي من طعن وتشكيك وتشويه، على أنه مختلّ عقليّاً أو له سوابق في الإجرام أو ما شابه ذلك، كجزء من عمليّة تشويه ثورة تونس. إن الشابي، حين كتب هذه

القصيدة سنة 1933، كان لسان حال تونس الآن. تونس الثورة وما بعدها. كان لسان حال بروميثيوس تونس.

عزيزي هاغوب...

لقد بكى البوعزيزي مريراً، أمام الناس، في سوق الخضار، ورجال الشرطة يصادرون عربته وخضاره، ويعتدون عليه بالضرب والإهانة. حياة هذا الشاب، هي خلاصة حياتنا جميعاً. لكنّه كان أكثر وعياً، أكثر عمقاً، أكثر جرأةً ونبلاً في رفض هذه الحياة الخانعة، وهذه الأقدار اللعينة.

الآن، في هذه اللحظة، كل خليّة من جسدي، تبكي مع بكاء البوعزيزي. قيل الكثير عنه وعن عائلته، وأنه تيتّم في سنّ الثالثة بموت والده، فتزوّجت أمه من عمّه. أجبره ضنك العيش والفاقة على العمل في العاشرة من عمره، إلى جانب الدراسة التي لم يكمل المرحلة الثانويّة منها. حاول التطوّع في الجيش، والعمل في وظائف أخرى، إلّا أن كل محاولاته باءت بالفشل. كان يجوب شوارع مدينته، سيدي بوزيد، سيراً على الأقدام، دافعاً عربة الخضار والفواكه، كي يكسب قوت عائلته. وفجر يوم 17/ 12/ 2010، وفي طريقه إلى سوق الخضار، استوقفه عناصر الشرطة، لمصادرة بضاعته. حاول عمّه إنقاذه والفكاك من عناصر الشرطة، فذهب إلى مسؤولهم مُشتكياً. استجاب الرجل، وأمر الشرطية فادية حمدي بتركه، فأذعنت للأمر، وهي تكيد له. وعادت إلى السوق، مرّة أخرى، وبدأت بمصادرة فاكهة البوعزيزي. ومع اعتراضه على ذلك، دفعته وضربته بهراوتها. أثناء أخذها للميزان من العربة، منعها

البوعزيزي مجدداً، فأوقعوه أرضاً، هي وشرطيان مرافقان لها. بعدها، صفعته الشرطية على وجهه، وصفعت بذلك كل التوانسة، وبصقت عليه، كأنّها تبصق على كل التوانسة وعلينا جميعاً! أجهش المغدور بالبكاء من شدّة العجز والمرارة والألم والانكسار الداخلي العميق.

هذه الأحداث، تمرّ الآن في خيالي كشريط سينمائي. أعي بأنك تعرفها، ولكن، استحضرتها، لئلا ينال منها النسيان لدي.

حاول أن تتصوّر نفسك مكان البوعزيزي، وأنت مشلول القدرة أمام ردّ جبروت الظلم وطغيانه جهاراً نهاراً، ماذا ستكون ردّة فعلك؟!

امتزج كلامه بدمعه، بصوته، بألمه، وهو يصرخ في وجه الشرطيّة: لماذا تفعلين بي هذا؟ أنا إنسان بسيط، لا أريد سوى العمل؟!

أتخيّله الآن، أمام عيني، وسط السوق، وقلبي ينفطر عليه، ويعتصرُ ألماً وغضباً.

لجأ مرّة أخرى إلى الشكوى لدى السلطة، فلم يلقَ آذاناً صاغية. لم يأخذ أصدقاؤه تهديده بحرق نفسه احتجاجاً على ما تعرّض له، على محمل الجد، لحين وقوف البوعزيزي أمام مبنى البلديّة التي تمثّل السلطة وجبروتها وظلمها وطغيانها، وسكب على نفسه الوقود، وأضرم النار بجسده. وبذلك، أضرم النار بالنظام السياسي، ودستوره وقوانينه، إذ لم يكن أمامه وسيلة احتجاج على هذه الحياة، إلّا وضع حد لحياته.

أحسُّ الآن بنيران البوعزيزي تلثم جسدي أيضاً. تحرق مساحات شاسعة من العتمة والصقيع اللامتناهي في أعماقي. أحسّ بدمي يغلي، والقشعريرة تسري في أوصالي، من رأسي حتّى أصابع قدميّ. تنتابني رعشة غريبة، هي خليط من الألم واللذّة والدفء، كأنّني أنسلخُ من حالة إلى حالة.

في هذه اللحظة، أتصبّب عرقاً، كأنني محموم. عيناي مغرورقتان، وأنا أكتب لك. تشتبك الكلمات والأسطر، على شاشة الكمبيوتر، أمام عينيّ.

حاول الأهالي إطفاء نار البوعزيزي، لكن طفّايات الحريق لم تكن تعمل. اتصلوا بالشرطة، لكنّها لم تأتِ، رغم أن الحادث أمام البلديّة! ولم تصل سيارة الإسعاف إلّا بعد مضي ساعة ونصف على الحريق! وكأنّ الأقدار المتربّصة بهذا الشاب تقول: أيقونة الثورة، يجب أن تموت، حتّى تتأجج نيران الثورة، ويأخذ التاريخ مجرىً وسياقاً آخر، بعكس ما اختطّ له الطغاة. ربما عزائي الوحيد، أن البوعزيزي لن يشهد امتطاء الانتهازيين والوصوليين للثورة والسلطة، كما جرت العادة في كل ثورات العالم، لئلا ينتابهُ الندم على ما فعله بنفسه!

نعم، هاغوب...

إن ما فعله البوعزيزي، هذا البائع البسيط، الفقير، البائس، لا يقلّ أهميّة عمّا فعله كل رجالات عصر النهضة والتنوير في أوروبا. هكذا يولد البطل الشعبي، من رحم الحرمان والتهميش والفاقة والعوز. حادثة البوعزيزي، دفعتني للخوض في التاريخ والبحث عن حالات احتجاج مماثلة، عبر إضرام النار في الجسد، بحيث تكون

العمليّة ذات خلفيّة سياسيّة واجتماعيّة، فلم أجد لدى العرب نماذج بهذا الخصوص. بل وجدت حالات مماثلة موجودة لدى الأكراد، حيث أضرم قياديون من حزب العمال الكردستاني النار بجسدهم، في عيد النوروز 21 آذار 1982 يتقدّمهم مظلوم دوغان، في سجن دياربكر، احتجاجاً على التعذيب، وأن خيار المقاومة هو السبيل الوحيد للحياة، فلحق به أربعة من رفاقه بإضرام النار بأجسادهم في اليوم التالي. واستمرّت هذه الظاهرة لتصل إلى إضرام طالبة كلية الطب، زكية آلكان، المنتمية للحزب نفسه، النار بجسدها على الأسوار التاريخيّة لمدينة دياربكر في تركيا سنة 1990، احتجاجاً على الأوضاع السيئة للأكراد في تركيا. ثم استمرّ الأمر سنة 1999 حين اعتُقل أوجلان، حيث أضرم العشرات من الكرد النار بأنفسهم احتجاجاً على ذلك.

لكن، حالة البوعزيزي تبقى مختلفة، ولها تأثيرها العميق، الذي سيتواصل. وأنا واثق بأنه سيصلنا هذا اللهيب. وبل كان يجب أن يكون البوعزيزي سوريّاً وليس تونسيّاً. لأن الاستبداد والفساد والإرهاب الذي عشناه ونعيشه في سورية، أفظع وأبشع مما عاشه التونسيون بألف مرّة.

ربما تستغرب، كيف أكتب هذه العبارات، وأرسلها لك عبر الإيميل، وسط الرقابة الشديدة على الإنترنت هنا؟! يا أخي، من قضى 15 سنة من عمره سجيناً، لم يعد يهمّه ما سيلحق به، خاصةً بعد ما جرى ويجري في تونس من ثورة، أشعلها البوعزيزي، دون أن يدري أنه سيصبح أيقونة الجسارة والجرأة الثوريّة، التي أطاحت بجبن وخذلان المثقفين والمنظّرين وأرباب ترف الكلام والفكر. واقتلعت

صنماً آخر، من الأصنام الجاثمة على صدر الشعوب العربيّة منذ عقود. دون أن أنسى أن مصر أيضاً، تغلي منذ حادثة قتل الشاب خالد سعيد على أيدي عناصر الأمن.

مات بروميثيوس، وأمات فينا الخوف وابتلاع الذلّ. مات بروميثيوس، وأحيا فينا الأمل بالحياة، والإحساس بأننا يجب أن نعيش أحراراً، ونموت أحراراً.

نيران البوعزيزي، وإطاحتها بنظام بن علي، أذكت في أعماقي الرغبة في الكتابة. خيالي متأجج، وأفكاري تتزاحم. كتبت بضع فقرات شعريّة، ومقالة نشرتها لي صحيفة «الحياة»، يوم أمس، أرسلها لك للاطلاع...

عن الشعب... إذا أراد يوماً الحياة

فاتحَ الشعب التونسي العالم، في مستهلِّ هذه السنة، بانتفاضته، وقطف أبرز ثمارها. ووسط حال القنوط والخمول العارم في العالم العربي والشرق الأوسط، لجهة اليأس من عمليّة التغيير من الداخل، بديهيٌّ أن يكون للحدث التونسي وقع الزلزال الذي أطاح بالكثير من اليقينيّات، بالتزامن مع إطاحته بالنظام الاستبدادي الحاكم. وبالتالي، ما قام به الشعب التونسي، لم يكن مفاجأة وحسب، بل هديّة عظيمة للشعوب العربيّة والشرق أوسطيّة، تستوجب الكثير الكثير من التأمّل والتحليل بعمق. ذلك أن النظم الاستبداديّة في العالم العربي، نجحت، أيّما نجاح، في توريط مجتمعاتها، بالمساهمة

العظيمة في إنتاج وإنعاش وتغذية الاستبداد الحاكم لها، والفساد المستشري فيها.

بعض التحليلات السريعة تعزو نجاح انتفاضة الشعب التونسي إلى التجانس القومي والديني والمذهبي في النسيج الاجتماعي التونسي. وهذا صحيح. ولكن صحيحٌ أيضاً، أن المجتمعات ذات التنوّع القومي والعرقي والديني، هي أيضاً، نجحت انتفاضاتها في اقتلاع النظام الاستبدادي الحاكم لها. التجربة الإيرانيّة، التي أصبحت في ما بعد، شيعيّة - فارسيّة - خمينيّة، في الأساس كانت وطنيّة، شاركت كل أطياف الشعب الإيراني، من فرس وكرد وعرب وأذريين. . . ، وكل تفاصيل المشهد السياسي الإيراني، من شيوعيين وقوميين وليبراليين ومتديّنين، في صنع الحدث الذي أطاح بنظام الشاه.

في العراق أيضاً، عام1991، كانت الانتفاضة الشعبيّة آنئذ، عربيّة - شيعيّة وكرديّة - سنيّة. مآل الفكرة، أحد أسباب تكلل الحدث التونسي بالنجاح، أن زين العابدين بن عليّ كان مستبدّاً، إلّا أنه لم يكن طاغية. ولو كان بن عليّ طاغيّة، لفعل ما فعله صدّام في حلبجة والأنفال.

بالتأكيد ستكون للحدث التونسي ارتداداته في العالم العربي. وبالتأكيد أيضاً، أن هذا الحدث أنعش الآمال لدى الشعوب العربيّة في العديد من البلدان الشرق أوسطيّة التي تعيش في كنف الفساد والاستبداد منذ عقود. لكن، ما هو مفروغ منه، أن نخب السلطة في هذه البلدان، ستسعى لتشويه الحدث، والترويج لأن هذا البلد العربي، ليس بتونس، ونظامه «الوطني العادل والآمن» ليس بنظام

زين العابدين بن عليّ... وهكذا دواليك. وستتصدّر عبارات ممجوجة، من قماشة «الصراع ضدّ إسرائيل وأميركا والمخططات الإمبرياليّة، خير من المطالبة بالديموقراطيّة والحريّة...» ستتصدّر واجهة الإعلام في تلك البلدان، بغية حرف أنظار الشعوب عن التطوّرات، وإعادتها إلى جادّة السُّبات والتنويم المغناطيسي، وإلى حالة استمراء الظلم والجور اللاحق بها باطناً، والعودة إلى حالة اليأس السلبي الذي يعطي دفعاً للاستبداد والفساد نحو المزيد من الديمومة والاستمرار والانتعاش. وفي الوقت عينه، سيدفع هذا الحدث بالنظم الاستبداديّة في العالم العربي، إمّا نحو إجراء بعض الإصلاحات الطفيفة، الإسعافيّة، وربما التضليليّة، بغية تفريغ كمون شحنة النقمة والمقت من حالها المزرية المتدهورة وتأثّرها بالحدث التونسي، أو أن هذا الحدث، سيدفع تلك النظم التوتاليتاليّة إلى المزيد من التشدد والترغيب والترهيب، لإفهام شعوبها بأنها أمام خيارين، لا ثالث لهما: «إمّا النظام الحاكم أو الجحيم». وإرسال رسالة مفادها، لا أحد يمكنه أن يمنّي النفس باستيراد نسخة من الحدث التونسي الى أيّ بلد عربي آخر.

وإذا تكررت حادثة الشاب التونسي الذي أضرم الناس بجسده احتجاجاً على الأوضاع المعيشيّة السيّئة في بلد عربي آخر، لن تدّخر وسائل إعلام هذا البلد وسعاً في تشويه الحدث، وتلفيق التهم لهذا الشاب، على أنه مختلّ عقليّاً، أو مجرم هارب من العدالة...، كل ذلك، بداعي إفراغ الحدث من رمزيّته وعمقه وطاقة تحريضه على التمرّد.

لقد حاول الشعب التونسي ترجمة قصيدة شاعره الكبير أبي قاسم

الشابّي، ومنها البيت المعروف «إذا الشعب يوماً أراد الحياة/ فلا بدّ أن يستجيب القدر». والسؤال هنا: كم من الجهد ستبذله النظم الاستبداديّة وحواشيها الثقافيّة بغية عرقلة استجابة القدر لرغبة الشعوب العربيّة، وفي مقدّمتها الشعب التونسي!؟

كاتب سوري.

معذرةً منك، صديقي العزيز، لقد أطلت عليك في رسالتي هذه. وددت أن أشاركك ألمي وحزني على موت البوعزيزي، ولحظات الأمل والفرح التي أعيشها وأنا أرى تونس تنتفض وتثور وتقول: الشعب يريد إسقاط النظام، وأسقطه بالفعل.

مع التحيّة والاشتياق

كاترين دو وينتر

على عجل، وبلهفة مُتعثّرة الخطى، وضعتْ حقيبتها الصغيرة على الطاولة. وصافحتْه بيدٍ قلقة، مرتعشة تتوسّل الاعتذار. جلستْ بحذر على الكرسي، مصدرةً تنهيدةً عميقة، انتهت بسعالٍ خفيف. وبصوتٍ متهدّج، يلتمس التبرير والتقاط الأنفاس في آن، اعتذرت منه على التأخّر عن الموعد. فزحمة المواصلات في بروكسل، كافية لتعطيل الحياة، وليس فقط تأخير اللقاءات والتخلّف عن المواعيد المتّفق عليها. مضى شهر على آخر لقاء بينهما. الوعكة الصحيّة التي ألّمت بها، حالت دون مشاركتها في الاعتصامات، كالعادة. عانت من ألم شديد في الظهر. وبقيت في المستشفى ثلاثة أيّام. نصحها الطبيب بالمكوث في المنزل لمدّة شهر، وتجنّب الإجهاد والتعب. لذا، لم تشأ الردّ على الإيميلات والاتصالات، إلّا في حالات الضرورة القصوى. إذ إنها ما كانت تريد إشغال الناس والأصدقاء بمرضها.

هي الآن، تشعر بتحسّن حالتها. فكتبت لولات إيميلاً، اقترحت فيه أن يلتقيا هنا، في هذا المقهى الشعبي، للحديث حول حياتها، استجابةً لطلبهِ بالاستماع إليها، ولتحقيق رغبتها في ذلك أيضاً.

قطع السُّعال عليها حديثها. فناولها ولات كوب ماء، وقال لها:

- صحّة.. صحّة... أنا من ينبغي عليه الاعتذار، لأنني أتعبتك معي. هل تأذنين لي بتسجيل صوتكِ، أثناء الحديث؟

- بكلِّ سرور.

- لنبدأ من الطفولة، حيث التراب الأول والسماء الأولى والبيت الأول...

تنهّدت، رافعةً رأسها، ناظرةً إلى السقف، ومع إطلاق ابتسامةٍ خفيفة، ذكرت أن طفولتها كانت جيدة، رغم ظروف الحرب العالمية الثانية. عاشت مع أختها التي تصغرها ووالديها، في أطراف مدينة «كورتريك». وقتذاك، كانت تتكلّم الفلامانكيّة فقط، ولا تعرف الفرنسيّة مطلقاً. تذهب مشياً إلى المدرسة التي تبعد عن بيتها مسافة تزيد عن كيلومتر. والدها يعمل محاسباً وأمّها، بعد الزواج، تركت عملها كسكرتيرة، وصارت ربّة منزل. لم تكن تعرف بالضبط؛ هل هي التي تركت العمل؟ أم والدها أجبرها على ذلك؟

المهم، اشتروا المنزل الذي سكنوه بنقود جدّها وجدّتها اللذين كانا يتدخّلان في كل شيء. ما زال بيتها موجوداً في «كورتريك» حتّى الآن. وآخر مرّة مرَّت به، كان قبل سنتين. توقّفت أمامهُ، واستحضرت شريط الذكريات، بشكل عشوائي. كان منزلاً جميلاً جداً، مطلاً على الشارع، وله حديقة خلفيّة، مساحتها نحو مئة متر مربّع. الطابق الأرضي، يضمّ الصالون والمطبخ، الحمام ودورة المياه. وفي الطابق الثاني، أربع غرف، ثلاث منها للنوم، غرفة لوالديها، وأخرى لها ولأختها، الثالثة استخدمها والدها كمكتب له، والرابعة لجدّها وجدّتها، حين يحلّان ضيفين عليهم. بينما العليّة متروكة كمخزن للأغراض الزائدة.

خلال فترة الحرب، كان والدها يربّي الدجاج والأرانب، ويزرع بعض الخضروات في الحديقة، إلى جانب وجود شجر التفاح، والبرتقال. ما يعني أن ظروفهم كانت جيّدة، قياساً بفترة الحرب. في تلك الفترة، كان من الصعب جدّاً تأمين السكّر أو السمن أو اللحم، باستثناء من يربّي في منزله الدجاج أو الأرانب، كحال كاترين وأسرتها. تذكّرت أنه كان لديهم راديو قديم، يسمعون عبره الأخبار من إذاعة بريطانيّة تابعة لمناهضي ألمانيا والمقاومين لنظام هتلر. كانت أمّها تستمع دوماً لهذه الإذاعة أكثر من والدها. وذات يوم، قام الأب باستبدال الراديو بكيلو زبدة. جنّ جنون الأمّ، وحدثت مشاجرة بينهما، على إثرها بكت والدتها كثيراً على فراق صديقها الراديو الذي كان نافذتهم الوحيدة على العالم وأخبار الحرب!

مع بداية الحرب، كان عمرها ثلاث سنوات. وحين انتهت، بلغت الثانية عشرة. رأت من النافذة الطائرات تحلّق على علوّ منخفض، وتُسقط القنابل على «كورتريك»، ثم تسمع دويّ انفجارها المزلزل للأرض. داهم الجنود الألمان منزلهم. فأصيبت بالذعر وبكت من الخوف. حملها أحد الجنود بين ذراعيه وقبّلها، وصار يمسح دمعها، ويُبعد شعرها المبلل بدمعها، عن وجهها، ويهدّئ من روعها، ويطبطب على ظهرها قائلاً: لا تبكي يا طفلتي الحلوة، لا تبكي. لدي طفلة جميلة مثلك تعيش في «آخن».

في اليوم التالي للمداهمة، حزموا بعض الحقائب، وهربت مع عائلتها إلى «أوستند»، حيث البحر، لأنه في الحرب العالميّة الأولى، كانت هنالك ملاجئ حصينة تحت الأرض المغمورة بمياه البحر، للتمويه، لم يستطع الألمان الوصول إليها. وظنّ الناس أن

السيناريو نفسه سيتكرر مجدداً، وسينجون من الاحتلال الألماني، في الحرب الثانيّة! ولكن في ما بعد، اعتاد الناس على ظروف الحرب، وبدأوا يبحثون عن طرق التكيّف معها. لذا، عادوا إلى «كورتريك»، لأن سنوات الحرب طالت أكثر مما كانوا يتوقّعونه. كانت لديها لعبتان، حاولت أخذهما معها أثناء الهرب إلى «أوستند». زجرتها أمها، وقالت: «واحدة فقط لك ولأختك». وأمسكت اللعبة بعنف، ورمت بها إلى داخل حديقة المنزل. ما زال مشهد اللعبة وهي تطير في الهواء وتصطدم بأغصان الشجر وتسقط داخل السور، عالقاً في مخيّلتها. بعد عودتهم إلى المنزل، كانت اللعبة في مكانها، ملطّخة بالوحل.

في تلك الفترة، لم تتوقّف عن الذهاب إلى المدرسة. ذهبت إلى المرحلة التمهيدية للمدرسة، «الروضة»، حتى بلغت السادسة، ثمّ إلى المدرسة الابتدائيّة. أحبَّت المدرسة كثيراً، وقرأت الكتب المخصصة للدراسة كاملةً. لم تكن لها تلك العلاقات والصداقات الكثيرة وقتها. فقط صديقة وحيدة تتواصل معها وترتاح إليها. بعد انتهاء الحرب، انتقلوا إلى بروكسل، لأن أمّها لم تستطع تحمّل تدخّلات جدّها وجدتها في شؤونهم، رغم أنهما يعيشان في قرية تبعد عن منزلهم 10 كيلومترات. وفي كل خلاف ينشب بين أمها وجدّتها أو جدّها، كان أبوها يقف مع والديه، قائلاً لأمها: إنهما على حقّ، وأنت المخطئة!

هنالك سبب آخر لترك والدَيها منطقة «كورتريك»، هو أن المستقبل وقتها كان للمناطق الفرنسيّة في بلجيكا، وليس للمناطق الفلامانكيّة. وحين وصلوا إلى بروكسل، ذهبت إلى المدرسة

الفرنسيّة، وفقدت لغتها الأم هناك. الآن، وفي هذه السنّ المتأخّرة، تحاول كاترين استعادة هذه اللغة، عبر الذهاب إلى دورات تعلّم الفلامانكيّة!

في فترة الطفولة أو المراهقة، أثناء تواجدها في بروكسل وذهابها إلى المدرسة، لم تنشأ لديها صداقات جديدة مع فتيان في عمرها. ولم يثر إعجابها أي شاب. لأن عائلتها كانت متديّنة ومحافظة. كانت ترتاد الكنيسة كثيراً. وأثناء حضور القداديس، كان هنالك مجموعة شبّان يساعدون الأسقُف، فوقعت في حبّ شاب من ضمن هذه المجموعة. كتمت حبّها، ولم تفاتحه بالأمر. لأنها ظنّت أنه مهتمّ بفتاة أخرى.

لا تعرف لماذا لم تسأل نفسها؛ أن هذا الشاب، كان ضمن جوقة الشمامسة. وربما يختار طريق الرهبنة؟ فلماذا تقع في حبّ شخص متديّن، ربما لا يريد الزواج؟! أحبّته، وكانت تتحدّث إليه بخجل. لكن نظراتها إليه، لم تكن بريئة. كانت نظرات عاشقة. ما يعني أنها ارتكبت الخطيئة، ضمن الحرم الكنسي، ومع شخص متديّن! وترددها الكثير على الكنيسة، لم يكن حبّاً في الدين والتديّن، بقدر ما كان حبّاً في ذلك الشاب!

وبالفعل، سلك ذلك الشاب طريق الرهبنة. وعرفت كاترين عنه أشياء كثيرة. فبعد أن صار أسقفاً كاثوليكيّاً مشهوراً، انتقل إلى إيرلندا. وسَرت حوله شائعات كثيرة جداً، تفيد أحدها أنه كان على علاقة حميمة مع راهبة. وشائعة أخرى أنه من المثليين، وأنه كان ضمن المعتدين على الأطفال! وشائعة ثالثة تقول: إنه ترك سلك الكهنوت والرهبنة، وصار من كبار المجرمين في بلجيكا، وقُتل أثناء

مشاجرة جرت بينه وبين أحد زعماء المافيا البلجيكيّة في أحد بارات القمار.

لكنها لا تعرف أين الحقيقة، وسط كل هذه الشائعات؟ ولا تعرف أيضاً لماذا لم ينتبها الندم على تلك المشاعر تجاه ذلك الشاب! فقط تأسّفت على خاتمته المثيرة للجدل والشائعات. ساورها ظنّ مفاده؛ أنها لو اعترفت له بحبّها، لربما تغيّر مجرى حياته، ولما انتهت هكذا. كانت متديّنة في البداية. وبسبب قراءاتها الكثيرة، تركت الدين. كانت تأخذُ معها الكتبَ والخبز إلى عليّة البيت، وتقرأ كثيراً. أخبرها رجال الدين الكاثوليك عن لائحة بعناوين الكتب الممنوع قراءتها، على أن ذلك حرام، ويؤدي إلى الضلال والكفر وعقاب اللّه. فسألت نفسها: لم تكن الكتب والمجلات الممنوعة عن الجنس والإباحيّة؟ فلماذا قراءتها حرام؟! كل ذلك أثار فضولها، وحاولت كسر المحظور وقراءة أغلب هذه الكتب. كان عمرها حينئذ نحو 15 سنة. كانت خجولة. وقررت أن تبقى عذراء لحين الزواج. وأوّل رجل تمارس معه الجنس، سيكون زوجها أو الحبّ الكبير الذي يستحقّ جسدها ومشاعرها. لكنها لم تلتزم بذلك. فأول تجربة جنس، كانت سخيفة جداً. حين تتذكرها الآن، تنفجر من الضحك.

كاترين مقتنعة بأنه لا يوجد شيء اسمه الحب العذري. مشاعر ونظرات الاشتهاء من كلا الطرفين هو جنس. ويبقى فضّ البكارة أو فقدان الفتاة لبكارتها، أثناء ممارسة الجنس أو بطريقة أخرى، هو تحصيل حاصل. وأن كل حبّ هو جنس، ولكن ليس كل ممارسة للجنس هو حب. الحبّ هو لذة ومتعة جنسيّة روحيّة مستمرّة، تثير

الخيال وتبقي على المشاعر مشتعلة ومتأججة، وتعطّل التفكير بأمور أخرى. بينما الجنس بدون حبّ، هو محاولة الحصول على لذة عابرة، ربما يجدها المرء، أو يخفق في ذلك!

الشعراء والشاعرات، حين يعبّرون عن حبّهم ومشاعرهم تجاه حبيبهم، فإنهم يمارسون الجنس، حتّى ولو كان الأمر مجرّد كلام. كذلك الروائي، حين يقوم بتوظيف الجنس في روايته، فهو يمارسه، عبر الكتابة. نفس الأمر بالنسبة للفن التشكيلي أو السينما...

قاطعها ولات، مستغرباً، متسائلاً:

- أليس في هذا الرأي ثمّة تطرّف عبر تعميم إطلاق الحكم، يعيدنا إلى مقولة دينيّة منسوبة للمسيح، مفادها «من رأى منهم امرأة، واشتهاها، فقد زنى بها»؟ ولا تنسي أنكِ ذكرتِ ابتعادكِ عن الدين؟!

- لا. أستندُ في رأيي هذا إلى التحليل النفسي، الفرويدي، وليس إلى المقولة المسيحيّة، الواردة في الإنجيل، باعتبارها كلام المسيح. لو تمّ ترديد كلام فرويد على منابر الكنائس، لألفي سنة، لصار أقوى وأكثر ترسّخاً من كلام المسيح.

استغرب ولات من جوابها المحكم، فشعر بالحرج. وحاول تغيير الموضوع بأن سألها عن أوّل سفرة لها خارج بلجيكا؟ فذكرت كاترين أنها سافرت مع خالها وزوجته إلى المغرب، وعاشت في مدينة القنيطرة المغربية، على ساحل الأطلسي، سنة كاملة. كانت المدينة معسكراً كبيراً وقاعدة جويّة للأمريكيين، يقطنها نحو 10 آلاف جندي أمريكي، بحيث أصبحت ثاني أكبر قاعدة جويّة أمريكيّة خارج الولايات المتحدة، وقتذاك. هناك، رأت الطائرات الحربيّة، متوقّفة،

مصطفّة بهدوء وصمت المتأهّب، كقطعان من التماسيح العملاقة. ورأت كيف تقلع وتهبط على المدرج. عادت بها الذاكرة إلى أيّام الحرب، حين كانت تراها تحلّق في السماء، وتثير الرعب والذعر في نفوس الناس.

تعلّمت في القنطيرة، الإنكليزيّة، من خلال عملها في أحد النوادي التي يرتادها الأمريكيون.. وهناك أيضاً، رويداً، بدأت تكتشف العنصريّة.

كان ذلك صيف 1955. ذهبوا بالسيارة إلى المغرب، مروراً بفرنسا وإسبانيا. عايشت كاترين فترة استقلال المغرب، ورأت عودة الملك محمد الخامس من «مدغشقر». صحيح أنها أمضت قرابة سنة، ولكن بعد مرور خمسة أشهر، بدأت الصراعات والشجار بينها وبين خالها وزوجته. في البداية، صدّقت كلامهم حين كانوا يقولون: «العرب، قذرون. اليهود قذرون». وأثناء الحديث، كانوا يضعون الفرنسيين في المرتبة الأولى، ثم يأتي باقي الأوروبيين الألمان والطليان والإسبان في المرتبة الثانية، وبعدهم الاسكندافيين في المرتبة الثالثة، والأوروبيين الشرقيين، السلاف، الكروات، التشيك..، في المرتبة الرابعة، وبعدهم يأتي الأمريكيون، ثم الروس والرومان والمجر والبولونيون في المرتبة الخامسة... هكذا كان ترتيب البشر لديهم. ويأتي ترتيب العرب بعد اليهود. في البداية، كانت مع هذا الفرز والتصنيف، كونها طفلة تسمع هذا الكلام من أفراد عائلتها. ولكن، حين عرفت العرب واليهود، اكتشفت أن كلامهم غير صحيح.

في القنيطرة، ذهبت إلى المدرسة أيضاً. رأت التلاميذ مقسّمين

إلى ثلاث مجموعات؛ الفرنسيين، العرب واليهود. ذات يوم، تعرّفت على تلميذ اسمه ميناحين، قالت لصديقها الفرنسي: «هذا الولد لطيف وذكي، اسمه ميناحين». فأجابها: «نعم، ولكن من المؤسف أنه يحمل هذا الاسم!». في ما بعد، عرف أنه اسم يهودي.

أثناء عملها في النادي، تعرّفت على شاب، يعلّم الأمريكيّين العربيّة، اسمه أيالون. ذكرت ذلك لخالها، فتغيّرت ملامحه، واحمرّت عيناه وقال غاضباً: «هذا اسم يهودي. أرفض أن يخرج أحد من عائلتي مع شخص يهودي حتى ولو كان ذلك في مكان عام. يجب أن تقطعي علاقتك به». كان قاسياً جداً. وصدمها بموقفه هذا، وزاد من كراهيتها تجاهه.

سألها ولات: تتحدّثين عن منتصف الخمسينيات. يعني بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة واندحار النازيّة بعقد من الزمن؟ ثم إن خالك لم يكن ألمانيّاً منتمياً للحزب النازي حتّى يكون موقفه من اليهود بهذا القدر من الحقد والكراهية؟!

ضحكت كاترين وأجابت:

- صحيح. الحرب انتهت. ولكن مخلّفاتها وآثارها لم تنتهِ. ثم إنه لا يمكن حصر كراهية اليهود في الحزب النازي فقط. ظهر من يكرههم ضمن البلجيك والفرنسيين والإنكليز أيضاً. العنصريّة ونزعة التفوّق العرقي، لا دين لها.

تعرّفت كاترين على العنصريّة لدى البلجيك، في المغرب! وقتها، لم يكن هنالك صراع عنصري أو قومي بين الفلامان والوالون في بلجيكا. ولم يكن هنالك أفارقة، كون الكونغو مستعمرة بلجيكيّة!

وتذكر أنه لم يكن هنالك أجانب في بلجيكا، أو لم تكن تراهم هي. والحساسية التي كانت موجودة بين الفلامان والوالون، لم تكن بمستوى هذه الكراهية تجاه اليهود. وأول موجات الأجانب الوافدين إلى بلجيكا، كانت سنة 1956، حين حدثت ثورة في هنغاريا. من جهة أخرى، كان ممنوعاً دخول الأفارقة إلى بلجيكا، سواء من مستعمرة الكونغو أو غيرها، حتى ولو كانوا عبيداً، وعمال سخرة.

بعد مضي عدّة سنوات، وحين دخلت كاترين جامعة بروكسل، رفض أساتذة الجامعة أن يكون ستة كونغوليين من ضمن طلبة الجامعة. عايشت حقبة متخلّفة وعفنة من العنصريّة، ساهمت فيها حتى الكنيسة.

سمع القسيس بأن والدها يودّ إرسالها إلى المدرسة الثانويّة، فزارهم ممتعضاً مستفسراً منه: «لماذا تريد إرسال ابنتك إلى الثانويّة؟!». أجابه: «كي تكمل دراستها، وتدخل الجامعة»! فنهض غاضباً وقال: «الجامعة!؟ هل تريد لها أن تنحلّ، وتفقد إيمانها، وتبدأ بالتفكير في الأمور التي تحرّمها الكنيسة! أنت تحرّضها على اقتراف المعصية والآثام. وسيحاسبك الربّ على هذا الإثم!».

لم يهتمّ أبوها كثيراً بكلام القسيس، وذهبت إلى الجامعة. كان ذلك بعد عودتها من المغرب، بالطائرة، لأنها لم تستطع العيش مع خالها وزوجته هناك. خاصةً بعد منعه لها حضور حفلة، بحجّة تواجد العرب فيها.

تلك كانت أوّل مرّة تركب فيها طائرة. ارتفاع هدير المحرّك، أصابها بالذعر والهلع، وأعادها إلى الخوف الذي كانت تعانيه أثناء سماع صوت هدير الطائرات، وهي تقترب من أسطح المنازل، فيرتجّ

كل شيء. ومع سماع دويّ القصف، تعتبر أن النهاية حلّت، والموت يحيق بهم من كل الجهات. وما إن بدأت الطائرة بالصعود، أحسست وكأنّ قلبها يكاد يخرج من فمها. لم يغادرها شعور الخوف والقلق هذا، حتى أثناء استقرار تحليق الطائرة في السماء، ومرورها بين السحب. في حالة كهذه، من المفترض أن تنتابها أحاسيس حالمة، كمن يسير على الغيم، بما يتماهى وخيالات الطفولة، لكن سيطر عليها نعاس شديد الوطأة، ما عاد بإمكانها مقاومته. استسلمت للنوم، واستيقظت فزعة من زمجرة الطائرة وصوت ارتطام عجلاتها بالأرض والارتجاج المخيف الذي أحدثه ذلك.

استدانت ثمن التذكرة من خالها. وفور وصولها إلى بروكسل، بحثت عن عمل، كي تردَّ إليه نقوده. عملت نادلة في المطعم التابع لـ«بيتي شاتو»، مركز اللاجئين الذي يقيم فيه ولات. وقتها، لم يكن مركز سكن مؤقت للاجئين، بل كان مقرّاً وثكنة للجيش البلجيكي منذ 1850. يُقال إن الألمان، أثناء احتلالهم لبروكسل، استخدموه كسجن ومركز اعتقال وتحقيق وتعذيب. وحين عملت فيه كاترين، كان مركزاً عسكرياً لاستقبال المجنّدين الجدد، الذاهبين للخدمة الإلزاميّة. حينها، كانت مدّة الخدمة الإلزاميّة في الجيش، سنة ونصف، بحيث يأتي الجنود الجدد إلى «بيتي شاتو» لقضاء ثلاثة أيّام، ثم يتمّ فرزهم على قطعات الجيش البلجيكي. سنة 1986، تم تحويل هذا القصر المعسكر إلى مركز استقبال طالبي اللجوء السياسي.

الآن، كلما مرّت بجانب هذا المركز، تتقاطر إلى ذاكرتها صور تلك الأيّام. حقّاً لا تعرف كاترين؛ ما مشكلتها مع العسكر؟ ذلك أنها عملت في نادي للجنود الأمريكيين في القنيطرة بالمغرب؟!

وبعدها في مطعم الثكنة العسكريّة التابعة للجيش البلجيكي في بروكسل؟! بالفعل شيء لافت، لم تنتبه له كاترين! ربما هي المصادفة، لا أكثر، أو الأقدار. المصادفة من تدبير الأقدار. ربما تكون الكثير من الأحداث وتوابعها في حياتنا، في مكان وزمان ما، ولكننا نجهل أنّ ثمة ظروفاً ومشيئات أخرى، تتضافر وتتواطأ حتى تخلق لنا مصادفة، يكون لها الأثر البالغ على تحديد مصائرنا. حياتنا هي سلسلة لامتناهية من المصادفات. على مرّ التاريخ، كان هنالك دوماً للمصادفات دور هام ومؤثر في رسم الأقدار وتحديد مصائر القادة، الزعماء، الفنانين، الفلاسفة، الشعوب والأوطان. هكذا حاولت كاترين الإجابة عن هذا السؤال.

أثناء تواجدها في أمريكا، أيضاً عملت كمتطوعة اجتماعيّة في أحد السجون الأمريكيّة. منزلها الذي تملكه الآن، موجود في حيّ «مولنبيك» المغاربي ببروكسل، ولا يبعد كثيراً عن مركز «بيتي-شاتو» الذي عملت فيه.

بالعودة إلى عمل خالها في المغرب، ذكرت كاترين أنه رجل أعمال ثريّ جدّاً، يمتلك مزرعة طيور وديك رومي، ومصنعاً وبيوتاً وأرصدة في البنوك.

لم يكن المغرب البلد الأوّل الذي زارتهُ، خارج بلجيكا. إذ سبق لها أن زارت إسبانيا مرّات عدّة، أثناء العطل. طالت إحدى الزيارات لما يزيد عن سنة. درست أيضاً الإسبانيّة. وفي نهاية الخمسينيات، زارت إسرائيل أيضاً، وأقامت فيها.

حين سمع ولات ذلك، تساءل بفزع وتوجّس واستغراب: إسرائيل؟!

- نعم، إسرائيل. ما الغرابة في ذلك؟! ردّت كاترين، بصوتٍ ضاحك.

فجأةً، تسرّب وسواس إلى خاطر ولات، ألقى بظلال الريبة والشكّ حول هذه السيدة، التي بقيت في سورية 5 سنوات، ثم طردها النظام السوري. وصار يسأل نفسه: هل للأمر أيّة علاقة بزيارتها لإسرائيل؟ لكنه لم يفصح عما يجول في خاطره، وواصل طرح أسئلته، بشكل عادي، من قبيل: من نصحها بزيارة إسرائيل؟ ولماذا إسرائيل؟! ألم يقل لها أحد إن هنالك مشاكل وحرباً بين العرب واليهود؟!

وقتذاك، كان الوضع مختلفاً. بالإضافة إلى أن كل المعلومات التي لديها عن فلسطين، مصدرها اليهود، وتقول: «هنالك بلد صغير، جديد، ناشئ، يعمل بجدّ كي يثبت نفسه أمام العالم، وثمة من يمنع ذلك، ويعادي شعب إسرائيل». لم تكن تعرف فلسطين والفلسطينيين! المعلومات المتوفّرة لديها، آتية من البروباغندا الإسرائيليّة أثناء الحرب. هذا ما عرفته لاحقاً. ولم تكن تدرك شيئاً عن الفلسطينيين إلّا في ما بعد.

سافرتْ مرّتين، كانت الأولى سنة 1958. ذهبتْ بدافع الفضول والإعجاب بهذا الشعب الصغير الذي يحيطُ به الأعداء من كل جانب، ويحاولون الانقضاض عليه ونسف أحلامه وطموحاته، كما قيل لها. وعملت كمتطوعة في إحدى المزارع.

كيف تمّ ذلك؟ قرأت في إحدى الصحف أن إحدى الوكالات اليهوديّة تريد إرسال مجموعة تطوّعيّة، للعمل في المزارع

الإسرائيليّة، من دون راتب، فقط يؤمّنون لهم المسكن، المأكل والملبس. كل ذلك دعماً لهذه الدولة الجديدة.

أثناء زيارتها للمغرب، موقف خالها من اليهود، هو الذي شدّ انتباهها إليهم. فقرأت عدّة كتب عن اليهود، تاريخهم ومشاكلهم. وتعاطفت معهم، بخاصة بعد معرفتها تفاصيل الهولوكوست الذي تعرّضوا له من قبل النازية. كانت لها صديقة يهوديّة، صارحتها كاترين برغبتها في الذهاب إلى إسرائيل. استغربت، وأشارت عليها بضرورة مراجعة اتحاد الجمعيات الصهيونيّة. فعلت ذلك، ولقيت ترحيباً حارّاً منهم. وقال لها أحدهم: «أهلاً وسهلاً في بلدك». وحين أخبرته: «أنا لست يهوديّة»، اندهش، وجحظت عيناه، وانكمش على نفسه، ككومة قطن منفوش، سُكب عليه كوب ماء. وقال بتأفف: «لا، لا. . . صعب جداً، بل مستحيل، وغير ممكن»! قالت له: «أنا أريد الذهاب على نفقتي، ولا أريد منكم إلّا عنواناً، فقط عنوان». وأبرزت له الفيزا وتذكرة السفر بالسفينة. ولكنه رفض أن يعطيها أيّ عنوان.

اندهشت من موقف الموظّف في الجمعيّة اليهوديّة! ولكن لم يدفعها ذلك إلى العدول عن قرارها بزيارة إسرائيل. كان هنالك مقهى في بروكسل، يرتاده الطلبة، تذهب إليه بين الفينة والأخرى. تجلس بمفردها، وتحاول التحدّث مع الناس أحياناً. ذات يوم، جلست مع رجل، وصارحته بأنها ستذهب إلى إسرائيل، بعد نحو شهر، ولكنها لا تعرف أي عنوان في هذا البلد. فقال لها: «ليست هنالك أيّة مشكلة. عائلتي موجودة في إسرائيل، سأخبرهم بذلك، وأعتقد أنهم سيستضيفونك عندهم. اتركي لي عنوانك، وسيصلك الردّ».

بالفعل، قبل موعد الرحلة، جاءتها رسالة من إسرائيل، تقول فيها العائلة بأنها ترحّب بها. في ما بعد، عرفت أن ذلك الشخص الذي التقته في المقهى، كان يهوديّاً، وأستاذاً في جامعة بروكسل.

المهم، ذهبت إلى إسرائيل، ورأت الدولة الجديدة. كانت واقعة تحت تأثير الداعية اليهوديّة، ولم يكن وعيها ناضجاً بما فيه الكفاية. لم تكن سياسيّة أو صاحبة دراية وتجربة كافية لاكتشاف الحقيقة، والتأكّد من صحّة المعلومات التي تصلها. وبدأت تتكشّف لها تفاصيل المشهد، والحقائق تباعاً، بالضدّ من آلة الداعية اليهوديّة وتأثيرها. مثلاً، اتجهت مع شخص يهودي من أصل جزائري إلى السوق؟ كان يتحدّث مع الفلسطينيين باللغة العربيّة، كلاماً قاسياً ومسيئاً! سألته: «لماذا تفعل ذلك؟». مبديةً اندهاشها وصدمتها! أجابها: «هم كذا، ونحن كذا! وأنهم اعتدوا علينا، وأخذوا أرضنا ووطننا». أجابته: «أي أرض؟! أنت جزائري، وتعيش الآن هنا، وليس في الجزائر!؟». تفاجأ بإجابتها، ورمقها بحنق وصدمة، وقال: «هذه أرض أجدادي، أخذها العرب المسلمون منهم بالغصب، قبل ألفي سنة. ولذا، هرب أجدادي إلى الجزائر والمغرب وكل أصقاع العالم، تجنّباً للموت والهلاك».

لم تقتنع بإجابته. ولكنه أنساها، بكلامهِ، تصرّفه القاسي والعداوني مع الفلسطينيين. كانا يعملان معاً في حقول الخضروات وكروم العنب. لذا، تحاشت كاترين إثارة غضبه.

حينذاك، كان عمرها 22 سنة تقريباً. لم تبقَ هناك أكثر من تسعة أشهر، أحبّت العمل كثيراً، لدرجة أن الناس ظنّوا أنها يهوديّة! حتى أن أحدهم قال لها: «لماذا تذكرين أنك لست يهوديّة؟!».

نفس مشاعر الانتماء لإسرائيل سابقاً، تحسّ بها الآن حيال ما يجري في سورية، وتعيش هذه الدراما الداميّة والمؤلمة، كأنها سوريّة، مع مرارة العجز عن فعل أيّ شيء، يخفف الظلم والقمع والإرهاب عن السوريين!

كانت تريد البقاء هناك، والعيش في إسرائيل باستمرار. لكنها لاقت جفاءً وممانعة، بحجّة أنها لا تحمل شهادة جامعيّة، تؤهّلها للعمل والعيش في هذا البلد. قالت لهم: «سأعود مرّة أخرى للعيش في إسرائيل، بعد الحصول على إجازة جامعيّة من بروكسل»، وغادرت إسرائيل.

كل يوم مرّ عليها، وهي تحلم بالعودة إلى إسرائيل. وعادت إليها سنة 1961 لقضاء العطلة، لمدّة شهرين فقط، لأنها كانت تدرس في جامعة جنيف، كليّة الاقتصاد وإدارة الأعمال. تعرّفت فيها على فلسطينيين، حدثوها رواية مختلفة عن التي رواها لها اليهود في بروكسل وإسرائيل، بخصوص فلسطين وماذا حدث لها ولشعبها. ورغم ذلك عادت إلى إسرائيل، لأنها أرادت أن تعرف أكثر، وأن يحلّ السلام بين الشعبين. حتى ذلك الوقت، كانت محايدة، لا ضدّ العرب، ولا ضدّ اليهود. تعلّمت العبريّة أيضاً، ونسيتها. الآن، حين تتكلّم بالعربيّة مع ولات، تقفز إلى ذاكرتها كلمات عبريّة تشبه العربيّة.

أسباب كثيرة دفعتها لاختيار الدراسة في سويسرا. منها؛ الابتعاد عن أجواء بروكسل، وتقاليدها. وتغيير المكان والوجوه التي عرفتها. كما أن والدها لم يكن يستطيع تغطية نفقات دراستها. إلى جانب توفّر فرص العمل والدراسة معاً، في سويسرا، أكثر من بروكسل. كما أن

جامعة جنيف عريقة ومهمّة، وسويسرا بلد المصارف. في البداية، سكنت في حيّ «لي باكي» الشعبي الموجود بين محطة القطار وبحيرة جنيف، في غرفة سيّئة، رطبة، عبارة عن قبو، بنافذة واحدة تطلّ على رصيف شارع «فريبورغ»، متحمّلةً ضجيج المارّة والمحلات والمقاهي. أحياناً، كانت تظن أن الشروط الصحيّة المتوفّرة في زنزانات السجون السويسريّة، أكثر مما كانت تتوفّر في هذه الغرفة التي اضطررت للسكن فيها، بسبب رخص إيجارها. عملت في تنظيف المنازل والفنادق. بعد أن جمعت بعض النقود، اشترت آلة كاتبة، وصارت تعمل في تنضيد النصوص لدى بعض المكاتب. تحسّنت ظروفها الماديّة، فغادرت الحيّ للسكن في شقّة، كان يسكنها المعارض المغربي مهدي بن بركة، استخدمها كمخبأ له، بعد هربه من المغرب.

صُعِقَ ولات، عند سماعه هذا الاسم، وقال:

- مهدي بن بركة الذي اختطفته المخابرات المغربيّة، وقتلته تحت التعذيب في باريس؟

بأسف وألم، أجابت كاترين: «نعم، هو، ليس غيره».

صاحبة الشقّة قالت لها إنها المستأجر الثاني لهذا البيت، بعد شخص مغربي كان يسكن هنا، اسمه المهدي بن بركة. صاحبة الشقة كانت تعرفه، وحزينة جداً على اختفائه. فيما بعد، عرفت كاترين من الطلبة العرب في جامعة جنيف، معلومات أكثر عن بن بركة. كما عرفت حقيقة اختفائه، وضلوع «الموساد» في هذه الجريمة، عبر ما تناقلته الصحف من مصادر إسرائيليّة.

ذكر لها ولات أن لديه بعض المعلومات حول جريمة اختطافه

وتصفيته. وأن مُخرجاً سينمائيّاً فرنسيّاً استدرجه إلى مطعم بشارع «سان جيرمان» في باريس، بحجّة المشاركة في فيلم عن حركات التحرر الوطني. وأن شرطيين فرنسيين اختطفاه إلى منزل كان فيه مسؤول المخابرات المغربيّة، في عهد الملك السابق محمد الخامس.

ذكرت كاترين أنها تعرف تفاصيل أكثر، نتيجة معاصرتها، وقراءتها للصحافة الفرنسية والسويسريّة وقتذاك، وبحكم أن قضيّة بن بركة صارت جزءاً من ذاكرتها، لأنها سكنت في الشقة التي اختبأ فيها، لمدّة سنة تقريباً.

لم تستطع العيش في الشقّة، بسبب سماعها صوت بن بركة، ورؤيتها خياله، يجوبها. كانت شقة صغيرة، في الطابق الثالث، عبارة عن غرفة نوم وصالون، بالإضافة إلى الحمام، وشرفة تطلّ على الشارع. تكوّن لديها شعور بأن هذه الشقّة مسكونة بروح هذا الرجل، لذا بدأت البحث عن مسكن آخر، فوجدته وانتقلت إليه.

قتلوه بطريقة وحشيّة، تحت التعذيب الرهيب. حيث كانوا يطفئون سجائرهم في جسده، ويعرّضونه للصدمات الكهربائيّة، ويغطسون رأسه في الماء، كما قرأت في بعض الروايات. وبحسب بعض التسريبات التي تناقلتها وسائل الإعلام مؤخراً، أنه في كل مرّة يُخرجون رأس بن بركة من مغطس الماء، كان يشتم الملك المغربي، ويبصق في وجه جلاده، وزير الدفاع المغربي الجنرال محمد أوفقير. قالت كاترين.

قيل إن أوفقير كان يريد كشف حقيقة مقتل بن بركة، في حال تكلَّل انقلابه على محمد الخامس بالنجاح. وإنه من نصح بن بركة بالهرب خارج المغرب، لأن الملك اتخذ قرار تصفيته. وإن مسؤول

المخابرات أحمد الدليمي هو من قتله، بأمر من الملك. هكذا قيل. تساءلت كاترين، وذكرت أنها لسيت قاضي تحقيق، حتى تحقق وتفصل في هذا الأمر! ما تعرفه أن أوفقير تم إعدامه، وسجن الملك كل أفراد عائلته. بينما الدليمي مات في ظروف غامضة. وكلاهما متورطان في جريمة اختطاف بن بركة وقتله.

بقيت كاترين في جنيف تسع سنوات تقريباً. هنالك تعرّفت على العرب أكثر؛ مصريين، فلسطينيين، توانسة. أوّل صديق عربي تعرّفت عليه، كان شاباً مصرياً، ملامحه أقرب إلى الإسبان والطليان منها إلى المصريين؛ نحيل ببشرة حنطيّة، وتقاطيع وجهه متناسقة؛ خفيف الذقن والشارب، أنف رفيع وقصير، شفتاه رقيقتان، وجنتاه محمرّتان، عيناه عسليتان، وشعر أسود متماوج، اسمه خورشيد بيرقدار. عائلته تنحدر من أصول تركيّة. بعد انقلاب عبدالناصر على الملك فاروق، صودرت ممتلكاتهم ورُفِع لقب الباشا عن جدّه. خلق هذا لديه كرهاً شديداً للنظام الجديد. بعد محاولة اغتيال عبدالناصر في الاسكندرية سنة 1954، كان خورشيد من جملة الذين تم اعتقالهم بتهمة الانتماء للإخوان المسلمين والاشتراك في محاولة الاغتيال. بقي في السجن خمس سنوات، ثم أفرجوا عنه، لعدم كفاية الأدلّة. آثار التعذيب، من قلع الأظافر، وجَلد وحرق، كانت بادية على جسده. حكى لها كثيراً عن ظروف الاعتقال والتعذيب الرهيب الذي تعرّض له في السجن، ودموعها تنهمر، من شدّة التأثّر، فتضمّه إليها للتخفيف عنه. لم يكن يعمل شيئاً. من المفترض أنه طالب في كليّة الحقوق بجامعة جنيف. لكن ما كانت تراه يتردد على الجامعة كثيراً. قال لها: «إن أجواء السجن ما زالت مسيطرة عليه.

وسيتجه إلى التجارة بين سويسرا وتركيا ولبنان». كان لعائلته منزل جميل في أحد الأحياء الراقية بجنيف. ويبدو أنهم نجحوا في إنقاذ الكثير من أموالهم وتهريبها وإيداعها في البنوك السويسريّة.

ارتاد خورشيد المدارس الأجنبيّة الخاصّة في القاهرة. ويجيد الفرنسيّة والإنكليزيّة والتركيّة، إلى جانب العربيّة، بطلاقة. حسب ما ذكرته. تحدّث لها عن ارتياده المدرسة الإنكليزيّة في حيّ «غاردن سيتي» بالقاهرة. ودخل الكليّة الحربيّة، قبل انقلاب عبدالناصر، وكان شاباً متحمّساً لأفكار «الضباط الأحرار» بخصوص مكافحة الفساد وهدر الأموال وانتشار الفقر في البلاد، ولكن، بعد استهداف عائلته، واستملاك قيادات الثورة لقصور وممتلكات الأغنياء، تغيّر موقفه مئة وثمانين درجة من انقلاب عبدالناصر. وخاصة بعد تنحية محمد نجيب.

استغرب ولات من حديث كاترين عن تفاصيل التاريخ السياسي المصري، متسائلاً: «وكأنّك مصريّة!؟». فأجابته: «لا. ليس لهذه الدرجة. عمري 77 سنة. وأحبّ العرب كثيراً. جبت الكثير من البلدان العربيّة. قرأت الكثير من الكتب. وما زلت تربطني علاقات صداقة حميمة مع الكثير من العرب». ردّت ضاحكة، وعاودت كلامها عن صديقها المصري. وكيف تعاطفت معه، وتأثّرت بمعاناته، ودخلت معه في علاقة. في ما بعد، اكتشفت أنه غريب الأطوار. سادي في ممارسة الجنس. يميل إلى التعنيف والتعذيب. عصبي المزاج. لا يكترث لها كإنسانة يجب عليه أن يحترم أنوثتها ويمنحها الإحساس بالوجود. كان خصباً وغزيراً، لا يهمد. ممارسة الجنس معه، ورطة حقيقيّة، لا يمكن الفكاك منها، وتستوجب طاقة

تحمّل هائلة، افتقدتها كاترين. صحيح أن السجن أثّر كثيراً على نفسيّته، ولكن لم يؤثر ذلك سلباً على قدرته في ممارسة الجنس. لم يكن مريحاً أبداً، وكأنّه ينتقم من شيء ما، أثناء ممارسة الجنس!؟

حدّثها عن قصص حب، كلها انتهت بالفشل، وترك الحبيبة له. كان وحيداً، ولديه أختان فقط. ماتت أمهُ، وهو في العاشرة. فتزوّج أبوه من خالته التي تشبه أمّه. اعتنت به في البداية، وبعد أن أنجبت أطفالاً، باتت لا تكترث لها.

رويداً، بدأت كاترين تحتقر نفسها على هذا الوضع، وتتساءل: «ما الذي يجبرني على تحمّل هذه الحالة مع هذا الثور الهائج؟! إنه بحاجة إلى طبيب نفسي، وكتيبة من العاهرات، حتّى تنفكّ عقده النفسيّة والجنسيّة. أنا لست طبيبة نفسيّة، ولا عاهرة، حتّى أحتمل كل هذا الضغط! ولست قديسة، أضحّي وأتحمّل كل هذا التعنيف الجسدي والنفسي معه، أثناء ممارسة الجنس، كي أخفف عنه معاناته وآلامه والعذاب الذي لاقاه في سجنه وحياتِهِ؟! لماذا أرتضي لنفسي أن أكون سجينته وهو سجّاني؟!».

تأثّرتْ بحالته الإنسانيّة، على حساب تردّي حالتها وإهانة ذاتها وكرامتها! أجرت محاكمة لنفسها، وأصدرت الحكم بطرده من حياتها، وتركته لحال سبيله. كان قراراً صعباً ومؤلماً، لكنها تجاوزته، عبر التعرّف على شخص آخر، ملأ عليها حياتها سعادةً وفرحاً، ومنحها المبرر الحقيقي لوجودها.

حاول خورشيد الاتصال بها كثيراً ومراراً. لكنها صارحته برغبتها في الافتراق، وأنه يجب عليه التحلّي بأخلاق الفرسان، وأن يتقبّل ذلك، ويتركها وشأنها. في النهاية، صارا يلتقيان، دون أن يكترث

أحدهما للآخر. تأكّدت كاترين أنه لم يكن حبّاً، بل نزوة عاطفيّة، سببها تأثّرها بتجربة اعتقاله. وبعد مرور نحو سنة ونصف تقريباً، لم تعد تراه. أصدقاء مشتركون قالوا لها: إنه كان على خلاف مع بعض الأشخاص الإسلاميين المنتمين إلى الإخوان. وإنه هددهم بكشف حقيقة حادثة محاولة اغتيال عبدالناصر، لأن الإخوان كانوا ينفون علاقتهم بها.

لم تلاحظ أيّة علاقة له بالإخوان. وكونها بلجيكيّة، ولا علاقة لها بمجريات الأحداث في مصر وقتها، لم يكن يحدّثها إلّا عن سجنه وظروف التعذيب التي عاشها. لكن يبدي تذمّره من العرب، ويحدّثها عن خلافاته مع مصريين وفلسطينيين وتوانسة. لم يكن يصلّي أو يصوم. لم يحدثها عن الإسلام مطلقاً. لكن لم يكن يشرب الكحول كثيراً، ويكتفي بالبيرة.

لم يدفعك الفضول للبحث عنه، ومعرفة أسباب اختفائه. ولماذا تفعل ذلك؟ هل منحها لحظة حبّ حقيقيّة، خلال علاقته معها؟! ثم إنها صارت مشغولة، واحتلّ قلبها وكيانها إنسان آخر. شاب تونسي، طويل القامة، مفتول العضلات، بشعرٍ مجعّد، وعينين بنيّتين صغيرتين، اسمه كمال بلعارف البنزرتي، جاء مبتعثاً لدراسة الطبّ على نفقة الجيش التونسي في زمن نظام الحبيب بورقيبة، لأنه لم تكن هنالك كليّة طب في تونس وقتها. كانت مبهورة به، مفتونة بسماع صوته الشاعري الرجولي الرخيم، والتحدّث معه. كان عازفاً ماهراً على حباله الصوتيّة، بحيث يجعلها تنتشي لسماع صوته، حتى ولو كان الموضوع غير ذي أهميّة. يراقصها ويغنّي لها بالفرنسيّة والعربيّة. ويقرأ قصائد لشعراء فرنسيين وعرب. عشقتْ حتّى رائحة السجائر

المنبعثة من ثيابه. رائحة تعرّق جسده، تصيبها بالخدر والنشوة وتمنحها اللذّة العارمة. لا تعرف كيف تصف شغفها وولهها به؟! نظراته المنغرسة في كبد عينيها، وهو آتٍ بخطى واثقة، مترعة بالكبرياء، باتجاهها، تجعلها تحسُّ بانعدام الوزن، ولا تشعر بقدميها وهي تهرول نحوه. تعانقهُ كأنها عصفورةٌ شريدة، نخر البرد عظامها، وبلل المطر ريشها، أثناء بحثها عن مأوى، وحضن كيمي كان العشّ. كانت مهووسة بكل تفصيل من تفاصيله. صديقاتها كنّ يعاتبنها على مبالغتها في وصفه، وأنه شاب أقلّ من عادي، بل تميل تقاسيم وجهه إلى الخشونة والقسوة، وأنفه أفطس، وفمه كبير جداً. وشرهٌ في نظراته إلى النساء، كأنّه لم يرَ أنثى في حياته! تردُّ عليهنَّ: «خُذن عينيَّ وانظرن بها إلى كمال».

تعزّزت العلاقة بينهما، وضربت شجرةُ حبّه بجذورها في قلبها وروحها، ليتحوّل كيمي إلى الحبّ الكبير، الذي ما زال يمنح حياة كاترين مبرر الاستمرار والوجود. لكن، هذه القصّة لم تنتهِ بالزواج. لأن بورقيبة أصدر قوانين وتشريعات تمنع زواج الطلبة الذين يدرسون على نفقة الجيش من الأجنبيات.

- ولكن بورقيبة نفسه، أثناء دراسته في باريس منتصف العشرينات، تزوّج من أرملة فرنسيّة تكبره باثني عشر عاماً، وأنجبت له ابناً، وافترقا بعد 22 سنة؟! تساءل ولات.

- نعم. بورقيبة، رغم أنه درس علم النفس والحقوق في السوربون، وتأثّرَ بالثقافة الفرنسيّة، إلّا أنه مارس الدكتاتوريّة على شعبه. وحرّم على الطلبة التوانسة، ما حلَّله لنفسه!

- لماذا تحمّلين بورقيبة عدم انتهاء قصّة حبّك مع كمال بالزواج؟

لو كان يحبّك فعلاً، لتزوجك بعد انتهاء الدراسة، وتخلّصه من عبء المنحة ومساعدة الجيش التونسي له؟!

حرّك استفسار ولات ما يشبه الغضب لدى كاترين، كونها لا تريد سماع أي رأي سلبي يمسّ حبيبها كمال. فردّت بقليل من الانفعال:

- أقول لك: إنه يدرس بمنحة مشروطة من الجيش. يعني تحت رحمة الجيش، ومراقب من قبله. ولو ترك تونس وتزوجني، هذا يعني أنه يتحدّى نظام بورقيبة وجيشه. ثم لو نجا هو بنفسه وبقي في سويسرا، فهل سيترك نظام بورقيبة ومخابراته أهل كيمي وشأنهم؟!

كيمي، كما كانت تسمّيه، حدّثها كثيراً عن طبيعة وتركيبة نظام بورقيبة الأمنيّة، وأنه كان يلاحق معارضيه، واغتال خصمه السياسي صالح بن يوسف في ألمانيا، ما شكّل رعباً وذعراً حقيقيّين لدى كمال وكل من يفكّر في الخروج عن طوع وإرادة نظام بورقيبة وقبضته الأمنيّة.

عرفت كاترين الكثير من الأمور والتفاصيل عن الواقع التونسي، أثناء علاقتها مع كمال، وقراءاتها عن تونس والواقع الاجتماعي والسياسي في هذا البلد.

كمال، كان الحبّ العظيم الذي ما زال يملأ حياتها حتى الآن. ما زالا يتواصلان عبر السكايب والإيميل والفيسبوك. أصبح جنرالاً وطبيباً مشهوراً في تونس. تزوّج، وأولاده أيضاً تزوّجوا. هو الآن جدّ وله أحفاد كثيرون. ترسل له التهنئة في عيد ميلاده كل عام. وهو يبادلها ذلك. لم يبق من حكايتهما إلّا الذكريات الجميلة.

سبب آخر، جعلها تترك «كيمي» يعيش حياته، هو اكتشافها أنها

عاقر! كانت لديهما رغبة جامحة مشتركة أن ينجبا طفلاً، ويبقى زواجهما سرّاً، لا يعلنان عنه أمام السلطات التونسيّة. ورغم جولات ممارسة الحبّ، على امتداد سنتين، لم يحدث الحمل، مع وجود الرغبة النفسيّة والروحيّة في تحقيق ذلك. وتحت ضغط وإلحاح كيمي، راجعت كاترين طبيب أمراض نسائيّة، مشهوراً جداً في ذلك الحين، كان الطبيب الخاص للممثلة صوفيا لورين أيضاً، فأخبرها باستحالة حدوث الحمل. وأن هنالك فرصة لا تتعدى العشرة بالمئة، بعد إجراء عمل جراحي. اقترحت على كمال تبنّي طفل من ملجأ الأيتام، فرفض الفكرة. لأسباب خاصّة، تفهّمتها كاترين، منها أن الفحوصات الطبية أظهرت أنه قادر على إنجاب أطفال من صلبه. بالإضافة إلى أنه تربّى يتيم الأب والأم، ولا يريد أن ينقطع نسل عائلته! قُتِلَ والده سنة 1946، برصاص جندي فرنسي في مدينة بنزرت التي كانت قاعدة بحرية فرنسيّة. وقتها، ناهز عمره الثالثة عشرة. كانت أمّه حاملاً. بعد وضعها لطفلها، بسنة ونصف، ماتت هي أيضاً، فوقع عليه عبء أسرة مكوّنة من أربعة أشخاص، أختهُ شفيقة التي تكبره بسنة، وطفلين، والرضيعة مظلومة. تحت ضغط الفقر، تزوجت أخته من رجل يكبرها بخمس عشرة سنة، وأخذت معها الطفلة الصغيرة، وبقي الولدان في عهدته. كان يعمل ويدرس في وقت واحد، حتّى يؤمّن لقمة العيش لنفسه وشقيقيه. سافر إلى تونس العاصمة سنة 1951، ووضع الطفلين في ملجأ الأيتام، أسسته طبيبة تونسيّة ثريّة، اسمها توحيدة بن الشيخ. اضطر للعمل والدراسة معاً، ولاقى ظروفاً قاسية جداً. ولأنه لم يستطع دخول الجامعة، بسبب مصاريفها، بالرغم من تفوّقه، انتسب إلى الجيش، فانفتح

أمامه باب الحظ، وحصل على منحة لدراسة الطب في سويسرا سنة 1954. اندمج بسرعة في مجتمع الطلبة، ولفت الأنظار إلى تفوّقه. تحسُّنُ أوضاعه في سويسرا، عبر العمل والدراسة، جعله يفكّر في تأسيس أسرة من صلبه.

تذكّرت كاترين شيئاً، قفز إلى ذاكرتها فجأة. ذات يوم، رأيته في غاية الحزن والألم والكآبة. سألته عن السبب، فقال إن بيتهم في بنزرت تم تدميره بقصف الطيران الفرنسي، أثناء دخول بورقيبة في حرب مع ديغول في 1961. وإن نيران الحرب أطاحت بتلك الجدران التي تضمّ في جنباتها ذكريات الطفولة. فصارت كاترين تخفف عنه، وأنه لم يكن هنالك شيء جميل في الذاكرة، حتى يندم عليها المرء. إنها ذاكرة الفقر والعوز، الفاقة واليتم. وإن ما سيعيشانه من الأيّام، ستكون الأجمل، وستصبح الذاكرة التي تسكنهما حتى نهاية العمر. لكنه بكى من شدّة المرارة والألم. وهذه كانت أول مرّة رأت فيها كمال يبكي بحرقة بالغة.

ذات يوم، فاجأها بزيارة إلى بروكسل، والتقى بوالديها. حاول إقناعها بفكرة أن يتزوّجا في بروكسل، ويبقى الأمر سرّاً. في حين يتوجّه إلى تونس، ويتزوّج من امرأة تونسيّة، تنجب له أطفالاً. فرفضت الفكرة تماماً. واعتبرتها إهانة لها ولتلك المرأة. أثناء زيارته، حاول كيمي إغواءها لقضاء ليلة معه في الفندق، إذ كان شديد الاشتياق إليها. وكادت تسقط في مصيدة الشوق له أيضاً، لكنها تمالكت نفسها في اللحظة الأخيرة، احتراماً لوالديها. وقالت له: «حبّي لك، أكبر وأعمق من الجنس. مارسنا الحبّ في سويسرا، ما يكفي لألف عام».

لحسن طالع كاترين، تزامن قرار افتراقها عنه، مع حصولها على فرصة عمل في أمريكا، كمترجمة مباشرة، من الفرنسيّة إلى الإنكليزيّة وبالعكس، لدى البنك الدولي. اتجهت لأمريكا، دون أن تودّعه، خشية أن تتأثّر، وتعدل عن قرار الافتراق. نهاية 1969، هو أيضاً، عاد إلى تونس، لإنهائه دراسة الطبّ، حاصلاً على درجة الدكتوراه في الجراحة. تحسّنت أوضاعه، وصار يدرّس في كليّة الطب التي تأسست سنة 1964، وفتح عيادة في العاصمة واشترى منزلاً هنالك. أخرج أخويه من الملجأ، ضمّهما إليه، وتزوّج ابنة أحد كبار المسؤولين في نظام بورقيبة. وبقي محافظاً على مركزه، رغم الاهتزازات والأزمات التي واجهت نظام بورقيبة.

مسافات شاسعة تفصل بينهما. ولكل منهما مشاغله وهمومه التي استجدّت. واقتصر التواصل على تبادل البطاقات البريديّة بمناسبة عيد ميلادهما، ورأس السنة.

ما عادت تذكر بالضبط تاريخ ذلك اليوم. كان يوماً ماطراً وبارداً من شتاء 1974، جاءها اتصال في مقرّ عملها في واشنطن. وحين سمعت صوتاً مغتبطاً، كأنّه مغناطيس، جذبها وانتشلها من قرار بئرٍ عميقة، بسرعة هائلة، وألقى بها في فضاء المتاهات:

- ألو! كاترين! عزيزتي كاتي! أنا كمال، موجود في واشنطن، وأريد رؤيتك.

لم تعرف ماذا جرى لها لحظتها؟! قشعريرة ناعمة ودافئة، كدبيب النمل، سرت في جسدها. صارت تسأل نفسها: متى؟ وكيف؟ ولماذا؟! هل هي في حلم؟ وحين كرر نداءه: «ألو كاتي؟! كاترين؟... هل أنتِ معي؟!». وبعد تأكّدها من صوته، أجابته:

- معك! أنا معك! أهلاً بك! منذ متى وأنت هنا؟! ما هذه المفاجأة العظيمة!؟ فأجابني:

- وصلتُ ليلة أمس. حين نلتقي، سأخبرك بالتفاصيل. المهم، حددي موعد ومكان اللقاء. أنا الآن ضيفك، ولا أعرف واشنطن وتفاصيلها.

اتفقا على اللقاء في مطعم، اعتادت ارتياده، ذي طراز معماري قديم، على ضفّة نهر «بوتوماك»، في حي «جورج تاون» بواشنطن.

قلبها ينبض بسرعة، كقلب عصفور أودع القفص توّاً، لكنه يرتطم بقضبانه محاولاً الخروج ومعاودة التحليق. ستتجّه من العمل في مقرّ البنك الدولي إلى الموعد، بسيارتها. ولا تعرف ماذا ترتدي يوم غد. أي نوع من العطور تضع. كيف تسرّح شعرها، كي تبدو لائقة بهذا اللقاء. مضت الساعات والدقائق والثواني شديدة الثقل والوطأة في البطء والتعذيب. لم تعرف كيف غفت واسترقها النوم من شريط الذكريات والهواجس وأمواجِ الحيرة التي كانت تتقاذفها.

استأذنَتِ الخروجَ من العمل باكراً، كي تصل على الموعد. إذ خشيت أن تعرقلها زحمة السير في شوارع واشنطن، أثناء عودة الموظفين إلى بيوتهم. الساعة السادسة مساءً، فتحت باب المطعم، ودلفت إليه. قطعت الممر المرصّف بالخشب، فرحّب بها النادل الذي يعرفها، كونها زبونة دائمة. شكرته وقالت: لدي موعد.

شعرتْ أن المكان ليس على عادته، وكأنها ترتاده أوّل مرّة. سقفه وجدارنه المكسوّة بالخشب. الأضوية الخافتة في الزوايا. الشموع المشتعلة على الطاولات. الموسيقا الهادئة! صارت تتساءل: «أين ذهب ذلك الصخب الناجم عن اكتظاظ المرتادين، وتشابك

أصوات الزبائن، مع قهقهات النساء والرجال، مصحوباً بصوت الموسيقا العالية؟!». بدا المكان شديد الرومانسيّة، على غير عادته!

شعرت أنّ عينيها صارتا عينَي سمكة، أو أنّ جسدها كله أعيُن، حين بدأت نظراتها تتفحّص الطاولات والزوايا، بحثاً عن وجه كمال. لمحت في زاوية قصيّة، في نهاية المطعم، رجلاً جالساً بالقرب من النافذة المطلّة على النهر، وسط سحابة من دخان السجائر. التفت إليها، ثمّ وقف لبرهة، وبدأ يقترب منها بخطى وئيدة، فاتحاً ذراعيه، كمن يأتي من خلف الضباب. عرفت أنه هو... «نعم، هو كمال». انتابتها رعشة، وصار جسدها يتصبب عرقاً خفيفاً ناعماً وبارداً. ما عادت تسمع شيئاً، حين شرعت بالركض نحوه. أحسّت بأن المسافة تطول، وحركتها بطيئة، تماماً كالتصوير البطيء في الأفلام السينمائيّة. ارتمتْ في حضنه منهكةً ومتراخيةً، كمَن يفقد وعيه، ولا يقوى على الحراك والكلام! شدّها إلى صدره بحزم، فاركاً ظهرها، مطبطباً. وصلت يداه إلى شعرها، مداعباً بحنوّ ورأفة واشتهاء، قائلاً:

- كاتي، يا قطتي الناعمة الجميلة، ما زلت تضجّين بالأنوثة والروعة والشباب. قالها لها، وكفّاها تضمّانِ كفّيه اللتين تحاصران وجهها، محدقاً في عينيها المغرورقتين، ماسحاً بإبهاميه أدمعها المنسابة على وجنتيها، بعد عناق طويل، مصحوب بتنهيدات وآهاتٍ عميقة. أحسّت أنها تمثال من الشمع أو الثلج، يوشك على الذوبان والتبخّر في لهيب توقه.

لم تشعر إلّا وهي تقبّلهُ من فمه، وتمتصّ شفتيه، بحرارةٍ وحرقة، كأنّها سربُ نحل، تمتصّ في الآن عينهِ، رحيق زهرة واحدة.

جلسا، ويداها في يديه. يُحدّثها، يَسألها عن أحوالها، وهي ما زالت مشدوهة ومنتشية لسماع صوته، ولا تقوى على الردّ، بينما نظراتها تتفحّصه، وتتنقّل بين حركة شفتيهِ وعينيهِ وتعابير وجههِ، وغير مصدّقة أنها معه.

- سنونٌ مضت، وكأنّها البارحة. شكراً للأقدار التي جمعتنا مجدداً.

قالها، وعيناه جوادان هائجان، يشقّان ليل التوق وصحاريه. بينما هي، كزورق ورقي في مهبّ هذا الفيض، حاولت استجماع شتاتها المتناثر في أقاصي الذكريات، كي تلتقط أنفاسها وسط هذا الاستبداد والطغيان الرائع لحضوره، فيكون بمقدورها الردّ عليه. وحين نطقتها: «نعم. كأننا لم نبدأ بعد! كأنّه الآن، الآن، وليس قبل ما يزيد عن ثلاث عشرة سنة، من لقائنا الحميم الأوّل!؟ لقد أضرم حضورك النيران بكل السنوات الماضية. شكراً للأقدار، شكراً للربّ، الذي جمعنا هنا. فقمم الجبال لا تلتقي أبداً، والعاشقان سيلتقيان مهما افترقا».

وما إنْ أنهت كلامها، حتّى نهض مصفّقاً، وقال:

- اللّه.. اللّه.. يا إلهي!... ما هذه الروعة! لقد اختزلت كلام كل شعراء العشق في العالم!

وصار يكرر: «قمم الجبال لا تلتقي أبداً، والعاشقان سيلتقيان مهما افترقا»..، أكثر من مرّة، وعاود السؤال: «كنتِ في السابق رائعة جداً، ولكنك الآن أكثرُ روعةً! من أين لك كل هذا البهاء؟!».

لم تكن تعرف من أين كان يأتيها هذا الكلام. قرأت الشعر، ولكن ليس كثيراً. ولم تحاول كتابته أبداً. فأجابته:

- كمال، حين يستبدّ العشق الحقيقي بقلب الحجر، طغياناً وفتكاً، فلا غرابة أن تجدَ الحجر يفيضُ شعراً عذباً سلسبيلاً، يكوي قلوب البشر.

- يا إلهي! يا ربّي!.. ما هذا؟!... حوَّلتكِ السنون الماضية إلى شاعرة ومتصوّفة أيضاً؟!

- هي الحياة، أكثرُ ثراء وكرماً وجمالاً وحكمةً منّا جميعاً. تُعلّمنا ما نريد، وما لا نريده. هي الحياة، حين نستحقّها، تستحقنا. وحين لا نستحقها، تسحقنا.

أبهرته، وأضرمت نيران الندم في أعماقه. بدأت الدموع تنساب من عينيه. حينها، شعرت كاترين بأنه ما كان عليها قول هذه الكلمات التي أشعرتهُ بالندم! لكنها لم تكن تعرف من أين كانت تأتيها تلك العبارات العميقة! وصارت تشكّ أنها الآن مسكونة بروحٍ أخرى، هي التي تلقّنها كلامها!؟ قالت له:

- كيمي. دموعكَ غالية عندي. لا تذرفها هكذا. هذا الكلام، لا يستحق أن تذرف من أجله دمعة. الكلام، مهما علا وغلا، يبقى كلاماً. هي آلام الغربة، ليس إلّا، التي تثخنُ في الأرواحِ تجريحاً، ثم تشذيباً وتصقيلاً. وكلما تصقّلت الروح، اتسعت، فزادت من عمق ورحابة العقل، ومنحته الاتزان والكياسة في التفكير والقول.

وبدا لها أن هذه السيرة لن تنتهي. وكلما حاولت النطق بكلام عادي، لا فلسفة فيه، تشعر بشيطانٍ ما، يقود لسانها ويوجّه كلامها نحو الحكمة والتفلسف. حاولت مجدداً الهرب. طالبته بالحديث عن أخباره وأوضاعه، وكيف تجري أموره وأحوالهُ.

ذكر لها أنه تزوّج، وله الآن ولدان. أموره الماديّة جيّدة جداً.

وأنه في واشنطن ضمن الوفد الدبلوماسي لتونس لحضور اجتماع الجمعيّة العموميّة للأمم المتّحدة، وأنه مرشّح لاستلام عدّة مناصب؛ مسؤول في الخارجية في زمن حكومة الهادي نويرة، وعلى الأرجح سيكون هذا المنصب هنا، في أمريكا، إمّا في السفارة التونسيّة، أو بعثة تونس لدى الأمم المتحدة. وأعرب عن سرورهِ في حال لو تحقق ذلك، فسيراها دوماً، وستعود أيام جنيف.

حال إكماله لهذه الجملة، أحسّت وكأنّه بدأ رويداً يبتعد عنّها، وتختفي ملامحه في دخّان سيجارته. فركتْ عينيها، لتجده أمامها مبتسماً. شعرت بوثنٍ ما، يتصدّع في داخلها، ليعاود ذلك الشيطان قيادة كلامها:

- كيمي، محالٌ أن يعيد الزمنُ دورته، ويُكررَ الأيّامَ واللحظاتِ التي عشناها! لو أعاد الزمن نفسه للوراء، لربما رفض المسيح السير إلى حتفه ليجعل من نفسه القربان والأضحية، كي يغسل عنّا الخطايا والآثام، كما يروي لنا القساوسة ورجال الدين هذه الحادثة. لو أعاد الزمن نفسه، لربما راجعت شخصيّات كثيرة حساباتها، وما تسببت في ارتكاب حوادث كبيرة، أفضت إلى حوادث أكبر جسامة بحق العالم والإنسانيّة!

عزيزي كيمي، القمر بقي قمراً، لأنه ليس متاحاً. وكذلك النجوم. الكنز، لن يغدو كنزاً إن صار متاحاً. كلُّ شيء، وأيُّ شيء، سيفقد بريقَ سحرهِ، إنْ صار متاحاً وفي المتناول. فدعْ كمال، يبقى كمال بالنسبة لكاترين، ذلك السحر الناتج عن الشغف، الشوق، الحب، الحنين واللهفة الآتية من الماضي، التي تدفع حياتي نحو المستقبل، كريحٍ تدفع زورقاً في عرضِ البحر. أريدك هكذا، غير

متاح وليس في متناولي، إلّا ما ندر، كالعيد الذي لا يتكرر في السنة إلّا بضعة أيّام. فإذا غدت كل أيّام السنة أعياداً، فسيفقد العيدُ معناه وجدواه ومغزاه وبهجته. أريدكَ أن تبقى الكنز الذي أقضي حياتي في البحث عنه، وأجدهُ قطعةً قطعة، وليس دُفعةً واحدة! لذا، إنْ قررتَ المجيء إلى واشنطن، فسأغادرها أنا إلى مكانٍ يُملي عليَّ الحنين إليك. لا تعتبر ذلك مازوشيّةً وإفراطاً في تعذيب الذات! لا أبداً. إذ لا يمكنك أن تكتشف مدى حبّك لوطنك، إلّا حين تفتقدهُ مكرهاً أو طوعاً. الذين يقبلون أن يضحّوا بحياتهم لأجل الحريّة، يشعرون بسحرها وبريقها، أكثر من الذين يعيشون الحريّة التي كانت نتيجة موت هؤلاء. وإذا رجع الشهداء إلى الحياة، واكتشفوا الحريّة التي ماتوا لأجلها، لربما ما اتخذوا قرارهم ذاك، ورفضوا أن يكونوا مقاتلي وشهداء الحريّة مجدداً. أرجو أن تفهمني؛ أريدك الحريّة التي أسعى إليها، وليست التي تسعى إليَّ. أريدك الحياة التي أسعى إليها، وليست التي تسعى إليَّ. أريدكَ الوطن الذي أسعى إليه، وليس الذي يسعى إليَّ. ثم إنّ لديك الآن، زوجة وأولاداً ومشاغل ومسؤوليّات، يجب أن تعيش لأجلهم!

كان منصتاً لكلامها، صامتاً، ضامّاً يديه، واضعاً كلتيهما تحت ذقنه. وبعد برهةٍ، نهض من على كرسيه، وأمسكَ برأسها مقبّلاً جبينها، دالقاً دلواً من الخدرِ الدافئ في أوردتها وشرايينها. وفهمتْ منه أنه عدل عن النيّة في المجيء للعمل والإقامة في أمريكا. وبدآ يتبادلان سرد ذكريات جنيف، وما جرى معهما وتفاصيلها، وتفاصيل الأمكنة، والأشخاص، فسرد لها بعض ما كان خافياً عنها.

ذكّرها بحادثة غيابه عنها لمدّة أسبوع في شباط 1961، حين لم

يقضِيا عيد الحبّ معاً، وكيف أنه تحجج وقتها بأنه مسافر إلى باريس للقاء أحد أقاربه. حين عاد، ذكرَ أن قدمهُ اليمنى أصيبت بكسر، نتيجة انزلاق في أحد شوارع باريس. لكن، حقيقةُ الأمر أنه لم يكن مسافراً إلى باريس، بل متواجد في زيوريخ، لترتيب لقاء مصالحة يجمع بورقيبة ومعارضه صالح بن يوسف، في أحد الفنادق. كان مكلّفاً بمهمة رسميّة من الجيش، خشية أن يقوم أنصار بن يوسف باغتيال بورقيبة. ولكنهُ عرفَ أنه كان هنالك مخطط لاغتيال بن يوسف، على أنه استهداف لبورقيبة من قبل أنصار بن يوسف، وسيتم الإعلان لاحقاً أن بن يوسف قُتل عن طريق الخطأ من قبل أنصاره! وطلبوا منه تأمين هروب الشخصين اللذين سيقومان بذلك. وهذان الشخصان كانا عنصري مخابرات، مغروسين ضمن جماعة بن يوسف. وكان الأخير يظنّ أنهما من رفاقه المغروسين ضمن مخابرات بورقيبة. يعني، شيء يشبه مهمّة العميل المزدوج.

وكي يحول كمال دون ارتكاب الجريمة، ليس حباً في بن يوسف، بل كرهاً في بورقيبة، قام بكسر قدمه حين دحرج نفسه على سلم الفندق، كي يظهرَ الأمر لرفاقه على أنه ليس مفتعلاً. ونُقل على إثرِهِ للمستشفى، بعيداً من مسرح الجريمة، وفي مأمن من أعين مخابرات الجيش التابعة لبورقيبة. حال وصوله المستشفى، وشعورِهِ بالأمان، بعد ذهاب العناصر التونسيّة التي رافقته، طلبَ من الممرضة استدعاء الشرطة فوراً لأمر سرّي وهام. وكشفَ للشرطة أن هنالك مخطط جريمة اغتيال سيستهدف سياسياً تونسياً معارضاً في الفندق، الساعة كذا. كان ذلك قبل بدء الاجتماع بين بن يوسف وبورقيبة. وجرى اللقاء، ولكن فشل المخطط.

لم يكونوا يعرفون أن بن يوسف احتاط للأمر، ورفض حضور اللقاء إلّا بمرافقة الشرطة السويسريّة. يبدو أن حدسه أوحى إليه أنه ثمّة مؤامرة تنتظره، أو أن نهايته باتت قريبة. بورقيبة أحضر معه زوجته أو عشيقته وسيلة، وسكرتيره الخاص علالة العويتي، وتاجراً من أقارب بن يوسف، وتوفيق الترجمان سفير تونس بسويسرا، وزوج ابنة وسيلة. انتهى اللقاء بشجار ومشادة كلاميّة وتراشق بالشتائم، تمهيداً لإطلاق النار، كما كان مدبّراً. لكن الشرطة السويسريّة تدخّلت بالوقت المناسب، وحمت بن يوسف، وأخرجته من الفندق سالماً. ولم يعرف كمال إنْ كانت السلطات السويسريّة أخبرت بن يوسف بمخطط اغتياله أم لا. لكنه كان يشكّ في أن جمال عبدالناصر هو من أعطى الضوء الأخضر لبورقيبة كي يقوم بتصفية بن يوسف، بعد إدخال «بنزرت» في حرب ضدّ فرنسا والجنرال ديغول، ما اعتبره عبدالناصر دخولاً لبورقيبة في حلفه العقائدي والأيديولوجي القومي.

تشكّلت قناعة لدى كمال مفادها أن المرويات التاريخيّة عن الأحداث المهمّة في حياة الأوطان والشعوب، يشوبها الكثير من التحوير والتسييس والتدليس. ولكن هنالك دوماً أشخاص هامشيون في زوايا وأماكن هامشيّة، شهودٌ على حيثيات وأحداث صغيرة، من شأنها قلب الرواية التاريخيّة رأساً على عقب. لذا، يجب دوماً التشكيك في الرواية السائدة والمتداولة او حتى المتفق عليها، لربما هذا الاتفاق كان شكلاً من أشكال التواطؤ على الحقيقة. ومثلما هنالك كتّاب روايات خيال علمي، أو روايات بوليسيّة، يجب أن يكون هنالك كتّاب روايات خيال سياسي، تعيد كتابة وهندسة

الأحداث التاريخيّة السياسيّة منها أو العسكريّة أو حتّى الدينيّة، بما يخرجها من سياق الرواية التقليديّة السائدة والمكررة.

أعجبت كاترين بكلامه، وحديثه كناقد أدبي وسياسي. وأشارت عليه بأنه يمكن أن يكون له مشروعه الأدبي والروائي القائم على هذه الفكرة التي طرحها.

ردّ عليها ضاحكاً:

- أوه! كاتي! أنت تبالغين! ثم أنت تعرفين أنه ليست لديّ ميول للكتابة الأدبيّة، وأنني قارئ متواضع جداً للرواية.

- كثيرون اتجهوا لكتابة الرواية متأخّرين. ولفتت أعمالهم اهتمام العالم والنقاد والإعلام. لماذا لا تكون أحد هؤلاء؟ فأنت شاهد على أحداث مهمّة، وتمتلك مقدرة شيّقة على السرد، ولديك تحليل نفسي وسياسي وبوليسي للأحداث!

صمت بضع ثوان، ثم عاد لإكمال حديثه عما كان يخفيه عنها، أثناء تواجدهما في سويسرا، وأن ما جرى في زيورخ كانت الخطّة (أ). وبعد فشلها، اغتالوا بن يوسف في فرانكفورت صيف 1961، عبر تنفيذ الخطّة (ب). ولو عرفت المخابرات أنه وراء إفشاء مخطط زيوريخ، لقامت بإعدامه. والآن أيضاً، إذا عرفت بذلك، ستعدمه رمياً بالرصاص!

قالها ضاحكاً. فسألته لماذا يخبرها الآن؟ ما شأنها بهذه الأحداث؟! أجابها بأن كشفه مخطط اغتيال بن يوسف في زيوريخ، لا يعلم به أحد إلّا الشرطة السويسريّة. وإنْ حدث له مكروه، يخشى أن يموت هذا السرّ معه، الذي يعتبره عملاً وطنيّاً وإنسانيّاً، ويجب أن يبقى في الذاكرة. ولكنه لا يستطيع الإفصاح عنه الآن.

كثيرةٌ هي الأسرار التي تموت مع أصحابها، وينبغي ألّا تموت. أحياناً، يحتاج الإنسان إلى بئر يرمي فيها أسراره، لربما التقطها شخص ما، في زمن ما، عبر دلوٍ ما، وجعل من هذا السرّ معلوماً ومتاحاً لمن يريده.

البشرُ آبار، متفاوتة العمق. الحبيب بئر حبيبته. الصديق بئر صديقه. لا يمكن إيداع كل الأسرار لدى صديق أو صديقة واحدة. ويمكن توزيعها بين مجموعة الأصدقاء، لكل صديق سرّ واحد فقط. علماً أن نفس السرّ، إن صار بين ثلاثة أشخاص، ما عادَ سرّاً.

فجأةً، نظر إلى ساعته، وهي ممعنة النظر إليه، وقال:

- أوف.. أوف؟! مضى الوقت سريعاً، ولم نشعر به! غداً وبعد غد، هما يوما عطلة بالنسبة لك. ويوم الاثنين سأكون مشغولاً. لذا، علينا الاتفاق الآن، أين ومتى نلتقي غداً.

- غداً، في نفس المكان، الساعة الواحدة ظهراً.

- وهو كذلك.

نهضنا، منتزعينَ نفسينا من المكان، الذي كان يريد لنا ألّا نفترق.

جافاها النوم ليلتها. تقلّبتْ على جمر الفرح لساعات، حتّى لاحت تباشير الفجر. للفرح أيضاً جمرةُ الذي يُصلي ولا يُميت. لا صوتُ هطول المطر بشدّة، ولا لمعُ البرق وقصفُ الرعد، تلك الليلة، كان باستطاعتهما قطع شريط ذكرياتها، التي أضيفت إليها مجريات هذا اليوم أيضاً. فجأةً، انتابها تأنيب ضمير!؛ أن تكون على سرير رجل، وتفكّر في رجلٍ آخر! تقصد زوجها الأمريكي

ويليم. ازدادت دهشة ولات، فاغراً فاه، مستغرباً ومتسائلاً: رجل جديد؟ بعد المصري والتونسي؟!!

وعدته بالحديث عن هذه التجربة لاحقاً، لتعود إلى سرد مجريات اليوم التالي. استيقظتْ متأخّرة، بحدود الحادية عشرة صباحاً. ويكاد رأسها ينفجر من الألم. عجلات مسننة تجوب رأسها، ممزقةً ما فيه. صداع عنيف، كأنها شربت ليلة أمس برميلَ خمر! ومع ذلك، كانت مغتبطة. شربت فنجان قهوة مع ويليم الذي سألها عن حالها، وأين كانت ليلة أمس. أجابته بأنه مجرّد صداع. وأنها كانت بصحبة صديق قديم، يزور واشنطن، وسيتجه غداً أو بعد غد، إلى نيويورك. دعاها إلى الغداء نهار اليوم أيضاً.

أشعلَ لفافة الماريغوانا، وأخذ منها نفساً عميقاً. رفع رأسه إلى الأعلى، نافثاً الدخان، ثم نهضَ متجهاً نحو الشرفة. كان هادئاً، على غير العادة. لكنها قرأت في ملامحهِ وصمته، الامتعاض وعدم الرضا، رغم إيحائه بعدم الاكتراث واللامبالاة.

تصفحّتْ قليلاً الجرائد. تناولت قطعتَي خبز مطليتين بالزبدة والمربّى، كي تتناول بعدهما حبّة مسكّن، ربما تخفف من الصداع الذي ينخر رأسها، وكأنّه سيخ نار ممتدّ بين صدغيها! خرج ويليم من المنزل. لم يقل إلى أين، ولم تسأله هي عن وجهته. بعده بساعة، خرجتْ من المنزل، إلى الموعد. للوهلة الأولى، بدا الجوّ كئيباً. السماءُ مقفلة بغيوم محتقنة، مع هبوب نسمات رطبة وباردة، تشي بهطول المزيد من المطر. بينما تقود سيارتها مستمعة إلى أغاني الراديو، رويداً انخفض منسوب الكآبة، وعاود الفرحُ دغدغة قلبها

الرطب كقطعة قطن منفوش بفعل النسائم. قبل الموعد بخمس دقائق، كانت داخل المطعم المكتظّ بالزبائن.

المطعم، مبنى قديم، مؤلف من ثلاثة طوابق، يطلّ على ضفّة النهر. جابت الطابق الأرضي، فلم تعثر على أثر لكمال. وبينما تجوب الطابق الأوّل، وكان أقلّ اكتظاظاً، فاجأها أحدهم ممسكاً ذراعها، فاستدارت نحوه، وإذا به كمال. أجلسها مكانه على الكرسي، ظهرها إلى جداريّة زيتيّة معلّقة على الحائط،، والطاولة إلى جوار النافذة المطلّة على النهر والشارع المرادف له. بينما هو، كان ظهره إلى الزبائن، لئلا يشغله أحدهم بحركة ما عن الحديث إليها. وعادا إلى حديثِ الذكريات وسرد التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل.

أشاد بذاكرتها القويّة، وأنه يحسدها عليها. كأنّها مرصد، منصوب في قمّة جبل، يجري مسحاً طوبوغرافيّاً للأمكنة وأزمنتها بما فيها من تفاصيل دقيقة وحيثيات مهمّة، متعلّقة بها!

بالنسبة لها، الحديث عن الذكريات، هو أجمل من الذكريات نفسها. الإنسان هو مجرّد تراكم ذكريات. ليس فقط الأحداث والوقائع والمجريات، بل التخيّل، الطموح، المشاعر، كلها جزء من الذكريات. فذكرت له أنها في كل مرّة تستعيد فيها شريط الذكريات، تقوم بإعادة ترتيب التواريخ، وسياقات الأحداث، بحيث تصل إلى قراءة جديدة للتاريخ، قد لا تكون مختلفة عن سابقاتها، مئة بالمئة، ولكنها قراءة جديدة، منحرفة قليلاً عن السياق السابق للحدث. حين تستحضر الذكريات، لا تختلف وقتها، عن المؤرّخين أو مخرجي الأفلام الوثائقيّة.

- ذكرياتنا المشتركة، التي تشكّل جزءاً وحيّزاً هامّاً وجميلاً من

ذاكرتنا المشتركة، تتدخّل أمزجتنا وانطباعاتنا وأحاسيسنا المختلفة، في استحضارها وإعادة ترتيبها وقراءتها والتأمّل فيها.

لكل شيء ذاكرة. للشجر، النباتات، الحيوانات والحشرات ذاكرة. للماء، الهواء، التراب والنار، ذاكرة. للشمس، القمر، النجوم... ذاكرة. للحياة والموت ذاكرة. ذاكرتي وذاكرتنا وذكرياتنا، لا تخصّنا وحدنا. إنها تراكم ما عشناه أو عايشناه، وقرأناه، سمعناه، أو شاهدناه...، فحين أقرأ هوميروس، دانتي، ثيرفانتس، غوته، بوشكين، شكسبير، تصبح ذاكرة هؤلاء المدوّنة في نصوصهم، جزءاً من ذاكرتي. فلا تستغرب إن قلت لك: إن آلام كلكاميش وحزنه على صديقه أنكيدو، صارت جزءاً من ذاكرتي وذكرياتي أيضاً. وذاكرة جلال الدين الرومي وحزنه على صديقه شمس الدين التبريزي، بعد قراءتي لها، أضحت جزءاً من ذاكرتي أيضاً.

عبّر كمال مجدداً عن انبهاره بهذا العمق الذي ينطوي عليه حديثها. فشكرته على الإطراء. وأن تورّطه العاطفي هو الذي يدفعه للمبالغة في المديح.

بحسب رأيها؛ أعمارنا لا تقاس بالفترة الزمنيّة الممتدّة بين لحظتي الولادة والممات، بل بقدر ما نساهم في جعل حياة الآخرين أفضل من السابق. فثمة أشخاص يعيشون حتى بعد موتهم. وسقوطهم من ذاكرة الأحبّة أو الشعوب والمجتمعات، هو الموت الحقيقي لهم. أن تنسى شخصاً عزيزاً عليك، هذا يعني أنك أَمتّه، حتى ولو كان حيّاً!

لا يوجد علم، أو فنّ، أو أدب أو فلسفة أو عمارة...، من

دون تاريخ. صحيح أن التاريخ يكتبه المنتصرون، أو الأقوياء، وصحيح أن المواقف والانطباعات والأمزجة العقائديّة والفكريّة والأيديولوجيّة لدى المؤرّخين، تدخل وتؤثّر أثناء كتابتهم له، لكن، بكل تأكيد، سيأتي اليوم الذي ستتمّ فيه مراجعة وتنقيح التاريخ المكتوب.

بعد أن ذكر لها كمال بعض التفاصيل والأحداث التي أخفاها عنها سابقاً، ذكرت له أيضاً، بعض الأمور التي كانت خافية عنه. وأن حادثة الكشف عن مقتل تشي غيفارا في أكتوبر 1967، خلق لديها فضول التعرّف على هذا الشخص؛ من هو؟ ولماذا قتل؟! تأثّرت به كثيراً، فنشأ لديها ميل نحو الفكر اليساري. وتعزز هذا الميل، بعد حركة الاحتجاجات والإضرابات في فرنسا وأوروبا. ومع وصولها إلى أمريكا سنة 1969، بحكم عملها، ازدادت علاقاتها بالحركات اليساريّة، وجذبتها الأفكار الورديّة عن الثورة والعدالة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والمساواة بين الناس، وسيطرت عليها فكرة أن الثورة يجب أن تبدأ في أمريكا وليس في إنكلترا، كما كان يظنّ ماركس، ولا في روسيا أو الصين. وصارت عضواً في الحزب الشيوعي الأمريكي. كان عملها في غاية السريّة والحذر، خاصة أن المكارثيّة بقيت رائجة في المجتمع الأمريكي والدولة ومؤسساتها السياسيّة والأمنيّة، رغم إدانة أفكار ومواقف جوزيف مكارثي، وموته.

تبنّى الحزب فكرة اقترحتها تقضي بتشكيل خلايا ضمن السجون الأمريكيّة، لجذب السجناء إلى صفوف الحزب، عبر توعيتهم، باعتبارهم ضحايا النظام الرأسمالي وفساده وتوحّشِهِ، وأن السجن

أحد أوجه وأدوات الدولة الظالمة للشعب. لذا، عملها كمتطوّعة في سجن «لورتون»، كان سياسيّاً، تحت غطاء التطوّع والإرشاد الاجتماعي المجّاني.

هذا السجن، بناه السجناء أنفسهم، قريباً من نهر «أوكوكيوان»، في زمن إدارة ثيودور روزفلت، وافتتح سنة 1910، باعتباره إصلاحيّة، عاش فيها مئات السجناء الذين من المفترض أنه جيء بهم من السجون الحصينة التي تضمّ عتاة المجرمين القتلة ورجال العصابات. وفي هذا السجن، تعرّفت على صديقها ويليم، الذي قضى سبع سنوات في سجن «بيليكان بي» المشهور والخطير في كاليفورنيا، وثلاث سنوات في سجن «لورتون». كما تعرّفت على نماذج غريبة وعجيبة من البشر في عالم السجون. وقرأت الكثير من كتب التاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. . .، بالإضافة إلى الأدب، لتسهيل مهمّتها السياسيّة والإرشاديّة.

ظهرت على كمال كل علامات الصدمة والاندهاش، حين عرف أن تهمة ويليم كانت القتل وتجارة وتعاطي المخدرات. وكي تخفف من هول المفاجأة، ذكرت له أن الإنسان لا يولد مجرماً. هنالك ظروف تتضافر، وتدفعه نحو الإجرام. ثم إنه دفع ثمن جريمته بقضاء عشر سنوات من عمره في السجن، أمام القانون والدولة والمجتمع. وبقضائه هذه العقوبة، زالت عنه صفة المجرم.

سألها كمال، والاستغراب ما زال يخيّم عليه: هل ما زلتِ منتمية للحزب الشيوعي الأمريكي؟! نفت ذلك وأوضحت بأنها هربت من الدوغما العقائديّة الكنسيّة، لا كي ترتمي في حضن دوغما عقائديّة جديدة! وأنها تعرّفت هنا على معارضين روس وصينيين وكوريين

شماليين وكوبيين. . . ، ومعارضين لنظام تشاوتشيسكو، وكل أنظمة دولة العمال والبروليتاريا والاشتراكيّة المزعومة. وانتهت مؤخّراً من قراءة مذكرات خروشوف، فظهر لديها بشاعة النظام الستاليني، رغم مقاومته نظام هتلر، ودحره للنازيّة.

أحياناً تخطر في بالها فكرة مجنونة، مفادها؛ حسناً فعلوا بقتل تشي غيفارا. لو لم يقتلوه، لما تحوّل هذا الثوري الحالم، إلى حلم يُلهم الثوريين في العالم، ولربما دخل في صراع مع كاسترو، كالصراع الذي جرى بين ستالين وتروتسكي، وأزال عن نفسه ذلك السحر الثوري الوردي. وحتى لو انتصر غيفارا في بوليفيا، وأطاح بنظام رينيه بارينتوس، لأضحى تشي غيفارا، كاسترو بوليفيا، وتحوّل الثوري إلى طاغية مستبدّ، ككل الزعماء والقادة الثوريين الذين أفسدتهم السلطة، فصاروا شياطين تمتصّ دماء الشعوب والمجتمعات. فقياساً على كل تجارب الثورات والقادة الثوريين من الثورة الفرنسيّة مروراً بالروسيّة والصينيّة والفيتناميّة وصولاً للكوبيّة. . . ، لم تعثر على زعيم ثوري لم تفسده السلطة! السلطة سمّ الثوّار. الثوري يجب أن يبقى معارضاً. تروتسكي، رغم معارضته لنظام ستالين، والطريقة الوحشيّة التي قتل بها، كان مشروع دكتاتور، ورجل عسكري، أمني. انشقاقه عن النظام، حوّله إلى أيقونة المعارضة لنظام الفاشيّة الشيوعيّة الستالينيّة. لو كان غيفارا شخصاً سويّاً وعاقلاً، لما قَبِلَ أن يكون مدير المصرف الوطني الكوبي، وهو لا يفهم في الاقتصاد، ولا علاقة له بهذا الاختصاص!

توقّفت عن الكلام فجأةً، ثم قالت: كمال. . . كمال. . . ! انظر خلفك! هناك، باتجاه تلك النافذة!

- ماذا؟ ما الأمر كاتي؟!

- أليس ذلك الشخص، هو ياسر عرفات؟!

- أين؟!

- إلى اليمين، الطاولة قبل الأخيرة. رجل يرتدي عقالاً والشماخ العربي. معه على الطاولة أربعة رجال وسيدة.

- نعم، هو. ما هذه الصدفة؟! ولكن، من أين تعرفينه؟!

- ألم أقل لك إنني صرت يساريّة، وتربطني شبكة علاقات جيّدة مع فلسطينيين. تعرّفت هنا على أستاذ في جامعة كولومبيا يدعى إدوارد سعيد. حضرت له عدّة محاضرات، وقرأت له الكثير من المقالات والكتب. إنه رجل مثقف، وناشط سياسي فلسطيني، مؤيد لحل مشترك للقضيّة الفلسطينيّة. تعجبني أفكاره. . . ! كمال، أريد منك خدمة!

- أنت تأمرين، ولا تطلبين فقط!

طلبت منه أن يرافقها إلى طاولة عرفات، كي تلقي عليه التحيّة. فربما لن تتكرر هذه الفرصة مرّة أخرى. اتجها نحو طاولة عرفات، والترقّب يسيطر عليها. عرّف كمال نفسه بأنه دبلوماسي تونسي، ضمن وفد بلده المشارك في أعمال مؤتمر الجمعيّة العموميّة للأمم المتحدة. وهذه صديقته، كاترين دو وينتر، بلجيكيّة، مؤيدة للقضيّة الفلسطينيّة. رحّب عرفات بهما، وأنها لفرصة سعيدة أن يلتقوا هنا. وأنهم يناقشون الكلمة التي سيلقيها أمام الجمعيّة العموميّة. اتجهتْ كاترين نحو عرفات بعد مصافحته وقالت له:

- إنه لشرف عظيم لي، أن ألتقي بكم هنا. هذه لحظة ستبقى

محفورة في ذاكرتي ووجداني، كوني صافحت وتحدّثت مع زعيم فلسطيني مناضل. إلقاؤكم كلمة أمام الأمم المتحدة هو نصر كبير للقضيّة الفلسطينيّة. أرجو منكم الدعوة للسلام، حتى يتوقف سيل الدماء من كل الأطراف.

أجابها بهدوء ووقار، والابتسامة تكلل محيّاه: شكراً سيدتي على هذه المشاعر. سأحاول قصارى جهدي.

صافحته بحرارة مع انحناء في الرأس والجذع، احتراماً له، فبادلها ذلك. ثم ابتعدا عنهم عائدين إلى طاولتهما، وما زالت تسيطر عليها مشاعر عدم التصديق، وكأنّها في حلم، إذ تلتقي بصحبة صديقها كمال بالزعيم الفلسطيني عرفات.

في أوقات كثيرة، خطر في بالها فكرة الانضمام الى التنظيمات الفلسطينية التي تقاتل إسرائيل، أثناء قراءتها قصائد بابلو نيرودا وناظم حكمت. خاصةً بعد جريمة اغتيال الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني صيف 1972. لكنها تجاوزت هذه الفكرة، بسبب عمليّة ميونيخ في شهر أيلول من نفس العام واحتجاز الفريق الرياضي الإسرائيلي، وما نجم عن ذلك من مذبحة شملت المنفذين والمختطفين ومواطنين ألمان. حينها، اكتشفت أن الفروق بين العنف الإسرائيلي والعنف الفلسطيني متقاربة، وأن المقاومة الفلسطينيّة يجب أن تبقى داخل فلسطين، وألّا تصل إلى بلدان أخرى، ولا تستهدف المدنيين، كما يفعل الإسرائيليون. وكلما خطف فلسطينيون طائرة، اعتبرت ذلك انتصاراً لإسرائيل وخسارة للقضيّة الفلسطينيّة. وتبددت الرغبة لديها في الانضمام إلى العمل العسكري الفلسطيني.

- جيد أنك لم تستسلمي لتلك الفكرة المجنونة، وإلّا لكنتِ الآن

إمّا قتيلة أو سجينة، ولما التقينا هنا. قالها كمال ضاحكاً. لكنه عاد وأضاف:

- لا تنسي أنهم باختطافهم للطائرات، يريدون لفت أنظار العالم إلى قضيّتهم ومعاناتهم!

أجابته:

- لكن، ليس بهذه الطريقة العنفيّة التي تشوّه القضيّة ولا تخدمها، وتُظهر الفلسطينيين كإرهابيين، والإسرائيليين ضحايا. بل ويزيد ذلك من تعاطف العالم مع إسرائيل.

بعد مرور يومين على لقائها بعرفات، كانت متسمّرة أمام التلفاز، تستمع لكلمته التي خاطب فيها الأمين العام للأمم المتحدة قائلاً: «جئتكم وفي يدي غصن الزيتون مع بندقية ثائر. فلا تُسقطوا الغصن الأخضر من يدي». سرّت بخطابه وطرحه الرغبة في السلام، فعاد الحماس إليها كي تبقى مدافعة عن القضيّة الفلسطينيّة. ترجمتْ كلمته إلى الإنكليزيّة والفرنسيّة، بشكل تلقائي وطوعي، ووزّعت النصّ على أصدقائها.

غادر كمال أمريكا، وأجبرت نفسها على عدم توديعه في المطار، لئلا تهيج وتجيش العواطف مجدداً، وتستعيد نيران الشوق والافتراق أجيجها. تحجّجت بأنها مريضة وطريحة الفراش، واعتذرت عن عدم الحضور معه إلى المطار، أو اللقاء به في مكان عام. واكتفت بما دار بينهما من أحاديث.

التقيا بعد مضي سنوات. كان ذلك في 30 سبتمبر سنة 1985. ما زالت تحتفظ حتّى الآن بتذكرة الطائرة التي أقلّتها من واشنطن إلى

تونس العاصمة. كان المطار مزدحماً. استقلّت سيارة أجرة، واتجهت نحو فندق «ابن خلدون» في حي «لافايات» وسط العاصمة. هو فندق قديم ومشهور، يعود افتتاحه لحقبة الاستقلال. كانت مرهقة جداً، وسعيدة جداً. ارتمت على السرير، كجثّة هامدة، ونامت نوماً متقطّعاً، استيقظت فيه ألف مرّة. في صباح اليوم التالي، وبعد تناول الفطور، اشترت باقة ورد، واتجهت في سيارة أجرة إلى شارع قرطاج المتفرّع من شارع الحبيب بورقيبة. البناية رقم 25، الطابع الثالث، الشقة رقم 7. صادفتها أزمة سير، نتيجة وجود تدابير أمنيّة مشددة، وحواجز وتدقيق، رجال أمن وجنود منتشرين، وكأنّ البلاد تشهد حالة طوارئ! أو تعيش حالة حرب! أو أن هنالك محاولة انقلاب! وصلت إلى العيادة في حدود العاشرة صباحاً. كان هنالك نحو خمسة مرضى. سجّلت دورها، ودفعت قيمة الكشف الطبي، كمريضة عادية. ومع اقتراب حلول استراحة الظهيرة، سأل كمال الممرض عن المرضى الموجودين في غرفة الانتظار، فأجابه الممرض: «لم يبقَ سوى امرأة واحدة». فطلب أن يدخلها، مع عدم استقبال مرضى جدد، لأنه سيذهب إلى البيت.

مرّت لحظات الانتظار ثقيلة جداً عليها، بالإضافة إلى عجزها عن وصف اللحظة التي طرقت فيها الباب، والخطوة الأولى لها في اجتياز عتبة الغرفة! كأنها تعبرُ برزخاً بين زمنين. لم تكن محمومة، ولكنها ترتعش. ليست خائفة، ولا خجولة، ولكنها ترتعش. وكأنها على وشك النطق، بعد عجزٍ عن الكلام، دام ألف سنة! وبشق النفس، حتّى استطاعت تلفّظ: صباح الخير دكتور.

رأته مشغولاً في النظر إلى التلفزيون الذي يعرض مشاهد دمار.

مع سماعه نشرة أخبار القسم العربي لإذاعة بي بي سي! لم يكترث لها، وأشار بيده الى الكرسي المقابل لطاولته، قائلاً: تفضّلي.

استغربتْ فتوره، ولكنها متأكدة أنه لم يعرفها بعد، كونه لم ينظر في وجهها. وضعت الورد على طاولته وقالت: كل عام وأنت بخير كمال. اليوم عيد ميلادك.

وكمن تعرّض لصعقة كهربائيّة، التفتَ متفاجئاً، وإذا بها جالسة أمامه، فلم يصدّق ما تراه عيناه. نهض من على كرسيه مذهولاً، وتحرّك ببطء متجهاً نحوها، وقف قبالتها وصار يحدقّ فيها من أخمص قدميها حتّى فروة رأسها، ممسكاً بيديها ثم ذراعيها ثم كتفيها، متحسساً جسدها، كي يتأكد أنها واقفة أمامه وأن الأمر ليس حلم يقظة. وقال:

- كاترين؟! أهذه أنت؟! أم أنا أحلم؟!

- أردت أن أردّ لك المفاجأة، حين زرتني في واشنطن. كما أردت أن تكون زيارتي مصادفة ليوم ميلادك الذي كنّا نحتفل به في جنيف. كل عام وأنت وأسرتك بألف خير.

عانقها بعمق وحرارة العناقات القديمة أيّام جنيف. قرأت في عينيه فيض السعادة التي منحته إيّاه، عبر زيارتها المفاجئة له. قالت له ممازحة:

- هل هنالك طبيب في العالم، يستقبل مرضاه بالعناق؟ أو وهو يشاهد التلفزيون ويستمع للراديو؟!

أجابها باعتذار وأسف، مشوب بالألم. وحدّثها عما جرى في تونس ذلك اليوم. قصف جوي استهدف مقرّ منظمة التحرير

الفلسطينيّة في منطقة «حمام الشط»، وقتل العشرات وجرح المئات من المدنيين. وأن ياسر عرفات وقيادات فلسطينيّة كانت مستهدفة بهذه الغارة الجويّة!

حينئذ عرفت سبب الانتشار العسكري والأمني الكثيف في العاصمة! تألّمت كثيراً لسماع الخبر. وصارت تشتم إسرائيل وتلعنها في سرّها، على هذه الجريمة. ولأنها سمَّمت عليها زيارتها لتونس. كانت على قناعة بأن إسرائيل وراء ذلك. حاولت أن تبدد مشاعر الحزن والألم عنه وقالت لكمال: «رغم ذلك، سنحتفل بميلادك هذا اليوم».

اتصل بالبيت، كي يعرف ماذا طبخت زوجته. وأخبرها أنّ بصحبته ضيفة من بلجيكا، كي تحسب حسابها. كان يسكن فيللا جميلة، في منطقة العوينة في تونس، بحديقة واسعة فيها أشجار فواكه ومسبح. وأثناء وصولهما إلى البيت، كان في استقبالهما كل أفراد العائلة، أولاده وزوجته وإخوته، محضّرين له مفاجأة في الصالون، احتفالاً بميلاده. دخلوا البيت، وسط التصفيق والتهليل. قدّمها إلى أفراد أسرته بوصفها صديقة قديمة، من أيّام الدراسة في جنيف. بعد انتهاء الاحتفال وإطفاء الشموع، وتناول الغداء، جلسوا يتحدّثون عما جرى اليوم. أعربت كاترين عن خشيتها أن يكون عرفات من الضحايا. فقال كمال:

- لا أعرف! لا يوجد أنباء مؤكدة. نشرة الأخبار في الساعة الواحدة اليوم، أعلنت الخبر، ولم تذكر حتّى هويّة الطائرات المهاجمة، ولم تذكر أسماء الضحايا أيضاً. عموماً، سيتبيّن الأمر في

الساعات القادمة. لكن، من سيستهدف مقرّ القيادة الفلسطينيّة، غير تل أبيب؟!

دخلت زوجته، حليمة، في النقاش، وذكرت: «لماذا لا يكون القذّافي هو الذي قام بذلك؟ لأنه سبق وأن هدد تونس بعمل عسكري، نتيجة علاقتنا مع الجزائر».

استبعد كمال ذلك. وأنه لا يمكن لجنون القذّافي أن يصل به إلى هذا الدرك من استخدام القوة العسكريّة الغاشمة ضد بلد عربي، مهما بلغت مستوى الخلافات بينهما. ثم إنه حتى لو استهدف تونس، فما دخل مقرّ منظمة التحرير الفلسطينيّة بالخلاف بين ليبيا وتونس؟!

ردّت حليمة:

- ما أعرفه أن الفلسطينيين كانوا مصدر مشاكل للأردن، أدخلوا هذا البلد في حرب سنة 1970، وحاولوا السيطرة عليه، للتعويض عن فقدانهم بلدهم. ونفس الشيء فعلوه في لبنان. وها قد وصلت مشاكلهم إلى تونس أيضاً!

لم تتدخّل كاترين في النقاش، واكتفت بالاستماع. ردّ كمال بصوت مشوب بالانفعال:

- يا حليمة... يا حليمة... طيّب، من بقي لهذا الشعب غير تونس؟ عبد الناصر استثمر القضيّة الفلسطينيّة! وكذلك فعل حافظ الأسد. الكل يزعم أن القضيّة الفلسطينيّة هي قضيّته، ولم يفعل شيئاً للفلسطينيين! أعتقد أن هذا الشعب المسكين، سيبقى وحيداً. وربما وجود القيادة الفلسطينيّة في تونس، بعيداً من سورية، مصر، الأردن ولبنان، يخفف عنها صخب وضجيج الشعارات والكلام الرنان

الفارغ لأنظمة هذه البلدان. للأسف، إذا بقيت القيادة الفلسطينيّة تحت رحمة هذه الأنظمة وتجري وراء الوعود والشعارات الطنانة الكاذبة، فستفقد كل شيء. بل سيصل بها الحال إلى الندم على عدم قبولها بخطاب الرئيس بورقيبة في أريحا قبل عشرين سنة، في مارس 1965 ودعوته الفلسطينيين إلى القبول بقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة!

أثناء النقاش، لفت انتباه كاترين أمران. الأول، إشادة كمال بالحبيب بورقيبة، وبأفكاره وطروحاته. ووجود صورة كبيرة له في صالون الفيللا؟! مع معرفتها أن كمال لا يحبّ بورقيبة مطلقاً! كما لاحظت أنه كلما أتى ذكر اسمه، يسبقه بلقب الرئيس المجاهد الأكبر. ثم تذكّرت أنه كان هنالك صورة لبورقيبة في قاعة الانتظار بعيادته، وصورة كبيرة له خلف مكتبه في غرفة الكشف أيضاً! وأثناء تقديم أفراد أسرته لها، ذكر أن اسم ابنه البكر هو الحبيب. قالت في نفسها: ربما تغيّرت القناعات. أو أنه مجبر على ذلك، كونه ضابطاً، وجزءاً من نظام أمني بوليسي، ينبغي عليه التشبّه به إلى الحدود القصوى.

بشيء من الامتعاض، قطع ولات سلسلة سرد الذكريات على كاترين، مستفسراً عن سبب التماس الأعذار والمبررات لكمال. لماذا لا تقول: إنه صار جزءاً من النظام، ويمارس النفاق، وإنه مستفيد من بقاء هذا النظام؟ شأنه شأن الكثيرين من الضباط في النظام السوري، الذين لم يكونوا يحبون حافظ الأسد وابنه بشار، ولكنهم مستفيدون من استمرار هذا النظام، وسقوطه هو سقوط لهم ولمصالحهم.

رفضت كاترين هذه المقارنة، وردّت بنبرة واثقة من نفسها:

- لا. ليس لهذه الدرجة. أثناء الثورة التونسيّة، كنت على تواصل شبه يومي مع كمال، وكان من ضمن الجنرالات المتقاعدين الذين يدعمون رحيل بن علي. حين تأتي لزيارتي في منزلي ببروكسل، سوف أريك رسالة مطولة من كمال، أرسلها لي عبر الإيميل، بعد سقوط نظام بن علي. تحدّث فيها عن القهر والظلم والعذاب النفسي الذي كان يعانيه طيلة فترة حكم بورقيبة. معتبراً نفسه، ولو بشكل موضوعي، ضالعاً في كل جرائم التصفية والاغتيال التي شهدتها فترة حكم بورقيبة. وذكر أن بورقيبة وتلميذه بن علي كانا طاغيتَين، بل أفظع وأكثر شناعة من الوحوش، كونهما يمتلكان قدراً من الذكاء والفطنة والمهارات الفكريّة واللغويّة، إلى جانب امتلاكهما الوحشيّة أو طبائع الوحش في الغدر والفتك وسفك الدماء، دون رادع أخلاقي. ذكر أن بورقيبة كان كابوساً، اضطرّ كل تونسي إلى عبادته وتقديم فروض الطاعة العمياء له. لدرجة أنه يخشى الإفصاح عن موقفه الرافض له أمام زوجته وأولاده، أو أمّه وأبيه. وأنه كان سعيداً بانقلاب زين العابدين بن علي، ليس حبّاً في بن علي، بل كرهاً في بورقيبة. ولكنه لم يعرف قيمة ومكانة وحنان وطيبة وإنسانيّة نظام بورقيبة، وصار يترحّم على أيّامه، إلّا حين جرّب العيش في ظلّ حكم بن علي الذي فاق سلفه في الاستعباد والفساد والاستبداد، بحيث تحوّل بن علي وكل فرد من أسرته وأسرة زوجته، وكل فرد من حاشيته، إلى حبيب بورقيبة.

وذكر كمال أنه فكّر في الانشقاق عن نظام بورقيبة، وعن نظام بن علي، إلّا أنه عدل عن ذلك، خوفاً على أسرته. لأن نظام العقوبات

الجماعيّة ستطال أسرة زوجته أيضاً، التي كان والدها مسؤولاً أمنيّاً مهمّاً. وقال:

- لا يمكنكِ أن تعرفي مدى كرهي ومقتي للتنظيمات الإسلاميّة السياسيّة. ولكنني أوافق على أن يحكم تونس الجن الأزرق، والشياطين الحُمر، وليس فقط حزب الغنوشي، بدلاً من نظام بن علي، لأنهم سيكونون أرحم من هذا النظام على الشعب التونسي.

شعر ولات بشيء من الحرج والخجل حين سمع هذا الكلام، وأنه تسرّع في طرح ذلك السؤال المشكك في كمال. فحاول العودة إلى يوم الحديث عن مجريات زيارتها لتونس.

مع حلول المساء، أصرّ كمال وزوجته وأولاده أن تقضي الليلة في منزلهم. لكنها رفضت وذكرت أنها حجزت في فندق «ابن خلدون» أسبوعاً، هي مدّة إجازتها التي ستقضيها في تونس. وتريد التجوال في المدينة والتعرّف على معالمها. شاهدت كاترين أغلب معالم تونس العاصمة، وزارت مقرّ منظمة التحرير الفلسطينيّة المدّمر، وما زالت محتفظة ببعض الصور التي التقطتها للركام والأنقاض.

بعد هروب بن علي، زارت تونس في ديسمبر 2011، والتقت بكمال مرّة أخرى. توفّيت زوجته بمرض السرطان. وأصبح له أحفاد. بقيت في تونس عشرة أيام. وشهدت تنصيب منصف المرزوقي رئيساً. عادت وكمال إلى حديث الذكريات في جنيف، وإعادة سرد الأحداث والتفاصيل. ورغم أنه يكبرها، إلّا أنه كان يحدّثها عن مجريات، سقطت من ذاكرتها.

- لحظة! أخذنا الحديث، وكدت أنسى شيئاً. أنا آسفة. لديّ

موعد، ومضطرة للمغادرة. ما رأيك في أن نكمل الحديث يوم غد في منزلي؟ سأطبخ لك أكلة بلجيكيّة!

- ممتاز. في الساعة الثانيّة بعد الظهر. هل يناسبك ذلك؟

- مناسب جداً.

غروب الأصنام

From: Ha-L.Sinjariy@hotmail.com
To: h.zaradashtyan@yahoo.se
Subject: غروب الأصنام وهروبها
Date: Mon, 12 Feb 2011 21:30:14 +0000

عزيزي هاغوب. . .

كأنّي خارجٌ توّاً من ألف عام من العزلةِ، والتيهِ، الصمم والعمى، الصمت والشلل، وتداهمني الأصواتُ والألوان والروائح بُغتةً، كأمواجٍ هائجةٍ، تلعقُ بعنف زورقاً صغيراً، كانت السنونُ القفرُ تكالبتْ عليه نخراً وعيثاً.

فائض الحزنِ والكدر، والسعادة أيضاً، يقذفني سهماً مشتعلاً في سماواتِ أملٍ، لطالما افتقدته. الكون برمّته، يصرخُ من أعماقي: «الشعب يريد إسقاط النظام». هذا النظام الذي خنق الشعب على مدى عقود، وربما قرون، على الصعيد الاجتماعي، الديني، السياسي، الاقتصادي، الثقافي، التربوي، النفسي. . . ، النظام ليس فقط بوصفه حاكماً طاغوتاً وحسب، بل منظومة سلطويّة تسلّطيّة طغيانيّة معقدّة وعميقة وموغلة ومتغوّلة في المجتمع والفرد.

عارياً من كلّ الأحداث التي مرَّت بي، وبذاكرةٍ شديدة التجرّدِ والبراءة والنقاء، أعيشُ صفاءً روحياً وذهنيّاً مذهلاً، كأنّي أعيدُ اكتشاف الحياة وتفاصيلها مجدداً، ليس كما عشتها، بل كما لم أعشها من قبل. خفيفاً، لكأنّي أركضُ بسرعة كبيرة، وفي كل الاتجاهات. أريد أن أسابق شيئاً خفيّاً يجذبني وأجهلهُ. كأنني ريشة طيعَ الريح. شيء ما يدفعني، لا أعرف كنهه، نحو شيءٍ أجهله وأحبّه في آن. طليقُ اللسان من كل الأغلال، كأنني أتحدّث الآن بألف لغة، في الآن عينه، لكنني عاجزٌ عن التعبير عمّا أشعر به. مشدوهٌ، وشراييني وأوردتي تتراقص من الفرحِ والألم. لم أعش هذه اللحظات الملتبسة، ولم تتبَني هذه الأحاسيس المتشابكة، حتّى حين خرجت من السجن، بعد خمس عشرة سنة.

أعتقد أنك مثلي، لم تعد تفارق عيناك الشاشتين، شاشة الكمبيوتر وشاشة التلفزيون، متابعاً أخبار ثورة مصر، بعد الإعلان عن غروب صنمٍ آخر، وإجبار فرعونٍ معاصر على الرحيل عن الكرسي، تحت ضغط صيحات وهتافات الشعب؛ «ارحل».

هل تعلم أن خوفو، خفرع، منكاورع، أحموس الأول، تحتموس الأول، والثاني، والرابع، أخناتون، توت غنخ آمون، رامسيس الأول، والرابع، والخامس، والسادس، والسابع والثامن، والتاسع، والعاشر... وبطليموس الأول، والثالث، والرابع، والخامس...، كل هؤلاء، والعشرات من الفراعنة الآخرين، الفترات التي حكموا فيها مصر، كانت أقصر من فترة حكم مبارك. فضلاً عن كونه حكم مصر مدّة أطول من الملك فاروق، وعبدالناصر

والسادات أيضاً. ثم يقولون لك: كيف لا يتفرعن أو يتنمرد مبارك والقذّافي وصدّام والأسد؟!

مصر التي لم أزرها في حياتي، عرفتها من خلال روايات نجيب محفوظ، يوسف إدريس، يوسف السباعي، إحسان عبدالقدوس...، وقصائد أحمد شوقي، حافظ إبراهيم، أحمد زكي أبو شادي، أحمد رامي، صلاح عبدالصبور وأحمد فؤاد نجم، وأغاني سيد درويش، الشيخ إمام، أسمهان، أم كلثوم، وعبدالحليم...، وألحان رياض السنباطي، ومحمد الموجي، وبليغ حمدي...، وسينما محمد خان، علي بدرخان، عاطف الطيب، يوسف شاهين، وداوود عبدالسيد...، كل ذلك غرس مصر، بتفاصيلها، في عقل وقلب ومخيّلة كل مواطن عربي.

وأنا أتابع أحداث ثورة 25 يناير، كنت أتخيّل نفسي شخصيّة «حلمي» الذي لعب دوره محمد صبحي في فيلم «الكرنك». وأحياناً شخصيّة رشاد عويس الذي لعب دوره صلاح قابيل في فيلم «البريء». أتخيّل كل السجناء السياسيين الذين قضوا في سجون عبدالناصر والسادات ومبارك! حتى لو كانوا أبطال روايات وأفلام سينمائيّة، أجدهم معتصمين الآن في ميدان التحرير، فرحين بسقوط مبارك.

صدّقني، أعتبر نفسي تونسيّاً ومصريّاً، حتّى أكثر من التوانسة والمصريين. لا أعرف لماذا؟! ربما لأنّهم الآن، هم لسان حالي وحالك وحال كل السوريين.

كما تعلم، لم أسافر خارج سورية، ولا أستطيع ذلك. حتّى أنني

لم أزر كل المحافظات السوريّة. لكنني الآن، أريد معانقة مصر، وتقبيلها وتشممها، عناقي لأمي التي ماتت وأنا في السجن.

أنت تعرف ولعي وحبّي للسينما. فبعد خروجي من السجن، حاولت مشاهدة أكبر قدر ممكن من الأفلام السينمائيّة المصريّة التي فاتني مشاهدتها. ركّزت على الأفلام التي تحاكي تجربتنا في السجن، كـ«الكرنك»، «البريء»، «إحنا بتوع الاوتوبيس»، حتى لو أنها سوّقت لمرحلة حكم أنور السادات، وما قيل عن الانفتاح والمراجعة النقديّة للحقبة الناصريّة، إلّا أنها كانت نقلة نوعيّة في نقد جذر وأصل النظام العسكري الأمني، الذي أسسه عبدالناصر.

هؤلاء الطغاة، وصنّاع الثورات، وضحاياها...، وكل مشتغلٍ في السياسة والسلطة، «عابرون في كلامٍ عابر»، كما قال محمود درويش. وتبقى الأوطان والشعوب آبدة، إلى أن يقضي الكون أمراً كان مفعولاً.

«لقد فهمتكم» التي قالها بن علي، هي نفسها المقولة التي أطلقها ديغول أثناء إعلان الجلاء عن تونس. نفس العبارة، كررها الاحتلال الداخلي لتونس، سنة 2011، بعد مضي 47 سنة على قول الاحتلال الخارجي لها، أثناء جلائه عن تونس! لاحظ هذه المفارقة؟!

نعيش موسم «غروب الأصنام» كما كتب ذلك نيتشه ذات يوم. أصنام السياسة، أصنام الثقافة، أصنام الشعر والفكر، السينما، المسرح، كلها تعيش رعشة الغروب، وحشرجة الاندثار. ولئن السلطة المطلقة، مفسدة، فزمن الثورة التي نعيشها تختمر في رحمها ثورات عدّة، ربما تكون مشوبة بالفوضى، ربما تكون مشوبة بالعنف والحروب الأهليّة أيضاً، لكنني الآن مؤمن أن مرحلة النهضة والتنوير

في الشرق، قد بدأت، والطريق نحو الإصلاح، إصلاح ما أفسدته الطغم الدكتاتوريّة، التي أنتجتها الدوغمائيّات العقائديّة، الدينيّة والدنيويّة، قد بدأ ولن ينتهي.

في رسالتك السابقة، عبّرتَ لي عن خشيتك من امتطاء الإسلاميين للثورات العربيّة، واستغلالهم لها وصولاً للسلطة. وأتفق معك تماماً في وجهة النظر هذه، يجب أن يُزال عن الإسلاميين سحر المعارضة والمظلوميّة، كونهم لم يحققوا أحلامهم في الانقضاض على السلطة منذ انطلاقة الإخوان المسلمين. ولن يزول عنهم هذا البريق والسحر، إلّا بوجودهم في السلطة. فلتذهب هذه الدكتاتوريات العفنة بعلمانيّتها المزيّفة، وتأتي دكتاتوريات جديدة. فمن كان بإمكانه الإطاحة بدكتاتوريّة بإمكانه الإطاحة بدكتاتوريّة أخرى. في نهاية المطاف، ستكون الحريّة تاج هذه الشعوب والأوطان. في اللحظات الفارقة من تاريخ الأوطان والشعوب أمر طبيعي وضروري وجود القلق والخشية من مآلات المستقبل، وأن الآتي ربما يكون أسوأ من الراهن! ولكن أن يؤدي القلق بالمرء إلى التردد، ومحاولة الانحياز لإبقاء الأوضاع على ما هي عليه، بحجّة أن الآتي سيكون أسوأ من الحالي، أعتقد أن هذه ضالة النظم الدكتاتوريّة التي تحاول تعزيزها وتغذيتها في أعماقنا.

أشعر بأننا في لحظة تقترب بنا أكثر نحو الحريّة، حتى لو كانت هذه اللحظة مشوبة بالقلق. وبالتالي، تصبح على حريّة. ومعذرة على الإطالة.

البيت الأحمر: بيتي-شاتو

كلُّ شيء على حاله، يتكرّر يوميّاً، كفيلم سينمائي يُعرضُ باستمرار. ذلك اللبناني البدين والمريض، جالس مع زوجته البدينة مثله، على الكرسي المعدني، في فناء مركز «بيتي - شاتو»، يحدّثها عن أوجاعه وعن أهميّة وقوّة خطابات حسن نصراللّه، دون أن يدري أن الواقف إلى جواره على بعد مترين، يسمع حديثه ويفهمه.

درغام؛ أبو ياسر الفلسطيني، أيضاً كعادته، يشتم ويكفر بربّ البلجيكيين، كونهم رفضوا منحه الإقامة، قائلين له: «لو جئتَ من غزّة ومخيماتها، لمنحناك الإقامة. لكنك آت من المخيمات الفلسطينيّة في لبنان. وهؤلاء وضعهم جيد». وصار يحدّث المحيطين به من عراقيين ومغاربة عن أوضاع الفلسطينيين المزرية والمؤلمة في لبنان. وسرعان ما ينسى فورة غضبه، أثناء انزلاقه نحو الحديث عن فترة طفولته في مخيم عين الحلوة في صيدا بجنوب لبنان، سارداً حكاية نزوح والده من قرى الجليل، شمال فلسطين سنة 1948، حين كان يافعاً، مع أهله. وتزوّجه في سنّ متأخّرة من مسيحيّة لبنانيّة، فولد أبو ياسر في يوم هزيمة العرب أمام إسرائيل يوم 5 حزيران سنة 1967. يقولها ضحاكاً:

- كان عليهم تسميتي: هزيمة، خيبة، فشل، إحباط، يأس،

استسلام... وليس درغام! عجيب أمر هؤلاء العرب! يطلقون أسماء الضواري والكواسر على أطفالهم في أيّام هزيمتهم!؟

ثم يواصل حديثه المكرر والشيّق، عن مراهقته وشبابه، وأنه مارس العادّة السريّة في الثانية عشرة، وحين بلغ الرابعة عشرة صار يتلصص على خالته التي تكبره بثلاث سنوات، أثناء زيارتها لهم، وهي تستحم، من ثقب في باب الحمام، ثم يهرع إلى دورة المياه ليمارس عادته.

يضحك ويقهقه أبو ياسر، فيعلو صدى ضحكته في الممر المقابل لقعدته مع أصدقائه، ذاكراً أنه ذات يوم، نسي إغلاق باب التواليت، المجاور للحمام، وحين أنهت خالته الاستحمام، أرادت دخول التواليت لقضاء حاجتها، وإذا بها تراه واقفاً ممسكاً بقضيبه المنتصب إلى أقصاه، وفي ذروة اقتراب لحظة النشوة. لم يثنه ظهورها له عن مواصلته الفرك، بل حدّق فيها، نظرة الأهبل المشدوه، الذي يرفض التضحية بلذته حتى لو كان كل العالم يتفرّجُ عليه، وقذف بتأوّهٍ عميق وشدّة، فتطاير منيه ملطخاً ثيابها. وقال لأصدقائه:

- هي لم تغلق الباب فوراً، خجلاً، كونها رأت أحداً في التواليت، كما جرت العادة، ولم تنظر إلى فستانها الملطّخ، بل بقيت محدّقة فيّ، لبضعة ثوان، وعيناها على يدي اليمنى، والماء المتطاير منّي، كأنّها تريد اكتشاف شيءٍ أو عالمِ غامضٍ عنها. كنتُ منتشياً بلذّتي، منكمشاً عليها، أريدها أن تبقَى آبدة، وفي الوقت عينه، جسدي الواهن، يرتعش مصحوباً بقشعريرة اللذّة، غير عابئ بما جرى. وفي اللحظة الأخيرة، قرأت في عينها اليسرى نظرة شفقة وقرف واحتقار، وفي عينها اليمنى نظرةً غير بريئة. لذا، شككت أنها

كانت تعرف وجودي في التواليت. وفتحت الباب بسرعة، وليس بهدوء، كما يفتح المرء باب أيّة غرفة في حالةٍ عادية، فما بالكم بباب دورة المياه! هي أيضاً كانت مراهقة، ولها عالمها وفضولها ورغبتها في اكتشاف الرجال.

ثم يكرر درغام حديثه اليومي إيّاه، عن بطولاته حين كان مقاتلاً في حركة «فتح» الفلسطينيّة، ومغامراته ضمن معسكر سرّي للحركة في أثيوبيا في زمن منغيستو هيلا مريام، وأن تلك الأيّام كانت أيّام عزّ، وأحلى أيّام العمر، حين كان المسؤولون الأثيوبيون، وبالاتفاق مع رفاقه، يأتون ببنات أفريقيات لممارسة الجنس معهن، بالإضافة إلى السماح بتعاطي الحشيش والماريغوانا، للترويح عن الفدائيين وتحضيرهم لخوض غمار المعارك. قال ضاحكاً، وامتزجت ضحكته بالسعال الحاد، وهو يدخّن لفافة الماريغوانا.

كان عمره 15 سنة حين غزت إسرائيل جنوب لبنان. والده كان أحد الكوادر العسكريّة ضمن حركة فتح، يقودُ كتيبة من المقاتلين، وقُتِلَ في معارك صدّ الهجوم الإسرائيلي على مخيّم عين الحلوة. ولكن الرصاص جاءه من الخلف، ولم يُقتل برصاص الإسرائيليين. ولم يعرفوا برصاصةِ مَن قُتِل. ذهب دمه هدراً. ترمّلت أمّه وهي في السادسة والثلاثين من عمرها، وتيتّم وإخوته الثلاثة الذين يصغرونه. انضمّ لـ«فتح» في السادسة عشرة، وحمل السلاح مراهقاً. أغوته البندقيّة والزّي العسكري الذي كان يرتديه والده. جذبته الأغاني والأهازيج الثوريّة والقصائد التي رثت والده ورفاقه الشهداء. أمّا أمّه، فقطعت عهداً على نفسها بألّا تعرف رجلاً آخر بعد والده، واحتفظت ببذلته العسكريّة المضمّخة بدمه، كي تبقى تذكّرها به.

لكن، بعد عودة بعض القيادات العسكريّة الفتحاويّة إلى لبنان، وتحديداً إلى «عين الحلوة»، تزوّجت صديق زوجها ومعاونه في قيادة الكتيبة، اسمه خليل أبو الوفا، الذي كان يتردد على منزلهم، حين كان والده حيّاً. فوراً، ترك درغام المنزل. لم يحتمل رؤية رجل غريب في بيته، وسماع تأوّهات أمه تحته، وهي تتلوّى من اللذّة والمتعة! طلبَ من الحركة أن ترسله إلى داخل فلسطين فدائياً أو استشهاديّاً. ولكنها نقلته إلى معسكر سرّي موجود في أثيوبيا. بقي فيه أكثر من سنتين. ثم فرزوه إلى تونس كحارس لمقرّ منظمة التحرير في «حمام الشطّ». لم تكد تمضي أربعة أشهر على وجوده في تونس، قصف الطيران الإسرائيلي مقرّهم، وأصيبَ بجراح بليغة، وما زالت بعض الشظايا في جسده. بعد شفائه، بقي لغاية 1988 في تونس. وطلبَ مجدداً من المنظمة أن تنقله إلى الداخل الفلسطيني المنتفض، فوافقت على طلبه، شريطة الانتقال إلى معسكر للحركة موجود في منطقة «السارة» جنوب ليبيا، قريباً من الحدود التشاديّة. في البداية، لم يعرف سبب وجود معسكر يضم ما يزيد عن ثلاث مئة فدائي في هذه المنطقة النائية والقاسية والبعيدة عن فلسطين! في ما بعد، فهم أن القذّافي يستخدمهم كمرتزقة لصدّ الهجمات التشاديّة، أثناء الصراع بين ليبيا وتشاد على شريط حدودي متنازع عليه، داخل تشاد، غني باليورانيوم، يريد القذافي ضمه إلى ليبيا. كانوا يقولون لهم: «تشاد مع إسرائيل، ودفاعنا عن ليبيا هو دفاع عن فلسطين». بينما هم شبان بسطاء متحمّسون، يصدّقون ما يقوله لهم قادتهم، حتّى لو كان معسكرهم في الأرجنتين.

في نيسان سنة 1992، حين سقطت طائرة أبو عمّار في الصحراء

الليبيّة، كان درغام من ضمن الذين أنقذوه، برفقة قائد المعسكر العقيد خالد سلطان، كونه حارسه الشخصي. كان معسكرهم يبعد عن مكان سقوط الطائرة مسافة 140 كيلومتراً. وقتها هبّت عاصفة رمليّة لم يشهدها في حياته. وصار عرفات يعرفه ويعرف كل الرفاق الذين كانوا معه.

اتصلت أمّه، طالبةً منه العودة. كان صوتها معتلّاً، فسألها عن صحّتها وأحوالها، أجابته؛ أن الأمور تمام، وهي بخير. ولكنها اشتاقت كثيراً له وتريد رؤيته. ولكن، كيف يعود من دون أخذ موافقة الحركة، وهو في جوف هذه الصحراء القاحلة؟! بعد إلحاح شديد، وبشقّ النفس، وافقت قيادة المعسكر على منحه إجازة شهر، يزور فيها والدته وإخوته.

لم يخبرهم بموعد وصوله من طرابلس الغرب إلى بيروت، كي يجعل الأمر مفاجأة لهم. وحين وصل، وطرق باب البيت، ويا لهول ما رأى؟! لم يجد أمّه وإخوته فيه، بل أغراباً يسكنونه، قالوا له إنهم اشتروا البيت من صاحبه خليل أبو الوفا. سألهم عن أمّه وإخوته، والصدمة والغضب يفيضان من كل خليّة في جسده، دلّوه على العنوان، وإذا ببيت شبه متهالك، استأجرته أمه، لا يستر عنها وإخوته، لا حرّ الصيف ولا برد الشتاء. أمّه على فراش الموت، نحيلة الجسد، شاحبة الوجه، محجرا عينيها صارا كهفين غائرين مزرقّين. الشيب غزا شعرها، التغضّن والتجاعيد حفرت الأخاديد في وجهها الجميل، كأنّها في الثمانين من عمرها. من حولها إخوته وخالته التي كانت يتلصص عليها، أثناء المراهقة. لا يعرف كيف تحرّك لسانه ونطق:

– يامّا، ماما. . . أنا درغام. وارتمى في حضنها، منهاراً باكياً. وصارت تبكي وتضحك، وتقبّله وتتلمّس بيديها وجهه وشعره وكتفيه، وتشدّه إلى صدرها. وبعد أن فرغا من جولة البكاء، بدأت تسرد على مسامعه ما جرى معها خلال هذه السنوات السبع:

– سبع سنوات، يا ولدي، مرّت كسبعة قرون من العذاب والشقاء والألم والجحيم. لم أشأ أن أخبرك، كيلا تتهوّر، وتقترف شيئاً، نخسرك أنت أيضاً كما فقدنا فلسطين ووالدك. ولكن، شعرت بدنو أجلي قريباً، ولم يبقَ لهؤلاء الأولاد غيرك. هم بحاجة إليك أكثر من حاجة فلسطين إليك. إذا متّ، لا يبقى لهم أحد سواك. خليل غدر بنا. غدر بي. أوهمني بأنه سيعوّض أطفالي حنان الأب الذي فقدوه، وأنه سيفعل كل ما في وسعه كي يسعدني ويسعد أولادي. كنت ضعيفة أمام المحنة الكبيرة بمقتل والدك. أهلي قاطعوني لأنني تزوّجت من رجل مسلم. فقط أختي فيوليت كان ترسلها أمّي للاطمئنان عليّ. ولكن أمّي أيضاً ماتت. طلّقني خليل، بعد أن سلبنا المنزل وطردنا منه. لم أنجب منه أطفالاً لأنه كان عقيماً. تحوّل إلى غول، إلى وحش، يريد أن ينهش ويفتك بكل شيء. أثناء إحدى المشاجرات، هددني بأنه سيقتلني كما قتل زوجي. نعم اعترفَ بأنه قتل والدك، كي يفوز بي. الرصاصات التي قتلت والدك من الخلف، كانت رصاصات خليل. لهذه الدرجة من الحقارة والدناءة والتوحّش وصلت به الأمور لأن يقتل صديقه غدراً، كي يحظى بزوجته.

ربما يساورك ظنّ أنني كنت شريكته في قتل والدك. أقسم لك، يا ولدي، أنني بريئة من ذلك. وأقول لك هذا الكلام، لا كي تذهب

وتنتقم لوالدك ولنا، بل كي تعرف حجم الألم والعذاب الذي تجرّعناه، طيلة هذه السنوات السبع. نعم، ليسامحني الرب على خطيئتي، وقبولي الزواج منه. سامحني، كي يسامحني الربّ يسوع.

بعد أن فضفضت أمه كل ما في جعبة قلبها المنكسر، ارتاحت وخفّت عليها الآلام. شعرت بأن رؤيتها لدرغام، كانت كرؤية يعقوب لابنه يوسف. وهذا ما زاد من حجم الندم والشعور بالذنب الذي اجتاح كيانه. وأنه أخطأ في حقها وحقّ أخوته، وإنه ما كان عليه تركهم، مهما حصل. أحسَّ بأنه شريك في ما آلت إليه أوضاعهم. وصار يمازحها أنها قريباً ستخطب له وتفرح به وترى أحفادها، وتعود الأمور إلى سابق عهدها، وبل أفضل من السابق أيضاً.

لكنه اتخذ قراراً لن يعدل عنه، لو انطبقت السماء على الأرض. خلال عشرة أيّام، تقصّى أخباره، وصار يتابع تنقلاته من منزله إلى مقرّ حركة «فتح» في مخيّم «عين الحلوة». عرفَ أنه أصبح زعيماً وشخصيّة مرهوبة الجانب في المخيّم، ويحسب له ألف حساب. أثناء تواجده في تونس وليبيا، وفّرَ بعض المال، وضع نصفه لدى أمّه، وما تبقّى اشترى به كلاشينكوف مع كاتم صوت. ونحو عشرة مخازن مليئة بالرصاص. وأربع قنابل يديويّة. وقنبلة صوتيّة وثلاث قنابل دخّانيّة. ركّب عبوة ناسفة، هي عبارة عن كميّة من البارود والسماد، بحيث تكفي القوّة التدميريّة إلى تفجير القنبلة الصوتيّة والقنابل الدخانيّة معاً، الموجودة ضمنها. وضع العبوة في كيس زبالة قريباً من منزل خليل. ارتدى نفس ملابس حرس منزله. وحين هبط الليل وحلّ الظلام، من مسافة مئتي متر تقريباً، أطلق عدّة رصاصات من بندقيته المزوّدة بكاتم صوت، على العبوة، فانفجرت فوراً،

وصدر منها دوي هائل، مع تصاعد الدخان الكثيف وانتشاره في المنطقة. هرع الحرس إلى المكان، ولم يبقَ أمام الباب سوى مقاتل واحد. على الفور، دخل بسرعة، استوقفه الحارس وسأله عن اسمه وهويّته. أجابه بسرعة: «الرفيق القائد خليل اتصل بي على اللاسلكي. ويجب أن أراه فوراً. بسرعة، افتح الباب». ونتيجة الانفجار والبلبلة التي أحدثها، واستعجاله، لم يمانع الحارس، فاتحاً الباب. ولو قاوم أو حاول الاتصال بخليل، لأطلق عليه النار وأرداه.

طرقَ الباب بسرعة. فتحت له امرأة بملابس النوم. ضربها بعقب البندقيّة على رأسها، فسقطت فوراً مغشيّة والدم يسيل من رأسها. دخل إلى الصالون، لم يجده. دخل إلى غرفة النوم، وجده واقفاً أمام المرآة، يتعطّر. صرخ فيه:

- عندك. ولا حركة. يداك إلى الأعلى، راكعاً على ركبتيك. هل تعرف من أنا؟

صار جسد خليل من الاصفرار والذعر، كقشرة الليمون. صرخَ فيه مرّة أخرى: انظر في وجهي. هل تذكّرتني؟ حدَّق فيه وقال:

- سعيد! أنت سعيد. صديقي الشهيد سعيد!

- لا. أنا ابنه درغام، وجئت كي أنتقم لسعيد على غدرك به وخيانتك له يا كلب!

وقبل أن ينطق بالتوسّل والاسترحام والمغفرة. أوّل رصاصة كانت في جبهته. ثم أفرغ فيه مخزناً كاملاً. وجعله يغرق في بركة دمه. كاتم الصوت، جعل عرس الانتقام أجمل وأكثر سلاسة.

بسرعة، ركّب مخزناً آخر للبندقيّة. واتجه نحو السور الخلفي للبيت. لحسن حظه كان هنالك برميل استخدمه لتسلّق الجدار، والقفز من فوقه. رمى قنبلة يدوية كي يحدث حريقاً في حديقة المنزل، حتى يشغل الحرّاس أكثر. وهرب بأقصى سرعة، حتى صار في الطرف الجنوبي للمخيّم. لجأ إلى بيت أحد عناصر الجبهة الشعبيّة - القيادة العامّة التي يقودها أحمد جبريل. وشرح له قصته وأسباب قتله لخليل أبو الوفا، وأنه سينشقّ عن حركة «فتح» ويمكن اعتباره عضواً في جبهتهم. ترجّاه أن يحميه وينقله إلى سورية. لأن المخيّم صغير، مساحته واحد كيلومتر مربّع، يسكنه نحو 80 ألف شخص، وكل الناس تعرف بعضها بعضاً. كان يعرف أن حزب جبريل متعاون مع نظام حافظ الأسد الذي يسيطر على البقاع اللبناني ومناطق أخرى في جنوب لبنان وبيروت. وبالتالي، هذا الحزب هو النفق الأسرع المفضي إلى سورية. بالفعل، كان له ذلك، حيث خبأه الرجل في سرداب تحت منزله يتصل بنفق تحت الأرض بطول 500 متر، نهايته تقع خلف الحواجز الأمنيّة الكثيرة المحيطة بالمخيّم. أجرى الرجل اتصالاته، ورتّب كل الأمور. في الليلة التالية، عبر النفق وكان في انتظاره رجل ملثّم. زحفا مسافة مئتي متر على بطنيهما، حتى تمكّنا السير على أقدامهما بأمان. مشيا نصف ساعة، إلى النقطة التي فيها السيارة العسكريّة، وسارا باتجاه أحد معسكرات «الجبهة» في البقاع. ومنها إلى معسكر لها في ريف دمشق. مرَّ بحواجز لا يمكن أن يحصيها. وأمام كل حاجز، يقول في نفسه، ربما تكون النهاية هنا. بعد اجتياز الحدود، تنفّس الصعداء، وشعر بالأمان.

أثار مقتل خليل أبو الوفا ضجّة كبيرة في «عين الحلوة»، وأصدرت حركة «فتح» بياناً اتهمت فيه إسرائيل بارتكاب ذلك، عبر إرسال فرقة كوماندوس خاصّة، استفادت من ثغرة أمنيّة. استمع درغام لهذا التصريح عبر الإذاعة وهو في معسكر «الريحانيّة» في الغوطة الشرقيّة بريف دمشق، وصار يضحك في أعماقه ويقول: «كوماندوس إسرائيلي يا كذّابين؟! كوماندوس؟!». لكن ما أثار غيظه أن التصريح أغدق المدائح على هذا المجرم والقوّاد أبو الوفا، وأنه مناضل وقائد وشهيد، أفنى عمره في سبيل قضيّة تحرير فلسطين.

عرفوا أنه قاتل أبو الوفا، بطريق الصدفة. بعد مضي ثلاثة أشهر تقريباً. حيث أرسلت قيادة المعسكر الفلسطيني في الصحراء الليبية برقية بحث بحقّ درغام إلى قيادة «فتح» في لبنان، يبلغونها فيها أنهم فقدوا الاتصال به، وأنه متخلّف عن الالتحاق بالمعسكر، بعد انتهاء إجازته. وفي الرسالة، كل بياناته وصورته الشخصيّة. وخلال البحث عنه والتحقيق في ذلك، تبيّن لهم أنه مفقود منذ يوم مقتل أبو الوفا. ولكن لم يكن لديهم دليل مادي ملموس ضده.

بعد رؤية أمّه له، ومقتل خليل، وسماعها أنه بخير وفي أمان، ويعيش في سورية، بدأت صحّتها تتحسّن. لم يحتمل درغام البقاء ضمن جبهة أحمد جبريل. كاد يختنق. تشكّل لديه شعور أنهم مجرّد مرتزقة لدى المخابرات السوريّة. وصار يقول في نفسه: «مرتزقة عند القذافي، وفي تلك الصحراء، أفضل وأحسن بكثير من مرتزقة عند حافظ الأسد، وفي غوطة دمشق». القناعة التي تشكّلت لديه أن الكل باعوا واشتروا في الفلسطينيين، ابتداءً بقادتهم وانتهاءً بالرؤساء العرب.

بعد مرور سنة على تواجده في سورية، ومن خلال زياراته المتكررة لمخيّم اليرموك في دمشق، أجرى بعض الاتصالات السريّة مع منظمة «فتح»، والتقى بمسؤول المنظمّة، في مكان آمن، خارج المخيّم. ووضعه في تفاصيل ما جرى معه. وذكر له أنه يريد العودة إلى «فتح» وأنه قتل أبو الوفا، ضمن هذه الظروف ولهذه الأسباب. ولو رآه مرة أخرى، سيقتله مجدداً. طلب من المسؤول أن يبلّغ تحياته إلى أبو عمّار. وأنه يعرفه أثناء تحطّم طائرته في الصحراء الليبيّة، لأنه كان ممن أنقذوه وقتها. رغم أن قتل الخائن خليل، لا يسترعي طلب العفو والرحمة، لكنه طلب من أبو عمّار أن يصدر أمراً خاصاً به، يعفيه من المساءلة والعقوبة الحزبيّة والعسكريّة.

بعد شهر، اتصل به المسؤول، عن طريق وسيط، وطلب مقابلته. أراه مجموعة من المراسلات والوثائق كان أهمّها عفواً خاصاً صادراً من أبو عمّار، وأمر بنقله من معسكر «السارة» في ليبيا إلى «عين الحلوة». ورسالة مرسلة من العقيد خالد سلطان إلى قيادة «فتح» في المخيّم، يعلن فيها موافقته على النقل، ورسالة من قيادة «عين الحلوة» مرسلة إلى قيادة مخيم اليرموك، تعلن فيها امتثالها للأوامر الصادرة من القائد، وإعفاء درغام من أية مساءلة قانونيّة. اجتاحه سرور عارم بعد سماع هذه الأخبار. وطلب من المسؤول إمهاله أسبوع واحد، حتى يرتّب أموره، ويهرب من معسكر أحمد جبريل. وفعلاً هرب، وسلّم نفسه لمنظمة «فتح» في سورية. وهي تكفّلت بنقله إلى لبنان، والوصول إلى المخيّم. لم يكن يتوقّع أن يستقبله التنظيم هناك، استقبال الأبطال. والكل صار يتحدّث عن شجاعته وشجاعة المرحوم والده. وأنه خلّص المخيّم من إجرام أبو الوفا.

لكن، لم يكن هذا سبب حفاوتهم، بل إنهم صاروا يرهبون جانبه، كونه أتى برسالة عفو خاص صادر من ياسر عرفات شخصيّاً. لذا اعتبروه شخصاً مهمّاً للغاية، ولديه حصانة، ومدعوماً من عرفات.

بقي في المخيّم لغاية 2006. تزوّج، وماتت أمه، بعد أن رأت أحفادها. احتاروا هل يأخذونها للجامع، وهي مسيحيّة، أم للكنيسة وهي متزوجة من مسلم؟ قرروا أن يصلّوا عليها صلاة الجماعة في جامع المخيّم، ثم نقلوها إلى كنيسة الروم الأرثوذكس في صيدا، ودفنوها إلى جانب والديها في مقابر المسيحيين.

ملّ درغام من مشاكل الفلسطينيين وخلافاتهم. وبعد سيطرة التنظيمات الإسلاميّة كحركة «حماس» وجماعة منير المقدح على المخيّم، وتراجع حضور «فتح»، بالإضافة إلى الصعوبات التي يعانيها الفلسطيني في لبنان، تركَ زوجته وأولاده وهربَ إلى تركيا. عملَ في تهريب البشر، عبر البحر والبر إلى اليونان. من فدائي ومناضل يدافع عن قضيّة إلى مهرّب؟! وصار يرسل قسماً مما يحصل عليه من الأموال إلى أسرتهِ في المخيّم، وقسم يصرفه على البارات والملاهي والنساء. أصيب بالقرف من هذه الحياة أيضاً. هربَ إلى اليونان، ومنها إلى ألمانيا. أعادوه إلى اليونان بسبب بصماته. لأن اليونانيين اعتقلوه أكثر من مرّة. وها هو الآن في بلجيكا منذ 2008.

خيّم عليه الصمت. تنهّد، وكأنّ مفعول الماريغوانا زال عنه. مدّ يده إلى جيبه مخرجاً الكيس، ولفّ سيجارة أخرى. أشعلها، سحب منها نفساً عميقاً، ونفث الدخّان قائلاً:

- الحياة بالنسبة لي، لم تعد تساوي هذه السيجارة. اشتقت لأولادي وزوجتي، اشتقت للمخيّم، لسنوات البراءة الثوريّة حين

كانت الأغاني والقصائد وحملُ السلاح، يشعرنا بالهيبة وأننا نمتلك طاقة معنويّة رهيبة، بإمكانها إزالة إسرائيل من الوجود وتحرير ألف فلسطين. اشتقت إلى تلك الأوهام والخرافات والأحلام الثوريّة المنادية بتحرير فلسطين من البحر إلى النهر، أمام هذا الواقع العاهر والقذر. من المسؤول عن كل هذا الخراب الذي نعيشه؟! من؟!.. من؟!

اغرورقت عيناه بالدمع، وهو ينهي جملته الأخيرة: اشتقت لرؤية ولدي ياسر وتقبيله واستنشاق رائحته.

ورغم أن أبو ياسر يكرّر حكايته هذه على مسامع المحيطين به في «بيتي-شاتو» كل صباح ومساء، بحيث حفظها أصدقاؤه عن ظهر قلب، وصاروا يذكّرونه ببعض التفاصيل التي يسهو عنها أحياناً، إلّا أنه في كل مرّة، يضيف إليها جديداً، وكأنّها رواية تجدد نفسها، مقدَّرٌ لها ألّا تنتهي. مفتوحة على اللانهاية، وبإمكان جلسائه إعادة سردها، مضيفين إليها من خيالهم، لكثرة ما سمعوها، ولم يملّوا منها.

أمّا طاهر، الكردي العراقي المقعد، ومشوّه اليدين والقدمين منذ الولادة، هو أيضاً له جلسته وجماعته الذين يستمعون له كل صباح. كان منظر يديه المشوهتين مخيفاً، وكأنّ هذا الرجل خرج للتو من فيلم رعب. خلال فترة تواجده هنا، الممتدّة لأكثر من خمس سنوات، صار طاهر جزءاً من ديكور مركز اللاجئين، وتعاقب على الاستماع له المئات. كل يوم يهدد الموظفين في المركز بأنه سيضرم النار بنفسه إذا لم يحصل على الإقامة. فيردّ عليه الموظفون: إن البت في ملفّه ليس بيدهم، وأن مهمتهم فقط تقديم الخدمات للموجودين في المركز. وإنه ليست مشكلتهم، إذا لم يقتنع المحققون بحقيقة قصّة

لجوئه إلى بلجيكا، وقوله إنه كان ناشطاً سياسيّاً معارضاً لنظام صدام، رغم أنه لا يقوى على الحركة من دون كرسي متحرّك؟!

خمس سنوات في هذا المركز، وسبع مرات رفضوا طلب لجوئه، لم يخلق لديه الإحساس بضرورة العودة إلى بلده. يعتقد أن أهل كردستان سيشمتون به وسيقولون عنه: «طاهر رجع من أوروبا صفر اليدين، بعد أن بقي هناك خمس سنوات؟!».

لم يهرب من الفقر. كان وما زال يملك بيتين في «زاخو»، ولديه سيارة وسائق. ومتجر لبيع الملبوسات، يديره أخوه. أتى إلى أوروبا هرباً من الملل، ولأن أوروبا لها سحرها وبريقها. يكفي حين يعود زائراً إلى كردستان، أن يقول الناس عنه: «طاهر جاء من بلجيكا!». هذه العبارة وحدها، لا تقدّر بثمن بالنسبة له. «لا تنسى يا أخي أن بنات أوروبا لسن كبنات كردستان!»، هذه العبارة يكررها دائماً. مُقعد، وجسده مشهوّه، ولا يمكنه السير من دون كرسي متحرّك! وأتى إلى أوروبا راكضاً وراء البنات؟!

لكن من يجهل طاهر، لا يعرف أن لديه الآن صديقة بلجيكيّة، يبيت عندها في الأسبوع ثلاثة أيّام، ويبيت في «بيتي-شاتو»، بقية الأسبوع، كي لا تتوقف السلطات البلجيكيّة عن مساعدته. صديقته البلجيكيّة الأخيرة، هي الرابعة. إذ سبق وكانت له ثلاث صديقات أخريات، يضاجعهن ويخدمنه أكثر من أيّة زوجة.

حين يسمع المرء كلام طاهر، يظنّ أنه يبالغ. ولكن، بالفعل له صديقة بلجيكيّة، جميلة وشابّة، موظّفة في أحد مراكز رعاية المعاقين. وكانت له صديقات كثيرات.

أمّا الفتاة الرومانيّة، مارتينا، يوميّاً، تمرّ من هنا، بغنج ودلال وتثاقل وتثاؤب، وتلفت أنظار الجميع إليها أثناء توجهها إلى حمامات النساء، وببال الجميع أنها قضت ليلة ساخنة مع أحد زبائنها الذين تصطادهم في المركز. ولا أحد يمكنه منعها، كونها تمارس حريّتها الشخصيّة في ممارسة الجنس مع من تريده. هي لا تفعل ذلك مجاناً، بل بمقابل متفق عليه طبعاً. الكل ينظر إليها، وإلى ارتجاجات نهديها الكبيرين، والحركة الدورانيّة التي تهزّ بها الأرداف بمهارة فائقة، كي تثير الانتباه وتجذب الأنظار إليها، لدرجة أنه حين تمرّ، اللبناني والكردي والفلسطيني وكل من هو موجود في ساحة المركز، يتوقّفون عن أحاديثهم، كي ينصتوا إلى أحاديث جسد مارتينا. هذا الجسد، ومهارات فنونها في اختلاق الارتجاج أثناء المشي، كان كافياً لاستفزاز واستنهاض وانتصاب شعب بأكمله، وليس بضعة لاجئين بؤساء في هذا المركز.

تفاصيل هذا المشهد الصباحي، لكثرة تكراره، هو أيضاً صار باعثاً على الملل والسأم والقرف. روتين الحياة في مركز «بيتي - شاتو» الذي يُؤوي المئات من طالبي اللجوء الإنساني والسياسي من عرب، كرد، أفغان، أفارقة، فرس، رومان، شيشانيين، ألبان، وهنود، هذا الروتين يمتصّ الإنسان، ويلقي به في ما يشبه الثقب الأسود، بحيث تكون مضطراً للاستيقاظ في وقت محدد، والحضور إلى المطعم وفقاً للمواعيد المحددة، وإلّا ستقضي يومك جائعاً، أو تضطر إلى شراء وجبة طعام على حسابك. تكرار تناول نفس الوجبات خلال أيام الأسبوع، مضافاً إليه حالة الانتظار، انتظار إجراء المقابلة الأولى في مكتب اللجوء، ثم تحديد موعد المقابلة

الثانية، وربما الثالثة أو العاشرة، لحين صدور القرار النهائي بالموافقة على منح الإقامة أو رفض طلب اللجوء، كل ذلك، له شديد الأثر في جعل مرور الأيام، أكثر لزوجةً، وباعثةً على الضجر المميت.

الأشهر التسعة التي أمضاها ولات أوسو في هذا المركز، كادت تُشعره بالاختناق. لكن كل هذه الأيّام، توشك أن تصبح جزءاً من ذاكرته المتخمة بالمرارات، كونه حصل على الإقامة منذ أسبوعين، ويبحث الآن عن شقّة للإيجار. بينما كان واقفاً، يجوب بنظراته بين تفاصيل ساحة «بيتي-شاتو»، ربت أحدهم على كتفه اليسرى قائلاً:

- صباح الخير. ما لي أراك شارد الذهن، كعادتك؟!

التفت إلى الوراء وإذا بسردار، الشاب الكردي السوري من عامودا، واقفاً إلى جواره. رحّب به وذكر أن لديه موعداً ظهر اليوم. وأمامه ثلاث ساعات، لا يعرف ماذا يفعل فيها؟ فاقترح أن يتمشيا قليلاً خارج المركز. ويتجها نحو سوق المغاربة في شارع «برابون». أدارا ظهريهما لما تبقّى من تفاصيل المشهد اليومي المكرر، يستكمل نفسهُ بنفسهِ. التفت إليه ولات وقال:

- مكان موعدي لا يبعد كثيراً عن هنا. إنه في شارع «كوارتويس» بحيّ «مولنبيك». لذا، يجب ألّا نبتعد كثيراً. يمكننا السير نحو محطة القطار «غاردي نورد»، والتجوال في سوق المغاربة. أنا أدعوك لشرب فنجان قهوة في أحد المقاهي الموجودة هناك.

- قبل ذلك، علينا المرور بالغزلان الموجودة خلف الزجاج، وإلقاء التحيّة الصباحيّة عليهنّ، وتغذية أعيننا برؤية أجسادهن!... قالها ضاحكاً.

- تقصد شارع «آرسخوت»! ليكن ذلك. أنا أيضاً أريد إمتاع نظري.

ذكر سردار أنه يعرف ولات، قبل اللقاء به في «بيتي-شاتو». يعرفهُ من مقالاتهِ السياسيّة المنشورة في المواقع الإلكترونيّة الكرديّة، تلك التي كان يكتبها أثناء وجودهِ في دمشق. مشيداً بمقالاتهِ الناقدة لنظام الأسد. وصار يقول في نفسه: كيف لا يعتقل النظام شخصاً ينتقده بهذه الحدّة ک ولات أوسو؟ إمّا أن النظام أصبح ديمقراطيّاً؟ أو أن ولات، مجرّد عميل له؟!

أدخل كلام سردار في نفسه شيئاً يشبه الثقة والمتعة، الآتيتين من شعورهِ بأنه كان يكتب شيئاً يستحق أن يتابعه الناس، ويعجبهم! فردّ عليه:

- لا هذا! ولا ذاك. عدم اعتقالي ليس مؤشّراً على أن النظام ديمقراطي، يحترم حريّة التعبير عن الرأي، ومنفتح على النقد. كما أن عدم اعتقال الكثير من الكتّاب السوريين المعارضين للنظام، لا يعني أنهم عملاء النظام.

النظام لم يعتقلني، رغم جولات التحقيق والتهديد في شعبة المخابرات السياسيّة، كي يزرع الشك والريبة في قلبكَ، وقلوب الكثيرين مثلك، بي وبغيري. وقد نجح في ذلك. بدليل كلامكَ، الذي هو كلام الكثيرين أيضاً. لكن النظام المخابراتي السوري، ليس كتلة أمنيّة منسجمة. فما تراه المخابرات السياسيّة من مصلحة النظام، ربما لا تراه المخابرات العسكريّة أو الجويّة أو أمن الدولة أو المخابرات العامّة. يعني أذرع النظام الأمني، صحيح أنها خاضعة لعقل وذهنيّة واحدة، لكن هنالك دوماً هامش لحريّة التصرّف واتخاذ

القرارات الانفراديّة، في ظل حالة الطوارئ والأحكام العرفيّة التي أعلن النظام عن رفعها تحت ضغط الثورة والمظاهرات. بدليل مداهمة عناصر المخابرات الجويّة منزلي، ومحاولاتهم اختطافي تحت تهديد السلاح. ولحسن حظّي، لم أكن موجوداً في البيت وقتها. وبقية قصتي تعرفها.

صارحه سردار، بعدم إعجابه بمقالاتِهِ التي دافع فيها عن حزب العمال الكردستاني. كان يشعر أن ولات بهذه المقالات، يؤدي دور محامي الشيطان، كما يقال.

- ومقالاتي الحاليّة التي أنتقد فيها الكردستاني، تعجبك، بكل تأكيد، لأنها تأتي على هواك. أليس كذلك؟! لكن، هنالك أيضاً، من لا يكتفي بعدم إعجابه بهذه المقالات، وبل يخونني ويتهمني بأبشع وأشنع التهم!؟ قالها ولات ساخراً، ثم استطرد:

- حين دافعت عن الكردستاني، ورديفه في سورية، كان ذلك نتاج قناعة ومبدأ قائم على ضرورة عدم ترك هذا الحزب وحيداً بين كمّاشة تحالف النظامين التركي والسوري. ولم أجنِ من وراء ذلك لا مالاً ولا جاهاً ولا منصباً، على العكس من ذلك، كنت في مواجهة التهديد والوعيد الأمني، وعرضةً للتشويه والتشهير من قبل خصوم هذا الحزب. ما أجبرني على الهرب من وطني، وتحمّل الأخطار والأهوال في تركيا واليونان. والآن، حين أنتقد الكردستاني، على خلفيّة موقفه المخزي والمخجل من الثورة السوريّة، وتنسيقه مع نظام الأسد، الذي قمعه بالتعاون مع الأتراك، قبل الثورة، أيضاً ثمّة من يخونني ويتهمني بالعمالة وبيع الذات ونكران الجميل، بل تعرّضت للتهديد بالقتل أيضاً.

مجتمعاتنا، بفعل الفساد والاستبداد المزمن، صارت أشبه بالمراعي والمزارع المطوّبة باسم المستبدّ، والشعوب فيها، أشبه بالقطعان التي تسبّح بحمده. أضحت مجتمعاتنا شبكة معقّدة من الأنفاق التي استمرأت الناس العيش فيها. مجتمعات أدمنت الشعوذة السياسيّة والإعلاميّة والثقافيّة، ستنظر بعين العداء والشراسة إلى أي بصيص استنارة يسعى إلى تبديد بيوت وشبكات العناكب المعشّشة في أدمغتها، بفعل خرافات الزعيم الديني أو الحزبي أو القومي.

الثورة السوريّة عرّتنا جميعاً؛ من دون استثناء. وكشفت زيف الادعاءات والمزاعم الثوريّة، وأزالت كل المساحيق عن الوجوه. ربما حياتنا السياسيّة، كانت نفقاً من الخرافات والأوهام، التي أيقظتنا الثورة منها، لكننا نمانع الخروج منه حتّى الآن. إنه نفق الشعور بالخيبة وتحطّم الأحلام، وتلاشي ما يمكن وصفه بالرومانسيّة الثوريّة التي عشنا على إيقاعها طيلة عقدين. إنه نفق الشعور بالمديونيّة تجاه الذات والآخر، واعتصار الضمير والوجدان الإنساني حيال الجرائم التي ارتكبت بحقّ الأبرياء، باسم الثورة والوطن والقضيّة ودماء الشهداء، وكنّا نبررها ونشرعنها، بحجّة: «إنها الثورات، هي هكذا دوماً، تأكل أبناءها». وسنبرر لاحقاً ما ستشهده الثورة السوريّة أيضاً من انتهاكات. إنه نفق الشعور بأننا كنّا الضحايا والجلّادين في آن.

تأثّر سردار بكلام ولات، وأحسّ في نبرة صوته، مدى عمق الانكسار الحاصل في أعماقه، وأنه بقايا إنسان، وحطام شخص كان يوماً ثائراً حالماً ومناضلاً في سبيل قضيّة تحرر شعب ووطن. وأن أعماقه، هي خلاف ما يبدو عليه من ابتسامةٍ ومرحٍ. لمح في عينيه

شعوراً هائلاً بالرغبة في الكلام، بعد صمت، دام 20 سنة. وأنه رغم نقده الحادّ، ما زال هنالك كونٌ من العذاب والاعتصار الداخلي، ورهاب نفسي فظيع يعيق رغبته في التحرر من الخوف، عبر الكلام والكتابة، خشية التصادم المباشر مع الملايين التي ما زالت تنظر إلى الخرافات السياسيّة والأيديولوجيّة، بعين القيم المقدّسة التي يُعدُّ التشكيك فيها من المحرّمات القوميّة.

عاود ولات كلامه قائلاً:

- الحريّة التي تأتي متأخّرة، مكلفة جداً، ولن يكون لها ذلك المذاق، حين يعانقها المرء في وقتها. ويبدو لي أن الحريّة دوماً تأتي متأخّرة، ولا تأتي أبداً، حين يطالب بها من يحتاج إليها. الحريّة لا تلبّي النداءات، بل تسير نحو من يسير نحوها. التحرر من الخوف لن يعيد إلينا السنوات التي فقدناها في نفق الأيديولوجيا الذي توهّمنا بأنه معبرنا الوحيد إلى الحريّة، وإذ بالأيديولوجيا مجرّد مصنع لتدوير نفايات وقذارات العبيد والعبوديّة! إنه السجال الداخلي، الوجودي المحتدم، منذ عشرين عاماً، وقد حفر في حياتنا نفقاً جديداً رهيباً من القلق والترقّب، المشوب بالندم والخشية على أن كل ما قدمناه من تضحيات ذهب هدراً في مهبّ خرافة تحرير كردستان. إنه السجال الداخلي، الذي يمزّق الكثيرين، منذ عشرين سنة، مع العجز عن التعبير عنه جهراً. إنها الرغبة العارمة في الصراخ، ملء الكون، ملء الوجود، ملء جبال كردستان ووديانها ومفادها؛ كفى تنويماً للناس بعسل الشعارات والخطابات والكلام البرّاق عن تحرير كردستان. وكفى سقياً لهذه الخرافات والترّهات والشعارات الفضفاضة بدماء الشباب والصبايا.

ومع الصراحة التي كان يتحدّث بها ولات، إلّا أنه شعر بوطأة الأقفال والأغلال المقيّدة للسانه وخياله. لكنه كان منقاداً ليقين مفاده أن الثورة السورية، وخذلان العمال الكردستاني لها، يجب أن يكون مناسبة لأن يصرخ كل من آثر الصمت خلال عشرين عاماً. ويجب أن تبدأ الصناديق السوداء بالتحدّث وكشف المستور، وفتح الدفاتر القديمة بالتزامن مع الجرأة والإنصاف في تدوين الدفاتر الجديدة. يجب أن يبدأ التشكيك في الرواية الرسميّة الحزبيّة. ولأجل الحفاظ على ما هو جميل ونبيل وعظيم في الثورة، أيّة ثورة، يجب التوقّف عن الصمت، حتّى ترتاح الضمائر. الصمت على انتهاكات أيّة ثورة، هو أبشع ما يمكن أن يلحقه الإنسان بحق هذه الثورة.

باغته سردار بسؤال: ألا تلاحظ معي أنك تكثر من استخدام كلمة «يجب»؟!

- ربما. لأن حجم الصدمة والخيبة الفكريّة والسياسيّة والنفسيّة التي مُنينا بها، أطاحت بكل محاولات الاختباء أو التواري خلف أصابعنا، والتدثّر بالكلام المنمّق والمعقّم والدبلوماسي التوفيقي، المنطوي على الكثير من المداورة والنفاق الذاتي.

حاول سردار تغيير الموضوع، بعد ملاحظته حجم الحزن والألم الذي بات يفيض من كلام ولات. فسأله عن البناية العالية، البنيّة اللون في ساحة الملك آلبرت والتي في أسفلها المكتب العام للأجانب. هنالك يتمّ تقديم طلبات اللجوء! وعن سبب ميلان لون البناية إلى السواد من الأسفل! فسّر ولات ذلك بنتيجة عوادم السيّارات. لكن سردار أعطى تفسيره للأمر على أنه بسبب الأكاذيب التي يسردها اللاجئون على أسماع الموظفين، كي يحصلوا على

الإقامة. ومردّ ذلك «أننا شعوب تمتهن الكذب والدجل والنفاق». وأعطى نفسه مثالاً، وكيف أنه كذبَ على المحققين، حتى حصلَ على الإقامة. وشاركته في الكذب، الأحزاب الكرديّة التي تمنح اللاجئين وثائق عضويّة حزبيّة، كقرينة تدعم ملفاتهم الشخصيّة، بوصفهم نشطاء سياسيين وحزبيين، ملاحقين من النظام السوري. وقال سردار:

- تصوّر، لا يعجبني حزب العمال الكردستاني، ورغم ذلك، استخدمت ورقة انتساب وهمية، حصلت عليها من حزب الاتحاد الديمقراطي، كي أقول للمحققين إنني ناشط حزبي ملاحق من قبل النظام السوري! أحزابنا الكرديّة، تحوّلت إلى أكبر داعم لتفريغ المناطق الكرديّة السوريّة من سكّانها، عبر منح وثائق عضويّة وهميّة للمهاجرين، على أمل كسبهم وضمّهم إلى حظائرهم الحزبيّة. هذا السلوك، كل الأحزاب تمارسه، ولا يقتصر الأمر على جهة سياسيّة معيّنة!

خلال تجواله بين السجون اليونانيّة وسجن أدرنة التركي، وحالياً في «بيتي-شاتو»، لم يصادف ولات شخصاً واحداً، كرديّاً من العراق أو من سورية، يمتلك ملف لجوء سياسي حقيقي، وحياته مهددة بالاعتقال! الكل يفبرك، ويكذب، ويأتي بوثائق كاذبة، تدعم أكاذيبه. والسلطات تصدّق هذه الأكاذيب، وتمنحهم الإقامة بموجبها.

تعرّف على أناس في بروكسل، هاجروا إلى بلجيكا قبل 17 سنة. وقدّموا أنفسهم على أنهم كرد عراقيون، وهم كرد سوريون. وحصلوا على الإقامة، ثم الجنسية، عبر الكذب والتحايل على القوانين

البلجيكيّة، وتراهم يتحدّثون الآن في السياسة والثقافة والإعلام والأخلاق وحماية القانون! «نفس الحالة، موجودة في ألمانيا والسويد وبريطانيا. . .» قالها سردار.

في سجن جزيرة خيوس اليونانيّة، استيقظ ولات ذات يوم على مجيء دفعة من النساء. وكنّ نحو 15 امرأة عربيّة. قيل إنهن يعملن في الفنادق والبارات التركيّة، وقدّمن أنفسهن للسلطات اليونانيّة على أنهنّ فلسطينيات! في ذلك السجن، تواجدَ جزائريون، مغاربة، توانسة، ليبيون، مصريون، عراقيون وسوريون عرب، قدّموا أنفسهم على أنهم فلسطينيون. ولم يكن هنالك فلسطيني واحد بينهم. هنود قدّموا أنفسهم على أنهم أفغان. في حين أن كل شخص يمتلك بشرة سمراء، كان يقدّم نفسه على أنه صومالي. يعني، يتمّ استثمار محنة الشعوب لأغراض شخصيّة.

ولات كان الوحيد الذي لديه ملف لجوء سياسي حقيقي، أو مبرر للجوء السياسي، بوصفه كاتباً معارضاً، هرب من وطنه تحت التهديد. ولكن أمام القانون، هو والكثير ممن يدّعون ويزعمون أنهم سياسيون وكتّاب ومثقفون معارضون، سواء.

أشار ولات إلى أن ظاهرة الهجرة ستزداد في الأشهر والسنوات القادمة، مع اشتداد حرب نظام الأسد على السوريين. وكل من هبّ ودبّ، سيعتبر نفسه معارضاً ومنشقاً عن النظام. حتى يمكن أن يهاجر الموالون للنظام، ويقدّموا أنفسهم على أنهم معارضون. وبسقوط النظام، ستشهد المناطق العلوية، هجرة لا يمكن تصوّرها.

اجتاز ولات وسردار الباب الخلفي لمحطة «غاردي نورد» للقطارات، ودخلا شارع «آرتسخوت»، ذا الواجهات الزجاجيّة،

المنارة بإضاءة حمراء، حيث تعرض فيها الفتيات أجسادهن لجذب الزبائن. وما إن تدخل هذا الشارع، تتبدد أكثر المواضيع أهميّة وجديّةً، وتسرحُ الأعين في رحلة المتعة البصريّة، وما تثيره هذه المتعة من تفاعلات نفسيّة داخليّة مثيرة ومهيّجة للمشاعر الجنسيّة.

غيّر سردار مسار الحديث نحو جسد المرأة قائلاً:

- تأمّل هذه التحف الموجودة خلف الزجاج.

أثناء النظر والتأمّل، تناهت إلى خاطره أفكار تفيد أنه لو لم يكن لجسد المرأة ذاك السحر الكوني، لما استسلم آدم لرغبة حواء وارتكب المعصية، وفضّل نداء جسدها على البقاء في الجنّة. ولما تسببت هيلين في حرب طروادة. ولاحظَ أن كل الأنبياء لهم قصص مع النساء. إبراهيم مع هاجر وسارة، وليا وراحيل زوجتي يعقوب، ويوسف وأسينات، والنبي موسى وصفورة، وأول شخص ظهر له يسوع بعد قيامته كانت مريم المجدليّة. حيث أوصاها بنقل رسالته إلى تلاميذه. وكانت أول الزائرين إلى قبره وتبكي عليه. والنساء من حول نبي محمد، ودورهن في حياته وبعد وفاته.

إنه جسد المرأة، بجبروت طراوته، وسحر لمعانه ونداوته، له سلطانٌ على الرجال. ثمة من يخشى أن تكون الروح رسالة الجسد. والجسد آبد، والروح فانية. وثمة من يخشى أن تكون الروح والجسد، رسالتين متضاربتين، خطّهما، ويخطّهما المجهول لمجهولٍ آخر.

هذه الفتيات، لا تبعن أجسادهن، بل تمنحن المتعة واللذة، بمقابل مادي. وتدفعن الضرائب لخزانة الدولة. هذه الخزانة التي

تمنح اللاجئين الرواتب والمعاشات، ويبني بها الإسلاميون المتطرّفون مساجدهم في أوروبا، ويذهبون بها إلى الحجّ أيضاً.

هذه الأجساد العارية، تخفي الكثير. لكل فتاة منهنّ، عالمها، همومها، هواجسها وأحلامها، وستجد بعضهنّ مثقفات، ويمتلكن تراكماً معرفيّاً، يفوق ما يمتلكه الكثير من النخب السياسيّة والثقافيّة في بلادنا. هذه المهنة قديمة، وكانت مقدّسة، تمارس في المعابد.

وسط لحظات التأمّل وشهوة الخيال والأفكار، وشراهة المشاعر والغرائز، طرح سردار سؤالاً على ولات: وهل مارست الجنس؟ فاستغرب من سؤاله هذا، ذاكراً أنه متزوّج. فأشار سردار بأنه يقصد ممارسة الجنس قبل الزواج. فأجابه بأنه مارس، ولكن ليس عن حبّ. فجأةً، لم يعرف كيف ولماذا خطر على باله فريدون! كان يعمل سائقاً على إحدى حافلات نقل الركّاب الصغيرة في دمشق. زاره ولات ذات يوم، فجاءهم الطعام دسماً وساخناً. كان يسكن حي مزّة الجبل بدمشق. ولأنه لا يجيد الطبخ مطلقاً، سأله ولات عن مصدر الأكل، أجاب: أنها جارته حسناء. وبدأ يسرد قصّتها، وكيف أنها متيّمة به، وغارقة في عشقه، رغم أنها متزوّجة، ولديها ثلاثة أطفال. وأنها تمارس معه الجنس باستمرار لدرجة الإنهاك. وأن زوجها يعلم بذلك، ويغض الطرف عن الأمر. كان رجلاً ميسوراً، مقاولاً، لديه عدّة ورش لأعمال البناء. تزوّجها عن حبّ. وهي أيضاً أحبّته. وأنجبت له ثلاث أولاد، خلال خمس سنوات من الزواج. وذات يوم، أثناء تفقّدهِ أحد المباني، انزلقت قدمه وسقط من السقالة التي يقف عليها العمال، بعلوّ ثلاثة طوابق. أصيب بكسور وجروح بليغة، لكنه لم يمت. بقي في قسم العناية المشددة، بين الحياة

والموت لمدّة أسبوع. رويداً تحسّنت حالته. ولكنه أصيب بعجز جنسي لا يمكن معالجته. وأصبح عضوه كخرقة بالية، لا يستخدمه إلّا للتبوّل. أصيب بحالة نفسيّة شديدة السوء. كره عمله. صفّى كل أعمال المقاولات التي بين يديه وفتح محلّاً لبيع وتصليح الساعات، كما كان جده ووالده يعملان. ولكن مشكلته لم تنتهِ هنا، فزوجته التي كالفرس الشموس، ما زالت شابّة، وكيف له أن يسكت شبقها؟! ولشدةِ حبّه لها، لا يقوى على فراقها. وإذا طلقها، فمَن ستقوم بتربية أطفاله الثلاثة؟ ومَن سترضى بالزواج من رجل عاجز؟ ولهذه الأسباب كلها، غضّ الطرف عن علاقة زوجته مع فريدون، على أنه الوحيد في حياتها. ترسل له الأكل المطبوخ يوميّاً. وأثناء غياب زوجها عن البيت، وتواجد أولادها في المدرسة، تتصل به، فيدخل بيتها، ويمارس، ويستحم، ويتناول الغداء، ويخرج. وأحياناً تعطيه بعض النقود أيضاً. هي أيضاً لا تريد أن تترك زوجها. وتعرف أنه يضحّي ويتألّم بعجزه عن إمتاعها وإشباعها جنسيّاً. ويتألّم أكثر، كونه يعرف أن رجلاً آخر يقوم بهذه المهمّة بدلاً عنه. ولكنها تمتلك من الشبق الذي لا يمكن إخماده إلّا بالموت. وإذا ماتت، من سيبقى لزوجها المسكين وأطفالها أن يرعاهم؟ يعني المسألة معقّدة، والمستفيد من كل هذا الوضع هو فريدون. وهي تثق به بشكل أعمى، وأنه لن يبوح لأحد بسرّها.

-وحين سأله ولات عن سبب بوحه بالسرّ، وخيانة العهد! أجابه مطأطئ الرأس: «باختصار، لأنني نذل وكلب وقذر وحقير، ولا أستحق أن أكون حذاء في قدمي هذه المرأة».

ذكر فريدون أنه يشعر في الآونة الأخيرة، بأنه صار يحبّها،

ويريدها أن تكون له وحده، وتنجب له ولداً من صلبهِ، كرغبة أي رجل من زوجته! وهذه الرغبة عمّقت مشكلته أكثر، لأن الأمر مستحيل. فالكثيرون من عائلتها وعائلة زوجها يعرفون أن زوجها عاجز، وأي طفل جديد، يعني أنه أتى سفاحاً.

قبل أن يسأله ولات عن حكايتهِ مع الجنس، ذكر سردار أنِ أوّل مرّة مارس الجنس فيها، كانت في عامودا، مع إحدى النسوة المطلقات. كان عمره وقتها ست عشرة سنة، في الصف العاشر. مراهق وفتيّ، وشاب طويل القامة، في أول طلعته.

جارته حليمة، تزوّجت مرّتين، ولأنها لم تنجب أطفالاً، طلّقها زوجاها. تبلغ من العمر نحو أربعين سنة. إخوتها الشبان والبنات تزوجوا تاركين لها البيت، تعتني فيه بوالديها المسنين.

لم يكن مراهقاً منطويّاً، يحبّ الانزواء والعزلة، ويعتبر الأهل خصومه ولا يحبّونه. بخلاف ذلك، وكأنَّ الشيطان عطس، وخرج سردار من أنفه، بوجهٍ مغسولٍ عنه الحياء إلى درجة الوقاحة. ربما لأنه كان مدللاً، باعتباره آخر العنقود. اجتمعت في طباعه كل خصال اللؤم والفضول وحبّ التملّك. وفوق هذا وذاك، امتلكَ مخيّلة خصبة في صوغ الشتائم والسباب. الشتيمة التي يقولها مرّة واحدة، لا يكررها. التفنن في قول الشتائم كان من أبرز مواهبه التي يحسدهُ عليها أصدقاؤهُ. لم يكن يجاريهِ أحد في هذه الموهبة، بل حتّى أبناء الغجر والقرباط يتحاشون التصادم معهُ بالشتائم. خاصّةً الشتائم الجنسيّة. الشتيمة التي يطلقها اليوم، تجدها في اليوم التالي شائعة.

حين يتعارك شخصان، القوي يضرب والضعيف يشتم. أمّا هو، فيضرب ويشتم. الشتيمة بالنسبة له، كانت سلاحاً نفسيّاً يضرب به

خصمهُ، ويصيب منه مقتلاً، قبل استخدام يديه. فبعد رشق الخصم بأقذع وأشنع الشتائم، يصبح ضرب اليد أمراً هيّناً وتحصيل حاصل. أي شخص يحاول أن يدخل في معركة معه، لم يكن يخشى على نفسه من الضرب، بل على أمّه وأخته، من الشتائم التي ستنهال عليهما مدراراً.

أحد أولاد الجيران الذين يكبرونهُ بسنوات، قال لهُ ذات يوم: هل تعلم يا سردار أن شتائمك تغنينا عن مشاهد أكثر أفلام «السكس»؟!

طبعاً، هذا المديح كان يزيد العبء على كاهله، كي يبقى محافظاً على هذه المكانة والتربّع على عرش الشتيمة. صحيح أن أهل عامودا معروفون بإطلاق الشتائم، لكن الحالة كانت متفاقمة لديهِ. ولا يعرف من أين أتتهُ هذه الخصلة! كان والده متديّناً. وأخوتهُ هادئون.

في أحد مساءات الصيف، لسبب لا يتذكّره، حدث عراك بينه وبين أحد أصدقائهِ. فصار يشتمهُ ويشتمُ كل من يحاول فكّه وإنقاذه من بين يديه، شمتاً مبرّحاً، مع ضربه بقسوة، كي يثير الرهبة والذعر في قلوب البقيّة. كانت حليمة تنظر إليهم من شبّاك بيتها المطلّ على الشارع. ومستمعة ومستمتعة بسماع ما يقوله من سباب، ولا تنبس ببنت شفة، ولا تحاول إيقافهُ باعتبار أن سبابه يخدش الحياء، ناهيك عن أن الطفل المضروب، المدمّى الأنف والفم، تجمعه بها صلة قربى بعيدة. كانت مبتسمة، وتعضّ أحياناً على شفتها السفلى. يدها اليسرى تحت ذقنها، وبيدها اليمنى تدغدغ وتفرك بظرها. أمّا سردار، لشدة اللؤم والحقارة الموجودتين لديهِ، حين لمح حليمة

واقفة وتتفرّج عليهم بإنصات واستمتاع، تظاهر بأنه لا يراها، ومنهمك في العراك، مع أنه كان يحاول أن يثبت لها فحولتهُ في الشتم والضرب.

في نهار اليوم التالي، كانت واقفة قبالة الشبّاك، وتنتظر مروره في الشارع، لتناديه:

- سردار. اللّه يرضى عليك، هل يمكن أن تعاونني في فكّ وتركيب جرّة الغاز؟ أنت تعرف أنها ثقيلة عليّ.

استغرب من طلبها هذا، إذ لم يسبق وأن طلبت منه ذلك، رغم جيرتها الطويلة. أجابها بنبرة المغيث الملهوف:

- تكرم عينك، خالتي حليمة.

كعادة البيوت الطينيّة في المنطقة الكرديّة، المطبخ في نهاية الفناء. بينما غرف النوم والصالون، شبابيكها مطلّة على الشارع شمالاً. حوش الدار كان جميلاً ومزروعاً وروداً بعنايةِ بستانيّ ماهر، بالإضافة إلى وجود شجرتي تفاح وبرتقال، ودالية عنب. والداها كانا مسنّين، سمعُهما ثقيل، بينما حرّ الصيف يجعل من النعاس أشدّ وطأة عليهما. غرفة الضيافة مستقلّة عن البيت والمطبخ، هي أيضاً في زاوية الجنوبيّة الشرقيّة نهاية الفناء.

فتحت له باب البيت، وعيناها البنيتان تبرقان كفنجاني قهوة منعكسةً عليهما سماء صيفيّة صافية وملتهبة، يتطاير منهما بخار الشهوة. متوسّطة القامة وبصدرٍ ممتلئ، أضناه الاحتقان، وورِكٍ عريض، يتوسّل الملامسة والفرك. ترتدي فستاناً صيفيّاً مورّداً فضفاضاً. شعرها فاحم، مجدول إلى الخلف، وبعض خصلاته

الجانبيّة الطويلة، منفلتة بشكل عشوائي، تحيط بوجهها الحنطي، تزيده ألقاً. لكن بياض الرقبة يشي بجسدٍ رخامي بضّ، شديد التهوّر والانقضاض. الفستان الفضفاض، صحيح أنه يخفي تفاصيل جسدها، إلّا أن لهفة الحركة تشي بقلق ورجفة الجسد.

هذه هي المرّة الأولى التي يختلي فيها مع امرأة غريبة عن أهلهِ. وأوّل مرّة ينظر فيها إلى امرأة نظرة استكشاف رجوليّة. فجأةً، انتفض الخجل في أعماقه، في وقت كان عليه ألّا يظهر بتاتاً. سألها:

- أين جرّة الغاز، خالتي حليمة؟

أشارت بيدها اليمنى إلى المطبخ في الزاوية الجنوبيّة الغربية من الحوش. وابتسامة ارتسمت في العينين وعلى الشفتين.

دلفَ المطبخ، فدخلت هي أيضاً، وضغطت بيدها على مفتاح الكهرباء إلى اليمين، وأشعلت المصباح. وصفقت باليد الأخرى الباب وأغلقته. ومع صوت إغلاق الباب، بدأ العرق يتصبب منهُ، كمن دخل قاعة الامتحان، ويخاف الأسئلة والأستاذ المراقب والنتيجة. حاول إخفاء خجلهِ وقلقهِ، بنفس القدر الذي كانت هي تحاول فيه إخفاء ارتجافها. سألها:

- أهذه هي الجرّة التي تريدين فكّها، واستبدالها بتلك؟

أومأت برأسها؛ نعم. مع وضع رأس سبابتها على شفتها السفلى، كأنّها فتاة مراهقة خجولة، أو أنها تغوي أو تفتعل ذلك. طلب منها المفتاح الذي يجب استخدامه. بسرعة، اتجهت نحو دُرج سفلي في نهاية المطبخ، وجلبت المفتاح، وناولتهُ إيّاه. ولكن رعشة يديها، وارتباكها، أسقط المفتاح من يدها على الأرض. بسرعة،

جلست القرفصاء، وأزالت خصلات الشعر من على وجهها، ووضعتها خلف أذنها، وتناولت المفتاح ورفعته إليهِ، بينما اندست عيناهُ في عبّها حين كشفت فتحة الصدر عن كامل نهديها، كونه واقفاً وهي جالسةٌ القرفصاء. وما إن لمحت عيناهُ النهدين حتى بدأ عواء ألف ذئب يسري في دمهِ، مطيحاً بالخجل وكل ما يمتّ به. ابتسمَ ابتسامة الرضا والإعجاب، مطلقاً رصاصة الرحمة على ارتباكها وقلقها، كأنهُ رجلٌ محترفٌ في الإغواء، ضاجع ألف امرأة، وليس طفلاً مراهقاً، لا يعرف من الجنس إلّا الشتائم. استدار ببطء نحو جرّة الغاز، كي يفكّ الخرطوم عنها، مقوّساً ظهره. ولم يكد ينتهي من ذلك، حتى أمسكت خصرهُ بكلتا يديها ورفعت جذعهُ، وأدارت بهِ نحوها. وبدأت تفرك ظهرهُ وصدره. أخذت المفتاح من يده ورمت به على الارض، فأصدر رنيناً، ابتلع دويّه المدينة بأكملها. أمسكت بيده، وفتحت باب المطبخ، وبسرعة، اتجهت بهِ نحو غرفة الضيافة، حيث الأرض مفروشة بالسجاد، والإسفنج المضغوط والمخدات المسندة إلى الجدران.

أغلقت الباب، ودفعته إلى الداخل. وسحبت عن نفسها الفستان، كأفعى تخلع جلدها، فظهر أنها لا ترتدي سوى الملابس الداخليّة. وقالت:

- تعال، أرني كيف يمكنك أن تترجم شتائمك على جسدي! لمَ أنت خائف، تعال؟! شتائمك جعلتني أحبّك، أغوتني وأثارت فيّ أنوثتي وشهوتي.

عرّته تماماً، وتعرّت تماماً. وسحبتهُ على صدرها. وقتها، لم يعد يدري بنفسه، ماذا يفعل، وهي تتلوّى وتتمرّغ به وفيه.

بالنسبة لها، كان سردار بِكراً وغرّاً، أمياً في فنون الجنس، وهي الحرّيفة والخبيرة، عليها تلقينه دروس هذا الفن، كي يمتعها. وبالفعل كان لها ذلك. وصار سردار عشيقها. وتخلّف عن الدراسة، وتدهورت صحّته بسببها. أدمنها وأدمنتهُ. وصارت قصّة فكّ وتركيب جرّة الغاز، تتكرر أسبوعيّاً. وفي كل مرّة، لا يتركها حتى تدركها الرعشة واللذّة ثلاث مرّات. فتقول له:

- أنت أكثر مهارة وفحولة من زوجيّ السابقين.

مارس معها كل ما يخطر على البال من وضعيات. وأكسبه ذلك خبرة كبيرة، أثناء تواجده في ألمانيا. فبدلاً من أن يكون حبيب العذارى، صار حبيب المطلقات والأرامل، رغم أنه في ألمانيا، لا توجد حجّة فكّ وتركيب جرّات الغاز.

ذكر سردار لولات أنه يكره منظر الدم أثناء فضّ البكارة. يذكّره ذلك بذبح الدجاج والخراف. لا يحبّ منظر الدم، حتّى حين كان يسيل من أنف وفمّ من يتعارك معهم. مرّة طلبت منه فتاة كرديّة في ألمانيا أن يمارس معها، اشترط عليها أن تفضّ بكارتها بإصبعها أو بأيّة وسيلة أخرى، ثم تطلب منهُ ما تشاء. فقالت:

- لا تخف! لن أطالبك بالزواج.

أجبتها: طبعاً لن أتزوّجك. فقط لأنني لا أريد رؤية الدم مسالاً منك، ونحن نمارس الجنس. الدم يسمم عليّ المتعة.

سأله ولات: لم تخبرني عن سبب هروبك إلى أوروبا. هل هو سياسي؟

ذكرَ أن حليمة، هي السبب. بعد مرور ما يزيد عن ستة أشهر

على جلساتهما، حبلت حليمة، في الأربعين من عمرها. ولا يمكنها أن تجهض نفسها، لأن عاطفة الأمومة التي كانت محرومة منها، اشتعلت فيها. وما حدث كان بمثابة المعجزة، بعد أن قال لها الأطباء: «إنها لن تجنب أبداً». يعني، قصّة تشبه ما يحدث في الأفلام الهنديّة والمصريّة، لا يمكن تصديقها، لكنها حدثت فعلاً.

لا يمكنه الزواج منها، لأنها تكبره بما يزيد عن أربع وعشرين سنة. أخبرَ أمّهُ بقصّته، فلم تنزعج. على العكس، فرحت كثيراً، لأن ابنها فحل، بحيث جعل امرأةً عاقر، تحمل من صلبه، وهو في هذه السن المبكّرة، فما بالكم في نكاحه لامرأةٍ خصبة!؟ خافت عليه من الاستمرار في الأمر. وقالت:

- منحتها المتعة التي كانت محرومة منها. ووهبتها الطفل الذي تتمنّاه وتنتظره طيلة خمس عشرة سنة. وهذا يكفيها، وزيادة. وسيكتب لك اللّه هذا الفضل والأجر، ولن يعاقبك عليه، باعتباره زنى. يجب أن تغادر البلاد إلى أوروبا، بأقصى سرعة.

أعطتهُ ما ادخرته من ذهب. وكانت كميّة جيّدة، تساوي في حينه نحو خمسة آلاف دولار. سافرَ دون أن يخبر أحداً، إلى بيروت. ومنها، عبر السفن المحملّة بالمهاجرين، خرج سنة 1997 إلى إيطاليا، ومنها إلى ألمانيا. لم يحصل على الإقامة في ألمانيا لما يزيد عن ثلاث عشرة سنة، وأتى إلى بلجيكا، فحالفهُ الحظ. وهو الآن، لاجئ سياسي، ليست له أيّة علاقة بالسياسة والتنظيمات والحياة الحزبيّة. قبل الثورة السوريّة، كان يقرأ المقالات السياسيّة من باب المتابعة، ولأنه قدّم طلب لجوء سياسي، فيجب عليه أن يكون مطلعاً على ما يجري من حوله، فقط لا غير. وبعد اندلاع

الثورة السوريّة، صار يهتمّ بالسياسة، بل منغمساً فيها، وضمن النشطاء الذين يشاركون في الاعتصامات والمظاهرات التي تشهدها بروكسل، ضد نظام الأسد. وشارك في محاولات اقتحام السفارة السورية في بلجيكا.

بعد مضي أسبوعين، مرّرت أمه خبر سفره إلى حليمة كي تقطع الأمل نهائيّاً، وتبحث عن حلّ آخر، ينقذها مما هي فيه. فلن يصدقها الناس ولن يرحموها، لأن عامودا ليست بيت لحم، وحليمة ليست مريم العذراء التي نزل عليها جبريل وبشّرها بطفل من روح اللّه، وحبلت من دون زواج! لذا، يجب أن تجد هي حلّاً لمشكلتها.

عاودَتِ الاتصال بزوجها. وأخبرته أنها تحبّه، ولا يمكن أن تعيش من دونه. وأنها لم تنسه طيلة فترة الفراق. وجرّته إلى بيتها، وعاشرته. ثم أخبرته أن المعاشرة أثمرت، وهي حامل. ويجب أن يعيدها إلى عصمته كي يستر عليها. انطلت الحيلة على الرجل، وأنجبت حليمة طفلها، الذي هو طفل سردار، وأسمته سربست. بعد مضي ثلاث سنوات، أنجبت حليمة طفلاً آخر، أسمته سردار. كان زوجها مصاباً بأمراض في القلب، وربما ممارسة الجنس، كان لها دور في إصابته بالجلطة وموته. هي الآن أرملة، تربّي طفليها، بعد موت والديها أيضاً. ولا يعرف سردار إن كان هنالك أشخاص جدد، يفكّون ويركّبون لها جرّات الغاز أم لا!

توقّف سردار برهة عن الكلام. الآن، في هذه اللحظة، لا يعرف لماذا انتابتهُ مشاعر الأبوّة، والرغبة في رؤية ابنه الذي بلغ الآن الخامسة عشرة من عمره تقريباً. هي المرّة الأولى، طيلة هذه

السنوات، التي يشعر فيها أنه أب، وأن ثمّة قطعة من جسده وروحهِ، تعيش في مكان ما، بعيداً عنه!

أخذهما النقاش وحديث الذكريات بعيداً عن إكمال النظر في الواجهات الزجاجيّة، والتمتّع برؤية أجساد الفتيات ومفاتنهنّ. ثم انعطفا إلى شارع المغاربة، حيث الاحتشام والمحجّبات، والمعروضات المغربيّة، وأصوات الغناء المغربي، والموشحات والابتهالات والأدعية الدينيّة، وكأنّك تسير في شوارع الدار البيضاء. نظر ولات إلى موبايله وإذ الساعة تشير إلى الواحدة، فقال:

- أعتذر منك. اقترب موعدي، ويجب أن أتجه إلى «مولنبيك». ونؤجّل شرب القهوة إلى وقت لاحق.

* * *

بخلاف عادته، في تحضيره الأسئلة التي يطرحها على ضيوفه، أثناء إجرائه حوارات صحافيّة، ذهب ولات إلى بيت كاترين، دون أن تكون في ذهنه أسئلة محددة. هاجسه الأكبر كان ضرورة الإحاطة بفترة تواجدها في دمشق لمدة خمس سنوات، وصولاً لفهمها، وحقيقة تضامنها مع الثورة السوريّة.

وصل إلى منزلها، قبل الموعد بعشر دقائق، ولكنه تجوّل قليلاً في الشارع، حتى يطرق الباب في الوقت المحدد تماماً. كبس على زر جرس باب الشقّة الموجود أسفل البناية إلى جانب الباب الرئيسي. رحّبت به كاترين، وفتحت الباب واستقبلته بابتسامة الأمّ. اتجه نحو الداخل، ونظراته تتفحّص الصالة الكبيرة المفروشة بأثاث شرقي، ذي طابع مغربي، سواء الأرائك والكراسي والطاولة،

السجّاد الموجود على الأرض، اللوحات المعلّقة على الجدران، التحف الموجودة في المكتب إلى جانب الكتب المرصوفة في خزانة الصالة. . . ، كل ذلك، أدخل في نفسه الراحة.

البناء الذي تسكنه قديم، ربما يزيد عمره عن مئة سنة. تمّ ترميمه وصيانته أكثر من مرّة. هو المنزل الثالث لها في بروكسل، بعد أن انتقلت من «كورتريك». المنزلان السابقان، كانا استئجاراً. بينما هذه الشقة اشتراها والدها سنة 1975، بعد أن تحسّنت أحواله، وهي أيضاً شاركت في شرائه، عبر إرسالها جزءاً من الراتب الذي تقاضته من عملها في البنك الدولي. شقة واسعة، مساحتها تزيد عن مئة وخمسين متراً مربعاً. صالة واسعة وثلاث غرف نوم كبيرة ومطبخ كبير. تعيش فيها وحدها، مع الذكريات. وصارت تضجر منها. ولا يمكنها تنظيفها والعناية بها، بحكم السن. حالياً، شقتها معروضة للبيع. تريد أن تشتري بيتاً صغيراً لها في أوستند، قبالة البحر، تقضي فيه أيّامها الباقية. ملّت من ضجيج بروكسل. هذا الحيّ، حين سكنته، لم يكن فيه إلّا مغاربة، يعدّون على أصابع اليد، هم من الجيل الأول الذي جاء إلى بلجيكا، للعمل في البناء والإنشاءات والمناجم، بموجب اتفاقية موقّعة بين بلجيكا والمغرب، لاستقدام العمالة المغربية سنة 1964. لم يكن مسموحاً لهم بالسكن في مركز المدن، بل فقط بالقرب من أماكن عملهم. والآن، من أصل عشر أشخاص تصادفهم في بروكسل، ربما تجد اثنين بلجيك، والبقية أجانب مهاجرين.

قبل فترة قرأت كاترين دراسة تقول إنه بحلول 2025، ستصبح عاصمة بلجيكا وعاصمة الاتحاد الأوروبي، ذات أغلبية مسلمة.

بالنسبة لها، لا يوجد أيّة مشكلة، كونها لادينيّة، ولا تعترف بالدين والتديّن. لكن، ستكون هنالك مشاكل. دعته لشرب شيء، قبل الحديث في أمور كهذه. فطلب كوب عصير. بيدٍ راعشةٍ، جلبت كاترين العصير. نهل ولات رشفة من الكأس، وقال: «لذيذ جداً. هل تشترينه من سوبرماركت «كارفور»؟».

- لا. أنا لا أشتري أي شيء من «كارفور». اشتريته من سوبرماركت «ليدل»! كارفور شركة فرنسيّة تدعم إسرائيل. وكل سنت أصرفه في «كارفور» يذهب إلى خزانة الحرب في إسرائيل، التي تقتل الفلسطينيين. لهذا السبب، أنا أقاطع كل شركة أو سوبرماركت لها أيّة علاقة مع إسرائيل.

- ألهذه الدرجة بلغت بك كراهية اليهود؟ حتى الفلسطينيون لا يكرهون إسرائيل واليهود لهذه الدرجة!

- لا. أنا لا أكره اليهود. زوجي الأخير، شارل كان يهوديّاً. أنا أكره قتل إسرائيل للفلسطينيين. لا أكره إسرائيل، ولا أحبها أيضاً. لكنني بكل تأكيد، لا أكره اليهود.

- ألا تخشين أن يتم اتهامك بمعاداة الساميّة؟!

- لا أخشى شيئاً. زوجي شارل، كان يقول لي دوماً: «نحن اليهود أنانيون. نتذكّر فقط محرقة هتلر وأنها ابتلعت أربع أو خمس أو ست أو 10 ملايين من اليهود. ونتغاضى عن أن هذه المحرقة - الحرب، التهمت عشرات الملايين من الألمان والأوروبيين من المسحيين والمعاقين والمثليين واللادينيين». أعتقد أن كلامه فيه جانب كبير من الصحّة.

- يا إلهي! هنالك شارل أيضاً؟ قبل أن نصل إليه، دعينا نعد إلى ويليم وننتهي منه! قالها ولات ممازحاً.

تنهّدت كاترين، وأطلقت زفرةً تشي بالأسف والألم...

ويليم سام ستيوارت. ويليم أس.أس، أو (W.S.S). اسمه يوحي وكأنه كاتب أو مفكّر أو فيلسوف أو فنان...، ولكنه السجين رقم 111 في سجن «لوترون». حين كانت كاترين يساريّة وعضواً في الحزب الشيوعي الأمريكي، اقترحت على الحزب التغلغل ضمن السجون، ومحاولة كسب السجناء باعتبارهم ضحايا النظام الرأسمالي، وتمت الموافقة على اقتراحها. وشكّلوا مجموعة من المتطوّعين، للقيام بهذه المهمّة، كمرشدين اجتماعيين ونفسيين، تتواصل مع السجناء وتحاول الاستماع لهم، وتعليمهم القراءة والكتابة، إذا كانوا بحاجة إلى ذلك. لذا، اختارت سجن «لورتون» ليكون مكان عملها. وهناك تعرّفت على ويليم، الذي قضى سبع سنوات في سجن «بيليكان بي» الخطير في كاليفورنيا، وثلاث سنوات في سجن أو إصلاحيّة «لوترون».

أثناء تواجدها في أوروبا، لم يكن ينتابها شعور بأنها بيضاء أو مختلفة عن الناس، إلّا حين وصولها إلى واشنطن، ورؤيتها هذه النسبة الكبيرة من السود. في البداية، سكنت في حيّ قريب من البنك، سكّانه بيض، لأن زميلة لها أتت بخريطة واشنطن، وقالت: «هذه هي الحدود. يجب أن تحذري من تجاوزها. هنا أحياء السود، وهنا أحياء البيض» وكأنهم أمام دولتين معاديتين في واشنطن؟! سكنت في الشمال الغربي من واشنطن، حيث المؤسسات الرسميّة والحكوميّة والسفارات، وكي تكون قريبة من مقرّ عملها. لكن لم

يكن يوجد في المنطقة سوبرماركت. قال لها الأصدقاء: «يجب أن تذهبي إلى حيّ السود، هنالك يوجد سوبرماركت». ومع دخولها الحيّ، كانت المفاجأة؛ حيث رأت كمّاً كبيراً من الأفارقة ومواطني أمريكا اللاتينيّة. فيما بعد، حين تعرّفت على تفاصيل المدينة أكثر، انتقلت إلى السكن في حيّ فقير للسود اسمه «آناكوستيا»، جنوب شرق واشنطن. هناك، اكتشفت مشكلة السود وتعرّفت على قصصهم، وصارت متضامنة معهم ومناصرة لحقوقهم. سكنت في شقة جميلة، لكن إيجارها كان رخيصاً بسبب وجودها في حي السود. فإذا انتقل بعض الأشخاص السود إلى السكن في حي البيض، ينخفض سعر الشقة أو إيجارها، ويهرب البيض من الحي.

كانت دائمة التردد على حي «شو» ومسرح «هوارد»، رغم ما تعرّض له الحي ومسرحه من حرق وخراب، نتيجة أعمال العنف والشغب التي شهدتها أحياء السود في أمريكا، احتجاجاً على اغتيال مارتن لوثر كينغ سنة 1968. يعني، قبل تعرّفها على ويليم، كانت مهيّأة نفسيّاً للتضامن معه. بالإضافة إلى الفراغ العاطفي الذي عاشته بعد مغادرتها جنيف، وافتراقها عن كمال. كذلك الحالة الفكريّة اليساريّة والثوريّة التي كانت تعيشها، دفعتها نحو الانحياز للفقراء والمهمّشين. لذا، أثناء تواجدها في «لوترون»، قررت التواصل مع سجين أسود. ولكن ويليم لم يكن أسود تماماً، كان منحدراً من أصول أفريقيّة. طوله متران، عريض الصدر، مفتول العضلات، يمتلك جسداً رياضياً، يغري النساء. قسمات وجهه لم تكن أفريقيّة تماماً، وبشرته لم تكن داكنة، بل تميل إلى السمرة. ولكنه بالنسبة للبيض، هو زنجي، أسود. أمّا الأفارقة، فلم يكونوا يعتبرونه منهم.

وبالتالي، كل طرف من الطرفين المتخاصمين في أمريكا، يحسبه على الطرف الآخر. هذه المشكلة تركت لديه أثراً عميقاً في نفسيّته. بخاصّة أنه كان يميل إلى السود، ولا يريد الاختلاط مع البيض، قبل وأثناء دخوله السجن، وبعد خروجه منه أيضاً. في طفولته، وكي يرضي أصدقاءه السود، ويدفعهم للموافقة على اللعب معهم، كان يسرق الدرّاجات، ويعطيها لهم. ربما هذه المشكلة هي التي جعلته رجلاً عُصابيّاً، يدخل ويخرج من السجن بكثرة. هو لم يدخل السجن فقط بسبب جريمة القتل التي ارتكبها وحسب بل بسبب جرائم سرقة وتعاطي مخدرات أيضاً.

ذات يوم، كان يقود السيارة وإلى جانبه صديقته، بصحبة رجل آخر أسود وصديقته. وفجأةً احتدّ النقاش بينهما حول أمر تافه، تطوّر إلى خلاف وشجار. أوقف ويليم السيارة، وسحب مسدسه، جرّ الرجل من السيارة، وأطلق عليه ثلاث رصاصات كانت كافية لترديه. شهدت صديقة القتيل ضد ويليم أمام المحكمة. وأصدرت المحكمة حكمها بالسجن المؤبّد عليه. وبسبب تفشّي الفساد وقتها، تم تخفيف الحكم عليه، فخرج من السجن باكراً.

ما الذي يجبر فتاة جميلة، ومجازة جامعيّة وتعمل في وظيفة محترمة على الزواج من رجل عصابي وقاتل؟! اكتشفت كاترين لاحقاً أنها تعاني نسبة من الجنون. وعرفت في ما بعد أن علاقتها معه لم تكن حبّاً، بل نزوة، نتيجة تعاطفها مع حالته. تماماً كما كان الحال مع الشاب المصري في جنيف. دوماً كانت الظروف تتواطأ ضدّها كي تتورّط في علاقة مع أشخاص غريبي الأطوار. ربما هي رغبتها في إسعاد الناس التي دفعتها إلى ذلك؟ أو ربما لأنها اعتبرت نفسها

مسؤولة عن الأخطاء والكوارث والجرائم المقترفة بحق السود والعرب والمسلمين؟!

- الرغبة في إسعاد الناس وتخفيف الهموم عليهم، لا يعني أن تذهبي وتتزوجيهم؟! تساءل ولات.

- بالتأكيد. كانت لي صديقة، ضمن المجموعة الحزبيّة التي تسرّبت للسجون، هي أيضاً أحبّت شخصاً مسجوناً، وتزوّجته وأنجبت منه أطفالاً. وكانت سعيدة في حياتها. على العكس من حالتي تماماً.

- هل نجحتِ في ضمّ ويليم إلى الحزب الشيوعي؟

ردّت كاترين ضاحكة:

- أي حزب؟ لقد تركته، وعلِقتُ مع ويليم الذي ضمّني إلى حزبه، حزب المرضى النفسيين. فبعد خروجهِ من السجن، لم تنتهِ مشاكله. بل بدأتُ أعاني من أمراض نفسيّة، دفعتني لزيارة طبيب نفسي في أمريكا. وفي تلك الفترة، تعرّفت على رجل أمريكي ممتاز، كاتب وصحافي مثقف ومحترم، يتودد إليّ. ولكنني كنت تعبة نفسيّاً، وغير مهيأة لأيّة علاقة جديدة.

عاشت مع ويليم خمس سنوات، كرّهتها الحياة. ولا تعرف لماذا كانت تتحمّله كل هذه المدّة. هذه الخمس سنوات، ضاعت هباءً. تزوّجته وهو لمّا يزل في السجن. وبحكم القوانين، ولأنها زوجته، كان يجبرها على ممارسة الجنس معه داخل السجن. لم تكن وحدها، كل السجناء المتزوجين، كانت زوجاتهم يأتين لزيارتهم ويمارسن الجنس معهم.

بعد خروجه من السجن، ظنّت أنه سيتوب ويعيشا حياة هادئة وهانئة. لكنه ظنّ أنها ستساعده على الاستمرار في عالم الجريمة.

كانت توجد علبة خاصة به في البيت، لم تقترب منها أبداً. وذات يوم، قررت فتحها، فوجدت بودرة الهيروين فيها. واجهته بالأمر، فعرض عليها مبلغ عشرة آلاف دولار. وهو مبلغ كبير في حينه. رفضت ذلك، بشكل قاطع، حتّى لو كان المبلغ مليون دولار. وعدها أنه سيتصرّف ويُخرج العلبة من الشقة. ولكنه في اليوم التالي، دخل السجن مرّة أخرى، وبقي فيه شهرين. وفي آخر زيارة، قال لها: «هذه الليلة سأكون خارج السجن». ظنّت أنه سيُفرج عنه بشكل قانوني. لكن اتضح أنه هرب. جاءها منهكاً لاهثاً متعباً. اغتسل وتناول الطعام. نبّهته إلى عدم فتح الباب لأي شخص أثناء غيابها عن البيت. لأنه من الطبيعي أن الشرطة ستلحقه إلى هنا. لكنه طمأنها بأنه طلب من الموظف إتلاف كل الأوراق المتعلّقة به الموجودة لديهم. وبالتالي لن يتعرّفوا على عنوانها. ولكن ماذا حدث؟ رنّ الهاتف، رفع ويليم السمّاعة. وعرف أنهم البوليس، فهرب مجدداً من الشقة. البوليس كان يراقب كل تحرّكاته. لأنه أرسل أخته إلى سجن النساء، كي تخبر صديقة الرجل الذي قتله في السيارة، أنه سيأتي ويأخذها من السجن. تلك الفتاة كانت مومساً، وتتعاطى مخدرات. وعرفت الشرطة عنوان كاترين، لأن أخت ويليم زارتها في مكتبها.

حين وصلتا البيت، رأت سيارات الشرطة أمام المبنى، فقالت لشقيقة ويليم: «سنستخدم الدرج بدلاً من المصعد، لئلا نلفت انتباه الشرطة». ولكن سهت عن مسألة هي أنه في أمريكا، لا يستخدم أحد الدرج، الكل يستعمل المصاعد. وهذا ما لفت الانتباه أكثر. ولكن،

يبدو أن الشرطة كانت على علم بكل شيء، إذ رأتهم أمام باب الشقة، وكأنهم ينتظرونها. حاولت أن توهمهم أن هذه الشقّة ليست لها، وطرقت باب جارها وهي تعرف أنه غير موجود في الشقة، كي تتحجج بعدم وجوده، وتطفق عائدة. وحين فتحت باب المصعد خرج منه الضابط، وتوجّه نحوها، وقال بكل ثقة:

- افتحي الباب. وإلّا كسرناه.

- سأفتحه. ولكن لا أعلم من في الداخل!

ظنّوا أنه موجود في الشقة، بعد سماعهم صوت حركة. وإذا بها قطة كاترين. فقالت للضابط: هل ستأخذ القطّة للسجن؟!

اختبأ ويليم عند أحد أصدقائه. ولكن في النهاية ألقوا القبض عليه، واقتادوه مجدداً للسجن. بعد أسبوع، أجرت كاترين عملية جراحية في ركبتها. ورغم أنها على كرسي متحرّك، زارته في سجنه بولاية فرجينيا. كان السجن صغيراً، ولا يفصل غرفته عن الشارع سوى سور. طلب منها إحضار مطرقة وأزميل. رفضت ذلك، وقالت:

- لا معنى لهروبك. ليس لديك برنامج. ليس لديك مشروع. بعد عدّة أيام، سيقبضون عليك، ويعيدونك مجدداً إلى هنا. هذه الحياة لم تعد تطاق؟!

طلب من الحارس إخراجها من الغرفة. وردّ عليه الحارس: «ما زال هنالك خمس دقائق متبقّية للمحادثة». لكنه رفض الاستمرار في الحديث إليها. وقتها، قالت لنفسها: «كفى. انتهى كل شيء. هذا الرجل، مستحيل أن يكون قد أحبني في يوم ما. يجب أن أتحرر من هذا الوهم والعذاب. هذا الرجل، ليس إنساناً سوياً. ويستحيل

معالجته». غادرت المكان، وغادر ويليم حياتها نهائيّاً. كل ما فعله معها من مشاكل وتسبب لها من أضرار ماديّة ومعنويّة ونفسيّة، في كفّة، ورفضه الاستمرار في الحديث معها لخمس دقائق، في كفّة أخرى. وقتها، اكتشفت أنها إنسانة بسيطة لدرجة الغباء، كونها وهبت نفسها وحياتها لشخص لا يستحق ذلك. كشفت هذه الدقائق الخمس، أن خمس سنوات من عمرها ذهبت هدراً مع هذا الإنسان. وأنها فشلت في جعله إنسان سويّاً، بل وصارت تفقد أعصابها ونفسها، وعلى وشك أن تفقد عملها أيضاً.

ما عادت تتابع أخباره. ولكن قبل فترة، وخلال اتصال أخته بها، ذكرت لها أنه يعيش منهكاً، على إبر الأنسولين، بسبب ارتفاع السكّر في دمه. وتراكمت الأمراض عليه، وبتر الأطباء ساقه اليمنى، من تحت الركبة، بسبب انتشار الغنغرينا. أقلع عن تعاطي الكحول والمخدرات. يعيش حالة ندم شديد، ينهش أعماقه. يرتاد الكنيسة باستمرار. صار شحيح البصر، كثير الشرود والتأمّل والبكاء، وقليل الكلام. وأخبرتها أنه طلب منها أن تبلّغها اعتذاره الشديد. وأنه يحبّها، ويريد رؤيتها، وأنه واثق جداً من أنها ستسامحه.

سامحته وسامحت نفسها أيضاً، نتيجة الجنون الذي اقترفته، حين سيطر عليها وهمّ أنه يحبّها، وأنه بإمكانها إصلاحه وتغييره. ويليم كان الخطأ الأكثر فداحة في حياتها. في ما بعد، عرفت أنه لو كان هنالك شخص آخر، يشدّها إليه، ضمن العمل في البنك، لربما ما كان لويليم أي وجود في حياتها. لكن تواطأت ظروف كثيرة حتى تسقط كاترين في هذا الخطأ. ومع ذلك، لا تنكر فضل أمريكا عليها. لقد منحتها الكثير.

في أمريكا، عرفت المعنى الحقيقي للحريّة. الحريّة في ارتكاب أي شيء، قانوني وغير قانوني. وأنها ستدفع ضريبة هذه الحريّة. الحريّة في أن تكون هي، لا كما تريد لها الدولة والأنظمة كيف يجب أن تكون. تشكّلت لديها قناعة مفادها: صحيح أن السود كانوا مضطهدين، ومع ذلك لم يكونوا عبيداً، بل مناضلين ومجرمين وقتلة أيضاً. وقتذاك، شيء ما، لم تدرك كنهه، خلق لديها حدساً يفيد بأن محنة السود ستكون عابرة. وسيأتي اليوم الذي سيحكمون فيه أمريكا. وعبرها، سيحكمون العالم.

في أمريكا، اكتشفت كاترين الجنس. وأن الجنس مع من تحبّ وتعشق، ليس كما الجنس مع أي شخص، بهدف الحصول على اللذة، كي تثبت المرأة لنفسها أنها ما زالت شهيّة، ومثار الإعجاب والمتعة. أو كي يثبت الرجل لنفسه أنه ما زال فحلاً، خصباً، شديد الذكورة التي تجذب النساء. في ممارسة الجنس مع الرجال الذين عرفتهم، اكتشفت الجديد والمختلف، الذي أضيف إلى معرفتها السابقة. يعني حين مارست الجنس مع ويليم، عرفت روعة الجنس مع كمال. وحين مارست الجنس مع شارل، عرفت روعة الجنس مع ويليم.

أمريكا منحتها المال أيضاً. وحصلت على جنسيتها. فهي الآن، أمريكيّة من أصل بلجيكي. أمريكا بلد الاجتهاد والفرص بالنسبة لها. وهكذا، من يساريّة تحتقر الرأسماليّة والإمبرياليّة، إلى مادحة لأمريكا! ولا تجد في الأمر مفارقةً أو تناقضاً. هي تعتبر أن حياتنا كلها، مفارقات. وأن خرافات وأوهام الرومانسيّة اليساريّة، عشناها وصدّقناها ورددناها، حين كان لها السحر والبريق المدغدغ لمشاعرنا

الإنسانيّة، مثيرةً فينا الحماس والإحساس أنه بإمكاننا تغيير العالم بأسره. وكذلك حقائق ومعطيات النظام الرأسمالي، لها ذلك السحر المضاد الذي يجعلنا نتعامى عن قبائح هذا النظام ودعمه للدكتاتوريّات والفاشيّات السياسيّة التي تخدم مصالحه. هي تعتقد أن الأمر محض تقاتل بين وهمين أبديين، يجدد نفسه منذ الأزل وإلى الأبد. هذه الأيديولوجيات القاتلة، من أديان سماويّة ووضعيّة، هي التي سمّمت حياتنا وخيالنا وأفكارنا، ودفعتنا للاحتراب والتقاتل في سبيل أن يفرض كل طرف فكرته ومنهجه على الطرف الآخر.

أعلنتها كاترين بصراحة لولات، بأنها لا تريد العودة إلى ذلك الجدل البيزنطي الطفولي الذي لطالما خاضته نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات، بحثاً عن الإجابة على سؤال: أيّهما أفضل للإنسانيّة؛ النظام الرأسمالي المتوحّش؟ أم الاشتراكي الاستبدادي الذي يسعى نحو العدالة عبر تحويل كل طبقات المجتمع، إلى طبقة واحدة فقط؟!

سألها ولات: إذن، فشلتِ في ضمّ ويليم إلى حزبك، كما كان مخططاً، ضمن عملك التطوّعي في السجن؟

ضحكتْ بعمق، انتهتْ ضحكتها بسعال، لدرجة احمرار عينيها. قدّم ولات لها كوب الماء بسرعة. أثناء الشرب، انتابتها موجة ضحك جديدة، فخرج الماء من فمها وتناثر رذاذاً على ما حولها. شعرت بخجل شديد واعتذرت عن ذلك.

- أوه!.. طبعاً فشلت. هو الذي كاد ينجح في ضمّي إلى حزبه، حزب الجريمة والمخدّرات! تركتُ الحزب الشيوعي الأمريكي سنة 1974، وصرت أتعرّض لمضايقات من قبله، حيث تم التشهير بي على أنني برجوازيّة، ومدسوسة من قبل الأحزاب الرأسماليّة المعادية

في صفوف الحزب! لم أكن ذلك الكادر المعروف في الحزب، لكن تم تهديدي باستمرار من خطورة تبعات إفشاء أسرار الحزب. وقتها، عرفت مدى عقم وبؤس وضحالة العقل الأيديولوجي الحزبي. وبدأت تظهر لي براثن ومخالب وأنياب الحزب. في تلك الفترة، كنت أشعر بأنني في سجنين: سجن العلاقة مع ويليم، وسجن العلاقة مع الحزب الشيوعي الأمريكي. وحين تحررت من هذين السجنين، شعرت بانتعاش المحروم من الأوكسجين، بعد تخلّصه من استنشاق الهواء الفاسد، مدّة طويلة. حين طويت هذه الصفحة من حياتي، أحسست بأنني خفيفة الوزن، كالريشة. لأني ذقت طعم الحريّة، وشعرت بها وبلذّتها أكثر. عرفتُ أن الحياة أجمل وأروع من أن نقضيها في معترك السخافات والتفاهات التي تسمّى صراع الطبقات، ودكتاتورية البروليتاريا. الحريّة، هي أن تفكّر وتقول وتفعل ما أنت مقتنع به، في وقت لا يريد الكثيرون لك فعل ذلك. اكتشفت أن الأكثر حديثاً عن حقوق الشعب وسلطته، ووطن ودولة الشعب، هم نفسهم الأكثر انتهاكاً لحقوق الفرد والشعب والدولة. حين تكون ضمن دائرة الحزب، تكون زاوية الرؤية حادّة، لا تستوعب ما هو موجود خارجها، لأنك اخترت لنفسك وصيّاً على حركة كلامك، أفكارك، خيالك، فتصبحُ مقنناً، مغلول العقل واللسان. وحين تصير خارج الحزب، تنفرجُ زاوية الرؤية لديك أكثر، لتكتشف أن العالم والكون، ليس ما هو موجود داخل الحزب وحسب. وتدرك أيَّ حصنٍ حصين وسجنٍ رهيب، بلا أسوار، كنتَ قابعاً فيه. أو يمكنك القول: إن الحزب العقائدي هو سجن عقائدي، أسواره العالية هي أفكاره المتحجّرة، يدخله المنتمون طوعاً تحت تأثير التخدير

الشعاراتي، فيحكمون على أنفسهم بالإعدام الطويل الأمد. وإذا نجحوا في الخروج أو الهروب منه، فلن يكونوا إلّا أشباه بشر، محطّمين من الداخل. وكلما ازدادت مدّة المكوث في السجن الجماعي الذي يسمّى الحزب، تزداد نسبة التلف والتشوّه الداخلي لدى المرء.

لم تكن مدّة إقامتها الطوعية في هذا السجن طويلة. لذا، تمكّنت من استرداد عافيتها النفسيّة، بسرعة. وكي تبتعد أكثر عن هذه الأجواء، تركت أمريكا. غادرتها دون رجعة. أسباب أخرى ساعدتها في إعلان الطلاق المبرم مع أمريكا، منها تقدّم والديها في السنّ، وصارا بحاجة إلى من يرعاهما، ويقف إلى جوارهما في أيّامهما الأخيرة. بالإضافة إلى أن العمل في البنك بات في غاية الملل. إذ بدأت تشعر وكأنها روبوت، يستجيب لأوامر محددة فقط، تتحكّم بنطاق حركة عمله. تشكّلت لديها قناعة بأن أمريكا لن تمنحها أكثر مما منحتها إيّاه خلال هذه الأعوام السبعة عشر. بالمحصّلة، لم يبقَ لها في أمريكا ما ينبغي أن تعيش لأجله. قدّمت استقالتها، وأخذت كل مدّخراتها وتعويضاتها من العمل، وعادت إلى بروكسل.

نتيجة خبرتها، هذه المرّة، لم تتعب كثيراً في إيجاد عمل جديد في جنيف، وبراتب محترم جداً. ثلاثة أشهر تقضيها في جنيف، وثلاثة أشهر في بروكسل. يبدو أنها مصابة بمرض اسمه جنيف! ولكنها تعتبره مرضاً جميلاً. بالنسبة لها، أنْ تقع في حبّ مدينة، ليس هذا بالأمر اليسير والهيّن. ثمّة مدن نسكنها، وثمّة مدن تسكننا. المدن أيضاً لها أراوح، يمكن أن تتآلف مع أرواحنا. وحدها دمشق، نافست جنيف، وأسقطتها من قلبي.

تنهّدت عميقاً، وأطلقت زفرة حسرةٍ وشوق، وقالت: يا لحزني وألمي على دمشق! وا أسفاه يا دمشق!

قاطعها ولات قائلاً:

- سنأتي للحديث عن دمشق لاحقاً. ولكن أعتقد أن تعلّقك وولهك بجنيف، حتى أكثر من بروكسل وكورتريك، لهما علاقة بكمال. فلو كنت تعرّفتِ على كمال في باريس أو لندن أو برلين، وعشتِ معه نفس ما عشتهِ في جنيف، لكان مقام هذه المدن هو نفس مقام جنيف في قلبك. لكن هذه الحريّة لم تدم طويلاً. لأنكِ دخلتِ قفصاً جديداً، يدعى شارل! متى؟ وكيف كان ذلك؟ سألها ولات.

كلما شعرتْ بالضيق والتوتّر والكآبة، كانت تلوذُ بالمشي لمسافات طويلة، قد تصل عشرة كيلومترات، مع أخذ استراحات في بعض المقاهي. هذه العادة، تفاقمت أثناء تواجدها في أمريكا وأزماتها الكثيرة مع ويليم. وبعودتها مجدداً إلى جنيف، خرجت عادة المشي لمسافات طويلة، عن كونها حاجة إلى تفريغ شحنات التوتّر والهموم والترويح عن النفس وحسب، بل لتساعدها على التأمّل ومراجعة النفس أيضاً.

الابتعاد عن ضجيج المدينة، والسير في الطرقات الريفيّة، والتنفّس بعمق، صار كالخبز بالنسبة إليها.

كان هنالك ماراثون، يقام سنويّاً مطلع شهر أيّار، يشارك فيه المئات. هذا الماراثون أصبح الآن مشهوراً جداً في سويسرا، ويستقطب آلاف المواطنين، ويشارك فيه رياضيون مشهورون حاليّاً. اعتادت كاترين على المشاركة الرمزيّة فيه، كون ريع هذا الماراثون

يذهب إلى الأعمال الخيريّة. صحيح أنه لا يمكنها الركض كل المسافة. ولكن تبقى المشاركة بحد ذاتها أمراً جميلاً، خاصة أنه يستمرّ لثلاثة أيام، يتم فيها المرور ببعض معالم جنيف من ميادين وساحات وحدائق وجسور، كجسر «مونت بلانك»، وساحة النافورة الكبيرة.

كان ذلك سنة 1993. بمحض المصادفة، تعرّفت على رجل بلجيكي في العقد الخامس من عمره، اسمه شارل بنيامين فِرهايغن. يرتدي ملابس رياضيّة، يجلس على جانب الطريق، مسنداً ظهرهُ إلى جذع شجرةٍ تنوب ضخمة، ويدخّن سيجارة. تأمّلها بابتسامة عريضة، وبادر بالكلام:

- يبدو لي أننا كبرنا، ولم نعد نقوى على مجاراة الشباب في الركض والمشي. قالها ضاحكاً.

- مرحباً. هل أنتَ أيضاً من المشاركين في الماراثون؟

- نعم. طقس سنوي، أحاول ألا يفوتني.

- جميل. بخصوص الشيخوخة، يمكنك التحدّث عن نفسك. أمّا أنا، فأشعر بأنني ابنة الخامسة والعشرين من عمري.

- نعم. نعم. بكل تأكيد. هذا واضح جداً. ليس الخامسة والعشرين، بل الثامنة عشرة أيضاً!

فانفجرَ الضحكُ فيهما. ثم تعرّفا على بعض. ذكر أن أمّه سويسريّة - فرنسيّة من مقاطعة «نيوشاتيل» السويسريّة، لكن أهلها يقيمون في جنيف. ووالده من آنتويربن، وَرِثَ تجارة التُّحف واللوحات الفنيّة من جدّه ديفيد فرهايغن الذي نجا من كارثة

«تايتانيك» لأنّه تخلّف عن الرحلة بسبب إصابته بآلام شديدة في المعدة، أودعته المستشفى أثناء تواجده في لندن. وصار يضحك قائلاً:

- أنا وأبي مدينان لذلك العارض الصحّي. فلولاه، لما كنّا موجودين، ولما التقينا هنا! نحن أبناء الصدفة ومدينون لها. حياتنا تقررها المصادفات. أليس كذلك؟!

بدا لها رجلاً ناضجاً، ودوداً، وسيماً. لمستْ في شخصيّته الوقار والطمأنينة والتصالح مع الذات والاستقرار النفسي. ولم تجد فيه ما يثير النفور والحذر. ربما الفراغ الذي كانت تعشيه، زاد من جرعة الانطباع الإيجابي حيال هذا الرجل. أو أنه حقّاً كان هكذا. زد على ذلك، أنْ تلتقي بشخص من بيئتكَ ووطنكَ فجأةً، في مكان لم تكن تتوقّع فيه ذلك، ربما يدفعك هذا إلى أن تميل نحو التواصل معه.

رويداً، وأثناء المشي والحديث، بدأت تتكشّف أكثر تفاصيل حياته. ذكر أن حَرْقَ متجر والده، لأسباب غامضة، كانت ضربة قاصمة كسرت ظهره، وجعله ينزلق نحو القمار، في مسعى استرداد ما فقده، لكنه أضاع المتبقي من ثروته، وأنهى حياته بالانتحار. وذكر أنه كان ضابط شرطة في بروكسل، وطرد من عمله، قبل خمس سنوات، بسبب تعاطيه المفرط للكحول والمخدرات. والآن يعمل طبّاخاً. لكنه سعيد وراضٍ، وليس نادماً. وأن صديقته الإسبانيّة الغجريّة تملأ عليه حياته. وأنها هي أيضاً، برفقته، تشاركه الماراثون. لكنها مضت مع الشباب، كونها في الخامسة والثلاثين من عمرها، وتصغره بنحو خمس عشرة سنة.

تحدّث عنها، حديثَ هيامٍ ووله، لم يقلهُ روميو في جوليت:

«والآن، مع ساحرة الفلامينغو، ماتيلدا خوسيه فريدريكو رودريغس». هذه العبارة التي تبدو عادية، أثناء تواجد أي شخص في بار أو مطعم، يقدّم لزبائنه فقرة موسيقيّة أو راقصة، إلى جانب وجبات الطعام. لكن بالنسبة لشارل، صارت كناقوس كنيسة قوطيّة، موغلة في القِدم، يرنّ في رأسِهِ. رفعَ عينيه عن كأس الويسكي الذي كان شارداً في النظر إليهِ، نحو فتاةٍ تتوسّط مساحة بسيطة، بالكاد يمكنها الرقص فيه، يرافقها عازف غيتار، يشاركها الرقص والغناء. كانت فرساً شموساً، ترتدي ثوباً غجريّاً أحمر صارخاً، فضفاضاً من الأسفل، ويضيّقُ الخناق على الجذع والصدر، ويظهر من النهدين قليلاً، ومن ظهرها ما يزيد عن النصف، تمسكُ الراقصة بطرفهِ أحياناً، فيظهر الساق والفخذ، ويختفيان في لمح البصر، نتيجة حركاتها السريعة. أمّا شعرها الأشقر الطويل المجعّد، وتقاطيع الوجه المتناسقة، والعينان العسليتان اللوزيتان الواسعان، فيلزمها روائي وشاعر كبير، من وزن فيكتور هوغو، كي يصفها. كان ذلك، قبل ثلاثة أعوام في مطعم القارب الذهبي "la schaloup d'or" في ساحة «غراند بلاتس» وسط بروكسل. قرعُ كعبَي حذائها على الأرضيّة الخشبيّة للمطعم، كأنّهما ينقران قلب شارل. ومن ذلك الوقت، صار من المدمنين على ذلك المطعم، وكلما رأى ماتيلدا ترقص، يصير يناجي هوغو الذي كان يسكن المنزل المجاور لهذا المطعم، سنة 1852، كي يشاركهُ متعة النظر، ودهشة التأمّل والغرق في هذا السحر الذي لا يوصف.

ذات يوم، دعاها لكأس نبيذ. تعرّفا على بعضهما. قال لها:

- قرأت عن رقصة وموسيقا الفلامينكو، نشأتها وتطوّرها. وحضرت العديد من الحفلات والاستعراضات، وشاهدت العديد من الأفلام السينمائيّة والوثائقيّة التي تتناول المجتمع الغجري في إسبانيا وفنونه. ولكنني لم أجد من يرقص الفلامينكو أفضل منك.

ابتسامتها، كانت قطرة السحر التي أفاضت كأس انبهاره ودهشتِهِ بها. وقالت، والاحمرار يكلل وجنتيها:

- غمرتني بلطفك. أشكرك على الإطراء. الرقص بالنسبة لدي، هو تحرر من كل ما هو وجودي. أحسبه طقساً يوصلني إلى النيرفانا، ليس عبر الصمت والتأمّل الجامد، والتجرّد من الذات والمحيط، بل عبر الحركة واستنفار كل عضلات الجسد وحواسّه، لدرجة لا أعود أحسّ بالجاذبيّة والوزن. أحاول شحن كل طاقات الشهوة واستنهاضها واستنفارها، وصولاً إلى اللذة الروحيّة القصوى والمطلقة. النيرفانا التي أعيشها، ليست كالتي يعيشها الكاهن البوذي. ربما هي شبيهة برقصة المريد المولويّة لدى أتباع المتصوّف الفارسي جلال الدين الرومي. لكنها تتجاوزها من حيث تنوّع الحركة، وعدم الاكتفاء بالدوران حول الذات. حين أرقص، أحسبُ نفسي أراقص الموت. أو أنه هو من يراقصني. والرقص، حوار بيننا، لا يوجد فيه غالب أو مغلوب، مُخطئ أو مُصيب، تابع أو متبوع. لذا، التركيز لدي أثناء الرقص، في اختلاق حالة، والاندماج فيها، إلى درجة التلاشي أو التشظّي. أنا أرقص، لا كي أدخل المتعة إلى ناظريك وقلبك، بل كي أمتع نفسي، وأصل إلى اللذّة، لدرجة الاندثار فيها.

ثمّة من يرقص كي ينسى، بينما أنا أرقص كي أتذكّر. أتذكّر كل

معاناتي في الأحياء العشوائيّة البائسة، التي أمضيتُ فيها طفولتي. أتذكّر حديث أمّي عن آلام جدتي التي اختطفتها عائلة غجريّة من فرانكفورت وهي في الرابعة من عمرها، أثناء الهرب من المحرقة إلى إسبانيا. وكيف أنّها كبرت كغجريّة. وحالة الاحتقار الشديد التي تعرّضت لها من قبل خاطفيها، بعد أن أخبروها بأنها ليست غجريّة، بل ألمانيّة. وأن العنف الجنسي الذي كانت تتعرّض له، هو فعل انتقام من الألمان وهتلر. هكذا كان يقول لها، خاطفها، الذي أوهمها في البداية أنه والدها. ولكن، حين بلغت الرابعة عشرة، وفي كل جولة جنس معها، كان يخبرها أنه يضاجع ألمانيا وكل الرايخ الألماني والفهرر، والعرق الألماني بأكمله. هذه الطفلة، عاشت وماتت في معسكر اعتقال من نوع آخر. لم يتوقّف تعذيبها بانتهاء الحرب العالميّة وهزيمة ألمانيا. ماتت جدتي في العقد الرابع من عمرها. ولم تترك خلفها، سوى بنتين وولد أورثتهم صنوف العذاب والشقاء. مات الولد في السابعة عشرة، في أحد سجون فرانكو. وهربت خالتي من هذا الجحيم مع غجري إلى جهة مجهولة. فازداد العذاب على أمّي التي أنجبتني، لكنها لا تعرف من هو أبي، لكثرة من ضاجعوها! هي أيضاً، لم تحتمل البقاء في معسكر الاعتقال المفتوح والأبدي هذا، وألقت بنفسها أمام القطار، وأورثتني ماراثون عذابها. أنا وأمّي وجدّتي، دفعنا فواتير جرائم لم نرتكبها. هكذا لاحقتنا لعنة هتلر جيلاً إثر آخر.

تعرّفتُ على شاب مغربي، ساعدني في الهرب من ضواحي مدريد الفقيرة، إلى حي «بيغال» الباريسي، لأتفاجأ أنه يريد بيعي لأحد بيوت الدعارة. عملت في هذا البيت، عدّة أشهر، حتّى

جمعت بعض المال. وطفقت هاربة إلى بروكسل. مضى على عملي في هذا المطعم، ما يزيد عن خمس سنوات. كثيرون صادفتهم في بروكسل، ساعدوني وأخذوا بيدي ومنهم عازف الغيتار الذي يرافقني، روجيه دو فالس. حياتي سعيدة ومستقرّة. أحاول عبر الرقص، التغلّب على كل آلام الماضي، من خلال تذكّرِها، وتجاوزها. باختصار، سأعيش لأرقص. وأرقص لأعيش.

- أشعر بأنّك تمتلكين ثقافة عاليّة جدّاً.

- الثقافة لا يمكن أن تمنحك إيّاها الأكاديميّات والإجازات الجامعيّة. إذا أردت الثقافة، فستجدها خارج المدارس والمعاهد والجامعات. السنوات الأخيرة لي في بروكسل، لم أفعل فيها شيئاً سوى الرقص والقراءة. صديقي روجيه أورثه والده مكتبة كبيرة. بعكس ما أورثتني أمّي وجدّتي. لا ألومهما، كونهما ضحايا جرائم، ارتكبها بني جلدتهما، حين أدلوا بأصواتهم لهتلر وحزبه.

- لدي أيضاً مكتبة تستحق أن تقرئيها، وقلباً يستحق أن تلتفتي إليه.

أحسست أن هذه الفتاة، تألّمت أكثر من المسيح نفسه، وهو على خشبة الصليب. وأنها ما أفتقده في هذه الحياة، وستنتشلني من الفوضى التي أعيشها. وكي أكون قريباً منها أكثر، تقدّمت للعمل في المطعم، كطبّاخ، بعد أن خضعت لدورة تأهيل مهني في الطبخ، دامت ستة أشهر. توطّدت علاقتنا، وصارت تعيش معي في شقتي. وبدأت أتعرّف على الحياة من جديد على يديها. ولشدّة نضوجها، أحسست بأنها تكبرني بمئة سنة. يا ليتها كانت هنا الآن، كي أعرّفها عليكِ.

سألتها ذات يوم:

- أنت الآن قريبة من جذورك. لماذا لا تبحثين عن أهل جدّتك في ألمانيا؟!

بصوتٍ ملؤه السخريّة والتهكّم، أجابت:

- جذوري؟! أيّة جذور؟! لا جذور لي. أنا ورقة لا أعرف من أيّة شجرةٍ سقطت! وتسألني عن جذور هذه الشجرة؟! وما الذي سينقص من الآلام والأحزان التي عانيتها على مدى ثلاثة أجيال، بدءاً بجدتي، ثم أمّي، وصولاً لي، في حال تعرّفت على عائلة جدتي؟! وماذا لو اكتشفت أنها فعلاً كانت عائلة نازية، ومتورّطة في دعم النظام النازي؟! هل تدرك أن حجم الألم والعار الذي سأشعر به، سيكون أضعاف الألم والعار الذي عشته سابقاً؟! ثمة ما هو أفضل وأحسن وأكثر فائدة في السعي نحو البحث في مسألة تافهة، تسمّى الأصول والجذور. لا أريد النظر إلى الماضي والعودة إليه، إلّا عبر الرقص. أريد قتل الماضي بالرقص والغناء. ولا أريد أن يقتلني الماضي، مرّة أخرى. الفلامينكو، رقصاً وغناءً، هي أصلي وجذري، وطني وشعبي. أي انتماء آخر، لا يعني لي شيء.

- حسناً، ألا تخشين الغجر الذين اختطفوا جدتك، وتنحدرين من صلبهم، إلى هنا، أن يلحقوا بك الأذى؟!

- لا. بل هم من يخشونني الآن. لأنني ذكرت للبوليس البلجيكي كامل قصّتي معهم. وعبره صار البوليس الإسباني على علم بملفّي. وكتبت عليهم تعهّداً بعدم إلحاق الأذى بي. ثم إن إقامتي هنا رسميّة، وأعمل، وأدفع الضرائب، وعلى السلطات هنا، حمايتي.

وبإمكاني تقديم طلب الحصول على الجنسيّة البلجيكيّة، لأن وضعي القانوني هنا استوفى الشروط اللازمة. ولكنني لن أفعل ذلك. أريد أن أبقى غجريّة، لا أنتمي إلى أيّ بلد. وكل البلدان تنتمي إليّ.

استمرّ التواصل بين كاترين وشارل، بعد العودة إلى بروكسل كصديقين. وفي كل مرّة حاول فيها أن يجمع بينها وبين ماتيلدا، ثمّة أمر ما كان يطرأ، يعرقل ذلك! مرّت الأيّام، ولم تلتقِ بهذه الفتاة، رغم التشوّق لرؤيتها، نتيجة المديح والحبّ والهيام والإعجاب الذي كان شارل يغدقه عليها!

في العام التالي، أثناء المشاركة في نفس الماراثون، مرّت كاترين بنفس المكان الذي التقت فيه بشارل، فرأته مجدداً، ولكن، بدا لها منهاراً، لا يقوى على الكلام. مجهشاً في البكاء. هرعت إليه، لتسأله عن وجوده هنا مجدداً؟! وما به؟ وماذا جرى له؟ ولماذا يبكي؟! وهل ثمة مكروه ألمَّ به؟! لكنه لم يكترث للأسئلة وواصل جولة البكاء الشديدة، التي تنمُّ عن حزنٍ وألم عميقين، يفوقان الوصف. وقال بصوت مرتعش ومهشّم: «خانتني وغدرت بي». واكتفى بإعطائها ورقة، مكتوباً عليها: «لا تتعب نفسك في البحث عنّي. لأنك لن تجدني مطلقاً. أشكرك على كل شيء. على الحبّ الكبير الذي لم أكن أستحقه. يبدو أنني كنت بحاجة إليك كأبّ، وليس كحبيب. . . ماتيلدا».

بعينين شديدتي الاحمرار، ينهمر منهما الدمع، ذكر شارل أنه البارحة، أتيا معاً، عبر القطار من بروكسل إلى جنيف. ودار بينهما حديث جميل. وقضيا ليلة حميمة رائعة. واليوم، استيقظ، ولم يجد سوى هذه الرسالة، تركتها، وغادرت الفندق!

حاولت كاترين التخفيف عنه. ولم تعد تعرف ماذا ينبغي عليها قوله في مواقف كهذه. ذكرت له أن من حقه أن يحزن. لكن شرط ألّا يحزن كثيراً. لأن الحياة أعظم وأجمل من أن نضيّعها في الأحزان.

اعتذر منها شارل، لأنه أشغلها بما ليس لها أيّة علاقة به. مسح دموعه. فبدت عيناه كفنجاني دم، تسبح فيهما خرزتان زرقاوان. أشعل سيجارة، وطيلة دقائق تدخينها، ظلّ صامتاً. تنهّد عميقاً، وتذكّر أنه نهار أمس، أثناء الطريق من بروكسل وصولاً إلى جنيف، مروراً بباريس، كانا جالسين إلى جوار بعض، ويتحدّثان حول أمور مختلفة. فاجأته بحديثها عن الموت، وهو يعرف مدى حبّها للحياة والغناء والرقص:

- أتعرف، يا شارل، كم نحن نظلم الموت؟! نعم. كما أقول لك؛ نحن ظالمون بحقّه. حبّه لنا، لا يمكن وصفه. أعتقد أن الحبّ العظيم، هو الذي يكون من طرف واحد، ولا يفقد جذوته وبريقهُ وحرارته. وحبّ الموت لنا، هو من هذا الصنف. إنه يحبّ الأحياء جميعاً، من بشر وشجر وحيوانات وحشرات. نهرب منه فيلاحقنا. بإمكانه القبض علينا متى يشاء. لكنه لا يخلف موعده معنا. نحبّ الحياة، ونلاحقها، لكنها تهرب منّا وتظلمنا، وتمنحنا الكثير من الآلام والأحزان والخيبات والانكسارات. حبّنا للحياة، هو من طرف واحد. في حين أن الحياة جاحدة بحبّنا لها. لكن الموتَ يحبّنا، رغم جحودنا به. يظلُّ يرافقنا، أينما كنّا، بينما الحياة تدير ظهرها لنا، حين نكون بأمسّ الحاجة إليها.

الحبُّ، في أحد أبرز أوجهه، هو عذاب وتعذيب للذات

والحبيب. هنالك قول لدى المسلمين، يشبه ذلك، أعتقد أنه منسوب لنبيّهم محمد، بما معناه، «إن أحبّ اللّه عبداً، ابتلاه». فمن يموت بعذابٍ شديد، هو من أحباب اللّه. وكذلك المسيح، حين قَبِلَ الموت والعذابَ على الصليب، فلأنه كان يحبّ كل الناس، ويريد أن يغسل عنهم خطاياهم وآثامهم.

استغربتُ من كلامها هذا، واستدركت متسائلاً:

- والمعذّبون في الجحيم، هل يحبّهم اللّه أيضاً؟!

- شارل، لا يمكن أن تكون من صفات اللّه، الحقد والكراهية والمعاداة. اللّه لا يعادي من يعاديه. ولا يكره من يجحده ويكرهه. اللّه لا يكره أو يحقد على خلائقه. هو يغضب ويعاقب، ولكنه لا يكره. كالأب الذي ربما يغضب من أحد أبنائه أو بناته، ويسعى إلى معاقبته أو معاقبتها، لكنه لا يكره أو يحقد على أيّ منهما. اللّه لم يخلق البشر، كي يكره بعضهم ويحبّ البعض الآخر. الموجودون في الجحيم، يعاقبهم اللّه، على خطاياهم، لأنه يحبّهم، ولا يريد لهم أن يرتكبوا المعاصي والخطايا. وعذاب اللّه لهم، هو الوجه الآخر لحبّه لهم.

- ولكن اللّه لعن إبليس، وطرده من رحمته! أوليس إبليس من خلائق اللّه؟!

- بلى. ولشدّة حبّه للّه، عصاه، ولم يشأ السجود لغيرِهِ. ولشدّة حبّ اللّه له، لعنهُ على معصيته، وطرده، ولكن، لم يمِتهُ، وهو القادر على ذلك.

كما أقول لكَ: الموت، صنو الوفاء وقرينه. ما قطع وعداً، إلّا

وفى به. بخلاف الحياة، التي تخلف كثيراً مواعيدها. الحياة، أنانيّة، ولا تحبُّ إلّا نفسها.

- ما دمتِ معجبة لهذه الدرجة بالموت، وتفلسفينهُ، وتفضّلينه على الحياة، فلماذا لا تلحقين به، وتنهين حياتكِ؟!

ابتسمت، وهي تنظر من نافذة القطار الذي نحن على متنه، وأجابت:

- يحقُّ لك الاستغراب من كلامي، وطرح سؤال كهذا. لماذا ألحق بالموت، وأنا أعيشه، منذ فتحت عينيَّ على الدنيا؟! ألم أقل لك، إنني أراقصه، وأحاورهُ؟! ولا غالب أو مغلوب في هذا الحوار! ولا مصيب أو مخطئ!

- ألستما مختلفين؟!

- بلى.

- أليس الحوار قائماً على وجود الاختلاف؟ إذ لا وجود لحوارٍ بين أشخاص أو أطراف متفقة ومتطابقة في الرأي والمواقف!

- بلى.

- أليس الاختلاف قائماً على التنوّع؟ أليس التنوّع، في أحد أوجهه الفكريّة، هو تعدد وجهات النظر حيال موضوع ما، تعكس بدرجات متفاوتة، النقاش أو الصراع بين الصواب والخطأ، كل طرف من زاوية الرؤية التي ينظر منها إلى هذا الموضوع؟

- بلى.

- إذن، والحال هذه، كيف تكون نتيجة أي حوار، لا غالب ولا مغلوب، لا مخطئ ولا مصيب؟ أي حوارٍ هذا، بحيث يكون عادلاً

لهذه الدرجة، ومتساوياً في الحكم، ويلغي أبرز مبررات وجوده، وهو الاختلاف؟!

- مشكلتكَ أنك تُخضِع الحوار بيني وبين الموت، للمعايير والمقاييس والمبادئ في الحوار بين البشر! لذا يلتبس عليك الأمر ويختلط. أو أنني عاجزة عن إيصال فكرتي لك.

توقّف شارل، وأشعل سيجارة أخرى وقال:

- كاترين، هذا النقاش كانت تتخلّله لحظات حميمة من قبلات وفرك يديها وفخذها ونهدها. وهي أيضاً تفرك يدي وتداعب شعر صدري، واضعةً رأسها على كتفي.

- ألهذه الدرجة، كانت هذه الفتاة عميقة، وتميل إلى التفلسف والتصوّف؟! حسناً فعلت بخروجها من حياتكِ. قالت له كاترين.

قالت ذلك، وهي غير مقتنعة بهذا الكلام. فقط كي تخفف عن شارل حزنه وألمهُ. لكنها في العمق، معجبة بكلامها ووجهة نظرها.

امتعض شارل من كلامها مستغرباً: «لماذا كاترين؟ لماذا؟!». أجابته بثقة مفتعلة ومتصنّعة:

- لسبب بسيط هو أنه لا حياة مع الموت. ولا موت مع الحياة. هذه الفتاة بحاجة إلى مصحّ، وليس إلى حبيب أو أب يمنحانها ما سلبته الأقدار منها. نقاشها كان أقرب إلى السفسطة منه إلى الحكمة والتفلسف. لذا، لا يمكن لنقاش كهذا أن يخرج بنتيجة!

لم تكن كاترين مقتنعة بما قالته لشارل، لكنها تحاول كتم إعجابها بهذه الفتاة، وندمها على عدم اللقاء بها، لئلا تصيب شارل بمزيد من الحزن والأسف، إن أوحت له بمدى مقدرة هذه الفتاة على

الدفاع عن فكرتها، وتطويع الكلام في سبيل ذلك، ومهارتها في خلقها الشك داخل كومة اليقينيات التي نتوارثها.

قال شارل: أخشى أن تكون قد انتحرت هي أيضاً.

- لا تخشَ شيئاً. لن يصيبها مكروه. هي تحبّ الحياة، أكثر منّي ومنك. باختصار، من يريدكَ، لاحقه. ومن يتخلّى عنك، اهجره وتناساه. تماماً، وفق وجهة نظرها عن الحياة والموت.

نهضت كاترين ونفضت التراب عن نفسها. ومدّت يدها لشارل، وقالت له:

- هيا.. انهض، وانفض عن نفسك الحزن. فالحزنُ غبار الحياة.

تأمّلها بنظرةٍ واعدة ومنكسرة وتوسّل، ثم نهض نافضاً عن نفسه التراب العالق بثيابه. ورويداً، صار يُكثر من اتصالاتهِ ولقاءاتهِ بها. هي أيضاً، صارت تميلُ إليه، وتتودد له، من دون سبب وجيه. وبدأت تشعرُ بخدرٍ وردي يتسرّب إلى عروقها، وينعشُ دمها وجسدها.

بعد مضي سنتين ونيّف على علاقتهما، طلبها للزواج. ذكرت له أنها تكبره بعدّة سنوات. فردّ: «إن فارق السنّ لا يهمّه». ذكرت له أن طبيعة عملها في سويسرا، تقتضي أن تبقى في بروكسل، ثلاثة أشهر. فوافق على ذلك. شرحت له الظروف وكل ما من شأنه أن يعرقل هذا الارتباط، لكنه أصرّ على قراره. فما كان أمامها إلّا الرضوخ، بعد أن لمستْ منه هذا التعلّق الشديد بها. تزوّجا، وطلبت منه ترك شقته التي يستأجرها، والسكن معها في شقتها. خاصّة أنها تعيش وحدها، بعد وفاة والديها.

عاشا ثلاث سنوات هادئة وسلسة، مليئة بالتفاهم والانسجام والمودّة والحبّ، إلى أن أتى ذلك اليوم الذي يخبرها فيه بظهور ماتيلدا وعودتها. وأنها تسكن إحدى قرى المناطق الجبليّة التابعة لمقاطعة «غراوبوندن»، جنوب شرق سويسرا، بالقرب من الحدود الإيطالية. وأنه يزورها هناك. وصار يشرح لكاترين أسباب عودة علاقته بماتيلدا، وصعوبة نسيانه لها. خاصة أنها هي التي اتصلت به، واعتذرت منه، وأبدت ندمها على تركها له. وأنه يريد أن يبقي على علاقته مع كاترين، وزواجه منها في الوقت عينه. وأنه يحبّ كلتيهما، ولا يريد التفريط بأيّ منهما!

صحيح أن الصدمة كانت شديدة على كاترين، ولكنها لا تعرف من أين أتاها كل ذلك الهدوء وبرودة الأعصاب، بحيث لم تعلّق كثيراً على كلامه، واكتفت بالقول: «أنت حرّ في حياتك. وفي حال عدتَ لماتيلدا أو لم تعد، كل شيء بيننا، انتهى من هذه اللحظة. ونبقى صديقين».

وجدت له شقة صغيرة للإيجار، لا تبعد عن منزلها مسافة مئتي متر. كانت تلتقي به، بين الفينة والأخرى. وتزوره في شقته. ويتناولان الطعام معاً. ويلتقيان خارج المنزل...، ويمضي كل شيء بشكلٍ عادي، وكأنهما لم يكونا زوجين لثلاث سنوات.

ما زالت تتذكّر الحادث، وكأنّه جرى يوم أمس. مساء 13 سبتمبر سنة 2000، دعاها شارل لتناول العشاء، في مطعم قريب من محطة «غارد دو ميدي» للقطارات. كان على نفس الهيئة التي التقت به أوّل مرّة، على هامش ماراثون جنيف، بشوشاً، مبتسماً. يلقي عليها النكات والطرائف، محاولاً إدخال الفرح والسرور إلى قلبها.

بدا أصغر من سنّه بكثير، نشيطاً، استيقظت في عروقه الفتوّة، وتفيض عيناه شهوةً وشبقاً، كعيني شاب في الثامنة عشرة من عمرِهِ. شربا النبيذ. نصحته ألّا يُكثر، لئلا يصاب بمكروه، بخاصّة أن له عادة غريبة، أثناء صعود أو نزول الدرج العادي أو الكهربائي، إذ لا يُخرج يديه من جيبه.

خرجا من المطعم، ودخلا إلى المحطة، ونزلا إلى الأسفل، حيث منطقة قطارات المترو. ذهب القطار الذي من المفترض أن يركباه متجهين إلى موقف روجير، دون أن يتحرّك شارل من مكانه. كان مطأطئ الرأس، شارداً. رفع رأسه ونظر بعمق في عينيها، وقال:

- لقد ظلمتكِ كثيراً. صحيح أنني كنتُ أحبّك، ولكنني خنتكِ. كنت أخونك مع ماتيلدا وغيرها. أنا خائن، لا أستحقُّ قلبك الكبير. لكن يجب أن تثقي بأنني أحبُّكِ.

حاولت كاترين مقاطعتهُ والقول له: دعك مما مضى. نحن صديقين. ولا داعي للاعتذار وسرد الماضي. لكنه لم يتركها تكمل وقال:

- أرجوك، دعيني أكمل حديثي. أنا أحتقر نفسي كثيراً. فوق ما تتصوّرين. كنتُ مسكوناً بشيطان اسمه ماتيلدا. وسأحرر نفسي منها الآن.

نظر إلى اليمين، وإذا بقطار ميترو يأتي بسرعة. ألقى بنفسه أمامه، ولم يترك لسائق القطار فرصة سحب الفرامل، وهو يقول:

- كاترين، حبيبتي، سامحيني.. سامحيني.. وداعاً!

بعدها، لم تشعر بما جرى. ولم تجد نفسها إلّا في المستشفى. قال لها الأطباء إنها أصِيبت بانهيار عصبي. وبقيت في المستشفى ما

يزيد عن الشهر. وبعدها راجعت العيادة النفسيّة. رويداً تحسّنت صحّتها، بعد مرور عام على ذلك الحادث. أتتها فكرة مجنونة، أو تساؤل مجنون، مفاده: لماذا لم يدعوني شارل طيلة سنوات العلاقة بيننا للمطعم الذي كان يعمل فيه، وترقص وتغنّي فيه ماتيلدا؟! فقررت البحث عن هذه الفتاة والاستفسار عنها، باعتبارها كانت أحد الأسباب وراء انتحار شارل. استفسرت من صاحب المطعم. فذكر لها أنهم لا يعرفون شخصاً بها الاسم، وأنهم أصلاً لا يقدّمون فقرات موسيقيّة، ويكتفون بموسيقى كلاسيكيّة، خفيفة، غير صاخبة، يسمعونها لزبائنهم، عبر آلة الأسطوانات القديمة، الموجودة في المطعم. ثم إنه لا يوجد طبّاخ باسم شارل فرهايغن عملَ أو يعمل لديهم! أصيبت بالصدمة والذهول من الإجابة، وتذكّرت أن شارل قال إنها مقيمة بشكل رسمي في بروكسل. وبالتالي، يجب أن يكون اسمها وعنوانها مدرجَيْن لدى البوليس ومكتب الأجانب. فتقدّمت بشكوى رسميّة ضدها لدى البوليس، وطالبت بضبطها وإحضارها. وبعد التحرّي والبحث الدقيق في سجلات الأجانب المقيمين في بلجيكا، القادمين من إسبانيا، لم يتبيّن أن هنالك شخصاً بهذا الاسم: ماتيلدا خوسيه فريدريكو رودريغيس. وصارت تتساءل: هل ماتيلدا كانت حقيقة؟ أم وهماً؟!

لاحظَ ولات أن مسار الحديث دخل دائرة الأحزان، فأراد تغيير الوجهة نحو سورية، مستفسراً عن سبب رغبة كاترين تعلّم اللغة العربيّة، فذكرت أن الرغبة في تعلّم العربيّة، رافقتها مُذ كانت في ذلك المعسكر الأمريكي بمدينة القنيطرة المغربيّة. وكذلك أثناء تواجدها في سويسرا، درست قليلاً العبريّة والعربيّة. في ما بعد،

قالت في نفسها: «آه، سأتجه إلى تونس، ويجب عليّ تعلّم العربيّة». ومضت الأيّام هكذا، دون أن تحقق هذا الحلم أو الرغبة. وفي أحداث 11 سبتمبر، اتخذت قراراً وقالت لنفسها: «خلاص، يجب أن أتعلّم العربيّة، كي أعرف الفروق بيننا وبين العرب». فسجّلت في معهد لتعلّم العربيّة ببروكسل. وبعدها ذهبت إلى مدينة «فاس» المغربيّة للدراسة في معهد لتعليم اللغة العربيّة. اكتشفت أن المعهد أمريكي، ولكنهم أخفوا ذلك عنها. فقررت تركهُ. سألوها: «هل لديكِ مشكلة مع أمريكا والأمريكيين؟». ضحكت كثيراً، وأجابتهم: «لا طبعاً. ولكن لماذا تخفون حقيقة المعهد وتابعيّته عن الناس، ما دام الأمر طبيعياً؟! المشكلة لديكم، وليست لدي!».

أثناء ممارسة رياضة المشي، تعرّفت كاترين على رجل، أخبرها أن أخته تدرس في دمشق. وهي تحبّ هذه المدينة كثيراً. قالت في نفسها: «أوه! لِمَ لا؟!». وقفزت إلى ذاكرتها ما كان يقوله الإسرائيليون عن سورية، أثناء إقامتها في إسرائيل. وفي إحدى المرّات، كانت قريبة من الجولان، ورأت الجنود السوريين. بحيرة طبرية كانت رائعة الجمال. دوماً كانت تسأل نفسها: ترى، ماذا يوجد خلف هذه الجبال؟!

أيام الجمعة، كانوا يرون شباباً سوريين يجتمعون في أعلى التلّ، فتلوّح كاترين لهم بيديها، قائلةً: «شالوم.. شالوم»..، فكانوا يصرخون بالعربيّة: «أولاد الكلب». لم تكن تفهم ماذا يقولون لها؟! فيما بعد، فهمت سبب غضب هؤلاء الشباب. لأن الإسرائيليين سرقوا منهم بيوتهم، ويلوّحون لهم بالأيدي ويقولون: «شالوم»! كيف يستقيم ذلك؟!

وهكذا قررتْ السفر إلى دمشق. ولا تنسى هذا التاريخ. يوم 10 أيّار سنة 2002، حين قال قائد الطائرة التي حطت بها في مطار دمشق: «الحمد للّه على السلامة. نحن الآن في دمشق. بإمكانكم فكّ الأحزمة».

في البداية، أقامت في فندق قديم يطلّ على ساحة الحجاز، اسمه «قصر الشرق». أبهرتها دمشق بناسها الطيبين. مرّةً، دخلتْ دكّاناً، تستفسر عن وجهة معيّنة، وإذا بالرجل يغلق دكّانه، ويأتي معها، كي يدلّها ويعلّمها كيف تتجه. جمال المدينة وطيبة أبنائها، خفَّفا عنها وطأة الخوف من المخابرات. لأنها أثناء ملء استمارة الحصول على الفيزا السوريّة، كان هنالك سؤال: هل زرتِ فلسطين المحتلّة؟ وهي أجابت: نعم. وحين عرف زوج أختها بهذه القصّة، قال لها: «سيقول عنكِ السوريون بأنكِ جاسوسة. وستذهبين إلى السجن فوراً».

بقي الخوف والقلق يلازمانها في البداية، بالإضافة إلى أنها ما كانت تعرف أحداً، ولا تجيد العربيّة. أثناء الإقامة في الفندق، عرفت أن المخابرات تأتي وتطلع على أسماء النزلاء، يوميّاً. تعرّفت على بعض نزلاء الفندق، والطلبة في المعهد، الذين كانوا أجانب. ولكن علاقتها بهم كانت سطحيّة جدّاً.

قررت ترك الفندق، واستئجار شقّة كي تتخلّص من رقابة المخابرات اليوميّة. ولكن أصدقاء قالوا لها: «كل أصحاب المكاتب العقاريّة، هم مع المخابرات. ولا يمكنكِ التخلّص أو التملّص من الرقابة. يستحسن أن تكوني مكشوفة لهم، لئلا يظنّوا بك سوءاً، حين

تغيّرين أماكن سكناكِ بكثرة». ورغم ذلك، استأجرت شقة في شارع ابن المقفّع، بحيّ «مزّة فيلات غربية»، قريباً من برج تالة.

بالنسبة لها، سورية صارت بلدها. كانت تريد أن تمضي بقية حياتها فيها. سألت أحد المحامين عن تقديم طلب للحصول على الجنسية السوريّة، بعد مضي 5 سنوات لي في سورية، حتى لو كان ذلك على حساب خسارتها لإحدى الجنسيتين الأمريكيّة أو البلجيكيّة. أحبّت سورية وما زالت تحبّها من كل قلبها. خلال حياتها تعرّفت على الكثيريين من العرب، وتعتبر السوريين الأفضل من بينهم؛ لطفاء، كرماء، متواضعون وشجعان.

تفاجأ ولات حين ذكرت كاترين أنها ذهبت إلى العراق أيضاً. وبدأت تقصّ عليه الحكاية، كونها غريبة وطريفة. كان هنالك شخص أمريكي يدرس معها في المعهد. وقبل بدء الهجوم الأمريكي على العراق في آذار 2003، حمل الرجل جواز سفرهِ، ومزّقه أمام الطلبة، قائلاً: «خلاص، انتهى كل شي. لست أمريكيّاً. لقد قررت واشنطن احتلال بغداد. سأذهب إلى العراق كدرع بشري». وفي الاستراحة، قالت صديقتها الألمانيّة التي تدرس معها: «أنا أيضاً، سأذهب للعراق كدرع بشري». أعجبتها الفكرة، وقالت: «ممتاز. أنا أيضاً أريد. كيف لي ذلك؟!». فأجابت الألمانيّة: «يمكنك مراجعة السفارة العراقيّة في دمشق، وتسجيل اسمك، لطلب الفيزا، كمتطوّعة أجنبيّة في حملة الدروع البشريّة المدافعة عن العراق».

بعد الحصول على الموافقة والفيزا، وقطع تذكرة السفر إلى بغداد، صارحت كاترين أختها الموجودة في باريس، بقرار ذهابها

إلى بغداد، كدرع بشري. فصرخت في وجهها: «مستحيل! هل أنت مجنونة؟!».

وصلت إلى بغداد. ولم تكن تعرف سوى اسم الفندق الذي فيه الدرع البشري. وصلت إلى الفندق، قالوا لها: لا توجد غرف شاغرة. اتجهت إلى فندق الأندلس. أجابوها نفس الكلام. اتجهت إلى فندق فلسطين. ولكن، واجهتها مشكلة، وهي أن إقامة أعضاء الدروع البشريّة في الفندق، كانت على حساب صدام حسين. وهي لم تتجه إلى العراق، كي تدافع عن صدام، بل عن الشعب العراقي. لذا، رفضت أن يدفع النظام فاتورة إقامتها في الفندق.

بدأت السلطات العراقيّة بفرز هذه الدروع على الأماكن العسكريّة التي تم استهدافها في حرب الخليج الأولى سنة 1991. شعرت كاترين أنهم يريدون قتلهم، ومواجهة أمريكا بدمائهم. فقالت لهم:

- ليس من المنطق أن تضعونا في مرمى أهداف أمريكيّة، تعرفون سلفاً أنهم سيستهدفونها. الأمريكيون يقولون: «نحن مجرمو حرب». وبالتالي، لن يكترثوا لهذه الدروع. خذونا إلى الأماكن المدنيّة، ولا تضعونا في الأهداف العسكريّة!

انزعجوا من كلامها كثيراً. وكي لا يتحوّل الأمر إلى بلبلة وتشويش على المتطوّعين، سألوها: وأين تقترحين وضع الدروع؟!

- «في المرافق المدنيّة والحيويّة». وكانت تقصد المستشفيات، الجامعات، مثلاً. ولكنهم فرزوها ضمن الدرع البشري المخصص لحماية مصفاة النفط في منطقة «الدورة»، جنوب بغداد. هذه المنطقة، تطلّ على نهر دجلة، تحيط بها بساتين النخيل، ويسكنها

خليط من المسيحيين، الآشوريين، والصابئة والمسلمين...! ومصفاة النفط، والمرافق التي يستفيد منها نظام صدام، هي أهداف عسكريّة.

أمضتْ أسبوعاً مليئاً بالخوف والرعب، تنتظر فيه قصف الطيران الأمريكي لهم في أيّة لحظة. أعادتها تلك الأيّام إلى فترة الطفولة، وأجواء الحرب العالميّة الثانيّة، حين كانت تسمع هدير الطائرات الألمانيّة وهي تقصف «كورتريك»! قررت العودة إلى دمشق، دون إخبار رفاقها المشاركين في الدرع. كان المطار مكتظّاً بالمسافرين، بعكس الحالة التي رأته عليها، أثناء وصولها إلى بغداد، قبل أسبوع تقريباً. كان منظراً محزناً ومؤسفاً ومؤلماً، حين رأت العراقيين يدفعون النقود لرجال الشرطة، كرشوة، بغية تسهيل سفرهم أو هربهم إلى خارج العراق، وهي البلجيكيّة، أتت من دمشق كي تكون درعاً بشرياً للدفاع عن بلدهم! «ولكن، من حقهم الخوف على حياتهم. وربما موقفهم هو الصحيح، وليس موقفي. لأن أجساد البشر لا يمكنها مقاومة بارود ونيران القنابل. وها أنا ذا، مثلهم، أحاول الهرب من جحيم يوشك على الاندلاع في أيّة لحظة»، قالت كاترين.

في التاكسي الذي أقلّها من منطقة «الدورة» إلى المطار، حين عرف السائق أنها أجنبيّة، قال لها إنّ أمّه مريضة، وبحاجة إلى الدواء. وأعطاها اسمه وعنوانه. وطلب منها أن ترسل له الدواء، لأنه نادر وغالي الثمن. بعد وصولها إلى دمشق، ذهبت إلى صيدليّة قريبة من العمارة التي تسكنها، وطلبت من صاحبة الصيدلية الدواء، كي ترسله إلى العراق، لأن أمّ سائق التاكسي بحاجة إليه.

استغربت صاحبة الصيدليّة، واسمها حنان، فلسطينيّة، في العقد الرابع من عمرها، هذا الموقف. واعتذرت عن عدم وجود الدواء في صيدليّات دمشق. ربما تجدينه في بيروت، أو لدى بعض الصيدليّات التي تبيع أدويّة أجنبيّة مهرّبة من لبنان. واندهشت حنان من موقف كاترين التي تريد إرسال دواء لشخص في العراق، لا تعرفه!

أخبرتها كاترين أنها البارحة أتت من العراق. كانت هناك، مشاركة في الدروع البشريّة الرافضة للحرب. وكانت مستعدة لأن تموت من أجل العراقيين. فهل يعقل ألّا تقدّم مساعدة رمزيّة، كشراء دواء، لأحد العراقيين المحتاجين إليه؟!

اندهشت الصيدلانيّة من كلامها، وبدأت تنشأ صداقة بينهما. وعبرها، تعرّفت على كل أفراد أسرتها، وعلى سوريين آخرين، منهم الصيدلانيّة هالة، وهي مسيحيّة من حلب. واتسعت دائرة وشبكة علاقات وصداقات كاترين مع مواطنين سوريين آخرين.

بالإضافة إلى دُروس المعهد، كان هنالك أستاذ خاص، يأتي إلى بيتها، يعطيها دروساً في اللغة العربية. وتدين له بالشكر والعرفان لأنها تعلّمت منه العربيّة، أكثر من المعهد. إذ إنه لم يكن يعرف التكلّم بالإنكليزيّة أو الفرنسيّة. لذا، كانت مجبرة على التكلّم معه فقط بالعربيّة.

أحياناً، كان الدرس في المعهد يتحوّل إلى البروباغندا، عن النظام السوري وعن إسرائيل. حينها عرفت أن النظام يريد تمرير أفكاره ودعايته للأجانب، عبر المعهد. كان أسلوباً سخيفاً ومضحكاً للغاية بالنسبة لها. ولكنها لم تكن تجرؤ على الإفصاح عن هذا الرأي، لأيّ كان.

نشأت لديها صداقات جديدة مع أجانب في دمشق، مثل أولغر، ألماني، تعرّفت عليه في المعهد. زارها في بروكسل. وهو الآن يعيش في قرية «دوهان» على ساحل بحر الشمال، والتي تبعد عن «أوستند» 11 كليومتراً شمالاً. وكذلك هنالك شخص من إسبانيا، ما زالت تتواصل معه عبر السكايب، بين الحين والآخر.

أنهت كاترين الدراسة في المعهد، بعد سنتين. وحصلت على شهادة تخوّلها التسجيل في الجامعة. كانت تريد دراسة التاريخ باللغة العربيّة. وبالفعل، سجّلت في كليّة الآداب، قسم التاريخ، بجامعة دمشق. كانت الدراسة ممتعة بالنسبة لها. الطلبة الشبان والبنات كانوا يستغربون من وجود امرأة أجنبيّة مسنّة، تريد دراسة التاريخ باللغة العربيّة، بينهم.

خلال هذه الفترة، في المعهد والجامعة، حدث اتصال بينها وبين الجهات الأمنيّة. ففي أوّل يوم لها في المعهد، رأت سيارة سوداء فيها أشخاص متجهّمين. لم تكن تعرف من هم. أو لم يكن يخطر في بالها أنهم رجال أمن. في ما بعد، عرفت أنهم كانوا يأتون لأخذ تقارير مفصّلة عن أحوال الطلبة من مدير المعهد. وعرفت أيضاً، من إحدى الصديقات التي لها اتصالات مع الأمن، أن مشكلتهم معها كانت بسبب لقائها مع سيدة معارضة سوريّة تقيم الآن في أمريكا، أثناء تواجدها في دمشق.

أحبّت التجوال في سورية، وحدها وليس مع مجموعات سياحيّة. لم تكن تستقلّ الحافلات، بل استأجرت سيارات. مرّةً، استأجرت سيارة من دمشق إلى دير الزور. بقيت يومين في فندق

«شام بالاس»، على الضفّة اليمنى من نهر الفرات، بمدخل المدينة. وبعدها، استأجرت سيارة أخرى، نقلتها إلى البوكمال. بقيت هناك أيضاً ليوم. وبسيارة أخرى، اتجهت نحو الحسكة، وبقيت يوماً في فندق السنابل، وسط المدينة. ثم استأجرت سيارة أخرى، أخذتها إلى القامشلي، كان في استقبالها صديق مسيحي، سرياني اسمه أنطون قرياقس. كان رجلاً غريب الأطوار والطباع. رسميّاً، ينتمي لحزب البعث، الذي هو حزب قومي عربي. وسريّاً، ينتمي لحزب قومي سرياني يدعو إلى تشكيل وطن قومي سرياني مسيحي، ويهاجم العرب والأكراد على حدّ سواء. كان يتحدّث معها وكأنها ممثلة الكنيسة الكاثوليكيّة أو ممثلة الأحزاب المسيحيّة في البلدان الأوروبيّة، ويريد إقناعها بضرورة دعم الاتحاد الأوروبي قيام دولة قوميّة سريانيّة - مسيحيّة، كما دعمت بريطانيا وفرنسا وأمريكا قيام إسرائيل! وحين ذكرت له كاترين أن الدين، أيّ دين سواء المسيحيّة أو اليهوديّة أو الإسلام، لا يساوي لديها قشرة بصلة! صار يتحدّث إليها بلغة يساريّة تارةً، وبلغة ليبراليّة تارةً أخرى، على أنه هو أيضاً، لا يعترف بالأديان والقوميّات، وأنه صاحب نزعة إنسانيّة، متجاوزة للأيديولوجيّات الدينيّة. لم تستسغ حديثه، والزئبقيّة القويّة في خطابه. شكرته على كرم الضيافة، واعتذرت منه، وطلبت الذهاب إلى فندق الشهباء في شارع زكي الأرسوزي. لم تستطع البقاء فيه كثيراً. كانت القامشلي مدينة أقلّ من عاديّة. أستاذها الذي درّسها اللغة العربيّة في دمشق، كان كردياً من القامشلي، حدّثها عن مدينته، وشجّعها على زيارتها، وذكرَ أنه عاش فيها يهود ومسيحيون وأكراد وعرب، من دون مشاكل أو خلافات.

- في آذار 2004، حدثت انتفاضة كرديّة في القامشلي. وقتها، كنتِ في سورية. ماذا سمعت عن هذه الانتفاضة؟

- لا أذكر شيئاً من هذا القبيل. ولكن، أذكر أنه حدثت مشاكل في المدينة الجامعيّة، قام بها طلاب أكراد. أثناء تواجدي في الجامعة، بحكم أنني طالبة في كلية التاريخ، رأيت الطلبة الكرد، غاضبين وأن هنالك توتّراً شديداً في الجامعة بين الطلبة والأمن الجامعي والطلبة البعثيين. وقتها قال لي أصدقاء سوريون إن الأكراد يريدون الانفصال عن سورية. وهم عنصريون ويكرهون العرب. وهم عملاء إسرائيل وأمريكا. وإن النظام معه حق في سحق الأكراد، وإنهم مهاجرون ليس لديهم أية حقوق. هكذا كانوا يقولون لي وللكثيرين من الأجانب. سألتهم: كيف يمكن ذلك؟! حتى لو كانوا مهاجرين. أليس المهاجرون بشراً ولهم حقوق في بلد المهجر؟! المواطن العربي حين يهاجر ويستقرّ في أوروبا، حتى قبل حصوله على الإقامة، لديه حقوق تمنح له. فما بالكم بأناس ولدوا على هذه الأرض منذ عشرات السنين!؟

كانوا يمتعضون من إجابة كهذه. ولم أكن أودّ التصادم معهم. في ما بعد، عرفت أن هذا الكلام غير صحيح. وأنها بروباغندا النظام، كي يجعل من السوريين منقسمين، يعادون بعضهم بعضاً. وقتها، سمعت بخبر مقتل رجل كردي مشهور.

- تقصدين الشيخ محمد معشوق الخزنوي. حدث ذلك سنة 2006، بعد الانتفاضة الكردية في القامشلي. اختطفه الأمن وقتله تحت التعذيب.

- لم أسمع بانتفاضة القامشلي. أو لا أذكر ذلك. على كل

حال، كنت أرى رجال الأمن مدججين بالسلاح، يجوبون المدينة الجامعيّة، وشوارع دمشق، وفي تلك الفترة، اتصلت بي أختي من فرنسا، تستفسر عن الأخبار، لأنها ربما سمعت عن التوتر والمشاكل في سورية. أحسست أن هنالك من يراقب الموبايل. هذا كان واضحاً جداً بالنسبة لي. فرحت أطمئن أختي، وأقول لها: «ما يقال في الإعلام، كله كذب. الأمور هنا، جيدة جداً، ولا يوجد أيّة مشاكل». تماماً، كما يقول الآن أنصار النظام السوري، حين ينفون وجود مظاهرات وقتل للمدنيين برصاص الأمن السوري.

أوّل كردي تعرّفت كاترين عليه كان في جنيف، أثناء الدراسة، اسمه علي. كردي عراقي. كان شديد الإعجاب ببارزاني، ويصفه بالقائد الكبير. وثاني كردي تعرّفت عليه، كان في دمشق، أستاذ اللغة العربيّة. وثالث كردي تعرّفت عليه، كان بوّاب العمارة التي توجد فيها شقتها. اسمه منّان إيبش. دعاها لزيارة قريته «كفر جنّة» في عفرين. أمضت في عفرين نحو أسبوع. أحبّتها كثيراً. ورأت أنها أجمل بكثير من القامشلي. وزارت قرى أخرى، كقرية «عين دارا» الأثريّة، وقلعة سمعان. خاف منّان عليها كثيراً، حين قامت بنشر صور زيارتها لقريته على الإنترنت. كان يخشى أن يستدعيه الأمن.

اكتشفت كاترين أن الفنادق والمقاهي في دمشق، أغلب العاملين فيها كنوادل، كانوا أكراداً. في ما بعد عرفت أن مناطق الأكراد هي الأغنى في سورية والعراق وتركيا. وأنهم يدفعون ضريبة ذلك، بحيث صاروا فقراء ومقموعين من الحكومات السورية والتركية والعراقية.

أثناء تواجدها في سورية، لم تكن مع النظام، ولم تكن ضدّه. لكن، كانت تشعر بالظلم اللاحق بالناس. حين ذهبت إلى المطار،

وختموا جواز سفرها بقرار المنع من دخول سورية، بعد أن عاشت فيها خمس سنوات، أصيبت بصدمة، وأبدت استغرابها من هذا القرار. قالوا لها: «احمدي ربك أنك تستطيعين الخروج من هنا. وأنه لا يمكنك العودة إلى هنا مطلقاً». كانت متوتّرة جداً. فاتصلت بصديق سوري، وطلبت منه التحدّث مع الضابط في المطار، لربما أنها لا تفهم العربيّة بشكل جيّد. فتحدّث الصديق معه، ثم طلب منها المغادرة، من دون مشاكل. وهو سيحلّ الأمر لاحقاً. كان يريد طمأنتها والتخفيف عنها، كي لا يبدر منها أي شيء، ربما ينعكس سلباً عليها. خرجت في أكتوبر 2007، وحاولت العودة إلى دمشق في مطلع 2008. منعوها من الدخول. قضت ليلة في الفندق الموجود في المطار، وعادت إلى بروكسل. كان الأمر مؤلماً جداً بالنسبة لها، ألّا ترى دمشق مرّة أخرى. في السنة الأولى، بعد حادثة طردها من سورية، لم تكن تعيش في بلجيكا، بل في دمشق. لم تكن تشعر بأي شيء بلجيكي.

لاحظ ولات من خلال الاستماع لقصتها، أن كاترين تكون في البداية، محايدة، ثم تتحوّل إلى متورّطة. على سبيل المثال: في البداية، لم تكن لا مع إسرائيل ولا مع فلسطين. بعد ذاك، صارت مع الفلسطينيين ضد إسرائيل. كذلك الأمر، لم تكن لا مع نظام الأسد ولا ضده. الآن صارت مع المعارضة ضد النظام السوري. ولم يجد ولات تفسيراً لذلك!؟

فسَّرتهُ على أنه ربما ردّة فعل. فهي متفاعلة مع الواقع. مواقفها جعلت الكثير من الأصدقاء ينفرون منها. لها أصدقاء في سورية مع نظام الأسد. ربما على الصعيد النظري، يظنون أن الأسد على حق.

ولكنها ترى أنه مجرم حرب وإرهابي، ودمّر بلده. تركت كاترين أولئك الأصدقاء، لأنها شعرت أن موقفهم يجعل منهم شركاء في هذه الجريمة التي يمارسها النظام بحق سورية والسوريين.

سردت لولات حادثة جرت معها قبل أحداث 11 أيلول 2001. كانت لديها صديقة حميمة، تريد شراء شقة رخيصة. قالت لها كاترين: «هنالك شقّة مناسبة في البناية التي أسكن فيها». وساعدتها بمبلغ من المال لشراء هذه الشقة. كانتا صديقتين وجارتين، وأفكارهما متقاربة، أو هكذا كانت تظنّ. في أحداث 11 أيلول، قالت صديقتها لها:

- أووووه!... والآن، ماذا نفعل!؟

أجابتها كاترين:

- بل ماذا كان ينبغي علينا أن نفعل، قبل حدوث ذلك. وللحوؤل دون حدوثه!؟ هذا ما يجب علينا الإجابة عليه.

صرخت في وجهها وقالت:

- آآآه... نحن نعرف بأنك ضدنا.

- ضدكم؟!.. من تقصدين؟!

- الغرب والمسيحيّة والمسيحيين!

قالت لها: انتهى النقاش. ويمكنك أيضاً اعتبار صداقتنا، نقاشاً وانتهى.

قطعت علاقتها بها. ليس لأنها لم تحترم صداقتهما، وكل ما فعلته كاترين لأجلها. وليس لأنها كانت تستبطن النظر إليها كعدو. بل لأنها على امتداد علاقتهما وصداقتهما، وأحاديثهما عن العلمانيّة

والديمقراطيّة والاعتدال، وقيم الحداثة والعدالة الاجتماعيّة، ونبذ العنصريّة القوميّة والعرقيّة والدينيّة، كانت تكذب!

طرح عليها ولات سؤالاً غريباً ومفاجئاً، لم تستسغه، أنها جرّبت النظام في إسرائيل والنظام السوري أيضاً. وإذا وضِعَتْ بين خيارين لا ثالث لهما. أي النظامين تختار؟! أجابت فوراً بنبرة تشوبها الانفعال:

- صِفر. لا أستطيع. كنت مع المواقف السورية المناهضة لإسرائيل وأمريكا، إلى حدّ ما. ولكن، كنت ضد سياسات النظام ضد السوريين واللبنانيين والفلسطينيين.

- لكن إسرائيل لم تقتل إسرائيليين معارضين. صحيح أنها قتلت الفلسطينيين، وارتكبت جرائم حرب بحقهم، لكنها لم تقتل إسرائيلياً واحداً على خلفيّة مواقفه الناقدة للحكومة الإسرائيليّة! لم تقم بتدمير مدينة إسرائيليّة بالكامل، لأنها تحمي معارضاً إسرائيلياً، يريد قلب نظام الحكم! إسرائيل لم تقصف الإسرائيليين بالطيران! ما ارتكبه نظام الأسد، لم يقترفه هتلر بحق معارضيه من الألمان. هتلر أحبّ شعبه، وكذلك قادة إسرائيل يحبون الإسرائيليين. بنوا دولة من الصفر للإسرائيليين. ولكن بشار الأسد دمّر دولة، كي يبقى في الحكم. شخصيّاً، إذا طرحتِ هذا السؤال عليّ، من دون تردد: سأختار النظام الإسرائيلي. ليس لأنه جيّد، بل لأنه لا يمكن أن تجدي في التاريخ ما هو أكثر وحشيّة من نظام الأسد. النظام الإسرائيلي، صحيح أنه يقتل الفلسطيني، لكنه كان يسمح لفلسطيني آخر بأن يصبح عضواً في البرلمان، ويعارض إسرائيل، من داخل البرلمان الإسرائيلي.

قاطعته كاترين وقالت:

- ولكن، يومياً، الإسرائيليون يسرقون المزيد من أراضي الفلسطينيين، حتّى لا يبقى لديهم شبر يعيشون عليه! هم يسرقون وطناً.

- نعم... لا أختلف معك في ذلك.

قاطعته كاترين مرّة أخرى، وسألته:

- طيّب، لو خيّرتك بين بشّار الأسد وصدّام حسين، أيهما تختار؟

- صدام حسين. ستقولين لماذا؟ سأجيبك بالقول: العراق، وبعد ثماني سنوات من الحرب مع إيران، كان التعليم فيه مزدهراً. كان يوجد ما يزيد عن عشرة آلاف أستاذ جامعي. حركة العمران، لم تتوقّف. العملة العراقيّة كانت قويّة أمام الدولار. أنا لا أقول إن صدام حسين ملاك، بل هو أيضاً مجرم حرب وإرهابي وطاغية. ولكن ما فعله حافظ الأسد وابنه في سورية والسوريين، يفوق ما فعله صدّام في العراق والعراقيين.

- العراق دولة غنيّة، وتعوم على بحر من البترول؟!

- ومن قال لك إن سورية ليست دولة غنيّة؟ سورية كانت تصدّر القمح، القطن، الزيتون، والقليل من البترول أيضاً. ناهيكِ عن السياحة والاستثمار والتجارة الداخليّة والخارجيّة...

قاطعته كاترين مرّة أخرى:

- لا أفهم. لماذا تتكلّم عن إسرائيل؟! المهم بالنسبة لإسرائيل هي إسرائيل فقط. أما بقية العالم، فغير مهم، وإلى الجحيم!

- لا أقول إن إسرائيل جيّدة. السؤال كان موجّهاً لكِ، كونكِ عشت في إسرائيل وسورية. أنا لم أعش في إسرائيل، بل أنتِ.

- لكن، كان ذلك قبل خمسين سنة!!

- نعم.. نعم.. لو كنتُ أعيشُ قبل خمسين سنة في إسرائيل، لربما طرح عليّ أحدهم السؤال نفسه.

- لا، إسرائيل قبل خمسين سنة، ليست كما هي عليه الآن.

- كل الموجودين في السجون، نتيجة أحكام قضائيّة بحقّهم، هم مجرمون. ولكن جرائمهم ليست بنفس المستوى. وبالتالي الأحكام التي يقضونها، متفاوتة. يعني، مقارنتي هي بين السيئ والأسوأ. وأنا سأختار السيئ. وسأعطيك مثالاً آخر، حين تصف الأديان أو الميثولوجيا الدينيّة الجنّة والجحيم، تتحدّث عن الجنّة على أنها مكان جميل ورائع، يذهب إليه الأخيار. ولكن هؤلاء الأخيار، مراتب ودرجات. وكذلك الجحيم، الذي يذهب إليه الأشرار، هي مراتب ودرجات. يعني شيئاً يشبه التصنيف الطبقي، أو الفرز الطبقي الذي يتحدّث عنه الماركسيون، موجود في الجنّة والجحيم أيضاً!

وكي تنهي كاترين هذا النقاش، ولا تعطي إجابة على مسألة التفاضل بين السيئ والأسوأ، قالت وهي تضحك:

- أنا لا أريد لا الجنة ولا النار.

- إذن، ماذا تريدين؟!

- أريد العودة إلى الحديث عن سورية. كانت أجمل خمس سنوات في حياتي. ولكن، ما كنت أريد أن أتورّط عاطفيّاً مع رجل آخر في سورية. لأن ذلك كان سيلزمني بممارسة الجنس معه.

وهنالك انطباع سلبي في سورية عن ممارسة الجنس، أن كل امرأة تمارس الجنس مع رجل، فهي شرموطة.

- ربما لأنك مسنّة، لم تفكّري بممارسة الجنس في سورية مع شخص سوري.

- لا. النساء لديهم القدرة على العشق، حتى آخر لحظة في حياتهنّ. على كل حال، لا أعرف كيف أصف لك مدى حبّي لدمشق.

في شارع الجوخدار، قريباً من أسواق دمشق القديمة، هنالك بيت دمشقي قديم، يزيد عمره عن 500 سنة، هو المركز الثقافي الدنماركي. في مكتبة هذا المركز، سمحوا لي بقراءة كل الكتب الممنوعة في سورية، لأنني طالبة أجنبيّة، تدرس التاريخ في جامعة دمشق. قرأت كتاب باتريك سيل عن حافظ الأسد.

لم أترك منطقة في سورية ولم أزرها، من حوران حتى القامشلي وعفرين. أحلم بأن أعود مجدداً إلى تلك المناطق. ولا أعرف إن كانت الأيّام الباقية من العمر، ستسعفني لتحقيق هذا الحلم أم لا.

لحظة القيامة

From: Ha-L.Sinjariy@hotmail.com
To: h.zaradashtyan@yahoo.se
Subject: إنها القيامة
Date: Mon, 19 May 2011 22:13:09 +0000

عزيزي هاغوب

مساء الآزادي

أنا جداً بخير. كطفلٍ نائم، وقلبي برتقالة من كريستال، تدغدغهُ لهفةُ الاستيقاظ على تباشيرِ يوم العيد. قلبي قلب عصفور، ينبض بنعومة وخفوت وسرعة فائقة. قلبي قلب شجرة رمّان، حبلى منذ ألف عام، بألف موسم وموسم.

حين يستحمُّ المرء، ينتابه شعور بالراحة والنشاط والوثوب. أمّا أنا، كأنني خارجٌ من حمّام أو مطهر، أزالَ عنّي تراكم ثلاثة آلاف سنة من الأوساخ والقذارة والخطايا الجسديّة والنفسيّة والفكريّة. كأنّني عشتُ جحيماً، أزال عنّي كلّ آثامي، وها أنا ذا خارجٌ من المطهر، مهيّئاً نفسي لدخول فردوس الحريّة.

إنْ قلتُ لك إننا نعيش القيامة، بكل ما تعني هذه الكلمة من دلالة فكريّة، اجتماعيّة، نفسيّة وروحيّة، فأنا أعني ما أقول. وما إنْ يمضِي يوم الجمعة، حتّى أتلهّف لمرور أيّام الأسبوع بسرعة، حتّى يحلّ الجمعة مجدداً. صديقك، الذي تبقّى منه القليل من اليسار، والكثير من اليأس والبؤس والخيبة، تزيده أيّام الجمعةِ يساريّةً وثوريّةً وعلمانيّةً، حدَّ الشطط. صارت الجوامع بالنسبة إليّ، ملتقىً ثوريّاً، دورها أهمّ بكثير من دور وتأثير كل المسارح ودور العرض السينمائيّة والصالات التشكيليّة وقاعات المحاضرات والجامعات. . .، بل أهم من «باليه رويال»، قبيل الثورة الفرنسيّة، ليس لسماع خطيب الجمعة، والدعاء بحمد النظام والقائد المفدّى، وإنجازاته، بل للانطلاق من هذا المكان، في مظاهرة جديدة، تطالب النظام بالرحيل، بصدورٍ عارية، وقبضاتٍ مرفوعةٍ في مواجهة ترهيب أجهزة الأمن ورصاص قنّاصتها.

أصبح دور الجامع بالنسبة لي، أنا الملحد، العلماني، حتّى أهم من دور ووظيفة مسارح الإغريق في حياة الأثينيين. لأنّ هذه الجوامع أسقطت القناع عن وجوه الكثيرين من مدّعي العلمانيّة والحداثة والثقافة والتنوير، وبان الوجه القبيح لمن يرفض ثورتنا، بحجّة أن مصدرها الجوامع، وتحمل شعارات وهتافات دينيّة. أنا واثق بأنه حتّى لو خرجت المظاهرات من الكنائس والأديرة، أيّام الأحد، وهذا ما أتمنّاه، لَخَرَجَ علينا هؤلاء بفذلكات وحجج أخرى، يبررون فيها تخاذلهم عن دعم الثورة، وتواطؤهم في دعم النظام. هذه الجوامع التي فضحت زيف ادعاء العلمانيّة واليساريّة والثوريّة وقيم الحداثة والتنوير، التي لطالما تشدّق بها البعض من شعرائنا ومثقفينا،

سيأتي اليوم الذي ستفضح فيه زيف الإسلاميين ومدّعي التديّن ومستثمريه أيضاً.

عزيزي. . .

منطقة الشرق الأوسط على صفيح ساخن وملتهب. تعيشُ مخاض ولادة جديدة، عسيرة ومؤلمة جداً. كل المشاكل القوميّة والدينيّة العالقة، ستطفو على سطح الصراعات في المنطقة. لكن الشرق الأوسط لن يعيش في هذا النفق الدموي، أو الجحيم، إلى الأبد. الثورات، في أفضل أحوالها صراعات، ربما تنزلق نحو الحرب الأهليّة أيضاً، وهذا ما جرى في فرنسا سنة 1789، وفي روسيا سنة 1917، وفي الصين، فيتنام، كوبا، ومناطق عديدة في العالم، راح ضحيّتها الملايين، لكنها تبقى ثورات.

أثبتت الأحداث الأخيرة في المنطقة، سقوط التعريفات التقليديّة للثورة، وأنها يجب أن تكون منظمّة، منضبطة، وبعيدة من الفوضى، وتقودها أحزاب ثوريّة، وينظّر لها فلاسفة وقادة ثوريون كبار. لقد سقط التعريف الكلاسيكي - اللينيني الذي يقول: «لا حركة ثوريّة من دون نظريّة ثوريّة»، مع سقوط الأنظمة الدكتاتوريّة، التي أتت للحكم، عبر انقلابات عسكريّة، غلّفها أصحابها بشعارات ثوريّة، رومانسيّة، يوتوبيّة عن العدالة، الحريّة، الديمقراطيّة والاشتراكيّة. أثبتت الأحداث أن هنالك حركة اجتماعيّة ثوريّة، من دون نظريّة وأحزاب ثوريّة. ومع ذلك، ليس من الإنصاف وضع كل الفكر اليساري في المتاحف.

أعتقد أنك لن تخالفني الرأي بأن سقوط الأنظمة الدكتاتوريّة، لا يعني أن المنطقة ستتخلّص من الذهنيّة الدكتاتوريّة، بشكل تلقائي - أوتوماتيكي. ذلك أن تراكم نمط المعيشة القائمة على الإذعان والرضوخ والولاء والطاعة العمياء، وقتل مراكز الإحساس بالتفرّد والتمايز في الشخصيّة وتدجينها ودغمها في القطيع، واغتيال إرادة التحرر لدى الإنسان، التي مارستها الأنظمة الدكتاتوريّة الدينيّة والقوميّة على مدى قرون، لا يمكن التخلّص منه، في بضع سنوات. حركة الفكر والتاريخ، لا يمكن حصرها ضمن بعض الدوغمائيات الأيديولوجيّة اليساريّة أو اليمينيّة. التاريخ يقول: ما من ثورة، من دون تدخّلات خارجيّة، مباشرة أو غير مباشرة. كل طرف يريد أن يقطف ثمار الثورات، وفق مقتضيات مصالحه، الدوليّة، الإقليميّة، القوميّة، الدينيّة، الطائفيّة. وإذا لم تكن الثورة في صالحه، حينئذ، يسعى إلى وأدها أو الطعن فيها. كما تفعل روسيا والصين وإيران. . . ، حالياً مع ثورتنا. ما من ثورة، قطف ثمارها أصحابها الحقيقيون الذين ضحّوا من أجلها. ورغم ذلك، تبقى ثورات. حتّى لو فشلت، ولم تحقق أهدافها، علم الاجتماع السياسي، يبقى يسمّيها ثورة، لأنها ساهمت في خلخلة البنى الاجتماعيّة والفكريّة الجامدة في المجتمع، وفتحت المجال أمام التحوّلات، وولادة أفكار جديدة.

عزيزي هاغوب. . .

أطاحت الثورة السوريّة بكل الوثنيات الثقافيّة والأدبيّة والسياسيّة والأيديولوجيّة. . . ، وبالكثير من البديهيّات والمسلّمات والنظريات

التي لها علاقة بعلم الاجتماع السياسي عموماً، والماركسي على وجه الخصوص. وحتّى لو فشلت الثورة السوريّة، تحت تأثير الظروف الداخليّة والإقليميّة والدوليّة، فإنها ستبقى ثورة هزّت كيان التاريخ ووجدان العالم، وفضحت الكثير من زيف وزعم الحداثة وقيم العدالة والحريّة والتنوير، سواء على صعيد الأشخاص أو الأحزاب أو الأنظمة والدول والمؤسسات الدوليّة والمجتمع الدولي.

أنا الآن، ذلك العبد الذي تمرّد على سيّده، ويكفيني مدّة التمرّد هذه. والسيّد هنا، ليس النظام السياسي الحاكم وحسب، بل الخوف والإذعان، الخنوع واليأس والقنوط...، وكل النظريات الثوريّة العفنة التي لم نجد لها تطبيقاً سليماً. دوماً، كنّا نقنع أنفسنا بأن الخطأ في التطبيق وليس في النظريّة. كنّا عبيداً لكل هذا الرهط من الأسياد. ورغم أنني متيقّن من أن ثورتنا ستنتصر، حتّى ولو بعد مئة سنة، إلّا أنني الآن، حرّ، حرّ، حرّ، وآزاد، كما يقول الإخوة الأكراد، حتّى لو كان عمر هذه الحريّة التي أعيشها، بضعة أيّام أو بضعة أسابيع أو أشهر...

ينتابني انتشاءٌ غريب، ولذّةٌ عارمةٌ، لم أشعر بها، طيلة سنوات حياتي.

الثورة التي نخوضها بكل تفاصيلها ومخاضاتها وآلامها، هي ثورة على تراكم الذلّ والهوان والعبوديّة التي عاشتها الشعوب السوريّة، منذ الحقبة البيزنطيّة، فالأمويّة، العباسيّة، الأيوبيّة، المملوكيّة، العثمانيّة والفرنسيّة...، لذا، لا غرابة في أن تكون ولادة الحريّة في سورية، شديدة العُسر والألم ومكلفة الضرائب، ولا

تستغرب أن يكون موعدها هو منتصف شهر آذار، قريباً من الانقلاب الربيعي، قريباً من عيد النوروز، والولادة الجديدة. ولأن تراكم الظلم والقمع والجور والمذلّة. . .، دمّرَ شخصيّتنا، وجعلنا في حالة إخصاء عقلي وروحي مزمن، لِمَ الاستغراب من أن يكون مفجّرو الثورة الحقيقيون هم أطفالاً، في عمر البراعم، كتبوا على جدران مدارسهم التي طالما رددوا فيها: «قائدنا إلى الأبد. . الأمين حافظ الأسد» و«أمّة عربيّة واحدة. . ذات رسالة خالدة»، كتبوا على حيطانها: الشعب يريد إسقاط النظام. لذا، ارتعب النظام ودبّ فيه الذعر، على أن التغيير في سورية، بدأه أطفال درعا، ونظّروا له، بعفويّة وبراءة. الشعب السوري كان ينظر إلى ما يجري في تونس ومصر وليبيا. . .، بعين المتمنّي أن يحدث ذلك في بلده أيضاً، مع الشعور بالعجز التام عن القيام بذلك، نتيجة الخوف والرهاب الذي غرسه النظام في خلايا نخاع عظام المواطن السوري. وأطفال درعا، ببراءتهم، أشعلوا شرارة النار بهشيمنا، وأوقدوا فينا جذوة الأمل في التحرر والتغيير. لقد غيّروا فينا الكثير، وكانوا أكثر جرأة وجسارة، في براءتهم تلك، من الرجال. وتبع الشبابُ أطفالَ درعا. ثم تبعهم شباب الثورة، وهكذا دواليك، لتصبح سورية من القامشلي إلى درعا، روحاً وجسداً وعقلاً واحداً، وإرادة واحدة، رغم التنوّع والاختلاف الموجود في الانتماءات والمشارب. ولتسقط كل سياسات وممارسات حزب البعث التي انتهجها على مدى عقود، والهادفة إلى «حيونة الإنسان» على حد وصف ممدوح عدوان.

لا أعرف كيف أعبّر لك عن مدى فرحتي واعتزازي بك، لأنك مع الثورة. ومثلما كنّا معاً ضمن حزب العمل الشيوعي، وفي

السجن، نحن الآن نعيش زمن الثورة التي دعونا إليها، نهاية السبعينيات، وكنّا مستعدّين للتحالف مع الإسلاميين لأجل تحقيق التغيير في البلاد. أنا فخور بك، وببعض رفاقنا الذين ساندوا الثورة. في حين، خيّب ظنّي آخرون، ارتدّوا للبطانة الطائفيّة والمناطقيّة، وصاروا يدافعون عن استمرار النظام، بحجّة مقارعة الإسلام السياسي، والأخونة...!

هنالك مقولة، أعتقد أنها فرنسيّة، مفادها: «الحمقى وحدهم لا يتغيّرون». وإذا كانت فكرة «الفنّ للفنّ» صحيحة، و«الفن للتغيير» صحيحة، فإنّ التغيير للتغيير صحيحة.

كان المثقفون العرب دائمي الشكوى من الظلم والقمع والمصادرة والرقابة الناجمة عن النظم الاستبداديّة، بالتزامن مع حلمهم بالثورة. ولكن، حين أتت الثورة من خارج معاطفهم وقبّعاتهم، شكّل لهم ذلك صدمة، ومفارقة وارتجاجاً أخلاقيّاً وثقافيّاً، ومواجهة مع ما كانوا يدعون إليه، أو يدّعون أنهم يتبنّونه، فانخرط قسم منهم في خندق الاستبداد، بحجّة العلمنة والحداثة، والتهويل من خطورة الأسلمة والأخونة، وقسم آخر لاذ بالصمت المتواطئ، وقسم انخرط في عمليّة التحوّل والتغيير، وأبوا أن يكونوا خارج الزمن وغليانه الثوري الحالي.

عزيزي...

فضحت الثورة الكثير من أرباب الفنّ والدراما والمسرح والسينما والأدب... على أنهم بالضدّ مما كانوا يزعمونه من نقد لنظام الفساد والاستبداد. كما كشفت لنا، كم كنّا مخدوعين بهم.

لقد تجاوز الشباب النخب الثقافيّة في تبنّي عمليّة التغيير الثوري. تجاوزوهم وعياً وحسّاً بعمق هذه اللحظة التاريخيّة الفارقة من عمر المنطقة. وصار المثقف هو المنقاد لحراك الشباب، وليس العكس، وفق الفهم التقليدي لماهيّة الثورة، والدور المحوري والاستراتيجي للمثقف في إطلاقها وديمومتها. فتحوّل الشباب إلى كمون معارضة أزليّة، أو طاقة اعتراضيّة مستمرّة، ستبقى تنتج نفسها، في مواجهة أي نظام استبدادي جديد، تنتجه هذه الثورات.

نعم عزيزي...

تحضرني هنا، مقولة لكاتب فرنسي، بما معناه: «الشخص الذي بلغ العشرين من عمره، ولم يصبح يساريّاً، فهذا لا قلب له. والذي يتجاوز الأربعين، ويبقى يساريّاً، فهذا لا عقل له». لقد عشنا اليساريّة ورومانسيّتها وراديكاليّتها ويوتوبيّاتها، وعشنا انكسار أحلامنا المعقودة على التجربة الشيوعيّة والفكر الشيوعي. أنا الآن، بحماس العشرين من عمري، وتراكم خبرات ومعرفة مابعد الأربعين من عمري. أعيش لحظتي، بمحبّة وعمق وتأمّل وحماس وشغف.

أنا مع التغيير، حتّى لو أتى الإخوان وحكمونا، ليس حبّاً في الإسلام السياسي، بل كرهاً في هذا الكابوس الأبدي الذي عشناه. وأعتقد أنني ذكرت لك في رسالة سابقة، أنني مؤمن ومتيقّن تماماً أن مَن باستطاعته الإطاحة بنظام البعث في سورية، لن يكون عاجزاً عن إسقاط أي نظام توتاليتاري، شمولي، سواء أكان علمانياً أو دينياً وطائفياً.

أتخيّل سورية، تنهض من تحت ركام ألف غورنيكا وحلبجة

وهيروشيما...، بعد تحطّم الباستيل الذي كنّا نعيشه على مدى عقود. ولن نعود إليه. تحطّم سجن تدمر، سجن صيدنايا، سجن المزّة، سجن درعا، سجن حلب، سجن الحسكة، سجن فرع فلسطين...، وإنها القيامة ولا ريب. قيامةُ شعب، قيامة وطن، قيامة مجتمع، قيامة ثورة، سيغمر دفئها وحرارةُ أفكارها، عموم الشرق الأوسط.

لقد اتفق النشطاء على تسمية يوم غد، بجمعة آزادي، وهي تعني الحريّة باللغة الكرديّة، تيمّناً بالإخوة الكرد المشاركين في الثورة منذ يومها الأوّل. أكتب لك، وأنا أستمع إلى موسيقى كرديّة. حزينة وأليمة، كالموسيقى الأرمنيّة.

وكالعادة، بعد انطلاق الثورة، في كل يوم خميس، بعد ممارسة جولة حبّ مع زوجتي، وكأنني في اليوم الأول من الزواج، استحممت، وحلقت ذقني. وسأرتدي نهار الغد، ثياباً أنيقة، وأتعطّر، كأنني ذاهب إلى حفل زفافي، كي أشارك في المظاهرة التي ستنطلق من جامع سعيد باشا في حي الأكراد بركن الدين.

في كل يوم جمعة، أتأنّق في هندامي، وأخرج للمشاركة في المظاهرة، رغم ممانعة زوجتي، ويتملّكني شعور بأنني لن أعود إلى البيت. وأحسّ بأن رصاصة القنّاص ستكون في رأسي، أو ظهري هذه المرّة. لذا، أقبّل وأعانق زوجتي بحرارة، عناق الفراق الأخير. هذا ما أفعله صبيحة كل يوم جمعة، مع بدء المظاهرات في دمشق. فتودّعني دامعة العينين.

عزيزي هاغوب. . .

سبق وأن ذكرت لك أنني، منذ فترة، يزداد شغفي بكتابة الرواية. ولأنني أعيش الحالة، وأخشى من ألّا تكتمل، إن حدث لي مكروه، لذا أجد نفسي مقيّد اليدين بهذا الخصوص. كما أخشى ألّا يطال الكلام الذي سأكتبه، جوهر وكنه ما أشعر به وأعيشه لحظة بلحظة. أريد كتابة رواية الثورة، ليس كما قرأناها في الأدب الروسي، الذي كان يسوّق للتجربة السوفياتيّة، على نمط «كيف سقينا الفولاذ» لنيكولاي أوروسترفسكي، ولا على طريقة مكسيم غوركي في «الأم»، أريدها رواية تتجاوز الواقعية الاشتراكيّة، والواقعية السحرية في أمريكا اللاتينيّة. وأنت تعرف، أن قراءاتنا الروائيّة بدأت بالواقعيّة الاشتراكيّة، وانتهت بالواقعيّة السحريّة لماركيز ومجايليه من أدباء وروائيي أمريكا اللاتينيّة. أنا الآن منهمك بالحدث، أكثر من الكتابة عنه. وفي حال تعرّضت لأي مكروه، أضع حلمي في كتابة رواية عن الثورة السوريّة رهن عنايتك واهتمامك، وكلّي أمل وثقة بك، على تحقيق هذا الحلم، لما تمتلكه من موهبة الكتابة والحسّ الشعري والخيال الخصيب والمقدرة اللغويّة، ما يجعلك متفوّقاً عليّ وعلى الكثير من الأدباء والكتّاب المعروفين.

هذه الثورة التي أعادتني إلى الحياة، وأعادت الحياة إليّ، أحلم وأطمح أن أقدّم لها شيئاً، ربما يعبّر عن جزء يسير من عظمتها وفضلها عليّ. وأعتقد أن كتابة عمل روائي، هو الأكثر انسجاماً مع هذه الرغبة. ولكن، لا أعرف من أين أبدأ، وكيف سأنتهي. ولكنني عاقدٌ العزم على البدء.

عزيزي هاغوب. . .

كما قلت لك، غداً سأخرج في مظاهرة جمعة آزادي، ولا أعرف إن كنت سأعود إلى بيتي أم ستأخذني رصاصة قنّاص، إلى حيث لا أريد.

تصبح على آزادي. . . تصبح على حريّة.

ساحة لابورس

لسببٍ ما يجهلهُ، ومن دون تحديد الوجهة، خرجَ رولان بونيوبا من بيتهِ متكدّراً مهموماً، شاردَ الذهنِ، وكأنَّ خيطاً لا ينتهي من النمل يسري في أوردته وشرايينه، يلحُّ عليهِ بمغادرة المنزل بالمشي في الشوارع على غير هدى. وكلما خطا خطوةً نحو اللاوِجهة، تزداد حيرتهُ، ويتفاقم قلقهُ. في الأشهر الماضية، صار أكثر ميلاً نحو الانطواء والعزلة والقراءة والبحث عن شيء يفتقده، ولا يدرك كنهه، وهو الذي كان مدمناً على الكحول وارتياد البارات لدرجة إعطابِهِ كبدهُ. لذا، نصحه الأطباء بالابتعاد التامّ عن شرب الخمور. سابقاً، كان يكره قراءة صحيفة أو مجلّة عاديّة، فما بالكم بالكتب الأدبيّة والنقديّة. وأصلاً، التعليم الذي تلقّاه في «زونغو» على نهر الكونغو، لم يتعدّ المرحلة الابتدائيّة. وجوده كمقاتل ضمن فصائل عسكريّة قادها رولان كابيلا، حين كان في الخامسة عشرة من عمره، وتلقّيه دروس التوجيه المعنوي، بالإضافة إلى قراءته بعض المنشورات اليساريّة والثوريّة، وخطابات الزعيم الوطني باتريس لومومبا، هو الذي أكسبه بعض الثقافة. لكن ظروف الحرب وقساوتها، إلى جانب بؤس المعيشة في الكونغو، لم تترك له ترف الدراسة أو القراءة العامّة. لذا، شأنه شأن أي مقاتل يساري متواضع في أيّة بقعة من

العالم، كل خزينه الثقافي من القراءات لم يكن يتجاوز بعض الأقوال المأثورة، منقولة عن رموز الفكر والحركات اليساريّة والثوريّة، إلى جانب بعض المعلومات والتواريخ والأسماء المغمورة والمبتسرة من هنا وهناك. وبالتالي ثقافته لم تتعدّ تكرار واجترار ثرثرات تشبه ما هو مكتوب أسفل وريقات الروزنامة من معلومات سطحيّة.

الكثير من تفاصيل الماضي العسكري لرولان بونيوبا، لم يكن يعرفها أحد في بلجيكا كاشتراكه في اختطاف ثلاثة طلّاب أمريكيين وباحث ألماني كانوا متواجدين في الكونغو، حين كان مقاتلاً. فأثناء تقديمه اللجوء في هذا البلد، لم يفصح عن هذه المعلومة لئلا يتم اعتباره إرهابياً دولياً، وخطراً على أمن بلجيكا.

«التحضير لعمليّة الاختطاف وتنفيذها ومجرياتها، والمفاوضات السريّة مع الأمريكيين، وإطلاق سراح الرهائن، كل ذلك يصلح لأن يكون عملاً روائيّاً رائعاً أو فيلماً سينمائيّاً مهمّاً»، يقول رولان في نفسه.

أطلق والده اسم رولان عليه، تيمّناً بكابيلا، حيث كان مفتوناً به كقائد وزعيم ثوري، وغادر المنزل في «زونغو» على نهر الكونغو غرباً، واتجه على عجل إلى منطقة «روزيزيه» القريبة من «أوفيرا» في محافظة «كيفو الجنوبية»، شرقي البلاد، للالتحاق بكابيلا، بغية المشاركة في التمرّد الأوّل على موبوتو سيسي سيكو الذي انقلب على لومومبا سنة 1960. ذلك التمرّد مُنِيَ بالفشل، بعد استعانة سيسي سيكو بالإنزال الجوي الأمريكي - البلجيكي. في ذلك الإنزال، قَتلَ والدهُ أحد المظليين البلجيك، وأصاب آخر بجراح وأخذه معهم كرهينة أثناء الانسحاب والهرب إلى تانزانيا. هذا الجندي كان اسمه

بورنو فان دو مارتن. لم يسعَ البلجيك إلى المطالبة به، رغم علمهم بأنه حيّ. واعتبروه ضمن القتلى الذين فقدوا حياتهم. حاول الجندي الاتصال بذويه كي يطالبوا الحكومة التواصل مع الخاطفين بغية عقد صفقة معهم تفضي إلى إطلاق سراحه. إلّا أن السلطات لم تكترث لتلك المناشدات، وحاولت التغطية على خبر الرهينة البلجيكي وعدم تسرّبه للإعلام. وحين يئس المقاتلون من استثمار وجود الجندي البلجيكي، أمر كابيلا بقتله. إلّا أن والد رولان ساعده على الهرب إلى ميناء «دار السلام»، فلجأ دو مارتن إلى إحدى السفن التجاريّة البريطانيّة. بعد وصوله إلى بريطانيا، اتجه على متن سفينة إلى ميناء أوستند، ثم إلى بروكسل. وزار مقرّ الجيش وذكر لهم قصّته. فلم يصدّقوه. وفي ما بعد، كي يتنصّلوا من إهمالهم له حين كان رهينة، قاموا بإلحاق تهمة الهارب من المعركة به. ومعاقبته بالسجن عشر سنوات، خفّفت إلى 5 سنوات، بالإضافة إلى تسريحه من الجيش. وبعد مضي 40 سنة على تلك الحادثة، ربح دو مارتن دعوى قضائيّة رفعها على السلطات البلجيكيّة، أعادت له الاعتبار المعنوي. وطعن في قرار تسريحه من الجيش، وزجّه في السجن خمس سنوات، وإهمال السلطات البلجيكيّة له أثناء وجوده رهينة لدى مقاتلي رولان كابيلا. وبموجب هذه الدعوى، ربح دو مارتن 5 ملايين يورو كتعويض عما لحق به. تبرّع بأربعة ملايين للمنظّمات الخيريّة المعنيّة بمكافحة الإيدز والأميّة ودعم معاقي الحرب في الكونغو.

الرهينة برونو فان دو مارتن، سبق وأن سمع رولان عنه من والده. وأثناء تواجده في بلجيكا سنة 2003، قرأ رولان عن دو مارتن في الصحف البلجيكيّة، بعد أن ربح الدعوة القضائيّة وصار

مليونيراً، نتيجة حصوله على التعويض المالي الضخم. لذا، بحثَ عن عنوانه. والتقى به في حي «ميلك ماركت» القديم بآنتويربن. عرّفه رولان بنفسه. كان دو مارتن في الخامسة والسبعين من عمره، ورغم ذلك بدا صاحب ذاكرة شديدة التوقّد:

- هل تذكر الكولونيل كايمبي بونيوبا، سيّدي؟

نهض صامتاً. واتجه إلى خزانة، تتوسّطها رفوف مرصوفٌ عليها كتب مكدّسة. مدّ يده نحو أحد الأدراج وأخرج منها ألبوم صور. وقال:

- هذا هو الكولونيل كايمبي. هذه الصورة يزيد عمرها عن 40 سنة. هي من كنوزي الخاصّة. أحتفظ بها من ذلك الوقت. التقطت هذه الصورة مع كايمبي وبصحبة بعض مقاتلي كابيلا، بعد أن تماثلت للشفاء. هذه الصورة ستباع في المزاد العلني بعد مئة وخمسين سنة، بملايين اليوروهات. قالها ممازحاً. ثم عاد إلى سرده:

- أنا مدين بحياتي لكايمبي. أتيت إلى الكونغو كي أقتله ورفاقه، فأصابني هو، ثمّ أنقذني. وفي ما بعد، ساعدني على الهرب. وفتحَ عينيّ على العار الذي كنّا نقترفه في الكونغو. هذا العار ما زلنا نعيشه، وسيبقى يلاحقنا إلى الأبد.

أخرجت من جيبي صورة لي بصحبة أبي ورولان كابيلا، ووضعتها إلى جانب الصورة التي أراني إيّاها العجوز. وقلت له:

- الشخص الذي تتحدّث عنه هو أبي. أنا رولان كايمبي بونيوبا.

تغيّرت ملامح الرجل. اتجه مسرعاً نحو الباب، فتحه بيدٍ مرتجفة، وصرخ في وجهي:

- إلى الخارج. اخرج من بيتي. هل تهزأ بي؟

- صدّقني سيدي. أنا لا أكذب عليك. هذه بطاقتي الشخصيّة. وإليك المزيد من الصور. ثم ما الذي يجعلني أو يجبرني على الكذب عليك بهذا الخصوص؟

تناول الوثائق والصور؛ وصار يتفحّصها. مشاعر الفضول والاستغراب والفرح والذهول، بادية على ملامحه. وما إن انتهى من الإمعان والتدقيق، حتّى عانق العجوز، رولان واعتذر منه.

- أنا آسف جداً. سامحني. ما أجده أمامي الآن، هو شيء لا يمكن تصديقه. ما هي أخبار والدكَ.

- قتلوه.

- من؟ ومتى؟ ولماذا؟!

- تحت التعذيب. والذين قتلوه هم رفاقه السابقون. قتلوه لأنه شارك في قتل رولان كابيلا في يناير 2001.

- ماذا؟ ولكن كابيلا وكايمبي كانا صديقين؟

- كانا صديقين. ولكن كابيلا أصبح طاغية ووحشاً يفتك بالبشر. ويسير نحو توريث ابنه، جوزيف. لم يحتمل أبي انهيار أحلامه الثوريّة التي قاتل من أجلها طيلة عقود. فحاول إنقاذ البلاد من هذا الدكتاتور. كان يعرف أنهم سيقتلونه في حال نجح أو فشل مخطط الاغتيال. لذا طلب منّي ترك الجيش، وأخْذَ أمّي وإخوتي إلى تانزانيا، والسفرَ وحدي إلى أوروبا. وبعد الحصول على الإقامة، أجريت معاملة لمّ الشمل لأمي وإخوتي.

بدأت رحلتي من زامبيا إلى كينيا، ثم أثيوبيا، فالسودان، فتشاد، ثم ليبيا، ومنها إلى إيطاليا، مروراً بفرنسا، وصولاً إلى بلجيكا.

عانينا كثيراً ومررنا بالأهوال أثناء قطعنا كل هذه البلدان والمسافات والصحاري والغابات. . . ، تحمّلنا حرّ النهار وقرّ الليل، والأمطار الصيفيّة، الجوع القاتل الذي كان يجبرنا على أكل لحم من يموت من مجموعتنا في الصحاري. فبدل أن تلتهم الضواري لحم الميت الذي ندفنه في الرمال، حوّلنا الجوع إلى وحوش نأكل جزءاً من لحم أحد رفقاء الطريق، بعد التأكّد من موتهِ. شيء لا يمكنني وصفه لك. أعتقد أن الأنبياء لا يمكنهم تحمّل ما تحمّلته في رحلتي هذه. كل هذه المسافات ولغاية وصولنا إلى ليبيا، قطعناها سيراً على الأقدام. كنّا عشرين شخصاً، لم يبقَ منّا سوى سبعة. ثلاثة عشر شخصاً ماتوا في الطريق، وصاروا طعاماً للبقيّة.

* * *

بخلاف عادتهِ أثناء المشي في الشارع، متفحّصاً وجوه المارّة وأجسادهم، بخاصّةٍ منهم النساء، وتتبّع تفاصيلهنّ بعينَي هرّ جائع، بدتْ نظراته خائبة ومنكسرة وأقرب إلى البلاهة والاعتباط، وكأنّه منغولي. نظر إلى كتابٍ كان يحمله، وقال في نفسه:

– لا أعرف ما الذي يعجبُ الناس في روايات آلان مابانكو!؟ لم أجد تلك المتعة التي يتحدّثون عنها في الإعلام، أثناء قراءتي روايته «مذكرات قنفذ». كما أنني لم أستطع إكمال روايته «بازار أسود». أشعر أن موهبة هذا الرجل، لا يمكنها أن ترويني. مأساتي أكبر بكثير مما أورده مابانكو في رواياته. «زجاج مكسور» أيضاً لم أستطع إكمالها! المديح الذي يكال له في الإعلام، مبالغ فيه. لو امتلكتُ ملكة الكتابة، لألّفتُ رواياتٍ أقوى بكثير مما كتبه مابانكو. معاناة

كل شخوص وأبطال رواياته، لا تضاهي ما عايشه جدّي وأبي في الكونغو إبان الاحتلال البلجيكي، وما عانيته أثناء الحرب، وخلال رحلة السفر من الكونغو إلى بروكسل. ولكن حقاً؛ لماذا أنا هنا؟! لِمَ اخترت هذا المكان؟! لماذا يختار المهاجرون البلدان التي احتلّتهم وقمعتهم ونهبت بلدانهم وكانت سبباً في مآسيهم؟! لماذا يختار الكثير من الكونغوليين خوض أهوال وأكلاف الهجرة إلى بلجيكا، وهي التي كانت تحتلّ بلادنا وتنهبها، وتعتبر أرضنا وشعبنا من ممتلكات الملك البلجيكي؟! لماذا يفضّل الهنود، الباكستانيون، المصريون، العراقيون. . . ، الهجرة إلى بريطانيا، الدولة التي كانت تحتلهم وتظلمهم؟! لماذا يفضّل السوريون، اللبنانيون، الجزائريون. . . ، الهجرة إلى فرنسا؟! هل هو توق العبد لأغلال سيّده؟! هذا السؤال، يجب أن أبحث عن إجابةٍ له. ذلك أنني لم أجدها في روايات بامانكو، والعديد من الروايات التي تناولت معاناة المهاجرين إلى أوروبا.

هذا النوع من الأسئلة الوجوديّة، وهذا الهاجس الأدبي والرؤية الانطباعيّة النقديّة، لم تكن موجودة لدى رولان، حتّى قبل فترة وجيزة. ثمّة تحوّل مفاجئ ونوعي، طرأ على شخصيّته، غيّر كيانه. حيث بات يرتاد مكتبات بيع الكتب المستعملة، ويشتري منها الكثير من الكتب الأدبيّة بخاصّة في الرواية والشعر، سواء المكتوب بالفرنسيّة أو المترجم إليها.

لاحت في ذهنه فكرة الاتجاه إلى المكتبة، لربما يجد عناوين يمكنها الإجابة على تساؤلاته. وأثناء مروره بساحة «لابورس»، رأى جمهرةً من الناس يحملون الأعلام واللافتات التي كُتبت عليها

بالعربيّة والفرنسيّة شعارات سياسيّة. فتساءل: «من هؤلاء؟! وماذا يريدون؟!». اقترب من الجمهرة أكثر، يحذوه الفضول. وصار يحاول قراءة العبارات المكتوبة بالفرنسيّة، وفهم منها أنها تطالب الرئيس السوري بالرحيل. وأن المعتصمين هنا، أمام مبنى البورصة في بروكسل، سوريون معارضون لنظام الحكم في بلادهم. شعر رولان بشيء من التعاطف معهم، رغم أنه لم يكن يعرف سابقاً، أين تقع سورية على خريطة العالم. اقترب من معمّرة سبعينيّة، بملامح بلجيكيّة، تحمل نفس العلم الذي يحمله المتجمهرون وسألها:

- معذرة سيدتي، أنا رولان بونيوبا، بلجيكي - كونغولي. أريد أن أفهم ماذا يجري هنا.

ابتسمت السيّدة، وشعرت بأنها على مقربة من كسب صديق جديد. وأجابته:

- كاترين دو وينتر. بلجيكيّة. وهذا جورجينيو أندريوتي من إيطاليا، وهذه كلارا روزنشتاين فالمر، ألمانيّة. نحن مناصرون للثورة السورية. ونعتبر أنفسنا أصدقاء الشعب السوري. نعتصم هنا مع السوريين، أو في ساحة «شومان» أمام مقراتّ الاتحاد الأوروبي. ونهتف للحرية لهذا البلد المعذّب. ويسرّنا أن نجدك هنا. ما نقوم به بات يشبه الطقس الشهري. وأحياناً نجتمع كل أسبوعين.

تغيّر مزاج رولان، وانبسطت أساريرهُ. وقال مبتسماً:

- كثيراً ما أمرّ من هنا، وسبق لي أن رأيت جماعات مناهضة العولمة أو المحافظين على البيئة أو المطالبين بقوننة زواج المثليين، يعتصمون هنا، ويفترشون هذا الدرج. بصراحة، هذه أوّل مرّة أشاهد

اعتصامكم هذا. عموماً، جميل أن أجدكم هنا، تتضامنون مع أناسٍ لا تربطكم بهم أيّة صلة. ظواهر كهذه صارت معدومة في هذه المجتمعات التي نعيش فيها.

مدّت الفتاة الألمانيّة يدها لتصافح رولان، وتعرّفه بنفسها:

- كلارا روزنشتاين فالمر، أعيش هنا منذ سبع سنوات، وأعمل في بنك (ING) الهولندي. أنا أيضاً، تعرّفت على هذا التجمّع بمحض المصادفة. لكنني صرت أحبّ المشاركة في هذه الاعتصامات، قدر المستطاع. وتشكّلت لدي صداقات كثيرة مع سوريين وأجانب، كانت بدايتها من هنا. صرت أشعر بأن ثمّة شيئاً يربطني بهؤلاء الناس، أجهلُ ماهيّته. على كل حال، سررت بالتعرّف عليك.

تقدّم منه الشاب الإيطالي مبتسماً:

- جورجينيو أندريوتي، طالب دراسات عليا في جامعة بروكسل الحرّة (ULB)، أحضّر للدكتوراه في الأنثروبولوجيا. يسرّني التعرّف عليك.

- وأنا كذلك، سررت كثيراً بالتعرّف عليكم. وأرجو أن تخبروني بمواعيد هذه الاعتصامات كي أشارك فيها معكم ومع هؤلاء الناس الذين يطالبون بالحرية لبلدهم وهم في الغربة. هؤلاء يذكّرونني ببلدي حين كان محتلاً، وكيف كان شعبي يطالبُ بالحريّة.

غادر رولان ساحة «لابورس» مواصلاً مشواره إلى مكتبة تبيع الكتب المستعملة، يسيطر عليه هاجس غريب مفاده أنه فَقَدَ شيئاً ما في ساحة «لابورس»، وعليه العودة إلى هناك للبحث عنه. تفقّد نفسه، فلم يجد ما أضاعه؛ المفاتيح، الموبايل، المحفظة، الكتاب،

كل شيء في مكانه. باتَ يفكّر في السبب الذي يجعل مجموعة من الأوروبيين المرتاحين في بلدانهم، يتضامنون مع مهاجرين ولاجئين أجانب، في هذا الزمن الاستهلاكي الذي جعل من سكّان البلدان الأوروبيّة تتجاهل قضايا بلدانها، ناهيكم عن الاهتمام بقضايا الشعوب الأخرى، غير الأوروبيّة؟! ولكن في الوقت عينه، سأل رولان نفسه: «لماذا أنا أيضاً، شعرت بصوت داخلي يناديني من الأعماق، يدفعني للتضامن مع هؤلاء البشر؟ يبدو أن العدوى وصلتني أيضاً! من هم السوريون؟! وما هي سورية؟!».

وصل رولان إلى المكتبة. وعلى الفور، طلب من العاملة فيها كتباً عن سورية بالفرنسية. وبعد مضي عشر دقائق أتت الفتاة بمجموعة كتب مستعملة، منها كتاب يتناول تاريخ سورية القديم والمعاصر، وكتب أدبيّة، بين رواية وشعر لكتّاب وشعراء سوريين. كرواية «الوجه المظلم للحب» لرفيق شامي، ورواية «نهاية رجل شجاع» لحنا مينة، وديوان «أبجدية الياسمين» لنزار قبّاني، وديوان «الفرح ليس مهنتي» لمحمد الماغوط. أخذ رولان الكتب وانكبَّ على قراءتها بنهمٍ وشغف كالمتلهّف لاستكشاف أماكن مجهولة وأناس مجهولين، وفرغَ من قراءة هذه الكتب خلال أسبوع. وزاد في البحث عن نتاجات الكتّاب المذكورين، المترجمة إلى الفرنسيّة، على شبكة الإنترنت بالإضافة إلى البحث عن المزيد من المعلومات المتعلّقة بسورية عبر «ويكيبيديا»، بحيث صار لديه اطلاع معقول حول هذا البلد ونظام الحكم فيه، والواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي يعيشه السوريون، ولماذا انتفض هذا الشعب على نظام الحكم؟ ولماذا طالب بالحرية والكرامة فقط؟ ولماذا رفع سقف

أهدافه في ما بعد إلى المطالبة بإسقاط نظام الأسد؟ وأصبح رولان يجري مقارنة بين الكونغو وسورية، على أن بلاده كانت رازحة تحت الاحتلال البلجيكي، والتحرر من الاحتلال، أدخله في احتلال من نوع آخر، قوامه الحرب والفقر والاستبداد المحلّي، بحيث صار المواطن الكونغولي يحنّ إلى زمن الاحتلال البلجيكي ويترحّم على أيّامه. وكذلك حال السوريين الذين لم ينعموا بالهناء والرخاء والحريّة بعد الخلاص من الاحتلال الفرنسي، ودخلوا مرحلة القلاقل والانقلابات والاغتيالات، إلى حين حدوث انقلاب حافظ الأسد، الذي جعل من البلاد سجناً، الشعب فيه هو السجين والسجّان في الآن عينه. قال رولان في نفسه: ألم يكن هنالك أحد في سورية، يمكنه قتل رولان كابيلا سورية؟! ويقصد حافظ الأسد، قبل أن يقوم بتحضير ابنه كي يخلفه، مثلما فعل الكونغوليون بكابيلا.

وصار رولان بونيوبا يعتبر بشّار الأسد، جوزيف رولان كابيلا الذي أتى بالتوريث إلى حكم الكونغو بعد اغتيال والده. بل صار ينظر إلى الأسد بحقدٍ وكراهية، وكأنّه قاتل أبيه؛ الكولونيل كايمبي بونيوبا.

بشكل متسارع، صار رولان يتابع الأحداث في سورية عن كثب، سواء عبر المواقع الإلكترونيّة أو قنوات التلفزة أو وكالات الأنباء أو صفحة «أخبار الثورة السوريّة على الفيسبوك» التي يديرها الأصدقاء: كاترين، كلارا، وجورجينو باللغات الفرنسيّة، الإنكليزيّة، الإيطاليّة والألمانيّة. وهذه المتابعة اللصيقة والدؤوبة أخذت الكثير من وقته، وأشغلته عن زوجته وأولاده، وأثّرت سلباً على علاقته بهم. لكن، لم يدفع ذلك زوجته إلى الانزعاج مطلقاً، طالما لمست في الأمر راحة

نفسيّة له، وابتعاده عن العزلة والانطوائيّة والمزاج العصبي. خاصّة حين بدأ يحدّثها عن أصدقائه وصديقاته الجدد؛ كاترين، جورجينيو، كلارا وولات. تعرّفت زوجته عليهم، أثناء مشاركتها مع رولان في الاعتصامات في ساحتي «لابورس» و«شومان».

أصبح هوس التواصل مع الأصدقاء الجدد، ومتابعة أخبار سورية، يسيطر على كيان رولان بشكل كامل، إلى درجة أنه اقترح على ولات تعليمه اللغة العربيّة. فوافق على ذلك. بينما قالت كاترين إنها تجيد التكلّم بالعربيّة لأنها قضت خمس سنوات في سورية. وكذلك جورجينيو ذكر أنه يتكلّم العربيّة، كون ذلك من صلب اهتماماته، وأنه امضى ستة اشهر في دمشق وسنة في بيروت، لتعلّم اللغة العربيّة. ولكن اتفق الجميع على المشاركة في دروس تعلّم العربيّة التي سيقدّمها ولات لرولان وكلارا كنوع من اختلاق المبرر الذي يدفعهم إلى المزيد من اللقاءات. وذات يوم، قال رولان إنه يريد قراءة قصائد الماغوط، وأدونيس، وقبّاني بالعربيّة وليس المترجمة إلى الفرنسية. فردّ عليه ولات بصوت يخالطه الامتعاض:

- أدونيس؟ السوريون توقّفوا عن قراءة أدونيس؟ وأنت تريد أن تقرأه؟!

استغرب الجميع من كلامه. وحاول رولان الاستفسار:

- حسب ما قرأت عن أدونيس أنه شاعر كبير ومهم، ومرشّح لنيل جائزة نوبل للآداب! قرأت شعره وشعر الماغوط وقبّاني مترجماً إلى الفرنسيّة. شدّني أدونيس إليه نتيجة العمق الفلسفي في قصائده؟

ردّ ولات:

- أدونيس، كان إحدى الصدمات التي كشفت عنها الثورة

السوريّة. يعارض الثورة على نظام الأسد، بحجّة أنه علماني ويدافع عن العلمانيّة والمدنيّة! ويرفض أن تخرج المظاهرات من الجوامع! وأن يردد المتظاهرون هتافات إسلاميّة! في حين أنه نفسه، كان يمتدح ثورة الخميني الإسلاميّة على نظام الشاه في إيران! صار أدونيس ينحاز إلى النظام السوري، بشكل غير مباشر، بعد أن أمضى عقوداً من عمره يزعم أنه يعارض النظام. علمانيّة أدونيس، هي نفس علمانيّة نظام الأسد، ذات بطانة طائفيّة، مناطقيّة، تتوارى خلف مكياج الحداثة والمدنيّة. ولكن الثورة السوريّة كشفت وفضحت تراكم الزعم لدى الكثيرين من الأدباء والشعراء والأحزاب اليساريّة والعلمانيّة، وأظهرت كم هم مزيّفون ومنحازون للاستبداد القومي والطائفي والمناطقي بحجّة مناهضة الاستبداد الديني الإسلامي. عاش السوريون والعرب الكثير من الخديعة السياسيّة التي مارستها أنظمة دكتاتوريّة تحت شعارات برّاقة؛ مثل الوطنيّة والثوريّة والاشتراكيّة ومناهضة الاستعمار والاحتلال ودعم المقاومة. كذلك عاش السوريون ومعهم العرب الكثير من الخديعة الثقافيّة المتوارية خلف أقنعة ومكياج الحداثة والعلمانيّة والمدنيّة. واتضح أن الخديعة الثقافيّة كانت أخطر وأفدح من الخديعة السياسيّة. لأنها تزعم معارضة الأنظمة الاستبداديّة، ولكنها في الأصل والجوهر، موالية وبل متورّطة في الخديعة السياسيّة التي مارستها هذه الانظمة طيلة عقود على شعوبها ومجتمعاتها!

اعتبر جورجينيو ظواهر كهذه أنها فاشيّة مقنّعة. وذكر أن لديهم أيضاً في إيطاليا شاعراً مشهوراً جداً، لكنه فاشي ودموي، وكان من أصدقاء موسوليني، اسمه غابرييل دي أنونزيو. وأن دي أنونزيو

يمتلك من الجرأة والشجاعة في التعبير عن وحشيّته ودمويّته وتطرّفه السياسي والاجتماعي، أكثر مما يمتلكه آخرون من الشعراء.

قاطعه ولات:

- أعتقد أن المقارنة حادّة وفيها شيء من القسوة. ولكن قياساً على مواقف الأحزاب اليساريّة والاشتراكيّة في العالم والبلدان العربيّة، الموالية لنظام الأسد، بحجّة مناهضة البديل الإسلامي، صرت أتساءل: لو كان بابلو نيرودا على قيد الحياة، هل كان سيدعم ثورة الحريّة والكرامة في سورية على نظام الأسد؟ أم أنه سيدعم هذا النظام لأنه علماني وحامي الاقليّات حسب زعم النظام والموالين له؟ طبعاً، نيرودا كان مفتوناً بالنظام السوفياتي، قبل وبعد موت ستالين، ولم ينتقده. وكذلك الشاعر التركي ناظم حكمت، المعروف بنزعته الإنسانيّة ومناصرته للفقراء والمهمّشين، لو كان حيّاً، هل كان سيقف مع نظام الأسد، على خلفيّة العداء الأيديولوجي للإسلاميّين؟ أم كان سيضع الخلاف العقائدي جانباً، ويطالب بالتحرر من الكابوس الجاثم على صدر السوريين منذ نصف قرن؟! من دون أن ننسى أن ناظم حكمت حين عاش في الاتحاد السوفياتي السابق، لم يكن ينتقد النظام الستاليني وقمعه بحق المعارضين. فحتى بعد موت ستالين، لم ينتقد حكمت الستالينيّة وممارساتها الوحشيّة بشكل صريح وواضح ومباشر، للحفاظ على مكان إقامته في بلاد السوفيات. نفس السؤال يمكن طرحه حيال تجربة محمد الماغوط ومحمود درويش أيضاً. هل كانا سينحيان منحى أدونيس ويتبنيان نفس مواقفه المخيّبة للآمال أم لا؟!

عظمة الثورة السوريّة لا تكمن فقط في أن الأطفال أطلقوا شرارتها، وأنها ما زالت محافظة على سلميّتها وحسب، رغم كل

العنف والقتل الذي يمارسه نظام الأسد، بل في تعريتها للنظام ولمعارضته وللنخب الثقافيّة والأحزاب اليساريّة والشيوعيّة التي راحت تصطف مع النظام ضد التغيير بحجّة أن البديل سيكون خصماً أيديولوجياً، دينياً. وأعتقد أن دائرة هذه الفضيحة الكونيّة ستتسع تباعاً لاحقاً لتشمل قوى ثوريّة عربيّة شاركت في الثورات على أنظمة الحكم في مصر، تونس وليبيا، لتصطف مع نظام الأسد، بنفس الحجّة، أن بديله سيكون الإسلاميين المتطرّفين. ستبقى الثورة السورية تفضح العالم تباعاً، يوماً إثر آخر.

- أفهم من كلامك وكأنّك تريد أن يطول أمد الثورة، فقط كي تفضح؟... الثورات ليس مهمّتها الفضح، بل التغيير، لصالح توفير أكبر قدر ممكن من الحرية والعدالة الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة للناس. قالت كلارا.

ضاحكاً، ردّ ولات: طبعاً لا. ربما لم أنجح في إيصال الفكرة لكِ. كيف لي أن أطالب بإطالة عمر الثورة؟ لأن في ذلك إطالة عمر النظام أيضاً! أريد أن يسقط النظام اليوم قبل الغد. وبسقوطه لا يعني أن المأساة السوريّة ستنتهي فوراً، بل ستطوى صفحة من صفحاتها، وستبقى الدوّامة مستمرّة، وربما تنزلق البلاد إلى الحرب الأهليّة. ولكن العبرة في الخاتمة. كل ما تشهده سورية الآن وما ستشهده لاحقاً، هي آلام المخاض. مخاض ولادة الحريّة. والحريّة ليست فعلاً أوتوماتيكياً، ستنطلق وتنتعش وتزدهر فوراً بزوال نظام الاستبداد والفساد. الحريّة فعل جماعي، تراكمي، مرهون بالابتعاد عن تركة وإرث وموروثات الاستبداد، على كافة الصعد.

- ولات، الأكراد في سورية، هل هم مع النظام؟ أم مع الثورة؟

نريد أن نفهم! أعرف أن لك تجربة سياسيّة، وسبق أن كنت ناشطاً ضمن العمال الكردستاني. قالت كلارا.

- بلى، كنتُ مقاتلاً ضمن صفوف الكردستاني، وقضيتُ خمس سنوات من عمري أحمل السلاح في الجبال. كانت سنوات قاسية وعصيبة، مفرحة ومحزنة ومؤلمة. كلارا؛ لقد نكأتِ جراحاً، لم تندمل بعد. هذه التجربة المريرة، يلزمني سنوات للحديث عنها، لما فيها من محطّات وانعطافات وانكسارات. بالمحصّلة، أيقظتني الثورة السوريّة على صدمة فكريّة ونفسيّة وأخلاقيّة، قلبتني رأساً على عقب، وأثبتت لي أنني كنت أعشق خرافةً لدرجة العبادة، باعتبارها حركة تحرر وطني، هذه الخرافة كان اسمها حزب العمال الكردستاني. قضيت من عمري 22 سنة مدافعاً عن هذه التجربة، بكل ما فيها من شعارات وخرافات وأوهام أيديولوجيّة. ويلزمني ربما أكثر من 22 سنة أخرى، حتى أبرأ من الموروث الأيديولوجي لهذا الحزب. على الصعيد الشخصي، حررتني الثورة السورية من أغلال أوهام وخرافات الأيديولوجيا وخنادقها وزواريبها. ولا تعتبروني أنانيّاً إن قلت لكم؛ أكتفي بهذا القدر من الثورة السوريّة، حتى ولو فشلت في تحرير البلاد من الطاغوت الأسدي.

- أنا أعرف العمال الكردستاني عن قرب، هو حزب محظور في ألمانيا. وموضوع علاقتك به وافتراقك عنه، بكل تأكيد، مثير ومهم، وسنعود إليه. ولكن يجب أن تعود إلى السؤال الأول: هل الكرد في سورية مع الثورة؟ أم مع النظام؟ ولماذا مواقفهم ملتبسة؟!

- الكرد بشكل عام، ضد النظام. وانتفضوا عليه في آذار 2004. وهؤلاء المعارضون الذين ترونهم على شاشات التلفزة، كانوا يقفون

مع النظام ضد الكرد وانتفاضتهم وقتذاك، بسبب أن المعارضة كانت الرديف الخفي، ذهنيّاً وأيديولوجيّاً وسياسيّاً للنظام، وتختلف معه في مسألة إدارة السلطة واقتسامها. أولى المظاهرات التي انطلقت ضدّ النظام كانت في المناطق الكرديّة. والنظام حاول تحييد الكرد، عبر منح بعض الحوافز، كإعادة الجنسيّة للأكراد المجرّدين منها منذ سنة 1962. ولم يستهدف المظاهرات الكرديّة بالقنص. ولم يستهدف مدنهم بالقصف. ولكنه أطلق يد حزب العمال الكردستاني في هذه المناطق، لينوب عن النظام في مسألة ضبطها. وذلك عبر حزب الاتحاد الديمقراطي (PYD). الكردستاني، بحكم متابعتي وقربي منه، مع انطلاقات الثورات في تونس، كان إعلامه يحرّض على التظاهر والانتفاضة على نظام الأسد، ويستضيف المعارضين السوريين وينتقد نظام الأسد بشدّة. لأن هذا النظام، وعبر التوقيع على اتفاقيّة أضنة الأمنيّة مع النظام التركي في خريف 1998، طرد زعيم الكردستاني عبداللّه أوجلان من سورية. وبعد اعتقاله وخطفه من نيروبي، قام أوجلان بتغيير استراتيجيّة الحزب، وصار يجنح للسلم، وخفّض سقف المطالب الكرديّة، وتخلّى عن شعار دولة كردستان والاستقلال والانفصال عن تركيا. ومع تولّي بشّار الأسد الحكم، خلفاً لوالده المقبور، بدأت بنود اتفاق أضنة تدخل حيّز التنفيذ، وتتحسّن العلاقة بين تركيا وسورية لتصل إلى أوجها، وتدخل أنقرة على خطّ التفاوض بين دمشق وتل أبيب. كل ذلك كان على حساب زيادة الضغط والقمع على الكرد في سورية، وخاصّة أنصار وأعضاء حزب الاتحاد الديمقراطي. واعتقل نحو 1600 شخص منهم، وقتل العديد تحت التعذيب. وتمّ تسليم العشرات من عناصر

الكردستاني الناشطين في سورية الى تركيا. يعني بعد أن كان الكردستاني، طيلة التسعينيات، أداة في يد النظام السوري، وانتهت صلاحيته بالتوقيع على اتفاقية أضنة، صار الكردستاني وأنصاره ملاحقين ومقموعين من قبل النظام من سنة 2002 ولغاية مطلع 2011. وبعد اندلاع الثورة السوريّة، بدأ النظام يخفف الخناق على الكردستاني، وغض الطرف عن تسرّب مقاتليه إلى داخل المناطق الكرديّة. والكردستاني، بعد أن كان يحرّض على التظاهر ضد النظام في إعلامه المرئي، صار لاحقاً يشكك في الثورة، ثم يطعن فيها، بحجج كثيرة، أبرزها الطابع الإسلامي للمظاهرات، ولماذا تخرج من المساجد. بكل تأكيد، البعض من حجج الكردستاني كانت منطقيّة ومعقولة، ولكنها كانت من صنف كلام حق يراد به باطل، إلى أن بان الوجه الحقيقي للكردستاني وتحالفه الخفي مع النظام، وارتضائه بأن يكون أداة قامعة ومانعة للثورة السوريّة في المناطق الكرديّة، نكايةً في النظام التركي الذي انتقل من الصداقة الحميمة مع النظام السوري إلى معاداته ودعم معارضته السياسيّة والمسلّحة، عبر احتضان ودعم المنشقين عن جيش النظام. وهذه تعرفونها كلكم.

صدمتي ومرارتي الكبرى كانت هنا، حين شعرت بأن العمال الكردستاني غدر بالثورة السوريّة، وبالكرد السوريين وحلم مشاركتهم في إسقاط طاغية الشام. هذه المرارة تتأتى من أن سبب انضمام كل الشباب والصبايا الكرد السوريين إلى العمال الكردستاني، كان الهدف منه محاربة النظام التركي لانتزاع الحقوق الكرديّة في تركيا. وبعد التفرُّغ من هذه المهمّة، سنتجه إلى محاربة نظام الأسد، ثم النظام العراقي، فالنظام الإيراني، حتى ينال كل الشعب الكردستاني

حقوقه. هذا ما كان يقوله الكردستاني في كتبه وأدبياته. وكنّا نصدّق ونؤمن بهذا الكلام. ولكن رويداً، ومع اعتقال أوجلان، بدأ الكردستاني يتراجع عن أهدافه وشعاراته. وكنّا نلتمس الأعذار والمبررات لذلك، ونحاول إقناع أنفسنا بهذه الترّهات والخرافات، إلى حين حدوث الفضيحة الكبرى، بأن يصبح حزب يساري، ثوري، قومي، أممي، أداةً في مواجهة الثورة السورية وطموحات الكرد السوريين. وللأسف، ازدياد منسوب الأسلمة والأخونة في الثورة، أعطى المزيد من المبررات للعمال الكردستاني، بأن يمضي في التضليل وإقناع قواعده الشعبيّة بين الكرد السوريين، بأنه لا توجد معارضة، ولا توجد ثورة. الموجود على الأرض، هم عملاء للنظام التركي، يأتمرون بأمر أنقرة، ويناهضون الحقوق الكرديّة في سورية. بؤس حال المعارضة العربيّة والكرديّة، وانزلاق الثورة نحو المزيد من مظاهر الأخونة والأسلمة، يعززان دور ودعاية النظام السوري والعمال الكردستاني على حدٍّ سواء. ويشعر الكرد بأن خيار الكردستاني بالتعاون والتنسيق مع النظام، كان أفضل من الانخراط الكلّي في الثورة السوريّة.

لحظة استشهاد مشعل التمو في القامشلي، كانت نقطة فارقة في حياتي، دفعتني لاتخاذ قرار الافتراق أو الانشقاق السياسي والفكري عن العمال الكردستاني.

- لماذا؟ سألت كاترين.

- لا أعرف بالضبط. لكن شعرت بأن المناطق الكرديّة السوريّة دخلت نفق العنف والاستبداد، ولن تخرج منه إلّا بسقوط النظام السوري وكل أدواته.

- ربما يسقط النظام. ولكن ليس بالضرورة أن تسقط كل أدواته، مثل حزب اللّه اللبناني، التنظيمات الفلسطينيّة الموالية له، وحزب العمال الكردستاني أيضاً؟ تساءل جورجينيو.

- نعم. مشعل كنت مختلفاً معه، وانتقدته كثيراً. وربما كنت متجنّياً في بعض الانتقادات. ولكنني شعرت بمسؤوليّة ما للعمال الكردستاني، وراء جريمة اغتياله. وحتى لو لم تكن هنالك أدلة ملموسة ودامغة على تورّط الكردستاني في اغتيال مشعل، إلّا إحدى أصابع الاتهام ستبقى موجّهة نحو هذا الحزب، نتيجة تاريخه في التصفيات الداخليّة، وأسلوبه الستاليني في قمعه معارضيه خارج الحزب، والإصلاحيين داخله. أنا أعرف طبيعة هذا الحزب باعتباره تنظيماً عقائديّاً شديد الدوغمائيّة والتزمّت والانغلاق على الذات الأيديولوجيّة. وازدادت معرفتي به، حين صرت أنظر إليه من الخارج. ذلك أن زاوية الرؤية باتت أكثر انفراجاً ووضوحاً. ربما للعمر أيضاً حكمه، إذ إنني في العقد الرابع من عمري. وهذه الفترة تجعل المرء أكثر هدوءاً في تقييم الظواهر السياسيّة والفكريّة بشكل متوازن، بعيداً من ضوضاء وصخب الشعارات وبهرج الكلام العاطفي المخادع، الذي يسمّم العقول.

باختصار، التيّارات العقائديّة لا تترك متنفّساً للشخصيّات ذات الوعي النقدي والإرادة الحرّة لأن تتبلور ضمن صفوفها، فستعى إلى سحقها وتدميرها فوراً.

قاطعه رولان قائلاً: أنا أيضاً كانت لدي تجربة عسكريّة، يساريّة ضمن حزب الشعب الثوري الكونغولي بقيادة رولان كابيلا. ورثت ذلك عن أبي الذي كان أحد اصدقاء كابيلا، والمفتونين به. وفي

النهاية، بعد تحوّل كابيلا إلى طاغية، يحطم البلاد والعباد، شارك أبي في اغتياله. سؤالي هو: حديثك عن التيّارات العقائديّة وتدميرها للشخصيّة، لفت انتباهي. وحبذا لو أوضحت وجهة نظرك أكثر بهذا الخصوص!

- كثيراً ما تتحدّث الأيديولوجيّات العقديّة، بخاصّة منها اليساريّة، عن دور الفرد في التاريخ، وأهميّة الشخصيّة، وكيفيّة تفجير طاقاتها الإبداعيّة، وتوظيف ملكاتها المعرفيّة في ما هو خدمة الصالح العام والمجتمع والشعب والوطن وقيم الحبّ والخير والجمال والجماعة! وتتحدّث أيضاً، عن أهميّة الوصول إلى الشخصيّة النموذجيّة التي تتمثّل فيها قيم الجماعة، وتترّفع عن الأنانيّة والفردانيّة، والمعادية للانتهازيّة، والمندمجة كليّاً في أيديولوجيّاتها، والقادرة على صناعة نسخ مطابقة لها في المجتمع، وضمّها للجماعة الأيديولوجيّة الناشطة فيها. وتسهب هذه التيّارات الأيديولوجيّة في تعداد خصال ومناقب شخصيّة «الفرد - الجماعة»، من قبيل التفاني في إنجاز المهام، والإخلاص للمنهج الحزبي، والانضباط والالتزام الصارم به، والاستجابة التامّة للأوامر، ونكران الذات، والتضحيّة في سبيل قضيّة الحزب والقائد والأيديولوجيا، على أنها التضحية في سبيل الشعب والوطن والمجتمع! هكذا، تمضي الأيديولوجيات العقائديّة في صهر الأفراد المنتمين لها في بوتقتها، أو ما يمكن تسميتها بـ«ثقوبها السوداء»، وقصف كل مناطق ومراكز الإرادة والتفكير والذات والسؤال والشكّ، في شخصيّة المنتمي لها، في مسعى تدمير الشخصيّة لصالح الإبقاء على الشخص فقط، وصولاً إلى بلورة «الجماعة - الفرد» ككتلة متراصّة، متينة وصلبة، بحيث يغدو

وعي المنتمين إليها مسطحاً، مندغماً بعقيدة الجماعة، لا يقبل أي نشوز أو نتوء، باعتباره مروقاً وخرقاً ومن صنف الخيانة. وربما تدري هذه الجماعات العقديّة، أو أنها حقاً لا تدري، الخطورة الفادحة لهذا التوجّه على الاختلاف والتنوّع الذي يمثّل ديناميّة التطوّر المجتمعي، وقابلية المجتمع للارتقاء وتجاوز الركون والسكون والجمود والمراوحة.

الجماعات العقديّة اليساريّة، وأثناء نقدها التاريخي لمجتمعاتها، تكون دوماً محكومة بهاجس أنها «المنقذ» و«المخلص» الذي نجّى المجتمع والشعب من شفير الهاوية والضلال! ومن هذه التيّارات، من يشتط بها مدح نفسها إلى درجة زعم أنها أحيت شعباً كان ميتاً، وفعلت كذا وكذا، عبر إضفاء هالة من التهويمات والتفخيم والتضخيم على سعيها وحراكها، على أنه مبتدأ التاريخ ومنتهاه! وترسيخ ذلك في وعي المنتمين إليها والموالين لها، بحيث تغدو هذه التهويمة حقيقة بديهيّة غير قابلة للنقاش والجدل والمساءلة! وبالتالي، تحاول هذه الجماعات ترسيخَ وهْم غريبٍ لدى المنتمين لها، مفاده: أن من لا ينتمون لهذه الجماعة، ينتمون للماضي وقذاراته وضلالاته وآثامه وتخريباته، وأن من ينتمون إليها فإنهم روح العصر، وبحوزتهم أو في متناولهم المستقبل. وعليه، تسعى هذه الجماعات إلى تعزيز هذا الوهم لدى المنتمين الجدد لها، وأن عليهم التخلّي والتبرّؤ تماماً من الشخصيّة القديمة، وخلق «ولادة جديدة» لأنفسهم، عبر الاندماج الكلّي، الكياني، الروحي والفكري، في الأيديولوجيا العقديّة التي تتبناها الجماعة - الحزب. وهنا، يدخل الكادر المنتمي في حالة عداء ومقت شديد ومزمن مع ذاته، على أنها نتاج المجتمع

المتخلّف، الإمبريالي، الرأسمالي، البرجوازي، الإقطاعي، العبودي!.. ويجب عليه تدميرها، وإعادة بنائها وفق منهج وأيديولوجيّة الحزب العقديّة، الخلاصيّة، الإنقاذيّة، اللاطبقيّة، اللادولتيّة!.. فيُدخِل المنتمي نفسه طوعاً، وتحت تأثير الديماغوجيّة العقديّة، في حالة من القمع والكبت والحرمان الذاتي، على الصعيد النفسي والجسدي والفكري. وتنشأ لديه حالة كره وعدوانيّة شديدة لمن يعتبرهم الحزب مارقين أو منشقّين عن جماعته، وحتى من الناس العاديين أيضاً، ناظراً إليهم بسخف وازدراء، تحت ضغط إحساس باطني، مؤداه أنهم حصلوا على هامش من الحريّة والشخصيّة والفردانيّة، هو محروم منه، أو حرم نفسه منه! وهذه الكراهية والعداونيّة تجاه الآخر تنطوي على شعور أنه يجب على كل الناس أن يكونوا مكبوتين ومقموعين ومقوّضين مثله، ينحون منحاه، ويكونون نسخاً منه!.. ويؤرّقه تساؤل وجودي «لماذا أنا أضحّي والآخرون يتمتعون؟!». وأثناء محاولته جعل الناس مثله، ثمّة شعور منعكس، دفين، عميق، جامح وخفي، يستبد به، مفاده: أنه يجب أن يكون هو مثل الناس، بجعلهم مثله، لا أن يجعل نفسه مثلهم!

وهنا، الشخصيّة المثلى التي تسعى الأيديولوجيا العقديّة إليها هي الشخصيّة المسخ، الإمّعة، العجينيّة المطواعة، المسلوبة الإرادة، والفاقدة القدرة على التفكير المختلف، أو الشك في الأيديولوجيا والحزب والقيادة والقضيّة أو الدعوى التي ينشط تحت لوائها! ولأن الأيديولوجيا العقديّة، بخاصة اليساريّة، تنظر إلى نفسها على شاكلة «أنا التاريخ، أنا الشعب، أنا القضية، أنا الوطن، أنا البداية والنهاية، أنا الطهر والنقاء والانبعاث...»، وفق مبدأ «الفرقة الناجية

من النار» كما لدى المسلمين، وتنظر إلى الآخرين على أنهم التخلّف، الرجعيّة، الحضيض، الكارثة، البؤس وأسفل السافلين والساقطين. . ! لذا، فإن المنتمين لها يتحرّكون وفق هذه الأنا - النحن المتورّمة والمتأزّمة والمتفاقمة!. . ونتيجة النظرة الدونيّة التي تتبناها الأيديولوجيا العقديّة لوعي وعقل الآخر، فالآخر خارج أطر الجماعة العقديّة مرفوض، فما بالكم بالآخر داخلها، فهو مقموع وملغى ومنبوذ، وعرضة للتجريد والتشهير، وتكال بحقه أشنع الأوصاف والتهم، وقد تصل لدرجة تصفيته! ذلك أنه داخل الأيديولوجيا العقديّة، الناشطة وفق مبدأ «الفرد - الجماعة، والجماعة - الفرد»، لا يوجد أي هامش لدور أو حضور الآخر، إلا كضد وعدو وخصم، ينبغي إزالته وإلغاؤه واجتثاثه، وفي أفضل الأحوال التحسّب والحذر والتحوّط منه!

- تحليل سيكولوجي وسوسيولوجي جميل وعميق لبنية التيّارات العقائديّة وتعاطيها مع الفرد والشخصيّة، وكأنّك عشت ضمن حزب الشعب الثوري الكونغولي، يا ولات. قال رولان.

- الأحزاب العقائديّة الصارمة، العلمانيّة اليساريّة أو القوميّة أو الدينيّة، لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض. ويمكن القول: إن الأحزاب اليساريّة القتاليّة العسكريتاريّة، هي نسخ كربونيّة متطابقة. هذه الجماعات الأيديولوجيّة، اليساريّة - الثوريّة، تنتقد بشدّة المثقف والشخصية المثقفة، على أنها لا تلعب الدور المنوط بها، وأنها منفعية، ولا مبالية، ولا مسؤولة، وأنانية وانتهازية ووصولية ونرجسية. ! وهذا النقد قد ينطوي على قدر من الصواب، إلا أنه يهدف إلى خلق حالة من العداء والكراهية والبغض والنقمة لدى

كوادر وأعضاء الجماعة الأيديولوجية على شخصية المثقف، بوصفه «شيطاناً رجيماً»، يجب دوماً رجمه، أو التحوّط والحذر منه ومن أفكاره التي تثير الفتنة والبلبلة، والهدف منها دقّ الأسافين وتمزيق وحدة الصف والرأي الواحد! وفي هذا السلوك، فعل استباقي من قبل الجماعة الأيديولوجية، إزاء رفض ومقت أيّ احتكاك أو تواصل بين المنتمين لها مع أي مثقف!.. وحين تنتقد هذه الجماعات شخصية المثقف وأداءه، على النحو الذي تم ذكره سابقاً، فإنها تحدّد خصال ومواصفات «المثقف العضوي»، وفق تعبير غرامشي، المجدي والحقيقي والنموذجي، الوطني، الثوري، على أنه؛ مَن يسوّق للقضية وفق وجهة نظر الجماعة الأيديولوجية، بل ويسوّق لهذه الجماعة أيضاً. وأي مثقف خارج هذا السياق المرسوم له، هو غير مثقف، بل عدو المجتمع والقضيّة والشعب والحزب، يروّج لثقافة الاحتلال والاستغلال والأعداء السياسيين والأيديولوجيين والسياسيين!

الشخصيّة القلقة والناقدة والتي لها علاقة بنزعة الشك والسؤال، من ألدّ أعداء الجماعات الأيديولوجيّة العقديّة. ذلك أن هذه الأيديولوجيّات دأبها الاشتغال على العواطف، والدفع بالبشر نحو الإيمان والإذعان النفسي والعقلي المطلق، لما تروج له وتدعو إليه الجماعة!.. لذا، لا يمكن لمن يتمتع ببذرة الثقافة، ويريد أن تنمو في داخله شتلة الاستنارة، ويسعى لتوسيع أفقه، أن يعيش في مناخات الأحزاب العقديّة الأيديولوجيّة، تلك المناخات الموبوءة بكربون الاستبداد والأحاديّة الخانقة. ورأينا كيف كانت النازية تحارب وتطارد الكثير من المثقفين، وترهبهم، وتجعلهم يلوذون

بالتورية الأدبيّة، أثناء انتقاداتهم لها. ورغم ذلك، لم ينجُ الكثير من المثقفين من ملاحقات ومضايقات النظام العقدي الأيديولوجي النازي، كالأخوين هاينرش وتوماس مان.

تجربة الشاعر والأديب الروسي فلاديمير مايكوفسكي، الذي افتتن بالأفكار الثورية وانحاز لها، في بداياته، خير مثال. فسرعان ما شعر بالصدمة والخيبة والخذلان حين اكتشف زيف تلك الأفكار في الحقبة الستالينيّة. ولأن الأدب والإبداع لم يسعفاه بالتخفيف عن غضبه وشعوره المرير بالندم والخيبة والانكسار، لجأ إلى الانتحار، وهو في السابعة والثلاثين من عمره، احتجاجاً على مرارة وقسوة الواقع، وخيبة الأمل التي مُني بها، حين وجد أن الثورة التي حلم بها ودافع عنها تنهار أمام ناظريه، بعد أن تحولت إلى وحش، وأصبحت تلتهم أبناءها الثوار، وحوّلت الوطن إلى سجن، والقضية والشعب إلى مطية وقطعان.

الكثيرون من المبدعين نحوا منحى مايكوفسكي، حين انتهت الثورة، وأتى زمن الدولة الأيديولوجيّة العقديّة، وسيّدها ستالين، مما جعل يأساً هائلاً يستشري فيهم، أدى بهم إلى اختيار الموت ملاذاً من أوضاع ومناخات، ما عادت تطاق. والذين لم ينتحروا تكفّلت السلطات الستالينيّة، ودوماً باسم الحفاظ على الثورة والشعب والقضيّة، بإعدامهم أو نفيهم أو سجنهم!

كانت سنوات مايكوفسكي الأخيرة شديدة الوطأة عليه، لأن المتشددين الحزبيين صاروا يمطرونه ورفاقه بالاتهامات، من قبيل «برجوازي صغير، وفردي النزعة، وشكلاني التعبير». وهذه التهم، كما هي الآن، كانت في منظور تلك الحقبة توازي الخيانة، مما زاد

من حدة يأس مايكوفسكي إزاء الثورة التي حوّلها الحزب الشيوعي إلى آلة بيروقراطية تنتج الرعب والرهاب. واليأس الحاصل لدى مايكوفسكي لم يدفعه للتراجع والخوف والتردد، مع أنه كان يعرف ضرائب وأكلاف مواقفه وآرائه، فأمعن في التحدّي، موصلاً إيّاه إلى مستوى خطير، مع مسرحيّته «الحمّامات».

أعتقد أنه منذ محاكمة سقراط وإعدامه، مروراً بالتصفية السياسيّة والثقافيّة لابن رشد ومحاصرته وتكفيره وإحراق كتبه، وليس انتهاء باغتيال ناجي العلي وموسى عنتر وهرانت دينك ومشعل التمو، كل هذه الجرائم هي حلقات من سلسلة لن تنتهي، ما بقيت منظومة عقديّة أيديولوجيّة سياسيّة تزاول العنف على الأرض. ذلك أن الطراز العقائدي من التفكير والحراك يرفض تماماً بروز شخصيّات حقيقيّة، إلّا حين تكون منساقة ومنقادة ومطواعة لها. النتيجة التي خرجت بها من خلال تجربتي واطلاعي على بعض تجارب الشعوب الأخرى، أن المنظومات الأيديولوجيّة العقديّة، في أحسن أحوالها، هي مصانع العبيد، الجاهزين لارتكاب أبشع الجرائم، ظنّاً منهم أنهم أصحاب حقّ وطلّاب عدالة وحريّة!

- من خلال تجربتك مقاتلاً، أعتقد أنك ذكرت أنه كانت هنالك جوانب إيجابيّة. والمشهد لم يكن بهذه القتامة. تساءل جورجينيو.

- بكل تأكيد. مآثر التضحية بالذات في سبيل إنقاذ الرفاق، وإرادة المقاومة، والأحلام والأفكار الورديّة التي كانت تدفع بنا إلى تحمّل الجوع والبرد والحرمان والكبت وقمع الذات وجلدها، كل ذلك يشكّل الجانب المضيء من هذه التجربة. مع ذلك، كانت هنالك انتهاكات وخروقات وحالة رهاب وقمع داخلي، لكوننا

بالمحصّلة، منظمة عقائديّة عسكريّة وفي حالة حرب شرسة لا ترحم. وسط أجواء الحرب هذه، كنت أصادف مقاتلين رومانسيين، حالمين، يمتلكون أحاسيس مرهفة، ويعيشون حالات حبّ، يضطرّون إلى التضحيّة بها، لأن نظرة الحزب للعشق كانت في غاية السوء. إذ كان يعتبر العلاقة بين أي شاب وفتاة، سقوطاً نحو الحيونة والرضوخ للغريزة الحيوانيّة، رغم أنهما يعيشان الحبّ العذري في أجمل صورته براءةً وصوفيّة. الجنس ضمن الحزب كان ممنوعاً ويؤدّي إلى المحاكمة والقتل. وكنت شاهداً على الكثير من هذه المحاكمات والتصفيات. ومع ذلك، كانت تحدث حالات هرب يقوم بها مقاتل أو مقاتلة من بين صفوفنا، تنشأ بينهما قصّة حبّ، ويعرفان مصيرهما، في حال افتضاح أمرهما. أنا أتحدّث عن فترة التسعينيات. ولكن في السنوات الأخيرة، وبعد تَركي صفوف الحزب، طرأ نوع من المرونة في التعاطي مع حالات الحبّ التي تنشأ بين المقاتلين. مع استمرار رفض ممارسة الجنس.

- كنتم رهباناً إذن؟! سألت كاترين.

- شيء من هذا القبيل. كنّا رهائن أحلامنا الثوريّة، رهائنَ أوهام وخرافات الأيديولوجيا. فرض أوجلان حالة من الرهاب والرهبنة على الحزب، وأراد تركيز المشاعر والإحساس والعواطف والخيالات باتجاه الحزب والقضيّة والقتال وتحقيق أهداف الحزب، عبر ربط كل هذه الأمور بشخصه على أنه الأنموذج الأكثر نقاءً وجسارة وبطولة وعمقاً وعبقريةً! بينما هو، لم يكن بعيداً عن هذا النمط من العيش. ممارسة الجنس ضمن صفوف المقاتلين كانت ممنوعة، بحجج أن ذلك سيؤدي إلى الإنجاب. والأطفال سيشتتون

تركيز الأب والأم عن مواصلة النضال من أجل القضيّة. وأن ذلك يستهدف وحدة الحزب التنظيميّة، العسكريّة والسياسيّة والآيديويولجيّة في العمق والصميم. لكن، حتّى في سلك الرهبنة والكهنوت هنالك خروقات وتجاوزات، منها ما يبقى مخفيّاً حتى يحين وقت افتضاحها، ومنها ما يبقى طيّ السرّ والكتمان إلى أبد الآبدين.

أعتقد أنه مهما اشتدّ سعير الحروب وضراوتها، ومهما بلغت الكراهية والعداء بين المتحاربين، يمكن للحبّ أن يغيّر كل الموازين والانطباعات السلبيّة والبغضاء لدى الأشخاص. وأنا شاهدٌ على حكايّة حبّ حدثت بين جندي تركي عشق وهامَ بمقاتلة كرديّة. حكاية غريبة ومؤلمة ومؤثّرة في آن.

- رائع. يا ليتك تقصّها علينا.

أخذ ولات نفساً عميقاً، وأطلق تنهيدةً، وكأنّها تخرج من صدور الجميع.

- مقيّدي الأيدي، وفي مغارة صغيرة نستخدمها كسجن، كان المقاتل الذي يحرس المغارة، يستمع ويسجّل، دون علمهما، صوتَي تونجاي وأفين وما يدور بينهما من أحاديث:

- مدججاً بالأحقاد، معبّأ بكراهيةٍ تكفي لإحراق العالم، أتيتُ من بيئةٍ تدينُ بدين الذئابِ الرماديّة في مدينة «سامسون»، إلى حيث كُنتِ، كي أحمي الوطنَ منكِ. أتيتُ كي أقتلكِ، دفاعاً عن وطني ووحدة ترابهِ من الإرهاب والانفصاليين. وحين رأيتكِ عبر المنظار، جالسةً على صخرةٍ، واضعةً البندقيّة جانباً، تفكّين ضفيرتكِ الطويلة، تاركةً نسائمَ الشفق تلهو بشعركِ الكستنائي، فاتحةً أزرارَ سترتكِ

العسكريّة، مغمضةَ العينين، تستنشقين الهواءَ وتفاصيلَ المكان وتباشير الفجر بعمق، وكأنَّكِ تسلّمينَ نفسكِ للصباح بأمانٍ واطمئنانٍ وثقةٍ وطلاقةٍ، وتسلّمين حياتكِ لي قائلةً: «أيّها الصيّاد المتربّص، ها أنا ذا الغزالة، على مرمى رصاصةٍ منك، فاقتلني إن شئت. لأنني اكتفيتُ بما امتلأتُ به من الحياة والحرية على هذه الجبال».

لا أعرفُ ما الذي صعقني من الداخل وجعلني أنقلبُ على نفسي وأكرهها. خصلاتُ شعركِ المتطايرة مع النسائم، وأشعّة الشمس الأولى المنعكسة عليها، كانت كفيلة بغسل روحي من سخام الحرب.

- أمّا أنا، فأتيتُ من وراء الحدود، كي أقاتلك، لأنهم قالوا لي إنّك المسؤول عن فقدان حريّتي، واستعمارِ وتقسيمِ وطني واستعبادِ شعبي. ولن يكون هنالك وطنٌ أو حريّةٌ نَنعم بها، ما دمتَ على قيد الحياة. ولكن، لا أعرف لماذا كلما كنت أقتلُكَ في المعارك السابقة، كنتُ أشعرُ بابتعاد الحريّة عنّي، وابتعادي عنها! ما زلتُ أذكرُ اليومَ الذي هربتَ فيهِ من الجيش والتحقتَ بنا. كانتْ ليلةً ماطرة من ليالي نيسان 1996. صرتَ تلوّح بخرقةٍ بيضاء، صارخاً: «أنا الرقيب تونجاي أوزتورك. أودّ الاستسلام لكم».

أحدثتَ بلبلةً بيننا، لأننا لم نعتد على حالات استسلام طوعية خارج المعارك. فحالات الاستسلام خارج نقاط الاشتباك، كانت مبرمجةً ومتفقاً عليها مع الجندي المنشق، الذي غالباً ما كان أحد أفراد أسرته أو أقاربه يقاتل بيننا. ونريد استثمار حالات الاستسلام هذه إعلاميّاً للضغط على الدولة والرأي العام التركي، إلّا أن الحكومة والجيش ما كانا يكترثان للجنود الأسرى لدينا! لذا، أتى استسلامك مفاجئاً وغريباً ومريباً يثيرُ القلقَ والشكوك.

في الصباح، بدأنا بأخذ بياناتك الشخصيّة والتحقيق معك حول أسباب الانشقاق. ولسوء حظّي كنتُ ضمن لجنة التحقيق، وسألتكَ:

- هل قرأتَ كتب القائد وأدبيّات حزبنا وثورتنا؟

- لا.

- إذن، ما الذي تعرفوه عنّا؟

- إرهابيون، انفصاليون، ملحدون، شيوعيون، أرمن، يونانيون، خونة وعملاء.

- وهل تبيّن لك أن هذه التهم غير صحيحة، فهربت إلينا؟

- لا.

- هل تريد الانضمام لنا ومقاتلة الدولة والمطالبة بحقوق الأكراد؟

- نعم. مستعد لمحاربة العالم كله أيضاً لسببٍ واحدٍ فقط، هو الذي جعلني أتركُ كل شيء ورائي، وأخونُ الدولة، الجيش، الحزب القومي التركي، وعقيدة أتاتورك، والعائلة وآتي إليكم.

- ما هو؟

- هذه الفتاة الجالسة بينكم.

أشرتَ بيدكَ نحوي. وبدأ الدمع ينهمرُ من عينيكَ. ولم تعد تقوى على الكلام.

انتقلت نظرات الجميع نحوي، غالبيتها شكّ وريبة، وجزءٌ منها الغيرة والحسد. بعض المقاتلات، استهجنّ هذا الكلام وأنه «خرق لأخلاق وعادات وتقاليد الحزب والثورة». ولأن الأنثى مهما كانت مسترجلة وصلدة وعجنتها أهوال الحرب، تبقى محافظة على قدر من

الغيرة وكيد الفتيات. بينما بعض المقاتلين الذين كانوا يحاولون التلميح بإعجابهم لي، ما كانوا يمتلكون شجاعتك وتضحيتك هذه في الإفصاح والمجاهرة عن حبّكَ والدفاع عنه.

أنا أيضاً صُدِمتُ بكلامكَ وتألّمتُ لحالكَ منهاراً باكياً كطفل. ولكن، لا أخفيك، كان في أعماقي إحساس يزقزق بالغبطة والحبور على أنني أستحق أن يُقدِمَ رجل على هذه المخاطرة ويقبل على نفسه وصف الخيانة وتحمّل عقوبتها، ويواجه رفاقي وحزبي بحبّه لي بمنتهى الجرأة والألم والمعاناة. وفجأةً تحرّكت كل هرمونات الأنوثة في جسدي. وشعرتُ بمغصٍ وألم يشبه آلام الدورة الشهريّة التي فقدتها منذ سنتين، نتيجة التعب والإرهاق والقتال والتدريب العسكري اليومي في هذه الجبال.

كنتُ أبدي التبرّمَ والتذمّرَ والامتعاضَ والرفض لكلامك، وأنني غير مكترثة له. لكن في قرارة نفسي، ثمّة شيءٌ آخر يندلع روريداً، له رأيٌ مخالف لما أبديه وأقوله!

كلامكَ حوّلني من محققة إلى متّهمة. واتسعت دائرة التحقيق لتشملني أيضاً. وبدأت المكايدات والوشايات. فمنهم من قال: «إنه ربما تكون وراءهما شبكة تجسسيّة أكبر وأوسع. ويجب إخضاعهما للتحقيق والتعذيب النفسي وحتّى الجسدي كي يعترفا بكل التفاصيل». ومنهم من قال: «لا يمكن التهاون في قضايا أخلاقيّة كهذه. يجب تطبيق أقصى العقوبات، وهي الإعدام». والبعض الآخر طالب بالفصل بيننا، وإرسالي إلى منطقة أخرى، ثم إعدامك، بعيداً عنّي.

أقسمتُ لهم أنني لا أعرفكَ. ولم ألتقِ بكَ مطلقاً، لكن عبثاً. لم تشفع سنواتي الست التي قضيتها بينهم في الجبال، أقاتل بشراسةٍ

وإخلاص والتزام في تفنيد التهم التي كالوها لي. كذلك الشظايا الموجودة في جسدي، هي أيضاً، لم تشفع لي. وحتى المقتنعون بكلامي وبراءتي، رضخوا لسطوة وضغط الشعارات، وانساقوا لأجواء الثورة ومحاكمها الصوريّة. في البداية، كنتُ خائفة. لكن قلتُ في نفسي: «لماذا لا أتحلّى بشجاعة هذا الجندي التركي، الذي خاطر بحياته، وضحّى بكل شيء لأجلي؟! ألهذه الدرجة أنا جبانة وأنانيّة؟!». ويوماً إثر آخر، بعد تكرار جولات التحقيق، صار حبّك يتسرّب إلى روحي. وأضحى قلبي كقلب مراهقة تذوق طعم الحبّ، أوّل مرّة. أصلاً، لم أعش مراهقتي كباقي الفتيات. دخلتُ عالم العسكر والبارود والأفكار الكبرى في سن السادسة عشرة. وصرتُ أشفق عليكَ أيضاً لأنني السبب الذي أودى بك إلى التهلكة. لو كنتَ تعرف صعوبة حياتنا والمعاناة التي نعيشها، لربما ما فكّرتَ بالمجيء إلينا. ويا ليتك أطلقتَ رصاصتك تلك عليّ، وما تركت هذه الحكاية تصل إلى هذا المنحدر.

- لا تقولي ذلك. هذه اللحظات الأخيرة، التي عشتها معك هنا، في هذا الكهف، كافية لأن أدفع حياتي ثمناً لها. لو كان بوسعي، لخطفتكِ وهربنا من هنا. لكن!؟ هل تسمعين صوت المعاول؟... هل تسمعينها؟ أعتقد أنهم بدأوا بحفر قبرنا. نحن نقترب من لحظة الزفاف.

- نعم. أسمعُ صوت المعاول. ربما قرروا تنفيذ حكم الإعدام بنا. لست خائفة من الموت. صرعته على هذه الجبال أكثر من مرّة. وأنا سعيدة لأنني الآن أحبّ، أحبّ بعمق. أنا سعيدة لأنني أحظى بحبيب مثلك. وماذا تريد الفتاة في حياتها غير حبّ كبيرٍ وعظيم إلى

درجة الفناء؟! سأقول لهم: «صوّبوا رصاصكم إلى قلبينا. وتذكّروا أنكم قتلتم عاشقين».

هذه المعاول التي أسمع صوتها الآن، سبق وأنْ حفرتُ بها قبوراً لآخرين. من يدري؟ ربما يأتي اليوم الذي يصبح فيه حَمَلَةُ المعاول متهمين ومدانين، وتُحفرُ قبورهم بنفس المعاول!

في رحلة البحث عن الحريّة والوطن، فقدتُ مشاعر الأنوثة. فلا الوطن تحرر. ولا الحريةُ أتت. الشيء الوحيد الذي يجعلني غير نادمة على تواجدي هنا، وعلى هذه الخاتمة التي أنا مقبلة عليها، هو وجودك إلى جانبي. هذا وحده يكفيني ويزيد. ربما الوطن والحريّة اللذان بحثتُ عنهما، وقاتلت في سبيل الوصول إليهما، هو أنتَ؟ يا إلهي! ما كنتُ أعرفُ أنني رهينة سجن خرافات وأوهام الأيديولوجيا طيلة هذه السنوات الست! لم أكن أعي بأنني مكبّلة بكل هذه الأغلال! أشعرُ بأنني خفيفةٌ كريشةِ عصفور تحملها النسائم.

- كذلك أنا. أشعر كأنني فراشةٌ تخرج للتوّ من شرنقتها، وتتجهُ نحو بريقكِ.

توقّف ولات هنا. وسادت غيمة صمت وحزن كثيفة في المكان للحظات. ثم قال: أجبرتموني على فتح دفاتر الماضي، قبل حلول أوان ذلك.

هكذا، كان الأصدقاء يقضون ساعة تعلّم العربيّة، بينما ينزلقون من دون أن يدروا للحديث حول تطوّرات الأحداث في سورية. والدخول في مناقشات سياسيّة وثقافيّة على ضوء الثورات والتطوّرات التي تعصف بالمنطقة.

بابتسامة الأمّ الرؤوم، وهي تنتقل بنظراتها بين الجالسين، قالت كاترين:

- تذكّرونني بأيّام الشباب، حين كانت لدي ميول يساريّة. وأين؟ في قلب عاصمة الرأسماليّة والإمبرياليّة، واشنطن! كنّا نناقش الأفكار الكبرى كالحريّة والعدالة الاجتماعيّة وضرورة وحتميّة الثورة على الأنظمة الاستغلاليّة وتغيير العالم! كل هذا صار من الماضي الجميل. المهمّ، هل ستأتون يوم غد للمشاركة في الاعتصام في ساحة «لابورس»؟

أبدت كلارا وجورجينيو وولات استعدادهم للمشاركة بحماس. ولكن رولان اعتذر قائلاً:

- أعتذر منكم. لا يمكنني المشاركة، لدي موعد فحص دوري في مستشفى «سانت مارتين» ببروكسل. حال انتهائي من الفحص الشهري، قبل انتهاء الاعتصام، سألتحق بكم، ونلتقي.

- خيراً. لمَ الفحص الدوري؟! سأله ولات.

- أجريت عملية زرع كبد في هذا المستشفى قبل أربعة أشهر. وأخضع لفحوصات طبيّة، كانت أسبوعيّة، وثم تحولّت إلى نصف شهريّة، للاطمئنان على حالتي وحالة الكبد المزروع، ومدى استجابة جسمي لهذا الوافد الجديد والغريب. هذا كل ما في الأمر.

- يا للمصادفة! أنا أيضاً، أجريت في نفس المستشفى عملية زرع شبكيّة في عيني اليمنى، قبل ثلاثة أشهر. حدث لي تلف وانفصال في الشبكيّة، أثناء اللعب بكرة القدم مع بعض الأصدقاء، نتيجة تلقّي ضربة قويّة على وجهي. وأخضع لفحوصات دوريّة. ولكنني أحرص على ألّا تكون مواعيدها متزامنة مع مواعيد الاعتصامات التي غالباً ما

تكون إمّا يوم الجمعة أو السبت أو الأحد. وأعتقد أن كلارا أيضاً لها نفس المشكلة. قال جورجينيو.

أجابت كلارا:

- تماماً. بالفعل إنها لمصادفة غريبة! أنا أيضاً أجريت في نفس المستشفى عملية زرع كلية، قبل شهرين ونصف. لأن كليتيَّ كانتا مصابتين بمرض وراثي هو تشكّل أكياس عديدة ضمن الكليتين، تكبر فتتلف أنسجتهما. اكتشفت المرض في مرحلة متقدّمة بعد أن أجهز المرض على الكليتين وأفشل عملهما تماماً. لذا، نصحني الأطباء في هذا المستشفى بضرورة استئصال الكليتين وزرع واحدة جديدة مكانهما. لأن الإنسان بإمكانه العيش بكلية واحدة. نجحت العمليّة، وأعيش حياتي الطبيعيّة. أخضع لفحوصات دوريّة، مثلكما. وأيضاً أحرص على ألّا تكون مواعيد الفحوصات متزامنة مع مواعيد الاعتصامات.

ضحكت كاترين وقالت:

- يعني، السليم بينكم هو أنا وولات؟!

- لست سليماً، جسدي مليء بشظايا الحرب التي خضناها ضد الجيش التركي. وروحي مليئة بشظايا الانكسار والخيبة. ربما أكون أكثركم مرضاً ووجعاً. جسدي وروحي وخيالي وعقلي مثخنٌ بالجراح والهموم والأحزان والآلام، لعدّة أسباب، منها كوني خرجت من أتون حربٍ ضروس، وثورةٍ مهدورة، لأدخل عوالم حرب وثورة جديدة، أخشى أن يُغدر بها، وتهدر دماؤها وتضحياتها أيضاً.

* * *

بصوتٍ واحد، يردّد مئات المعتصمين في ساحة «شومان» أغنية إبراهيم قاشوش: «يالله ارحل يا بشّار»! الحماس والغضب يتسنّم حال المتجمهرين، مع سماع أخبار ازدياد الانشقاقات في جيش النظام وانشقاق رئيس الوزراء رياض حجاب، وتزايد وتيرة العمليات العسكريّة لـ«الجيش الحرّ». كان ذلك يلهب المشاعر، ويزيد من جرعة الأمل لدى المعتصمين بأن سقوط نظام الأسد بات وشيكاً. علم الثورة إلى جانب العلم الكردي والسرياني. عرب وكُرد وسريان. . . ، الكلّ بقلب وصوت واحد يهتفون ويرددون: «سورية بدها حريّة».

في ساعة الذروة، أثناء مغادرة الموظفين دوائرهم في بروكسل، ووسط زحمة الترام، حمل رولان موبايله متصلاً بكلارا، مخبراً إيّاها بأنه انتهى من إجراء الفحوصات. وطمأنه الأطباء. متسائلاً عن الاعتصام؟ وأنه في الترام يتجه إلى ساحة «شومان». ذكرت كلارا أنهم متجهون إلى بيتها، بعد انتهاء الاعتصام. ويمكنه اللحاق بهم، وزوّدته بالعنوان: «سخاربييك. باليزين سترات. 52. الطابق الخامس». في مواجهة كنيسة القديسة ماريا. وقالت إن كاترين وجورجينيو وولات أيضاً سيكونون موجودين.

بالفعل، حين وصلت المجموعة إلى باب البناية، وجدت رولان في انتظارهم. ابتسم موجّهاً كلامه لكلارا:

الحرب لم تُبقِ حجراً على حجر في ألمانيا. وكل مبانيها وشوارعها تبدو جديدة ورسميّة. بينما أنت تسكنين هذا الحيّ الذي تبدو عمارته قديمة ولم تتأثّر بالحرب العالميّة الثانية.

- نعم. هذه البناية التي أسكنها، عمرها أكبر من عمر هذه

الكنيسة التي يعود بناؤها إلى سنة 1853. لكنها خضعت للصيانة والترميم مراراً. وتم تجهيز المبنى بمصعد. أحبُّ السكنَ في الأحياء القديمة. أشعر بأن فيها روحاً، وأكثر حميميّة من الأحياء والمباني والعمارة الحديثة. هل سنبقى هنا؟! دعونا نصعد إلى البيت، ونكمل الحديث في شرفة الصالون المطلّة على الكنيسة وهذه الساحة. صديقي بيير ينتظرنا.

كان بيير في استقبالهم أمام باب الشقّة، بقامته الفارعة وملامحه الفرنسيّة وابتسامته العريضة. وبدا المنزل مؤثثاً بشكل جيّد وأنيق. ولكن ليس بأثاث حديث الطراز، بل تفوح منه رائحة العتق والآنتيك. الإنارة خافتة، مع وجود شموع مشتعلة على المنضدة التي تتوسّط الصالون، وفي الشمعدانات الموجودة على حواف الموقد الموجود في منتصف الجدار اليساري للصالون. بالإضافة إلى رائحة البخور المنبعثة من احتراق بعض عيدانه، وتصدر من فونوغراف قديم، يصدر بشكل خافت صوت سيمفونيّة «موسيقى الماء» ومقطوعات أخرى للموسيقار الألماني فريدريك هاندل. كل ذلك، خلق مناخاً رومانسيّاً، يريح النفس ويبدد القلق والتوتّر.

-قدّمت كلارا لهم صديقها وحبيبها بيير ميروار، الذي يعمل معها في نفس البنك، ويعيشان معاً منذ أربع سنوات. احتضنها بيير وشدّها إليه، مبتسماً. ثم صافح ضيوفه. وبدأ كل شخص يعرّف بنفسه. تأمّلت كاترين الجو والحميميّة بين كلارا وبيير، تذكّرت أيّامها الخوالي مع كمال في جنيف. اتّجه الجميع إلى الشرفة التي كانت تتسع لجلسة مؤلّفة من عشرة أشخاص.

- كيف جرى الاعتصام؟ سأل بيير.

أجابت كلارا: كالعادة. الناس متحمّسة لسقوط نظام الأسد قريباً. والمشاركة كانت جيّدة. هو نشاط رمزي، يعبّر عن ارتباط السوريين في المهجر بمحنة وثورة السوريين في الوطن.

تغيّر مزاج ولات، وبدت عليه ملامح الحزن واليأس، حيث أطلق زفرة من صدره، بعد نفسٍ عميقٍ أخذه وقال:

- اليوم، وقبل الذهاب إلى ساحة «لابورس»، شاهدت على قناة «العربيّة» تقريراً يُظهر حجم الدمار الذي أحدثته مدافع ودبابات نظام الأسد في أحد أحياء حمص. وكيف أن رجلاً ظهر في التقرير، حاملاً ساق طفله الصغير، وهو يصرخ باكياً ويستنجد ويستغيث بالعالم قائلاً: «هذا ما تبقّى من طفلي. انظروا يا عالم. هذا ما فعله المجرم بشّار بولدي الذي لم يتجاوز السابعة». ذلك الإرب المتبقّي من جسد الطفل، معفّراً بالدم والتراب، قتلني في تلك اللحظة ألف مرّة. أخشى أن يطول أمد هذه المأساة، فتزداد الأحقاد وتتفاقم، ويتحوّل هؤلاء المكلومون والمظلومون إلى قنابل ومتطرّفين نتيجة العجز واليأس وتخاذل العالم، وترك السوريين وحدهم في مواجهة هذه الوحشيّة. أخشى أن تطول هذه التراجيديا، وتصبح صورها، صور السوريين المعذّبين، مادّةً تتسابق وسائل الإعلام المقروءة والمرئيّة على التقاطها ونشرها بهدف تحقيق سبق، وزيادة عدد القرّاء أو المشاهدين! مشهدُ الرجل حاملاً ساق طفله، لا يغادر مخيّلتي.

لم يستطع ولات إكمال حديثه. غصّ الكلام في حلقه وتحجّر، واختنق صوته. فانهمر الدمع من عينيه. حاول الجميع التخفيف عنه ومواساته، بينما هم أيضاً تأثّروا بحاله. كاترين التي كانت جالسة إلى

جاوره، احتضنته، احتضان الأمّ لولدها. ووضعت رأسه على صدرها وربَّتت على ظهره:

- كل هذه الآلام التي تعيشها سورية، ستصبح من الماضي والذكريات. والأيام الجميلة في سورية، هي التي لم تعشها بعد. كنْ متفائلاً. ما دامت هنالك حناجر تنادي للحريّة والكرامة، وأناس يستقبلون الرصاص بصدورهم العاريّة، هذا يعني أن سورية مزّقت كفن وتابوت العبوديّة. هذا يعني أن الأمل بحياة أفضل وأجمل، يزداد. أنا عشت حرباً عالميّة. والفظائع التي رأيتها في طفولتي، هي أضعاف ما تعيشه سورية الآن. وانظر إلى حالنا في بلجيكا؟! دولة قانون ومؤسسات وحياة ديمقراطيّة. سيأتي اليوم الذي يتجاوز فيه الوضع في سورية ما نحن عليه في بلجيكا. أنا أثق بذلك. في هذه البلدان الأوروبيّة، وفي أماكن عديدة من العالم، في روسيا واليابان، حوّلت الحرب البشر إلى آكلي لحم بعضهم البعض، إمّا جوعاً أو انتقاماً. تجاوز العالم هذه الظاهرة الوحشيّة.

قاطعها ولات:

- أخشى أن يصل الحال ببلدي وشعبي إلى أكل لحوم بعضهم، أيضاً إمّا انتقاماً أو جوعاً.

- لا. لا تقلق. النظام سيسقط. وغبار الحرب ورائحة البارود سيزولان عن سورية، وسنعود إلى دمشق معاً. أنا واثقة بذلك.

حاولت كلارا، تغيير موضوع النقاش والحديث عن حلم غريب، رأتهُ ليلة أمس. حلمت أنها نزلت من قطار توقّف في محطّة وسط دمشق. لم تعرف القطار الذي نزلتْ منه، من أين أتى بها إلى هناك؟!

كان مبنى المحطّة قديماً، مليئاً بالزخارف والأرابيسك. طراز عمارته، خليط من العمارة الشرقيّة والغربيّة. صادفت معرضاً للكتب في بهو المحطّة! وحال الخروج منه رأت رأس قطار بخاري قديم، موجود إلى يسار البوّابة، من قبيل الفرجة والزينة ولفت الأنظار. لم ينتبها أي شعورٍ بالغربة. على العكس من ذلك، سلكت الطريق وكأنها تعرف المكان تماماً. بل وكانت تتكلّم العربيّة واللهجة الشاميّة بطلاقة، وكأنها تعيش في دمشق منذ عشرين سنة. سلكت الشارع على رصيفه الأيمن إلى حين وصولها إلى مدخل نفق. دخلته وإذا به سوق مسقوف، على جانبيه محال تجاريّة. واصلت المشي وبدا لها المكان مألوفاً. توقّفت أمام مقهى شعبي قديم، يقابله جامع ضخم. كان في استقبالها شخص متوسّط القامة، بشعرٍ أشهب. يرتدي قميصاً أزرق وبنطلوناً بيج. لا تذكر ملامح وجهه. يبدو أنها كانت على موعد معه. طلبت قهوة سوريّة وأركيلة. بينما اكتفى هو بالقهوة. تحدّث معها بألفة وودّ وكأنّه يعرفها. ولكن لا تذكر المواضيع التي جرى الحديث حولها. بعد مضي نصف ساعة، دخل ثلاثة رجال إلى المقهى، واتجهوا فوراً إلى الطاولة التي يجلسان إليها. سألوها عن اسمها، وطلبوا منها الهويّة والباسبور. وأخذوها معهم وسط دهشة ومحاولة هذا الشخص منعهم. قالوا إنهم من البوليس السرّي أو المخابرات. وأثناء المرور في الأزقّة، كانت تشعر بأنها تزداد ضيقاً وعتمة، لحين وصولهم إلى سيارة. قاموا بوضع عصابة على عينيها. توقّفت السيارة بعد لحظات، أنزلوها، ممسكين بذراعيها. صارت تصعد بعض الدرجات ثم تنزل إلى الأسفل. بعد فكّ العصابة، وإذا بها في غرفة ضيّقة، رطبة ومظلمة تفوح منها رائحة العفونة والقذارة.

كانت مذعورة وتبكي وتصرخ. ولكن لم تكن تسمع صوتها. وهم ما كانوا يردّون على أسئلتها من لحظة خروجهم من المقهى لحين وصولهم إلى الغرفة النتنة. وعلى صوت إغلاق الباب الحديدي بعنف وقوّة، استيقظت كلارا من هذا الحلم الذي انتهى بكابوس. وإذا بيير يشعل نور الغرفة، ويناديها.

قالت كاترين:

- حلمكِ أعادني إلى دمشق.

- وأنا أيضاً. ردّ ولات.

أضافت كاترين:

- كل الأمكنة التي ذكرتِها، هي حقيقيّة، موجودة في دمشق. محطة القطار، هي محطة الحجاز. بنيت في زمن السلطان العثماني عبدالحميد. والمهندس كان ألمانيّاً. الشارع الذي سلكتِه اسمه شارع النصر. والسوق المغلق المسقوف هو سوق الحميديّة. أمّا المقهى فهو مقهى «النوفرة»، عمره يناهز 500 سنة. تفاصيل ومعالم دمشق، خاصّة دمشق القديمة وأسواقها، أعرفها جميعاً. ذكرت لكم سابقاً أنني عشت في دمشق خمس سنوات. وعرفت في ما بعد أن البلجيك هم من أدخلوا الكهرباء والتراموای إلى دمشق سنة 1907!

- حلم غريب. كأنه مقتطف من شريط سينمائي. ولكن، أنت لم تزوري دمشق في حياتك؟! سأل ولات.

- إطلاقاً.

- الحلم وسمعناه منكِ. علينا الآن البحث عن مفسّر، يمكنه تفسيره أو عمن يفكّ لنا رموز وإشارات هذا الحلم! علّق ولات ممازحاً.

بما أنهم فتحوا سيرة الأحلام، كذلك رولان استأذنهم بأن يقصّ عليهم حلماً مشابهاً رآه قبل نحو أسبوعين.

كان جالساً إلى جوار شخص، لا يتذكّر ملامحه، يقود سيارة، ويتّجه به من مدينة اسمها اللاذقية إلى مدينة أخرى. كانت المناظر على جانبي الطريق خلّابة. ولكن انتابه شعور أنه ليست المرّة الأولى التي سلكَ فيها هذا الطريق. فجأةً توقّفا أمام حاجز عسكري. أخرجوا السائق من السيّارة، وكأنّهم كانوا يعرفونه وينتظرونه. أشار بيديه إلى كتاب، وقال: «أوصله لجدي. هو بانتظارك. والعنوان مكتوب على ورقة داخل الكتاب. لا تنسَ ذلك، أرجوك. جدّي ينتظرك».

وكالمشلول والمذهول الذي لا يستطيع أن يحرّك ساكناً، تابع من وراء زجاج السيارة كيف يقتادونه بعنف وقسوة إلى سيارتهم، وينطلقون مسرعين.

فتح الكتاب فوجد بداخله ورقة بيضاء مكتوب عليها بالعربيّة عنوان، قرأه وكأنه يقرأ ويفهم العربيّة: جبلة. ناحية القطيلبية. قرية جيبول. منزل الشيخ أزدشير حيدر معصوم بن علي السنجاري.

فجأةً وإذا برصاصتين تهشّمان الزجاج الأمامي للسيّارة، دون أن تصيبه إحداهما. فاستيقظ من النوم مذعوراً، مُثقَل الجسد، قلبه ينبض بسرعة، ويتصببُ عرقاً. خافت زوجته، وناولته كوب الماء. بعد شرب الماء، حاول العودة للنوم مرّة أخرى. فرأى نفسه بين المعتصمين أمام مبنى «البورصة» في بروكسل، وإذا بنفس الرجل الذي كان في الحلم السابق، يقترب منه ويصافحه قائلاً: «هل أوصلت الأمانة التي أوصيتكَ بها؟». استيقظَ مرّة أخرى. ذهبَ إلى

المطبخ. انتابته رغبة قويّة لتدخين سيجارة ماريغوانا مع كأس من النبيذ. ولكن، لا سجائر في البيت وكذلك النبيذ. لأنّه بات محرّماً عليه التعاطي وشرب الخمور. أعدّ فنجان قهوة. حاول مجدداً تذكّر ملامح الرجل، لكن عبثاً! أخذته الأفكار والهواجسُ وسرحت به بعيداً. شعرَ بجوعٍ شديد للكتابة، لم يشعر به في حياتي. وكتب نصّاً.

- قال بيير: يا ليتك تقرأ علينا ما كتبته.

- أنا لا أفهم الفرنسيّة. الترجمة للعربيّة، مهمّتكِ كاترين. قالها ولات ممازحاً.

- الغريب

يلفُّ الطريقَ حولَ عنقهِ كوشاحٍ من العوسج.

الرّيحُ معطفهُ، والليلُ العصا التي يهشّ بها على هواجسهِ.

تتبعهُ الحجارةُ والأودية والبراري.

ترتّلهُ الأنهارُ وأشجارُ الزنزلخت.

أليفٌ كنسمة.

فصيحٌ كنار.

كفُّهُ اليمنى حقلُ تبغ.

وكفُّهُ اليسرى، قريتهُ الذبيحة.

عيناهُ نافذتان محطَّمٌ زجاجهما.

أذناه كهفان متهدّمان.

قلبهُ مجزرة ومحبرة.

سيمرُّ بكم، في منامكم ويقظتكم واحداً وحداً...

ويلقي عليكم حزنهُ.
سيذيقكم مما أذاقهُ الموتُ والغربةُ
ويمضي إلى حيثُ تثورُ الأمطار على غيومها.
عيبهُ أنّه بصير.
وعيبنا أننا لا نبصره.

قامت كاترين بالترجمة سطراً سطراً. وبعد الانتهاء، نهض ولات مصفّقاً قائلاً: «رائع. قصيدة جميلة». وافقه بيير على ذلك، الذي يعتبر نفسه قارئاً جيّداً للشعر. أدخل هذا الانسجام والتفاعل مع نصّ رولان الغبطة والحبور في نفسه. فقال لهم:

- يا جماعة. لست بشاعر. فقط هي مجرّد هبّة ومحاولة الترويح عن النفس في لحظة ضيق وقلق شديدين!

- الشعرُ تعبيرٌ عن الاحتقان والجيشان يعتملان النفس والخيال والفكر. الشعر حلمٌ وحقيقة في آن. الشعرُ ألمُ الروح، وقلقُ العقل، وحيرةُ الخيال أثناء محاولة التعبير عن الذات. قال ولات.

وجّهت كاترين كلامها لرولان: أنا لست شاعرة، ولا أفهم في الشعر، ونادراً ما أقرأهُ. أنا فقط مترجمة متقاعدة. ولكنني شعرتُ بأن ما كتبته وقرأته شيء جميل وفيه غموض لذيذ وشهي. ربما ولات، كونه شاعراً، يمكنه الحديث بهذا الخصوص أكثر.

- إذا كانت هذه هي المحاولة الأولى لرولان، فلا شكّ أنها قويّة ولافتة. ولا يمكن أن يكتبها إلّا شخص عميق ومتمكّن وذو خيال خصب.

ثم انزلق الحديث من الشعر نحو الرواية، وأبدى ولات وجهة نظره حيال ذلك وذكر أنه بالنسبة له؛ الرواية أو القصّة، مهما أوغلت في الخيال والفانتازيا، إلّا أن ثمّة شيئاً من السيرة الذاتيّة للروائي، يبقى حاضراً فيهما. سيرة الكاتب ربما تكون محصورة ببطل من أبطال الرواية، أو في شخص هامشي ضمن شخوصها. أو يكون جزءاً من سيرته الذاتيّة موزّعاً على كل أبطال العمل. يعني، الروائي هو مجموع ما يرويه على ألسنة أبطاله. وربما تكون السيرة الذاتيّة موزّعة على كل الأعمال الروائيّة التي تصدر عن روائي معيّن. ويبقى الراوي يروي نفسه، إلى أن يضع الموت نقطة النهاية في آخر سطر من حياته. وقراءة هذه الإشارات وتجميع هذه الصورة المركّبة للسيرة الذاتيّة، هي وظيفة الناقد الممحّص والمدقّق والحصيف القادر على التقاط الإشارات ضمن النصّ وإسقاطها على تجربة وحياة الراوي المعلنة. لكل روائي حياة معلنة وحياة سريّة، يمكن الخوض في الكشف عنهما، أثناء قراءة عمله الروائي.

تنحنحَ رولان، كأنّ ثمّة شيئاً يغصُّ به حلقه، ويريد الإفصاح عنه. إذ لا يعلم ماذا جرى له؟! يشعر بأنه إنسان آخر. بعد أن أجرى عمليّة زرع الكبد، طرأ تحوّل غريب على تكوينه النفسي، وطبيعة تفكيره، وميوله وطباعه، وطريقة تعامله مع زوجته وأولاده. صار يحبّ زوجته أكثر. ويتعامل مع أولاده كأنه أحد أصدقائهم، وأنه موشك على فقدانهم. أصبح يقرأ كثيراً، وخاصةً الشعر والأدب. يتابع الأوضاع في سورية أكثر من متابعته أخبار الكونغو. وأصبح لا يريد مفارقة أصدقائه الجدد ويودّ البقاء معهم دوماً. يشعر بأنه يعرفهم منذ سنوات عديدة. حين عرفهم، تغيّر طعم ولون الحياة بالنسبة له،

وصارت أجمل وأطيب. أضحى متمسّكاً بالحياة أكثر. ينتابهُ شعور غريب بأن ثمّة أشياء كثيرة لا حصر لها، يجب أن يعتني بنفسه وصحّته كي يعيش لأجلها. ولكن، ثمّة طيف رجل، لا يفارقه، يروادهُ في أحلام كثيرة. يفاجئه أثناء السير في الشوارع أو أثناء ركوب الترام أو القطار. يكرر عليه وصيّته: «لا تنسَ إيصال الكتاب إلى بيت جدّي الشيخ أزدشير حيدر معصوم بن علي السنجاري في قرية جيبول». فسأل كاترين: هل تعرفين هذه المنطقة؟

- لا. زرتُ اللاذقيّة، كسب، صلنفة، الشاطئ الأزرق، جزيرة أرواد. ولكن لم أزر طرطوس وجبلة. ربما ولات يعرف تلك المناطق.

- لا. أنتِ تجوّلت في سورية أكثر منّي. لم أكن أمتلك ترف السفر والسياحة داخل بلدي. سمعت بجبلة وطرطوس واللاذقيّة، لكنني لم أزر الساحل السوري. لحظة! يمكننا وضع اسم القرية في محرك البحث «غوغل» وهو الذي سيكشف لنا هل هنالك قرية حقيقيّة بهذا الاسم أم لا؟!

تفاجأ ولات بنتائج البحث. بالفعل هنالك قرية اسمها جيبول، تقع على السفح الغربي لجبال اللاذقيّة، تابعة لناحية القطيلبيّة، وتبعد القرية 16 كيلومتراً عن البحر، و25 كيلومتراً عن مدينة جبلة. وترتفع بحدود 600 الى 700 متر عن سطح البحر. ليس هذا وحسب، بل وجدوا ملفات فيديو على موقع «يوتيوب» تظهر تفاصيل طبيعة القرية، والطرق المؤدّية إليها، وطبيعتها الخلّابة، وبيوتها المبنيّة من الحجر. حين شاهد رولان ملفّات الفيديو تلك، انصعق وقال: يا إلهي! نفس الطرق التي سلكتها السيّارة في الحلم. وأضاف: أرجوك، ولات،

ضع اسم الشيخ في محرك البحث، لربما نعثر على معلومات عنه أيضاً.

حاول مراراً، دون أن يجد أيّة معلومة عن الشيخ أزدشير حيدر معصوم بن علي السنجاري.

- ولكن، من هو هذا الشخص الذي يلاحقني طيفه؟! وما هذا الكتاب الذي يريد منّي إيصاله إلى هذا العنوان؟!

دخل جورجينيو على خط الحديث والنقاش الدائر وأشار إلى أن حالته لا تختلف عن حالتَي رولان وكلارا. شعر بتحوّل في شخصيّتِهِ بعد إجراء عملية زرع الشبكيّة. صارت نظرته إلى العالم والحياة والأشياء مختلفة بعينه اليمنى قياساً بالعين اليسرى. ازداد شغفه بالسينما، وبات يتردد كثيراً على دور العرض. وأثناء مشاهدة الأفلام، يجد أن عينه اليسرى تلقائيّاً تنغلق، لصالح بقاء العين اليمنى مفتوحة. حين يركّز النظر على شيء، لوحة فنيّة أو النظر بتأمّل وعمق إلى شخص، يشعر أن الدماغ يستقبل الصورة التي ترسلها العين اليمنى، بينما العين اليسرى تصبح مهملة ومتراخية. أثناء الفحوصات الدوريّة، شرح حالتهُ للطبيب، ففحص العين اليسرى وقال إنها سليمة. وإن ما يعانيه هو حالة نفسيّة. واقترح عليهِ أن يعرض نفسه على طبيب نفسي!

بشيء من المزاح والمداعبة ذكرت كاترين أن بإمكانه التخلّي عن ارتياد السينما، وعدم النظر إلى الناس، خاصّة النساء، بعمق وتأمّل، لئلا يجهد العين اليمنى، ويهمل اليسرى. فردّ عليها أنه حاول ذلك. ولكن، متابعة الأفلام السينمائيّة صارت شيئاً يشبه الإدمان بالنسبة له. بالإضافة إلى ذلك، نفس الشعور الذي ينتاب رولان بخصوص الرغبة

في البقاء مع هؤلاء الاصدقاء، ومتابعة أخبار الثورة السوريّة، ينتابُه أيضاً.

أوضح بيير أن كلارا أيضاً تعاني من بعض ما يعانيه ولات ورولان. قلّ تركيزها في العمل. وباتت تقضي وقتها إمّا في ارتياد صالات عرض الفنون التشكيليّة أو قراءة الكتب عن حياة الفنانين التشكيليين والنقد التشكيلي. وفي الآونة الأخيرة، سجّلت في أحد المعاهد التشكيليّة لدراسة الرسم. واكتشفت أن لديها موهبة الرسم. واشترت ألواناً ولوحات وتريد البدء بالرسم. لم يخفِ بيير سروره بهذا التحوّل الطارئ. وأنه أيضاً أصبح متورّطاً في مشاغلها المستجدّة، رغم أن الوقت الذي تقضيه كلارا في المعهد أو القراءة أو الاعتصامات أو مع أصدقائها الجدد، أو في متابعة صفحة الفيسبوك المتعلقة بالثورة السوريّة...، هو على حساب الوقت الذي كانت تمنحهُ لبيير سابقاً. لذا، قال في نفسه: «سأدعو أصدقاء كلارا إلى البيت وأتعرّف عليهم عن قرب، كي أعرف ما هو السحر أو التأثير الموجود لديكم حتّى تغيّرت كلارا إلى هذه الدرجة؟!».

- وكيف وجدتنا؟ سأله ولات.

- أنتم ودودون وطيّبون ومثقفون. وآمل أن تقبلوني صديقاً لكم.

فاجأهم جورجينيو بطرح فكرة غريبة قائلاً:

- ألا ترون أننا الثلاثة، أجرينا عمليات زرع أعضاء في نفس المستشفى. وفي فترات متقاربة نسبيّاً. وطرأت علينا تحوّلات غريبة وعادات ما كانت موجودة لدينا، قبل إجراء هذه العمليّات؟!

- ماذا تريد القول؟ قاطعته كلارا.

- ما أريد قوله أو التساؤل عنه؛ هل الأعضاء التي دخلت في أجسادنا هي التي فعلت فعها وأثّرت فينا؟ وماذا لو كانت هذه الأعضاء لشخص واحد؟!

سادَ وجوم المفاجأة على الجميع. وصاروا ينظرون بعضهم إلى بعض.

- لقد فتحت قوساً كبيراً لسؤالٍ أكبر وخطير للغاية، جورجينيو. قال بيير. وأضاف: طيب والحال هذه، كيف يمكننا الإجابة على سؤالك أو بالأحرى، أسئلتكَ هذه؟!

أجابت كاترين:

- الأمر في غاية البساطة. كل شخص من الثلاثة، يراجع المشفى. ويحاول معرفة الشيفرة الوراثية (DNA) للعضو المزروع في جسده. وأخذ النتائج إلى مخبر طبي، خارج المستشفى. أو في مدينة أخرى، وليس في بروكسل. وفي حال تطابق النتائج، سنعرف أن الأعضاء هي لشخص واحد أم لا؟ ولكن، هذه الأمور خطيرة. ويجب التعامل مع الأمر بمنتهى الحساسيّة والحذر، لئلا يتم عرقلة سعينا الاستقصائي هذا.

- ماذا تقصدين؟ ذكرت كلارا، والارتياب يغزو ملامحها.

- أقصد أن يراجع كل شخص منكم المستشفى في فترات متباعدة، تفصل بينها عدة أيّام أو أسبوع، لئلا يثير ذلك الانتباه أو أيّ نوع من الشك والشبهة.

- أنا مع رأي كاترين. قال بيير.

- ومتى نبدأ؟ تساءل رولان.

- من يوم غد، إن أحببتم. وليكن أنا أوّلكم، باعتبار أن لدي متسعاً من الوقت. لدي علاقة جيّدة مع إحدى الممرضات في المستشفى اسمها إيلس دوبروينه. تعرّفت عليها أثناء الفحوصات الأوليّة لإجراء العمليّة، واستمرّت العلاقة بيننا. ذكر جورجينيو.

- وهو كذلك. اتفق الجميع.

* * *

بصوتٍ يخالجه الحنين والتوق، تصنّع جوجينيو الرغبة في ملاقاة الممرضة إيلس، أثناء الاتصال بها: «ألو إيلس. صباح الخير. أنا جورجينيو أندريوتي. كيف حالك؟ اشتقت لكِ».

فيض الفرح والسعادة اجتاح كيان إيلس، وهزّتها نبرة جورجينيو من الأعماق، كصعقة كهربائيّة، ما جعلها ترتبك قليلاً، قبل الردّ عليه:

- أهلاً جوجينيو. مسرورة بسماع صوتك. أنا بخير. وأنت؟

- بخير. سأراجع المستشفى. وبودّي اللقاء بك وتناول الفطور معاً، في فترة الاستراحة.

- بكل سرور. استراحة تناول الفطور تبدأ من العاشرة وتنتهي عند العاشرة والنصف.

- سأكون بانتظاركِ في مطعم المستشفى. نلتقي قريباً.

- نلتقي قريباً.

تأنّق جورجينيو، واضعاً عطراً فرنسيّاً مثيراً، وكأنّه على موعد غرامي أو ذاهب إلى حفلٍ راقص. انتقى طاولة تجاور النافذة، في

زاويّة مميّزة ولافتة، ونظراته مصوّبة نحو المدخل الذي يربط باب المطعم بالممر الرئيس المفضي إلى بهو المستشفى. بخطى حثيثة، تحاول الاستعجال، اقتربت منه إيلس، وبدا على محياها الخجل والاضطراب ولهفة اللقاء. صافحته، ولكنه لم يكتفِ بذلك، إذ سارع إلى طبع قبلة على خدّها، ما زاد من فورة الخجل والاضطراب التي تجتاح كيانها. إيلس البالغة السادسة والعشرين من العمر، لديها الكثير مما تمتلكه الفتاة الفاتنة، من قوامٍ رشيق، وبشرةٍ ناصعة البياض، مائلةٍ إلى الوردي، وشعرٍ ذهبي قصير، مصفف وفق تسريحةٍ عصريّة، وملامح وجه متناسقة، وعنقٍ طويلٍ أهيف، وعينين لوزيتين زرقاوين. وركها العريض وأردافها الممتلئة، وخصرها النحيل، لم يستطع التغطية على نهديها الصغيرين. ورغم كل هذه الممتلكات والصفات الجاذبة، إلّا أن حظ إيلس من الحبّ كان عاثراً. وكل من صادفتهم وتوددوا إليها، كانوا يريدون جسدها وليس قلبها. وبعد انتهاء جولات الجنس معها، كل من عاشرها ألمح إلى صِغَرِ نهديها. وهي أيضاً، ترفض إجراء عمليات تجميل، وإضافة السيليكون وتكبيرهما قليلاً، اعتماداً على قناعةٍ؛ أن من يحبّها، يجب عليه كسب قلبها ومشاعرها. وأن تكبير نهديها هو ابتزاز وإغراء، ليست بحاجة لهما، ما دامت تمتلك قدراً لا بأس به من الجمال والأناقة وحُسنَ الهيئة والمعشر.

تأمّلها جورجينيو بعمق وتفحّص، وكأنّه يراها أوّل مرّة، وشعر بشيء يجذبه نحوها، رغم أنه حاول استثمار علاقته السطحيّة معها في سبيل استخدامها في المستشفى كدليل أو مرشد إلى المعلومات التي ربما يحتاجون إليها. وهتف صوتٌ من أعماقه قائلاً له: «ألهذه

الدرجة بلغت بك الوضاعة والنذالة، بأن تخدع فتاة، وتلعب بمشاعرها، كي توظّفها لأغراضك؟! كيف تقبل على نفسك هذا؟!».
وصار يفكّر أنه أمام ثلاثة خيارات؛ إمّا أن ينزلق نحو السقوط الأخلاقي، بمماسة الزيف والخداع العاطفي مع هذه الفتاة، ويكذب عليها وعلى نفسه، بهدف الحصول على معلومات!؟ أو التخلّي عن هذه الفكرة، والبحث عن وسائل أخرى للوصول إلى ما يريده!؟ أو أن يمنح هذه الفتاة فرصة محاولة التقرّب منه، بما أنه لمس منها التودّد واللهفة تجاهه. وكأنّ صاعقةً ضربت قلبه، فجنح إلى الخيار الأخير، وقال:

- اشتقت لك. تبدين جميلةً جداً هذا اليوم. أنا جائع. سأطلب ثلاث قطع كرواسان مع كوب كابوتشينو. وأنتِ؟

- بخجل ولعثمة وابتسامة، قالت:

- قطعتا كرواسان سادة، مع فنجان قهوة.

نهض جورجينيو، وأتى بالفطور، وهي تلاحقه بنظراتها في الذهاب والإياب مع ابتسامات الحياء. مع تحريكها السكر في فنجان القهوة ببطءٍ، ذكرت له أن اليوم ليس لديه مواعيد مراجعة فحص عينهِ. وألمحت بشكل غير مباشر أنها تستفسر عن السبب الذي أتى به للمستشفى؟!

- وكيف تعرفين أنه ليس لدي مواعيد؟!

- ببساطة، أدخلت اسمك في نظام المواعيد، بالإضافة إلى مواليدك. فأعطاني محرّك البحث أن موعدك مع طبيب العيون، البروفسور فاندرويه، بعد أسبوع.

- ومتى فعلت ذلك؟ ولماذا؟!

- بعد اتصالك بي. لأنني استغربت مجيئك.

- وما وجه الاستغراب؟!

- أنا أتابع مواعيدك مع الطبيب، عبر نظام الشبكة الإلكترونيّة الداخليّة في المستشفى. وأحاول أن أكون موجودة. لا تسألني لماذا، لأنني لا أعرف السبب!

- امممممم!... هكذا إذن! تتابعين مواعيد مراجعاتي الطبيّة! جيّد... جيّد.. هذا فأل خير، وبداية مبشّرة. لا تسأليني لماذا، وماذا أقصد بذلك، لأنني لا أعرف أيضاً. وبما أنني مهمّ لهذه الدرجة، وكي أوفّر عليك عناء متابعة مواعيدي في المستشفى، أعطيني جدول دوامك، وسأحدد المواعيد، طبقاً لهذا الجدول، بحيث تكونين موجودة. ما رأيك بهذه الفكرة؟!

شعرت إيلس بمزيد من الخجل، وحاولت مداراة ذلك بالتهام الكرواسان وافتعال اللامبالاة، لكنّ استراقها النظرات كان يفصح عن غبطةٍ أرادت كتمها. ثم أضاف جورجينيو:

- عموماً، يمكننا أن نلتقي خارج فترات عملكِ. فهل تقبلين دعوتي لتناول العشاء غداً؟

- جزيل الشكر. بكل سرور. متى؟ وأين؟

- بعد انتهائك من العمل. يعني بحدود الخامسة والنصف أو السادسة مساءً، في مقهى ومطعم «لا بروّيه» بساحة «غراند بلاتس».

- أفهم من كلامك، أنك أتيت للمستشفى كي توجّه لي هذه الدعوة؟!

كان السؤال مفاجئاً ومخجلاً لجورجينيو، وعليه تدارك الأمر، فأجاب بثقة:

- شيء من هذا القبيل. اشتقت لك، وأردت تناول الفطور معاً. بالإضافة إلى أنني أريد بعض المعلومات من المستشفى.

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص الشبكيّة التي زرعوها في عيني اليمنى. أريد معرفة (DNA) هذه الشبكيّة. كيف يمكنني ذلك؟!

- والسبب؟

- مجرّد فضول! ماذا عليّ فعله للحصول على ذلك؟

- لم يسبق أن طالب مريض بمعرفة (DNA) العضو الذي زرع في جسده. رغم أن ذلك من حقّه. أعتقد أنه من الأنسب أن تطالب الطبيب الذي أجرى لك عمليّة الزرع، وأقصد البروفسور فاندرويه، برغبتك معرفة الشيفرة الوراثية للشبكيّة المزروعة في عينك. ولا أظنّ أنه سيمانع في ذلك. وسيتصل هو ببنك الأعضاء في المستشفى، عبر إعطاء تاريخ إجراء العمليّة، واسم المريض وبياناته الشخصيّة، ورقم العضو - الشبكيّة، كي نحصل على الـ(DNA).

- ألا توجد طريقة أخرى؟

- توجد. وهي الدخول إلى شبكة النظام الداخلي الإلكتروني للمستشفى، قسم بنك الأعضاء، وقاعدة بياناته، عبر إدخال الرقم التسلسلي، ورقم الملف، واسم المريض وتاريخ ميلاده وتاريخ إجراء العمليّة، والقسم، حتّى نصل إلى قاعدة بيانات العضو المزروع، وزمرة دم صاحبه والـ(DNA) الخاص به. طبعاً، معلومات المرضى

تحظى بسريّة وبحماية قانونيّة، لا يمكن الكشف عنها إلّا بإذن من المريض أو بقرار من النيابة العامّة، لزوم التحقيق في قضيّة حساسة تستوجب البحث والكشف عن ذلك.

- مضى الوقت سريعاً ولم نشعر به. أعتقد أن استراحة الفطور انتهت. لا أودُّ تعطيلكِ أكثر عن عملكِ. سأعمل بنصيحتكِ، وأطلب من الطبيب مباشرةً. موعدنا غداً. لا تنسي ذلك. أنا في انتظاركِ لنكملَ الحديث غداً. اعتني بنفسكِ.

حين صافحها، شعرَ بدفء يدها يتغلغلُ إلى جسده. عيناها تتوسّلانه البقاء معها. لكن العمل له سطوته وجبروته. لأوّل مرّة تشعر إيلس أن العمل يظلمها بعدم منحها فرصة أكبر لمجالسة جورجينيو. يبدو أن شيئاً ما يدغدغ قلبيهما معاً، في الآن عينه.

* * *

ما عادت ساحة «غراند بلاتس» التاريخيّة والشهيرة في بروكسل، بأبنيتها القديمة، تثير اهتمامه. كونه دائم التردد عليها. بخاصة على مطعم ومقهى «La Brouette - لا بروّيه» الأثري الذي اتخذه فيكتور هوغو منزلاً، حين كان لاجئاً في بروكسل سنة 1855 ولغاية 1870. يجلس جورجينيو في زاوية الطابق الثاني إلى جوار النافذة المطلّة على الساحة بالمنارة، متأمّلاً المارّة. يرتشف قهوته بشيء من الترقّب واللهفة. في تمام الخامسة والأربعين دقيقة، رنّ موبايله. فتحه بسرعة وارتباك:

- هل هذه أنتِ إيلس؟

- نعم. في الطابع الأرضي.

- اصعدي إلى الطابق الأوّل. انتظرك في الزاوية اليمنى، إلى جانب النافذة تماماً.

اتجهت عينا جورجينيو من النافذة نحو الداخل، إلى حيث ينتهي الدرج الآتي من الطابق الأرضي. لشدّة التركيز، شردَ به الذهن خارج المكان هنيهةً، وإذ بإيلس تعيدهُ إلى حيث هو، بوقوفها أمامه في كامل أناقتها، مرتديةً تنورةً خمريّة، قصيرة، وقميصاً أبيض، يشفّ عن الجسد، والستيان الأبيض الذي ترتديه. تحت رهبة الإطلالة البهيّة، متأمّلاً إيّاها من أخمصي قدميها إلى ملامح وجهها. وحين لمست الدهشة والانبهار الباديَين عليه، زادت من الغنج على أنها تنظر إلى الحال بشكل جد عادي. مدّ جورجينيو يدهُ نحوها مصافحاً، طابعاً قبلتين خفيفتين على خدّيها، وإذ بالعطر يفيض من عنقها وشعرها، ويغرق رئتيه ودمه وأحاسيسه، فأصيب جسده بالخدر والانتعاش في آن.

- يبدو أن مريول المستشفى الذي ترتدينه أثناء عملكِ كالنقاب الذي ترتديه النسوة المسلمات، كونه يخفي كل هذا الجمال! سأقول لك ما قاله فيكتور هوغو ذات يوم عن المرأة وجمالها: «أجمل فتاة، هي التي لا تدري شيئاً عن جمالها». ويبدو أنك لا تعرفين؛ أيّ سحرٍ تمتلكين؟

طأطأت رأسها خجلاً، واحمرّت وجنتاها أكثر، وحاولت إلهاء نفسها بإزالة خصلة الشعر المنفلتة على جبهتها ووضعها خلف أذنها اليمنى، كعادة كل الفتيات، أثناء لحظات الخجل. وقالت:

- هذا من لطفك وذوقك. أشكرك على هذا المديح.

- هل تريدين شرب شيء قبل العشاء؟ أم نطلب الطعام فوراً؟ شخصيّاً، أتضوّر جوعاً، وأشياء أخرى أيضاً!.... قال ضاحكاً.

بابتسامة خفيفة، تساءلت:

- حلوة هذه؛ «وأشياء أخرى»!... أنا أيضاً أتضوّر جوعاً. ولكن، لا أتضوّر أشياء أخرى!

ضحك، وأدرك أنها فهمت تلميحاته. وانتهت ضحكته بالسعال. فقدّمت له إيلس كأس الماء الذي كان موجوداً على الطاولة. وإذا بجورجينيو يمسكُ بيدها والكأس معاً. ويبدو أنه فعلاً انزلق نحو هاوية الحبّ، بينما كان يحاول التصنّع وإيقاع الفتاة في شباكه بغية الاستفادة من خدماتها في المستشفى. هي أيضاً أبقت يدها، ليس لأنها في حال سحبها، فإن الكأس ستسقط، بل حاولت أن ترسل إشارات إليه مفادها أنها تبادله نفس الشعور، ولو أنها تفتقد القدرة على المجاهرة والتعبير عن ذلك.

- سأطلب شرائح لحم مشويّ، مع بطاطا مقليّة وسلطة. وأنتِ؟!

- لن أطلب شيئاً. سآكل من صحنكَ.

أشار جورجينيو إلى النادلة، فأتت.

- من فضلكِ، وجبتان لشخصين؛ شرائح لحم مشوي، مع بطاطا مقليّة وسلطة. ولكن، في صحن واحد كبير. واختتم كلامه بابتسامة.

استغربت النادلة من وضع الوجبتين في صحن واحد. ورسمت علامات الدهشة على وجهها. لكنها في النهاية، هزّت رأسها، ونطقت بالموافقة.

- إيلس، لحين وصول الطعام، سأعيد فتح الموضوع الذي

تحدّثتُ فيه معكِ، يوم أمس. أقصد معرفة (DNA) الشبكيّة الموجودة في عيني. لأنه بعد إجراء العملية بشهرين وتماثلي للشفاء، طرأ فجأةً تغيير على شخصيّتي وميولي، لم يكن موجوداً سابقاً. صرت أميل إلى متابعة الأفلام السينمائيّة، وأقرأ المقالات النقديّة السينمائيّة المنشورة في الصحف والمجلّات. وأصبحت مهووساً بأخبار سورية والأحداث التي تجري فيها. وأشارك في الاعتصامات التي تطالب بإسقاط النظام الحاكم في هذا البلد! أريد أن أعرف؛ هل لهذه الشبكيّة أي دور أو تأثير في هذا التغيير؟! أريد معرفة أنه حين تزرع أعضاء في أجساد أشخاص آخرين، هل تنقل إليهم جزءاً من أمزجة وميول واهتمامات ونفسيّة أصحاب هذه الأعضاء الحقيقيين؟! هذا السؤال يؤرّقني منذ فترة.

ربما تهزئين بي. لكنني أعني ما أقوله. خاصةً أن لدي صديقين، حدث معهما نفس التغيير، بعد إجراء عملية زرع أعضاء في جسديهما! وطالما أن الأعضاء المزروعة في أجسادنا كانت حيّة، هذا يعني أن جزءاً من روح أصحابها موجودة فيها، صارت ممتزجة بأرواحنا!

اندهشت الفتاة لما طرحه جورجينيو، ولم تعد تعرف بماذا تجيبه. واكتفت بالقول:

- ربما. لا أعرف ذلك بالضبط. علاقتي مع علم النفس شبه معدومة. ربما يكون للأمر علاقة بالتحليل النفسي. أنت تطرح فكرة، تصلح لأن تكون فيلماً سينمائيّاً.

شعر جورجينيو أنها لم تصدّقه. فحاول إقناعها مجدداً:

- لا أطرح فكرة. بل هي حقيقة جرت معي، ومع صديق

وصديقة، سأعرّفكِ عليهما لاحقاً، كي تتأكّدي من ذلك. وكي تكتمل الصورة، يجب عليّ معرفة (DNA) الشبكيّة، ثمّ معرفة (DNA) الكلية المزروعة في جسد كلارا والكبد المزروعة في جسد رولان. آوه! أتى الأكل. لنكمل الحديث أثناءه. عموماً، لم يبقَ إلّا عدّة أيّام على موعد مراجعتي للمستشفى، وسأطلب من الدكتور فاندرويه نسخة من الشيفرة الوراثية.

- حسب معلوماتي الطبيّة، الـ(DNA) تؤخذ من المتبرّع نفسه، أو المصابين في الحوادث، الموتى سريريّاً، الذين تُستأصل أعضاؤهم غير التالفة، قبل أن تموت هي أيضاً. هؤلاء يخضعون لفحوصات، منها فحص الـ(DNA) ليتم تسجيل كل هذه المعلومات في قاعدة بيانات العضو المُستأصل، الموضوع في بنك الأعضاء. أعتقد أنه حتى لو عرفت (DNA) الشبكيّة، فلا يمكنك معرفة هويّة صاحبها. إلّا بتصريح رسمي.

حين لمس جورجينيو بوادر القلق أو الحيرة لدى إيلس، حاول تغيير الموضوع: الأكل هنا لذيذ، خاصةً مع حسناء مثلك.

* * *

- هنالك تحسّن ملحوظ في استجابة عينك للشبكيّة. وسننتظر اكتمال الستة أشهر على إجراء العمليّة، حتّى نتاكّد تماماً من عدم رفض الجسم لها. قلل من استخدام قطرة الكورتيزون من ثلاث مرّات في اليوم إلى مرّتين. وسنمدد موعد المراجعة القادمة إلى شهر ونصف. قال البروفسور فاندرويه، رئيس قسم جراحة العين في مستشفى «سانت مارتين»، لجورجينيو.

بنظراتٍ مشوبةٍ بالتوسّل والامتنان، وبصوتٍ مترعٍ بالتضرّع والحرص والتهذيب، استهلّ جورجينيو طلبه من الطبيب:

- عاجزٌ عن شكرك، بروفسور فاندرويه، لأنك أنقذت عيني. لولاك لفقدتها إلى الأبد. ممتنٌّ لجهودك. هل يمكنني طلب شيء، بروفسور؟

- بكل سرور. تفضّل.

- أيمكنني معرفة جنس صاحب الشبكيّة الموجودة في جسدي؟ أهو رجل أم امرأة؟ وهل يمكنني معرفة (DNA) صاحبها، من فضلك؟!

استغرب الطبيب من هذا الطلب متسائلاً:

- وماذا ينفعك أو يفيدك ذلك؟! المهم أن العمليّة نجحت. وأعدنا العين إلى سابق عهدها. بصراحة، خلال تجربتي، لم أسمع من أيّ مريض طالب بما تطالبه به الآن!

لمس جورجينيو ممانعة غير معلنة من الطبيب، مغلّفة بالاستغراب والدهشة. فلم يتراجع، وتدفّقت إلى ذهنه فكرة أن يطرح سؤالاً ينطوي على ما يشبه الإحراج الصحافي، ووضع الطبيب في زاوية، لربما وافق على طلبه، وقال:

- وهل هذا ممنوع؟ هل ممنوع أن أعرف الشخص الذي أنا مدين له بعودة عيني اليمنى إلى شكلها وأدائها الطبيعي؟!

- بكل تأكيد، ليس ممنوعاً. ولكن صاحب أو صاحبة الشبكيّة، ميّت. ولن تستفيد شيئاً بالتعرّف عليه أو عليها؟!

- هذا صحيح. لكن شبكيّته أو شبكيّتها، عضو حيّ. وأي عضو

حيّ من جسم الإنسان، فيه جزء من روح هذا الإنسان. وأنا الآن مسكون بهذه الروح. يعني أن صاحب أو صاحبة الشبكيّة، يعيش الآن معي، داخل جسدي. والفضول سيقتلني إن لم أتعرّف على هذا الشخص.

اقتنع فاندرويه بأن جورجينيو واقع تحت تأثير حالة نفسيّة، ربما تتفاقم وتتأزّم في حال عدم تحقيق رغبته، ما من شأنه احتمال تعرّض المستشفى لمساءلة قانونيّة في حال حدوث مضاعفات أو تبعات لهذا التأزّم. ودرءاً بالمستشفى عن أيّة مشاكل محتملة، وافق الطبيب على طلبه، ضمنيّاً، لكنه حاول للمرّة الأخيرة، إثارة الشكّ في قلبهِ علَّهُ يعدلُ عن طلبه هذا، وذلك في إطار الممازحة، قائلاً:

- موافق. سأطلب من بنك الأعضاء إعطاءك تقريراً كاملاً عن جنس المتبرّع وزمرة دمهِ، وعمره والـ(DNA) الخاص به. ولكن، ما الذي يضمن لك أن هذه المعلومات والبيانات هي للشخص الحقيقي، لصاحب الشبكيّة؟!

وافتعل الطبيب ابتسامة. لكن جورجينيو لمس فيها لؤم الساسة وخبثهم أثناء محاولاتهم الالتفاف على أمرٍ مجبرين على الإفصاح عنه، فعاجله بردّ ينمّ عن سرعة بداهة شديدة وخبثٍ ولؤمٍ أكثر:

- وما مصلحة المستشفى في فعل ذلك؟! هل لديها ما تخشى منه حتى تخفيه عنّي؟!

ارتبك الطبيب، وشعر بأنه أخطأ، وما كان عليه طرح هذا الافتراض الذي ارتدّ عليه. وكي يخفف من وطأة الأمر، افتعل قهقهةً، وقال:

- أنا أمزح. يبدو أنك سريع الانفعال والتصديق. انتظرني في

غرفة الانتظار. سأرافقك إلى قسم بنك الأعضاء في المستشفى، كي يعطوك ما تريده.

شعر جورجينيو بفرحٍ غامر. وشكر الطبيب كثيراً على تجاوبه. وأثناء فترة انتظاره، اتصلَ فاندرويه ببنك الأعضاء وأعطاهم بيانات جورجينيو، وطلب شطب اسم المتبرّع أو حتّى الحروف التي تدلّ على اسمه، وشطب مكان ولادته أيضاً، مع الإبقاء على كامل البيانات الأخرى.

اتجه الاثنان إلى بنك الأعضاء. ألقى جورجينيو التحيّة على الممرضة في قسم الاستعلامات وزوّدها ببياناته الشخصيّة، مع طلبه. فسألته مفتعلةً أنها ليس لها علم بمجيئه:

- ما نوع العمليّة التي أجريتها؟ ومتى كان ذلك؟

- زرع شبكيّة لعيني اليمنى. في الساعة العاشرة من صباح يوم 2 تموز 2011.

فقال فاندرويه:

- أعطيه بيانات المتبرّع، صاحب الشبكيّة.

ابتسمت الموظّفة قائلةً: «وهو كذلك، بروفسور فاندرويه. دقيقة وأنسخ له المعلومات». حملت الورقة من الطابعة، وطوتها، وقبل أن تضعها في ظرف، عاجلها جورجينيو بسؤال:

- سيّدتي، هل يمكن أن تختميها بختم المستشفى، من فضلك؟!

نظرت الموظفة إلى فاندرويه، نظرة حيرة وتساؤل، تنم عن حدوث ما لم يكن في الحسبان أو غير متّفق عليه! فألمح لها بالاستجابة. فقالت:

- بكل سرور. معذرة نسيت ذلك.

أخذ جورجينيو المظروف، وشكر موظفة الاستعلامات. وجدد شكره وامتنانه للبروفسور فاندرويه. وحاول الخروج من المستشفى كمن حصل على كنز، ويريد الفرار به عن أعين من يظنهم يلاحقونه. وما إن أصبح خارج المستشفى، فتح الظرف بسرعة وحاول الاطلاع على المعلومات..

الاسم: فارغ

النسبة: فارغ

محل وتاريخ الولادة: 21/ 3/ 1962 - فارغ

الجنس: ذكر

زمرة الدم: (O^+)

تاريخ التبرّع: 27/ 5/ 2011

الأمراض التي يعاني منها: لا يوجد

DNA : رموز وأرقام

استغربَ من حذف اسم المتبرّع ومكان ولادته!؟ ولكنه حصل على ما يمكن اعتباره رأس خيط. اتصل بأصدقائه، ذاكراً أنه حصل على بعض بيانات صاحب الشبكيّة والـ(DNA) الخاص به. منوّهاً إلى ما دار بينه وبين الطبيب الذي أجرى له عمليّة زرع الشبكيّة. وأن هنالك احتمالاً ألّا تحصل كلارا ورولان على ما يريدان. وأسدى بعض النصائح لهما، متخذاً من تجربته نموذجاً، وضرورة التركيز على الجانب الإنساني والنفسي لديهما بخصوص هاجس التعرّف على الشخص صاحب أو صاحبة العضو الموجود في جسديهما.

بعد مضي أسبوع على زيارة جورجينيو للمستشفى، قامت كلارا

بزيارة قسم الكلى فيه، وفق الموعد المحدد للمراجعة الطبيّة الدوريّة بهدف المتابعة وإجراء الفحصولات اللازمة.

- السيدة كلارا، يسرّني أن أخبركِ أنه وفق نتائج الفحص والتحاليل، يمكنني القول: إننا اجتزنا مرحلة الخطر. وجسمك استجاب للكليّة المزروعة بشكل سريع، حتّى أكثر مما كنّا نتوقّعه. عموماً، الشخص الذي يعيش بكلية سليمة واحدة، حتى ولو كانت مزروعة، يحصل على 50 إلى 85 في المئة من أداء الكلية الطبيعية. الكلية التي زرعناها لكِ، هي من شخص حيّ. وهذا يعني أنها ستدوم معك من 10 إلى 20 سنة. ولحين انتهاء هذه المدّة، ربما تحدث تطوّرات علميّة في مسألة زرع الكلى، نستفيد منها أكثر. أو يمكن زراعة كلية صناعيّة. عموماً هذا الكلام سابق لأوانه. أكرر، زراعة الكلية هو نوع من العلاج، وليس شفاء كاملاً من المرض أو المشكلة. وعليكِ مواصلة المراجعة الطبيّة، وتناول الدواء بانتظام. وعليك تجنّب تناول المضادات الحيوية لفترات طويلة. وتجنّب ارتفاع السكّر وارتفاع ضغط الدم. نقطة مهمة، أودّ ذكرها لكِ؛ الجهازُ المناعي لدى الإنسان، وظيفته الحفاظ على الصحّة واكتشاف الأجسام الغريبة الداخلة إلى جسمه، كالجراثيم، ومهاجمتها. بالتالي، ربما يعتبر هذا الجهاز الكليةَ الجديدة جسماً غريباً، ويسعى لرفضه. طبعاً، هذا الاحتمال تراجع، ولمنع جهاز المناعة من مهاجمة الكلية الجديدة ورفضها، ستستمرّين في تناول أدوية تحول دون ردّة فعل الجسم. ولا تنسي الإكثار من شرب السوائل، خاصّةً الماء. عموماً، نحن الآن نعيش قصّة جميلة مع كليتك الجديدة. ويجب أن نحافظ على استمرار هذه القصّة.

هذا ما قالته الطبيبة الجرّاحة مارسيل دومينيك ماكسيمليان لكلارا. ومن كل كلامها ونصائحها، التقطت عبارة: «الكلية التي زرعناها لكِ، هي من شخص حيّ». وكانت تتنظر بفارغ الصبر حتى تنهي كلامها كي تطرح عليها الأسئلة التمهيديّة لطرح طلبها:

- شكراً جزيلاً على الجهود التي بذلتموها قبل وأثناء وبعد إجراء العمليّة. أنا الآن أشعر بتحسّن كبير. وأعيش حياتي بشكل طبيعي، من دون ألم ومشاكل غسل الكلى. أنا مدين للشخص صاحب الكلية بحياتي. بكل تأكيد، سألتزم بكل النصائح التي ذكرتِها، دكتورة مارسيل. من فضلك، لدي طلب صغير، آمل أن يلقى استجابة لديكم.

- بكل سرور. تفضّلي.

- مع شعوري بالعودة للحياة، وكأنّي ولدتُ من جديد، ثمّة هاجس كبير يرافقني ويحاصرني دوماً، وهو ضرورة معرفة صاحب أو صاحبة الكلية الموجودة في جسدي. هذا الشخص الذي أنا مدينة له أو لها بحياتي، سأكون في غاية السرور والفرح لو تعرّفت عليه؛ مَن هو؟ أو مَن هي؟ أو على الأقل، أن أعرف (DNA) هذا الشخص.

شعرت الطبيبة بالتأثّر والفرح نتيجة الاهتمام الذي لمسته لدى كلارا بخصوص الشخص، صاحب الكلية. والرغبة الجامحة لديها في التعرّف عليه. وهذا ما دفعها إلى إعطاء وعد بالمساعدة ومحاولة الحصول على بيانات صاحب الكلية، وإرسالها عبر الإيميل الى كلارا. وبعد مضي ثلاثة أيّام، أرسلت الدكتورة ماكسيمليان إيميلاً إلى كلارا يتحوي على ملف «بي دي اف» فيه بيانات الشخص، فوجدت فيه:

الاسم: فارغ

النسبة: فارغ

محل وتاريخ الولادة: 21/ 3/ 1962 - فارغ

الجنس: ذكر

زمرة الدم: (O^+)

تاريخ التبرّع: 27/ 5/ 2011

الأمراض التي يعاني منها: لا يوجد

DNA : رموز وأرقام

ذكرت ماكسيمليان في رسالتها المقتضبة أنها حصلت على هذه المعلومات بصعوبة، بعد موافقة البروفسور إدوارد فاندرويه، رئيس بنك الأعضاء ورئيس قسم جراحة العين في المستشفى. وأن هذه المعلومات هي أقصى ما أمكنها الحصول عليه.

قامت كلارا بتحويل الرسالة والملف المرفق بها إلى جورجينيو، رولان، كاترين وولات. مع ذكر معلومة أنها اكتشفت أن البروفسور فاندرويه هو مدير بنك الأعضاء. لاحظ جورجينيو أن هذه الوثيقة مطابقة تماماً لما حصل عليه من بنك الأعضاء بخصوص صاحب الشبكيّة. فتعزز الشعور لدى المجموعة أن صاحب الشبكيّة والكليّة هو شخص واحد. هذا الأمر، دفع جورجينيو إلى الاتصال بإيلس وطلب منها الحصول على بعض المعلومات عن فاندرويه، واللقاء بها، على نحو عاجل. التقيا في نفس المكان السابق في ساحة «غراند بلاتس»، وذكرت له أن فاندرويه طبيب ملياردير هولندي

وليس بلجيكياً، يبلغ من العمر 58 سنة، ولد سنة 1954 من أب ألماني وأم هولنديّة، ويعيش في بلجيكا منذ 25 سنة، ويمتلك 25 بالمئة من أسهم المستشفى، بالإضافة إلى شركة (International Group B.V.D) للتجهيزات الطبيّة المعروفة، فضلاً عن امتلاكه متجراً كبيراً لبيع المجوهرات في آنتويربن. وتقول بعض الشائعات إن ثروته هذه آتية من أبيه الذي كان مهندساً، ويعتبر العقل الخفي الذي كان يزوّد آلبرت شبير، وزير التصنيع الحربي في حكومة هتلر، بالأفكار الفنيّة. يعني ملهمه الخفي، وسرُّ نجاح شبير. ومع هزيمة النازية، واعتقال رجال هتلر، ومنهم شبير، هرب والد إدوارد فاندرويه وزوجته إلى هولندا، آخذاً معه جزءاً من كنوز شبير من جداريات وماس وذهب ومقتنيات سُرقت من بيوت اليهود. فشبير لم يودع كل مقتنياته لدى صديق عائلته روبرت فرانك وحسب، بل وزّعها على العديد من الأشخاص المقرّبين، ومن بينهم والد إدوارد فاندرويه. استقرّ في روتردام، وتوارى عن الأنظار، وغيّر اسمه من فرانز هربرت كلاوس إلى هانس فاندرويه. وبقدر ما كان شبير كاتم أسرار هتلر، كذلك كلاوس كان كاتم أسرار شبير. لم يتم اعتقاله ومحاكمته في نورمبرغ، بخلاف ما حصل مع سيّده شبير، باعتباره لعب دور مستشاره وملهمِهِ الخفي.

أخذت إيلس رشفة من فنجان القهوة، فأحسّ جورجينيو بأنها يجب أن تسترسل في الحديث:

- عودي إلى سرد المعلومات، من فضلك! أحسّ أنني أمام سرد آخر للتاريخ، يبدأ من الهوامش المجهولة، ليصل إلى المركز.

ضحكت إيلس، وقالت:

- كل ما وصلني من معلومات ليس مؤكّداً، بل في إطار الشائعات إلى جانب بعض التفاصيل الحقيقيّة. كقول من أوصل إليّ هذه المعلومات إنه: لو شهد فرانز هربرت كلاوس على شبير في محاكمة نورمبرغ، لالتفّ حبل المشنقة حول عنقه، شأنه شأن الذين تم إعدامهم بعد تلك المحاكمة الشهيرة، ولما كانت عقوبة شبير السجن عشرين سنة فقط. بالإضافة إلى أن فكرة استخدام المعتقلين، كالرقّ، في أعمال السخرة لدى السلطة النازيّة، المنسوبة إلى شبير، صاحبها الحقيقي هو كلاوس.

بعد خروجه من السجن سنة 1966 ولغاية وفاته في لندن سنة 1981، حاول شبير حثيثاً البحث عن كلاوس بهدف استرداد المقتنيات منه، لكنه فشل. في حين أن كلاوس كان يزداد ثراءً ونفوذاً في هولندا وبريطانيا وأمريكا، ويراقب عن كثب كل تحرّكات شبير وتصريحاته عبر الإعلام، أو عبر الكتب التي ألّفها. وحين أحسّ كلاوس أن سيّده السابق، على وشك الاقتراب منه، أرسل إليه امرأةً ألمانيّة الأصل، إنكليزيّة الجنسيّة تسكن في لندن، لتقيم معه علاقة غرامية، ليصبح شبير تماماً تحت السيطرة والمراقبة. حتّى أنه يقال إن كلاوس يقف وراء موت شبير بنزيف في الدماغ، أثناء وجود عشيقته معه.

بالمحصّلة، البروفسور إدوارد فاندرويه هو وريث فرانز هربرت كلاوس أو هانس فاندرويه.

اندهش جورجينيو لما سمعه من إيلس. وقال:

- يا إلهي! أنتِ خطيرة!

ضحكت إيلس، متسائلة: «وما وجه الخطورة فيّ»؟!

- سردكِ لهذه المعلومات يجبرني على العودة إلى البحث عن هذه الأسماء التي ذكرتها، والاطلاع على تجاربها. وخاصةً، آلبرت شبير هذا.

- لكن، كما ذكرت لك؛ إنها شائعات، وليست حقيقة.

- شائعات؟!... إنها شائعات بطعم ونكهة الحقيقة. في حيثياتها وتسلسل أحداثها، الكثير من المنطق. عموماً، علينا أن نتعامل مع هذه الخلفيّة للبروفسور فاندرويه على أنه رجل خطير، لا يمكن على الإطلاق، أن نأمن جانبه. يجب أن نتعامل معهُ بحذر شديد جداً.

وأثناء وجود الجميع في منزل كاترين، نبّه جورجينيو إلى ضرورة عدم طلب رولان (DNA) صاحب الكبد المزروعة له من المستشفى، لأن ذلك سيفتح عليهم الأعين أكثر. واتفقوا على أخذ خزعة من كبده، وتحليلها في أحد المخابر الطبيّة المتخصصة في «غينت»، بعيداً من بروكسل ومستشفياتها. وبالفعل، ظهرت نتيجة التحاليل، مطابقة لما حصل عليه جورجينيو وكلارا. وقطعوا الشك باليقين أن الاعضاء تعود لشخص واحد، ذكر، من مواليد 1962. ولكن من هو؟ لا أحد يعرف.

إيلس أيضاً وجدت نفسها ضمن هذه الدائرة التي تحاول البحث عن إبرة في كومة هائلة من القشّ؟! وحين طلب جورجينيو محاولة الوصول إلى بيانات هذا الشخص، عبر النظام الإلكتروني الداخلي الذي يربط كل أقسام المستشفى ببعض، لم تتردد إيلس في القيام

بذلك وحاولت الدخول إلى قسم بنك الأعضاء، بإدخال بيانات جورجينيو، واكتشفت أن الملف المطلوب مغلق، مع وجود إشعار يقول: إن من يحاول الدخول إلى قسم بنك الأعضاء، سيتم اكتشافه. وبالفعل، بعد أيّام، استُدعيت إيلس إلى مكتب رئيس الممرضين والممرضات، وتم إبلاغها بقرار فصلها من العمل لأسباب مسلكيّة. وعرفت أنه عبر برنامج المراقبة الإلكترونيّة، عرفوا جهاز الكمبيوتر الذي استخدمته إيلس أثناء فترة مناوبتها في المستشفى ليلاً. وبالتالي، أصبحت أولى ضحايا عملية البحث هذه. فقدانها لعملها، زاد العناد لديها على المضي في كشف حقيقة وهويّة الشخص المتبرّع، ومصدر هذه الأعضاء.

أثناء اللقاء في منزل كاترين، وبحضور الجميع، بالإضافة إلى إيلس، وضع جورجينيو الأصدقاء في صورة كل المعلومات التي حصلوا عليها وقال:

- يبدو أن السؤال الذي طرحته في البداية، وأن التغييرات النفسيّة والمعرفيّة التي طرأت على شخصيّاتنا بالفعل، مصدرها الأعضاء التي زرعت في أجسادنا. هذه الأعضاء الحيّة فينا، هي التي وزّعت روح صاحبها علينا. يعني نحن الثلاثة مسكونون بجزء من روح شخص، لا نعرف من هو. وهذه الروح هي التي خلقت الألفة بيننا وكأننا أفراد أسرة واحدة، ولا نريد الافتراق عن بعض. وسؤالي الجديد: هل تريدون أن نمضي في هذه المغامرة حتى معرفة هذا الشخص الذي ندين له بحياتنا؟ أم نكتفي بما وصلنا إليه؟!

راقت الفكرة للجميع. فقال رولان:

- شخصيّاً، وبعد معرفة أنه مع نقل الكبد إلى جسمي، تم نقل

جزء من روح شخص إليّ تتمازج مع روحي. هذه الروح، هل تستمتع بما أستمتع به من أكل وقراءة وممارسة الجنس مع زوجتي؟!

علّقت كلارا:

- سؤال غريب ومهم. هذا يعني أنه يعيش معي أيضاً شخص آخر، يفرح مع فرحي، ويحزن لحزني، ويستمتع بما أستمتع في الحياة؟!

عاود جورجينيو كلامه:

- يا أصدقائي. لم يكن هذا سؤالي: هل تريدون المضي في مغامرة البحث عن هويّة هذا الشخص أم لا؟ أريد إجابة واضحة.

- نعم أريد. أجاب رولان.

- وكذلك أنا. قالت كلارا.

اتجه جورجينيو نحو كاترين وولات وإيلس، وقال لهم: «ماذا عنكم؟!».

- طبعاً معكم. أي شيء تتفقون عليه، سأكون معكم. أجابت كاترين.

- وأنا أيضاً. ذكر ولات.

- وبما أنني طرحت السؤال، فأنا أوّل المتحمّسين لخوض هذه المغامرة، نتيجة الإحساس بالمديونية تجاه هذا الشخص المجهول الذي يعيش فينا، وسبب تقاربنا وتآلفنا، والتحوّلات التي شهدتها شخصيّاتنا، وضرورة معرفة هويّته، وإعادة تدوين سيرته والتعريف به أمام العالم، كنوع من ردّ الجميل له. وغالباً هو ميّت الآن.

قاطعه رولان:

- ولكنه يعيش فينا.

- نعم. صحيح. ولكن جزء منه، من روحه وربما ذاكرته، يعيش فينا. ويجب أن نحاول معرفة الأجزاء الأخرى، التفاصيل الأخرى من حياته، حتى تكتمل لدينا الصورة. إذن، متفقون على قرار البحث عن هذا الشخص. وعلينا معرفة مصدر هذه الأعضاء؟ من أين أتت؟ وكيف؟ وبالتالي، يجب أن نتعامل مع الأمر وكأننا قضاة تحقيق، يتعاملون مع قضيّة في منتهى الغموض والحساسيّة والخطورة والتعقيد، ولا يمتلكون إلّا بعض المعلومات البسيطة والسطحية. ومع فصل إيلس من العمل، يكون الخيط الذي يربطنا بداخل المستشفى قد انقطع. علينا البحث عن خيط جديد.

- تماماً. أنا مع رأي جورجينيو. قال رولان.

- جميعنا مع هذا الرأي. ولكن كيف يمكن لنا إيجاد شخص آخر، يمكنه أن يوصلنا إلى مصدر هذه الاعضاء؟! وماذا ينبغي أن تكون عليه خطة البحث اللاحقة؟... ردّ ولات على رولان.

علّقت كلارا على سؤال ولات:

- سؤال مهم، يجب علينا وضع خطة عمل جديدة. أعتقد أنه من الممكن أن نجرّب مع الدكتورة ماكسيمليان. وندعوها إلى سهرة في بيتي، بحجّة تقديم الشكر والعرفان لها على إجرائها العمليّة لي ونجاحها. وتكونون أنتم حاضرين. ونفتح معها الموضوع. أعتقد أننا سنلقى استجابة. لأنني لمست لديها عمقاً إنسانيّاً، واستجابة سريعة حين طلبت منها معرفة بيانات صاحب الكلية والـ(DNA) الخاص به.

- وهو كذلك. قالت كاترين. ووافقها الجميع على هذه الفكرة.

في اليوم التالي، أرسلت كلارا إيميلاً إلى الدكتورة مكسيمليان تدعوها إلى العشاء، مع حضور بعض الأصدقاء، احتفالاً بزوال مخاوف الانتكاسة عن عمليّة زرع الكلية، وعودة كلارا إلى حياتها الطبيعيّة.

ردّت ماكسيمليان على الدعوة بالموافقة والشكر. وتم تحديد الموعد في السابعة مساءً من يوم 15 سبتمبر 2011.

* * *

ثمّة ترقّبٌ مشوبٌ بالحيرةِ والقلق يخيم على مزاج كلارا، إلى جانب وجود ما يشبه الإحساس بالذنب لأنها اختلقت مناسبة وهميّة لتجرّ بها قدم الدكتورة ماكسيمليان إلى شبكة الأصدقاء الباحثين عن هويّة صاحب الأعضاء المزروعة في أجسادهم. بدد جرس الباب الضوضاء الخفيفة المسيطرة على أجواء الصالون، نتيجة اختلاط الأحاديث الجانبية بالموسيقا الكلاسيكية الصادرة من جهاز الفونوغراف. فتحت كلارا الباب بحذر، مُرحّبةً بصوتٍ عالٍ ينمُّ عن المفاجأة والسعادة بقدوم ضيفة الحفل.

- الأصدقاء الأعزّاء... أقدّم لكم، الضيفة التي نقيم على شرفها هذا الحفل الصغير المتواضع، الطبيبة الجراحة، مارسيل دومينيك ماكسيمليان، التي أجرت لي عملية زرع الكلية، وأنقذت حياتي. اجدد شكري وتقديري لها على تلبيتها الدعوة. كما أجدد شكري وامتناني لصاحب الكلية الذي لا أعرفه، رغم أنني مدينةٌ له بحياتي.

اختتم أصدقاء كلارا الواقفون، تقديمها بتصفيق خفيف مع توزيع الابتسامات المرحّبة. لم تتوقّع مارسيل أن يتمّ الاحتفاء بحضورها على هذا النحو المفاجئ الذي أدخل إلى قلبها الغبطة، فاحمرّت وجنتاها من الخجل. كما أدهشها جو الصالة الذي خلقته أضواء خافتة وشموع وموسيقا كلاسيكيّة...، إلى جانب روائح عيدان البخور المحترقة، فشعرت بانجذاب إلى المكان ومحتوياته من بشر وأثاث، لكأنّها في متحف أو مكان تراثي عتيق، تمّ تحويله إلى مقهى.

مارسيل المولودة في «نامور» عاصمة إقليم «والونيا» الفرنسي في بلجيكا، تصل جذور عائلتها إلى جورج دانتون، أحد قادة الثورة الفرنسيّة، الذي قضى نحبه بالمقصلة بتدبيرٍ من صديقه روبسبيير. والدها جاك دومينيك ماكسيمليان، كان محامياً مشهوراً في «نامور» سنة 1960، وأمها كاتبة وصحفيّة. أمّا جدها دومينيك ماكسيمليان ليموتيه، فكان طبيباً، قُتل تحت التعذيب في معسكر الاعتقال في «بريندونك - Breendonk» جنوب آنتويربن، بسبب دعمه حركة المقاومة المناهضة للاحتلال النازي، ومعالجته جرحى المقاومة البلجيكيّة. حصلت مارسيل على إجازة في الطبّ من جامعة كامبردج البريطانيّة، وتخصصت في أمراض الكلى وجراحتها في نفس الجامعة. لديها عيادة خاصة في حيّ لويز ببروكسل، ومنذ عشر سنوات وهي تعمل لدى مستشفى «سانت مارتين». وإلى جانب مهنتها واهتماماتها الطبيّة، فهي مولعة بالثقافات والآداب الشرقيّة، الهنديّة، الصينيّة، الفارسيّة، ومهووسة بالأدب الروسي. ولديها مكتبة تضمّ ما لا يقلّ عن ألف كتاب. بعد أن تعرّفت على الحاضرين، ركّزت

اهتمامها على ولات باعتباره يمثّل الثقافات الشرق أوسطيّة، كونه كردياً وسورياً، والشرق الأوسط مشتعل بالثورات والاضطرابات السياسيّة والجماهيريّة بين الشعوب والأنظمة. حاولت أن تفهم منه ما الذي يجري في سورية. فدخلت في حوار معه. وكلما احتدم النقاش، اكتشفت مارسيل مدى جهلها بحقائق وآلام منطقة الشرق الأوسط. وصارت تلوم نفسها على إهمالها الاطلاع على موزاييك هويّة هذه المنطقة الغنيّة حاضرياً وثقافياً!

- ما الذي يجري في سورية؟!

- ثورة، كانت في بدايتها تطالب بالإصلاح السياسي والحصول على هامش من الحرية والكرامة والديمقراطيّة والعدالة الاجتماعيّة. وحين ردّ النظام على المتظاهرين السلميين بالحديد والنار والاعتقال، ومع تجاهل العالم لوحشيّة النظام السوري، تحوّلت الثورة من الطور السلمي إلى العسكري.

- ولكن، الثورة يلزمها مخطط، برنامج سياسي وأيديولوجي، وزعيم وحزب ثوري؟!

- هذا التعريف أو التوصيف يستند إلى المقولات التقليديّة اليساريّة عن الثورة وماهيّتها! والفكر اليساري لا ينبغي التعامل معه على أنه مسلّمات ويقينيّات دامغة وأبديّة، وقوالب جامدة، يمكن القياس بها في كل مكان وزمان. أعتقد أن تعاطياً كهذا فيه من الدوغمائيّة الشيء الكثير.

شعرت مارسيل بأنها تناقش رجلاً مثقفاً خبرته الحياة. ثم واصل ولات حديثه بالقول:

- نحن السوريون، أو الموالون للثورة، تجاوزنا هذه النقاشات. ولكنها بقيت محصورة بين الفئات الموالية للنظام بشكل مباشر أو غير مباشر، أثناء محاولتهم التشكيك في الثورة السوريّة، على أرضيّة فكريّة تقليديّة يساريّة. وأعتقد أنه حتّى لو كانت هذه الثورة بقيادة حزب يساري أو زعيم يساري، لرأينا هؤلاء يختلقون حججاً ومبررات أخرى لمهاجمة الثورة، في إطار تبرير تناقضهم مع أفكارهم ومعتقداتهم اليسارية التي تدعو إلى الثورة والعصيان على النظم الدكتاتوريّة الاستغلاليّة القمعيّة بهدف التحرر من الاستبداد!

كل يساريي وإمبرياليي العالم، خذلونا. أشعر بأن هنالك تواطؤاً عاماً على الشعب السوري. ولا أعرف إلى متى سيتسمرّ. لكن ما أنا واثقٌ منه، أن هذا التواطؤ يطيل عمر النظام السوري، وسيفاقم الأزمة السياسيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة في سورية، ويُنذر بولادة راديكاليّات دينيّة قوميّة وطائفيّة ومذهبيّة، لن يعود بالإمكان إطفاء أو تطويق نيرانها.

- ماذا تقصد؟ لم أفهم كلامك.

- الشعور بالغبن والظلم والخذلان تجاه العالم الذي يتعاطى بسلبيّة مع الثورة السوريّة، ويطلق يد نظام الأسد في قتل السوريين، سيؤدي إلى الجنوح نحو التطرّف. القطّة حين تحشرينها في زاوية ضيّقة، ولا تتركين لها منفذ الفرار، ستنقضّ عليكِ بشراسة ألف نمر، وفق مبدأ: إمّا قاتل أو مقتول!

- ماذا تريد؟ هل تريد تدخّلاً عسكريّاً مباشراً، كما جرى في يوغوسلافيا والعراق؟

- لست أنا من يريد، بل الواقع والوقائع والمعطيات هي التي تملي وتفرض ذلك. كان يستحيل على العراقيين تغيير نظام صدّام حسين من الداخل، لولا التدخّل العسكري الخارجي. 20 عاماً من الحصار على العراق، لم يؤثّر في بنية وتركيبة نظام البعث في العراق. على العكس، زادت من استبداده ودمويّته. وكذلك الوضع في يوغوسلافيا وليبيا، لولا التدخّل العسكري الخارجي، لكانت المذابح مستمرّة حتّى الآن! القيم والأخلاق والحسّ الإنساني بمعاناة وآلام المظلومين، تُملي وتفرض التدخّل العسكري العاجل.

- ولكن، ألا ترى ما حلّ بالعراق ومصر وليبيا، ومجيء الحركات الإسلاميّة المتطرّفة للحكم؟ أعتقد أن الوضع في سورية سيتجه نحو ذلك أيضاً! أعتقد أن الأوروبيين لا يريدون أن تنتقل نيران حروب الشرق إلى الغرب. لذا، لا يريدون التدخّل.

- ومتى كانت الثورات حكراً على الحركات والتنظيمات اليساريّة؟! أمّا بخصوص النيران فستصل إلى أوروبا. كما وصلت سابقاً، حين كان الغرب يساند ويسكت على قمع إسرائيل للفلسطينيين. ألا تذكرين حقبة السبعينيات وما شهدته من هجمات وخطف طائرات واغتيالات؟

قالت كاترين: أنا أذكرها جيّداً.

أجابت مارسيل: ولكن...! قاطعها ولات بصوتٍ حذر:

- بالعذر منك، دكتورة مارسيل. تكرارك لكلمة «لكن» ذكّرتني بطرفة يتداولها السوريون، وربما تكون دارجة في مجتمعات أخرى أيضاً. تقول الطرفة: «سأل أحدهم صديقه: ماذا لو كنتَ وحدك،

وسط صحراء، وفجأةً هاجمك ضبع؟ أجابه: سأركض بكل ما أوتيت من قوّة. فسأله: ولكن، ماذا لو لحق بك؟ أجابه: سأحاول تسلّق شجرة أو نخلة. فسأله: ولكن، ماذا لو لم يكن هنالك لا شجر أو نخيل؟ فانزعج الرجل من صديقه، وسأله: أريد أن أفهم، هل أنت معي أم مع الضبع؟!».

ضحك الجميع من الطرفة. وشعرت مارسيل بالخجل وأن ولات يلمّح إلى أنها تحاول التماس الاعتذار للنظام السوري. فقالت:

- أرجو منك ألّا تفهم أسئلتي وخشيتي على أنني مع نظام الأسد وضد مطالب وطموحات الشعب السوري. فقط، أريد أن أفهم، لأنني جاهلة بما يجري هناك. أكرر اعتذاري منك. وأتفهّم معاناتك وألمك.

شعر ولات أيضاً بالخجل، إذ إنه ما كان عليه إيراد هذه الطرفة لئلا يتم تفسيرها على النحو الذي فهمته الدكتورة مارسيل. فاحمرّت وجنتاه، وقال بصوت مليء بالأسف والاعتذار:

- بل أنا من ينبغي له الاعتذار. هذه الطرفة لم تكن في محلّها. وبكل تأكيد، لا أقصد منها التلميح إلى أنكِ مع نظام الأسد، وضدّ الثورة السوريّة.

حاولت كلارا تغيير دفّة النقاش نحو الموضوع الرئيس، وذلك عبر طرح تساؤل على مارسيل:

- لستُ الوحيدة التي أجرت عملية زرع عضو في مستشفى «سانت مارتين» كذلك جورجينيو، أجريت له زراعة شبكيّة في عينه اليمنى، ورولان أجرى عملية زرع كبد. بعد إجراء العمليّة بفترة،

بدأت تطرأ على شخصيّاتنا وميولنا ونفسيّاتنا وطبائعنا تغيّرات جديدة وغريبة، لم تكن موجودة سابقاً. صرنا نميل إلى قراءة الأدب والاهتمام بالثقافة والسياسة، ونهتمّ بالأحداث الجارية، ونتضامن مع الثورة السوريّة كأننا سوريون. وتتراءى لنا أحلام وكأننا عشنا في دمشق. بالإضافة إلى وجود ألفة قويّة بيننا وكأننا أفراد أسرة واحدة. فتساءلنا عن هذه المصادفات؛ أن نجري نحن الثلاثة عمليات زرع أعضاء في نفس المستشفى؟ وفي فترات متقاربة من نفس العام؟ وهل هذه العمليّات هي سبب التغيّرات الحاصلة في تكويننا النفسي وفي اهتماماتنا؟ وهل مردّ ذلك هي تلك الأعضاء أم لا؟ وهل هذه الأعضاء لشخص واحد أم لا؟ وعبر الاستفسار والتحرّي عن الـ(DNA) اتضح لنا أن المتبرّع بالشبكيّة والكلية هو شخص واحد؟

- كيف عرفتم ذلك؟ هنالك تشديد وتعليمات صارمة من البروفسور فاندرويه بخصوص عدم الكشف عن هوية المتبرّعين لدى بنك الأعضاء، إلّا بإذن رسمي من مدير البنك، أو بطلب رسمي من القضاء!

ابتسمت كلارا، وقالت: المهم، حصلنا على البيانات وقارناها في مخبر تحاليل خاصّ بالكشف عن الـ(DNA).

تساءلت مارسيل: وماذا عن رولان؟!

- بعد تشديد الرقابة على بنك الأعضاء، وتفادياً لإثارة الشبهة، قمنا بأخذ خزعة من كبد رولان وفحصناها في مستشفى آخر، خارج بروكسل. وظهرت النتيجة مطابقة. والآن نحن إزاء سؤال آخر: من هو هذا الشخص الذي تعيش أعضاؤه فينا، وغيّرَ حياتنا؟!

استغربت مارسيل مما سردته كلارا، مع الإعجاب بهذا الفضول والوفاء. وقالت:

- أحيي فيكم هذا النبل والوفاء الإنساني حيال السعي نحو معرفة الشخص، والشعور بالمديونيّة تجاهه. أمثالكم صاروا كنزاً نادراً في هذه الزمن الاستهلاكي. ولكن، اسمحوا لي بأن أفيدكم بشيء.

- تفضّلي. قالت كلارا.

- حتّى الآن، أغلب الدراسات العلميّة، إنْ لم يكن كلّها، أكّدت أنه ليس كل الأعضاء يمكنها أن تُحدث تغيّراً نفسيّاً لدى الشخص الذي يزرع له العضو. وعلى سبيل الذكر لا الحصر، الكبد والكلية. وتقول هذه الدراسات إنه ربما تؤدي زراعة القلب إلى بعض التغيّرات على الصعيد العاطفي. في حين أن زراعة الأعضاء العصبيّة، كالدماغ أو أجزاء منه، أو زراعة العين كاملة، أو الشبكيّة، هذه الأعضاء ربما تكون لها تأثيرات كالتي أتيتم على ذكرها. طبعاً، لم تجرِ حتى الآن زراعة عين كاملة. ما أريد قوله: باستثناء حالة جورجينيو، أستغرب ما تحدّثت عنه كلارا، لأن كلامها عن التحوّلات والتغيّرات الحاصلة، غير مؤكّدة علميّاً. أو بالضدّ من نتائج الدراسات والأبحاث المتعلّقة بهذا الموضوع. ولكن، يبقى هنالك دوماً استثناء لكل قاعدة. بالفعل، إنها حالة تستدعي التوقّف عندها والتأمّل فيها ودراستها.

سادَ صمت ممزوج بشيء من الخيبة والإحباط على الجميع. فما كان على رولان إلّا المجازفة بإعادة تحفيز وتأجيج الأمل قائلاً:

- نحن حالات وتجارب إنسانيّة حيّة، ولسنا أبطال رواية أو فيلم

خيال علمي. نتائج التحاليل أكّدت أن الأعضاء هي لشخص واحد. ولسنا بصدد تأكيد أو تفنيد دراسات طبيّة وعلميّة، أثناء اتخاذنا قرار البحث عن هذا الشخص. لأننا لسنا فئران تجارب في مختبر طبّي. لسنا معنيين بالظواهر النفسيّة المستجدّة والتي يفسّرها العلم أو التي لم يجد لها تفسيراً بعد. بل معنيّون بقصّتنا، بحياتنا الجديدة. وضرورة معرفة هذا الشريك الذي يعيش معنا في أجسادنا. دكتورة ماكسيمليان، بشكل واضح ومباشر ومختصر؛ هل أنت مستعدّة لمساعدتنا في مسعانا هذا؟

تفاجأت مارسيل بهذا السؤال، واجتاحتها موجة فرح لأن هذه المجموعة أولتها أهميّةً وثقةً كبيرة، لدرجة أنهم يطلبون مساعدتها في أمرٍ عويص وشائك ومحفوف بالمخاطر. تملّكتها رغبة خوض التجربة بما يمكن أن تنطوي عليه من مغامرة وتحدّيات. وأبدت موافقتها على ذلك، مع تقديم الشكر على الثقة الممنوحة لها وقالت:

- بكل سرور. أعتقد أن علينا وضع خطّة عمل، مبرمجة وفق مجموعة أسئلة، يجب علينا البحث عن إجابات لها. مثلاً:

أولاً: مصدر هذه الأعضاء؟

ثانياً: الوصول إلى المصدر، ومحاولة جمع بعض المعلومات حول ذلك. وبناءً على المعلومات التي سنحصل عليها، يمكننا التحرّك.

بخصوص محاولة معرفة المصدر، اتركوا الأمر لي. علاقتي مع البروفسور فاندرويه ممتازة. وسأتدّبر أمر الإجابة على السؤال الأوّل.

اندهش الجميع لسرعة تجاوب الدكتورة مارسيل وانسجامها مع

المجموعة، بعد أن انقطع الخيط الذي كان يربطهم بداخل المستشفى، نتيجة فصل إيلس من العمل. لذا، تنفّس الجميع الصعداء، لأنهم حصلوا على مفتاح مهمّ وثمين، يمكن به فتح قفل كبير وصعب يعترضهم داخل المستشفى، اسمه البروفسور فاندرويه.

غادرت مارسيل السهرة، قبل انتهائها، معتذرةً، ومعللةً ذلك بكونها مرتبطة بمواعيد إجراء عدّة عمليّات جراحيّة، صباح الغد. في طريق عودتها إلى البيت، كان فكرها مشغولاً في كيفيّة ترتيب موعد مع الدكتور فاندرويه، بغية استدراجه للحديث، بهدف الحصول على معلومات.

* * *

وكأنَّ شخصاً ما، رتّب لها هذا اللقاء، قبل أن تفكّر هي في مخطط ترتيبه. فما جرى ليلة أمس من أحاديث أثّر على تفكيرها، بخصوص كيفيّة ترتيب لقاء بينهما، لن يكون كالعادة سابقاً، يجري بحكم الصداقة الوطيدة التي تجمع البروفسور إدوارد فاندرويه والدكتورة مارسيل ماكسيمليان، وزوجها البريطاني والأستاذ الجامعي في كلية علم الاجتماع بجامعة لوفن الكاثوليكيّة، جورج ساندرز. بل سيكون لقاءً أقرب إلى الفخّ منه إلى اللقاء العادي، بهدف استدراجه في الكلام، لربما تحصل منه على بعض المعلومات تفيد المجموعة التي تبحث عن هويّة صاحب الأعضاء.

بعد خروجها من غرفة العمليّات، ونزولها من الطابق الخامس إلى الثاني بالمصعد، وأثناء سيرها في الكوريدور متجهةً نحو الغرفة المخصصة لها، وإذا بالدكتور فاندرويه يسير في الاتجاه المعاكس

لها، بابتسامته العريضة وقامته الطويلة الممتلئة المربوعة، ورأسه الكبير الأصلع، وملامحه التي توحي بالودّ والألفة والبراءة. فبادلته الابتسامة والنظرات الودودة، وكلما قلّت المسافة بينهما ازدادت الابتسامة ومشاعر الفرح والسرور.

- مساء الخير، دكتورة مارسيل. لم أركِ منذ فترة؟! تبدين مرهقة؟!

- مساء الخير بروفسور. للتوّ خرجت من غرفة العمليّات. زرعت حالباً لطفل يعاني من ارتداد بولي حالبي، من الدرجة الخامسة، نتيجة تشوهات خلقيّة. وكذلك زرعت كلية لرجل في العقد الرابع من عمره، يعاني من فشل كلوي حاد ومزمن. اليوم خطرتَ على بالي، وتساءلت؛ منذ شهرين لم أرَ البروفسور إدوارد؟! عسى المانع خيراً!؟ كنت أنوي الاتصال بك للاطمئنان عليك، ودعوتك لتناول العشاء في منزلنا. أنا وجورج اشتقنا لك.

- أوه!! جزيل الشكر والامتنان على الدعوة. بكل سرور. وأنا أيضاً، بالمثل، اشتقت لكما، واشتقت لطبخكِ اللذيذ. دوماً تقدّمين أطباقاً شرقيّة، تركيّة أو فارسيّة أو هنديّة، ولا يستهويكِ الأكل البلجيكي.

ضحك فاندرويه، ثم أردف:

- نعم.. نعم...، المشاغل كثيرة جداً. وهي التي حالت دون أن نلتقي خلال الفترة الماضية. البارحة، عدت من بيروت. وقبلها كنت في دبي. شاركت في مؤتمرات طبيّة.

- أرجو أن تنقل تحيّاتي إلى ليزلوتّه. هل يناسبكما يوم السبت القادم، لزيارتنا؟!

- مناسب جداً. أشكرك.

- إذن، إلى الملتقى يوم السبت.

أخبرت مارسيل زوجها جورج بدعوتها لإدوارد وزوجته ليزلوتّه على العشاء يوم السبت. ولم تفصح له عن السبب الحقيقي وراء الدعوة، فاعتبرها طبيعيّة وعاديّة، في إطار الزيارات المتبادلة بين العائلتين. لكنه لاحظ أنها مهتمّة أكثر من المرّات السابقة بهذه الزيارة، ولم يسألها عن سبب ذلك. مرّت أيّام الأسبوع سريعةً، لكثرة المشاغل والانهماك في العمل.

جورج ساندرز، صحيح أنه بريطاني المولد، إلّا أنه أمضى حياته في بلجيكا، بسبب عمل والده تاجراً للتحف والأعمال الفنيّة. بعد مضي عشر سنوات له في بروكسل، دخل والده سلك الرهبنة في كنيسة القديس نيكولاس التي يعود تاريخها الى سنة 1174. تلقّى جورج تعليماً دينيّاً، لكنه لم يحقق حلم والده الذي أراد له أن ينخرط في سلك الكهنوت. حيث درس علم الاجتماع في جامعة «لوفن»، وأكمل الدراسات العليا في نفس الجامعة، إلى أن أصبح مدرّساً فيها. والده جوناثان ساندرز، قبل موته، اعترف بأنه وقع في حبّ راهبةٍ بلجيكيّة. لكن حبهما كان عذريّاً. ومع ذلك، كان يعرف أنه خالف قول المسيح: «من نظر إلى امرأةٍ واشتهاها، فقد زنى بها في قلبه». وكان اعترافه هذا، توطئة كي يقول لابنه: حسناً فعلت، حين لم تنفّذ رغبتي، ولم تقحم نفسك في النفق الذي زججت نفسي فيه.

بينما جورج جالسٌ على الكرسي الهزّاز، مستمتعاً بقراءة كتاب لا يعرف كيف وصل إلى مكتبه، يتحدّث عن الأثرياء والفقراء الفلامان والهولنديين الذين نزحوا إلى بريطانيا وأمريكا هرباً من جحيم الحربين

العالميتين الأولى والثانيّة. وكيف أن أمريكا وقتذاك، كانت أرض الفرص والأحلام التي دفعت بعض الفقراء الفلامان إلى أن يبيعوا كل ما لديهم حتى يكسبوا شرف السفر إليها. فقال في نفسه: حال الفقراء البلجيك حينئذ، كانت كحال الأفارقة، العرب، الكرد، الأفغان، الفرس.. والآسيويين، الذين ينظرون إلى أوروبا باعتبارها جنّتهم. والفارق هنا، أن البلجيك ركبوا السفن الكبيرة، بينما يركب اللاجئون قوارب الموت، فمنهم من يصل، ومنهم من يقضي نحبه غرقاً.

رنّ جرس المنزل، قاطعاً عليه استرساله في القراءة. فتحت مارسيل الباب، ورحّبت بضيفيها. وضع جورج كتابه جانباً، وخلع نظارة القراءة. ونهض باتجاه الباب لاستقبال الضيفين، مطلقاً عبارات الترحيب، مصحوبةً بقهقهةٍ خفيفة، تعبيراً عن السرور والاحتفاء بمجيئهما وقال:

- أوه، عزيزي الدكتور إدوارد، عزيزتي ليزلوتّه، مسرورٌ جداً برؤيتكما. شكراً على تلبية الدعوة. تفضّلا.. تفضّلا.

- نحن أيضاً مشتاقون لرؤيتكم. مضى أكثر من شهرين ولم نلتقِ. لا أعلم لماذا كلما أزوركم، أشعر وكأنني أدخل هذا المنزل، أوّل مرّة؟! اللوحات الزيتيّة التي تتحدّث عن سحر الشرق تزيّن الجدران، والتحف الموجودة في الصالون، الغابة التي تحتضن المنزل، قربه من نهر «الميز» الذي يعبر منطقة «الأردين»، شيء رائع جداً.

شعرت مارسيل بالغبطة أثناء سماعها هذا الكلام، وقالت:

- بالنسبة لي، لا يمكنني المجيء إلى هنا، إلّا في عطلة نهاية الأسبوع، بعيداً من صخب بروكسل، ومتاعب العمل والعمليات

الجراحيّة. لدينا شقة كبيرة في بروكسل. ولكن، أنا وجورج نحب هذا المكان أكثر من بروكسل.

- لدينا بيوت عديدة في الريف الأمريكي والبريطاني، وفي جزيرة كريت اليونانية، وجزر الكناري في إسبانيا، لكن لا أعرف لماذا أشعر بالراحة والدهشة والاطمئنان حين آتي إلى هنا.

- يمكنك شراء منزل في هذه المنطقة أيضاً. ونصبح جيراناً. قالها جورج ضاحكاً.

- نعم. يبدو لي ذلك أيضاً. ردّ إدوارد.

- ما رأيكم في إكمال الأحاديث ونحن نتناول الطعام؟ اليوم أعددت لكم مائدة شرقية، أتمنّى أن تنال إعجابكم.

- بكل سرور. أنت طبيبة جرّاحة ماهرة. وسيدة منزل من الطراز الرفيع. سبق وأن تناولنا الطعام الذي أعددتِه. قالها إدوارد متجهاً نحو الطاولة. ثم أبدى إعجابه بما رأت عيناه: يا إلهي! هذا كثير جداً! من سيأكل كل هذا الطعام؟!

- لحم مشوي على الطريقة الفارسية. يسمّى هذا الطبق؛ «كباب فارسي». رز مطبوخ على الطريقة التركيّة. سلطة يونانيّة. سلطة لبنانيّة. وبعض المقبلات المشهورة في سورية ولبنان. تفضّلوا. شهيّة طيّبة. . . قالت مارسيل، وهي تدعو ضيفيها للجلوس إلى المائدة، وكأنّها مذيعة تلفزيونيّة تقدّم برنامج طبخ.

- حقاً، لذيذ جداً. زرت الكثير من بلدان الشرق؛ مصر، لبنان، العراق، الأردن، إسرائيل، سورية، تركيا، إيران، اليمن، السعودية، الإمارات، السودان. . . ، في إطار العمل أو حضور المؤتمرات أو

السياحة. انبهرت بآثار هذه البلدان وطبيعتها وثقافات وأطعمة شعوبها. الشرقيون جميلون، حيث هم.

- أفهم من كلامك أن الغربيين أيضاً جميلون، حيث هم؟! قاطعه جورج.

- لا طبعاً. الغربيون جميلون في كل مكان. قالها إدوارد، بشيء من الثقة والاعتداد.

لم يستسغ جورج هذه الإجابة. فحاول الردّ عليه:

- أستغرب أن يكون هذا رأيك بتفضيل الغربيين على الشرقيين، وأنت منتمٍ للحزب الاشتراكي! فماذا لو كنت منتمياً لأحد الأحزاب القوميّة؟!

حاول إدوارد تدارك الأمر، عبر تقديم مسوّغ:

- معذرة، ربما خانتني العبارة أو لم أستطع انتقاء العبارة الصحيحة لإيصال فكرتي. مقصدي أن الغرب قدّم للشرق الكثير من الفكر والإبداع والعلوم..! فقاطعه جورج مرة أخرى:

- وقدّم له الحروب الصليبيّة، وحروب نابليون، وحروب الانكليز والفرنسيين والطليان...! بروفسور إدوارد، ما رأيك بكأس من النبيذ؟!

اعتبر إدوارد هذا الاقتراح أمراً جد مناسب وأتى في وقته، حتّى ينقذه من الورطة التي أقحم نفسه فيها. بينما جورج كان يريد إنهاء النقاش بهذه الطريقة، بعد اكتشافه موقف ضيفه من الأجانب. ولم يشأ تعكير الجلسة بالنقاش حول مسائل أخلاقيّة وفكريّة، ربما تكون مصدر خلاف. تكرار خرير سكب جورج النبيذَ في الكؤوس الفارغة،

ورنينها وهي تطقّ مع تبادل كلمة «نخبك»، أوقد في ذهن إدوارد سؤالاً وجّهه لجورج:

- دكتور جورج، أعرفك منذ أن بدأت مارسيل العمل في مستشفى «سانت مارتين»، ولم يخطر على بالي أن أطرح عليك هذا السؤال إلّا الآن.

- ما هو؟ تفضّل.

- هل مارست العمل السياسي؟

- إطلاقاً. أنا أنحدر من عائلة كاثوليكيّة محافظة. أرتاد الكنيسة ليس كطقس عبادة، وتذكّر الربّ ومحاولة التطهّر من الأخطاء والآثام، بل كنوع من التراث والفلكلور، لا أكثر. لا أؤمن بإله الأديان. ولا بالسياسة التي لا إله لها إلّا المال والمصالح. يمكنك اعتباري يسارياً حين أدافع عن حقوق الطبقات الفقيرة والوسطى. وليبراليّاً ديمقراطيّاً، أثناء الدفاع عن الحريّات الشخصيّة، بلا حدود. ورأسمالياً في الحفاظ على العادات والتقاليد الأرستقراطيّة والإتيكيت أثناء التعامل مع البشر، مهما كنت مختلفاً معهم. ومتديّناً أثناء التأمّل في الحياة والموت. ووجودياً، حين أعتبر الإنسان أعلى وأعظم قيمة في هذا الكون.

السياسة من حيث المبدأ، هي محاولة تقديم أفضل الخدمات للمجتمعات والمواطنين. ولكن الساسة هم تجّار كلام، بضاعتهم التضليل، شأنهم شأن رجال الدين، والمشعوذين والسحرة الذين يوهمون الناس، ويتاجرون بجهلهم واحتياجاتهم ونواياهم الحسنة.

شعر إدوارد أن جزءاً كبيراً من هذا الكلام موجّه له. ولكنه،

ورغم فارق السنّ بينه وبين جورج، ورغم الشهرة والمليارات التي يملكها، كان يشعر دوماً بشعور التلميذ الذي يناقش أستاذه أثناء الحديث مع جورج.

يجد إدوارد صعوبة في دخول هذا الحصن الذي يسمّى جورج ساندرز، لعلوّ أسواره المعرفيّة. أحياناً تنتابه مشاعر الغيرة الممزوجة بالكراهية تجاه هذا الرجل الذي يفشل في مجاراته أثناء النقاش حول مواضيع مختلفة. وأحياناً يشعر بالإعجاب الشديد به وبتجربته في الحياة. لكنه يحاول باستماتة، إيجاد ثغرة في أسوار هذا الرجل، حتى يسجّل عليه عثرةً أو هفوةً، دون جدوى.

حاولت مارسيل توجيه دفّة النقاش نحو موضوعها الرئيس الذي تريد مفاتحة إدوارد به، لكنها تبحث عن مدخل:

- بروفسور إدوارد، ألا تقلق على حياتك حين تزور بلداناً موبوءة بالاضطرابات والقلاقل والحروب الأهليّة؟! ذكرت لي بأنك كنت مؤخراً في لبنان لحضور مؤتمر طبي!

- ممَّ أقلق؟ إنها حروبهم هم. هذه الحروب، عمرها أكثر من 1400 سنة، توارثوها جيلاً بعد آخر، لدرجة أنها أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من تكوينهم النفسي والمعرفي والديني والاجتماعي وحتّى السياسي والثقافي. فليتاذبحوا في ما بينهم. ما علاقتنا بهم؟! لسنا نحن سبب حروبهم، ولا يمكننا نزع فتيلها أو إخماد نيرانها. هذا الجنون المزمن والفوضى العمياء التي يعيشونها، مررنا بها، وتجاوزناها، في العصور القديمة والوسطى، وانتهاءً بالحرب العالميّة الثانيّة. ولكنهم غير مستعدّين للتخلّي عن هذا الجنون الأعمى. وهذه مشكلتهم.

قاطعه جورج بابتسامة ساخرة تنمّ عن عدم رضا حيال ما أفاد به ضيفه، وتساءل:

- عزيزي إدوارد، أعتقد أن مارسيل لم تسألك عن تقييمك لِما يجري في بلدان الشرق الأوسط، وماهيّة رأيك فيه. بل سألت عن سبب عدم خوفك وقلقك على حياتك وأنت تزور هذه المناطق الملتهبة. أقصد، الكلام الذي ذكرته، ربما يصلح لأن يكون إجابة لسؤال آخر، وليس لما تساءلت عنه مارسيل!

قطع هذا الكلام سلسلة أفكار إدوارد التي كان سيسردها تباعاً، وأدخله في ارتباك، كمن يشعر بثقة عالية وكبيرة بالنفس وبما لديه من عبقريّةِ التحليل، ولكنه اكتشف بأنّ ثمّة من نبّههُ فجأةً على أنه قدّمَ إجابة خاطئة على عمليّة حسابيّة جد بسيطة. فنظر إلى مارسيل وزوجتهِ نظرة خيبة وانكسار وخجل وإحراج. أحسّ بانقباضٍ وتضاؤلٍ في حجمهِ أمام زوجتهِ. حاول التقاط أنفاسه واستجماع أفكاره، لربما يمكنه تدارك ما حصل. لكنه، في قرارة نفسه، تأكّد أن جورج خصمٌ يستحيلُ عليه مجاراته، فما بالكم في التغلّب عليه!

من جانبه، شعر جورج بأنه يكتشفُ شخصاً آخر، غير البروفسور إدوارد فاندرويه، الذي كان يظنّ أنه يعرفه عن قرب وبعمق. وصار يخشى من مواصلة النقاش، لئلا يفضي ذلك إلى تبلور قناعة مفادها: أنه كان مخدوعاً بفاندرويه. فآثرَ جورج عدم التعليق على ما يتحدّث عنه إدوارد.

- دكتور جورج، طبعاً لدي تدابيري التي أتخذها، أثناء زياراتي لهذه البلدان. إذ أتجنّب الأماكن السياحيّة المشتبه في استهدافها. بالمحصّلة، لا أحد منّا يمكنه ضمان ألّا يطاله الموت في أيّة لحظة.

حاولت مارسيل مجدداً جرّ النقاش إلى المنطقة التي تريدها هي. وبات ينتابها إحساس أنه لربما ردود جورج على إدوارد، تسمم الجلسة، ويذهب مخططها أدراج التشنّج، فسارعت بالحديث عن المستشفى. وقالت:

- بروفسور إدوارد، هل تابعت التقرير الصحافي الذي تناول زراعة الاعضاء في بلجيكا؟ إنه يشير ويشيد بمستشفى «سانت مارتين» بأنه أصبح في مقدّمة المستشفيات البلجيكيّة، نظراً للخدمات التي يقدّمها للمرضى بخصوص زراعة الأعضاء. حقيقةً، في قسم جراحة الكليّة، لا يكاد يمرّ أسبوع وإلّا نزرع فيه أكثر من كلية للمرضى، بالإضافة إلى زارعة الحالب والمثانة. لدرجة أن هنالك مرضى من خارج بلجيكا يلجأون إلينا! أنا سعيدة بأن المستشفى يقدّم هذه الخدمات الطبيّة للمرضى، بحيث أصبح مشهوراً داخل بلجيكا وخارجها.

- نعم. الصحافي الذي أعدّ التقرير، حاول إجراء مقابلة معي، بصفتي مدير بنك الأعضاء في المستشفى، لكنني تجنّبت ذلك. واكتفيت بتزويده بالأرقام المسجّلة لدينا خلال الأشهر الستة الماضية. وأن هنالك ازدياداً ملحوظاً في زراعة الأعضاء قياساً بنفس الفترة الزمنيّة السابقة من العام الماضي والذي قبله.

- ولماذا تجنّبت اللقاء به؟... قالت ليزلوته.

- هؤلاء الصحافيون، كرجال الشرطة، دوماً لديهم أسئلة مفاجئة ومباغتة ومحرجة. ويمكن أن تتوقّعي منهم أسئلة ربما تكون كالقنابل التي تنفجر في وجهكِ.

- أوف!! ألهذه الدرجة؟! قالت مارسيل.

- وأكثر من ذلك. أنا أخاف الصحافيين أكثر من رجال الأمن والمخابرات! قالها ضاحكاً. ثم أضاف: فضوليون، ويبحثون عما يثير الرأي العام، وجذب الأضواء إليهم بوصفهم لسان حال المجتمع، والحريصين على أمن وسلامة المواطن. ولكنهم في الأصل، طلّاب شهرة!

ضحكت مارسيل، وقالت: صرت أخاف منهم أيضاً.

ردّ عليها جورج: هل ثمة ما قمت به من فعل منافٍ للقانون والأخلاق، تتكتّمين عليه، وتخشين أن يفتضح؟!

أجابت مارسيل بسرعة، وتملّكها إحساس المتّهم الذي يريد تبرئة نفسه، وإبعادها عن الشبهة:

- قطعاً لا. ما هذا الكلام؟!

تدخّل إدوارد، لربما يساعد زميلته في العمل من الإرباك الذي تسبب فيه سؤال جورج:

- أعتقد أن المسألة ليست على النحو الذي ذهبت إليه، دكتور جورج. ربما يتدخّل الصحافي في صلب عملك، عبر طرح أسئلة استفزازيّة، أو استقصائيّة، لها علاقة بالخصوصيّات وأسرار العمل أو ما يتعلّق بالأمور الشخصيّة.

سألت ليزلوته:

- هل ثمّة سؤال معيّن، تتجنّبون الإجابة عليه؟ أو لا تريدون أن يطرح عليكم؟!

ردّت مارسيل عليها:

- أعتقد أن أحد الأسئلة التي ربما تخلق لنا إحراجاً، وقد لا

نعرف الإجابة عنه، أو من غير المسموح لنا الإجابة عنه، هو: من أين تأتيكم كل هذه الأعضاء؟ أليس كذلك، بروفسور إدوارد؟

- تماماً. وطالما أنه ليس هنالك صحافيون هنا، دعونا نتحدّث بصراحة وشفافية أكثر. ضحك إدوارد، ملتفتاً حوله من قبيل التمثيل والمداعبة، واستكمل حديثه:

- البلدان التي تشهد حروباً ونزاعات أهليّة، هي أكثر الأماكن خصوبةً للاتجار بالأعضاء. وهذه التجارة، يلزمها سوق تصريف. وكما تعرفون فإن نسبة المعمّرين في بلداننا عالية، نتيجة العناية الطبيّة والتأمين الصحّي وقواعد السلامة العامّة. لذا، الوفيات الشابة تكون قليلة. والأعضاء التي يتم استئصالها من المتبرعين العجائز، تكون منهكة، كقطع الغيار شبه التالفة، المأخوذة من السيّارات المستعملة والقديمة جدّاً. ونحن بحاجة إلى أعضاء بشريّة شابّة. وكما قلت لكم: البلدان التي تشهد حروباً داخليّة هي المصدر الأبرز لنستورد منها الاعضاء. هم يتقاتلون، ونحن نستثمر حروبهم على صعيدين. الأول؛ بيع الأسلحة. والثاني؛ استيراد الاعضاء البشريّة. لذا، من مصلحتنا إطالة أمد الحرب. ومن جهة أخرى، كلما طالت هذه الحروب، جذبت العناصر الإسلاميّة الإرهابيّة المتطرّفة المتواجدين في أوروبا. فتزايد عددهم هنا، صار يهدد هويّة هذه القارّة بأكملها! بصراحة، كلما أرى محجّبة في شوارع بروكسل، أشعر بالخوف على مستقبل بلجيكا!

ردّت عليه زوجته ليزلوته باستغراب ودهشة:

- هذه أوّل مرّة أسمعك تطرح أفكاراً عنصريّة! مريم العذراء كانت محجّبة. وأصلاً المسلمون أخذوا الحجاب من المسيحيّة

واليهوديّة. إذا كنت ترتعب من رؤية المحجّبة في بروكسل، فأنصحك بعدم النظر إلى الراهبات في الأديرة والكنائس.

- لتحترق الكنائس بمن فيها. منظر الراهبات أيضاً، يثير لدي الرعب والخوف والقرف. ألا تذكرون ماذا فعل حكم الكنيسة في أوروبا؟ وماذا دفعت بلداننا حتى تحررت من حكم وظلم الكنيسة؟!

أمضى جورج هذه اللحظات صامتاً متأمّلاً، لا يستطيع النظر إلى وجه إدوارد، لأنه بات يشعر بأن ملامحه صارت تتغيّر، لتتحوّل إلى ملامح هتلر، ولديه نابا دراكولا. لكنه لم يتمالك نفسه، وفي هدوءٍ متثاقل وقلقٍ حذرٍ ومشدود، قال:

- إذن، نحن أيضاً مجرمو حرب. حين ننظر إلى مآسي الآخرين وكوارثهم على أنها نعمة تمطر على أوطاننا، أعضاءً أو أشلاءً بشريّة، كي نبيعها، ونمنح بها حياةً لأبناء شعوبنا!

لا أعلم أيّة علمانيّة هذه التي تتبنّاها، حين تنظر إلى المهاجرين المسلمين والمحجّبات على أنهم خطر يهدد هويّة أوروبا؟ أيّة هويّة تقصد؟ الدينيّة المسيحيّة؟!

- لا. لا أقصد الهويّة المسيحيّة، بل العلمانيّة. لأن هؤلاء لديهم مشروع يهدف إلى أسلمة أوروبا. يعتبروننا كفرة وخنازير وقردة، دمنا ومالنا ونساؤنا حلال عليهم. لا يندمجون في مجتمعاتنا. لا يحترمون عاداتنا وتقاليدنا. لا أقصد الدينيّة، بل المدنيّة والعلمانيّة. يهاجرون إلى هنا، حاملين معهم إرث خلافاتهم وحروبهم التي تعود إلى ألف وأربع مئة سنة. لقد دفعنا أكلافاً باهظة في محاربة الكنيسة وسلطة الدين على الدولة والمجتمع، فكيف لنا

أن نقبل بسلطة توازيها في البطش والشراسة تودي بكل ما بنته أوروبا خلال مئتين أو ثلاث مئة سنة؟!

- لماذا نحن مجرمو حرب؟ هل نحن وراء خلافاتهم وحروبهم التي بدأت بموت نبيّهم؟! وما زالت مستمرّة حتّى الآن؟! وستبقى مستمرّة حتّى نهاية الحياة على هذا الكوكب؟!

- بروفسور إدوارد. أنت طبيب. ويجب أن تكون مع الحياة ضد الموت. من جهة أخرى، لا تقل لي إن الحروب الصليبيّة كانت لإنقاذ المسلمين من خلافاتهم وحروبهم الداخليّة؟ لا تقل لي: احتلال نابليون لمصر والشام كان لهذا السبب؟ وكذلك لا يمكنك إقناعي بأن الاحتلال الإنكليزي، الفرنسي، الإيطالي والإسباني للبلدان المسلمة، كان هدفها إنهاء الحروب الدينيّة التاريخيّة بين المسلمين؟!

عزيزي إدوارد.. حصيلة ضحايا الحروب بين الكنائس المسيحيّة في أوروبا، وضحايا الكنيسة الكاثوليكيّة وحدها، مضافاً إليها حصيلة الحرب العالميّة الأولى، وما قتله هتلر، فرانكو، موسوليني، ستالين، قبلَ وأثناءَ وبعدَ الحرب العالميّة الثانيّة، وما قتلهُ تشاوتشيسكو، ميلوشفيتش... من البشر، هي أضعاف ما قتله المسلمون في حروبهم ضد بعضهم البعض. لسنا ملائكة، ولا المسلمون شياطين.

كنّا قوّة احتلال لبلدانهم. سلبناهم حريّتهم وخيراتهم. ونصّبنا عليهم طغاة، ودعمنا هؤلاء الطغاة. نحن متورّطون في كوارث ومآسي الشرق الحاليّة. وربما وصف مجرمي الحرب، أقلّ ما يمكن قوله في سلوكنا. نصدّر إليهم السلاح. ونشتري منهم الأشلاء، كي نزرعها في أجساد مواطنينا. ونتمنّى أن يطول أمد هذه الحروب،

لأنها تجعل من بلادنا أكثر أماناً وسلامةً وصحّةً ورخاءً ورفاهاً. . . ! أن يصدر هكذا كلام من طبيب وبروفسور من وزنك، هل بقي هنالك دليل آخر على أننا صرنا وحوشاً؟! سيأتي اليوم الذي سندفع فيه ثمن هذا العار الذي نتنفّسه، ونشربه ونأكله ونرتديه ونتعطّر به.

شعرت مارسيل بدنو انهيار الجلسة، فحاولت استمالة إدوارد، وأنها مع وجهة نظره، من منطق الطبيب الذي لا يمكنه التضحية بمريضين في الوقت عينه، حين تكون حياة الاثنين مهددة. بل ستسعى إلى زرع عضو أحدهما للآخر، ما دام هو الأكثر حظاً في استمرار حياته، وليس لكونه الأجدر بالحياة. مارسيل لم تكن مقتنعة بهذا الكلام مطلقاً. لكنها تريد تخفيف الضغط على إدوارد، فقالت:

- أحييك بروفسور. وأنا معك، حتى ولو كانت زيارتك إلى لبنان وسورية والعراق، بغرض تزويد بلجيكا بالأعضاء البشريّة. هذه الأعضاء، يستفيد منها حتى المهاجرون من نفس البلدان، وليس فقط البلجيك. والآن عرفت، سبب تعريضك حياتك للخطر، كي تنقذ حياة أناس آخرين بحاجة إلى هذه الأعضاء، التي ستصبح طعاماً للديدان، في حال لم يتم استثمارها لإنقاذ حياة آخرين.

بكلامها هذا، ومخالفتها رأي زوجها، عززت مارسيل ثقتها لدى فاندرويه. وبعد مغادرة إدوارد وزوجته، صارحت مارسيل زوجها بحقيقة هدفها من الميل نحو موقف إدوارد، لأنها لمست من جورج حنقاً وامتعاضاً من تأييدها كلام إدوارد. وحدّثته عن تفاصيل المجموعة التي تريد البحث عن حقيقة وهويّة الشخص المجهول صاحب الأعضاء المزروعة في أجسادهم. تفهّم جورج موقف مارسيل. واعتذر عن ردوده التي ربما عرقلت عملها. وذكر أنه

سيعتذر لإدوارد، ويصف رأيه الشخصيّ بأنه كان عصبيّاً وغير عقلاني. بينما رأي فاندرويه، الأكثر عقلانيّة وإنسانية وتوازناً ولصالح الحياة في مواجهة المرض والموت. وفعلاً، في اليوم التالي، اتصل جورج به، وقدّم اعتذاره الشديد. ما عزز ثقته بمارسيل على أنها هي التي تقف وراء تغيير جورج لموقفه وتقديمه الاعتذار. وصار الرجل يفكّر في ضمّها إلى شبكته.

مارسيل أيضاً، اتجهت إلى مكتب فاندرويه لتوضيح وجهة نظرها وتقدم الاعتذار له، لتجدهُ منفعلاً ومضطرباً، أثناء حديثه عبر الهاتف. وبعد أن أنهى اتصاله، قالت له:

- بروفسور، أعتذر بشدّة عما بدر من جورج، أول من أمس.

قاطعها قائلاً:

- دكتورة مارسيل. لا داعي للاعتذار. اتصل جورج واعتذر. كان نقاشاً واختلافاً في وجهات النظر.

أتاه اتصال هاتفي، فاعتذر منها كي يردّ عليه:

- مرحباً يان. الدكتور إدوارد معك. ما المشكلة؟!

- مرحباً دكتور. هنالك مشاكل في توصيل الشحنة. يطالبون بالمزيد.

- يا غبي. ألم تخبرني قبل قليل بأنك اتفقت معهم؟! كم يريدون؟!

- زيادة المبلغ بنحو 15 بالمئة.

- طيب، سأحوّل لك المبلغ على رقم حسابك. أنْهِ هذه المسألة بأقصى سرعة. نحن نعاني من نقص في بنك الأعضاء.

عقب انتهائه من المكاملة، التفت إلى مارسيل بابتسامة مصطنعة وقال:

- كم هو غبي هذا الرجل. قبل أيّام كنت عنده. وأوصيته بما ينبغي عليه القيام به. وقبل قليل اتصل بي، حول نفس الأمر.

- من هو؟... معذرة على السؤال.

- لا لا.. أنتِ مصدر ثقة، ومن أسرة المستشفى. ويمكنني إطلاعكِ على بعض الأمور الخاصّة والحساسة. إنه يان دو كاستيلير. صحافي في مجلة «بروكسل فانداخ - (بروكسل اليوم)»، عميلنا في لبنان، الذي ينسّق مع الجهات التي تورّد لنا الأعضاء من هناك. طبعاً، هذا سرّ خطير، أكشفه لك، كي تعرفي مدى ثقتي بكِ.

- أليس هو نفسه الصحافي الذي أعدّ التقرير حول ريادة المستشفى في زراعة الأعضاء؟!

- هو نفسه. أنا من طلب منه ذلك، كنوع من الدعاية للمستشفى، بهدف اجتذاب المزيد من الزبائن.

- اسمح لي بالمغادرة. بالتأكيد لديك الكثير من المشاغل. لا أودّ تعطيلك أكثر. فقط أتيت لتقديم الاعتذار.

حال خروجها من مكتب فاندرويه، أرسلت مارسيل رسالة «اس ام اس» الى كلارا. وطالبتها بالبحث عن ملف الصحافي يان دو كاستيلير. وذكرت أنه يعمل في مجلة «بروكسل فانداخ». وطلبت الاجتماع بالمجموعة للنقاش حول الجديد.

* * *

منهم من ينظر إلى ساعة يده، ومنهم من ينظر إلى ساعة الموبايل أو إلى بندول الساعة التقليديّة المعلّقة على حائط صالون منزل رولان، ترقّباً لمجيء الدكتورة مارسيل، وما تحمله من أخبار معها. رنّ موبايل كلارا. نظرت إلى شاشته وقالت: الدكتورة مارسيل.

- مرحباً كلارا. معذرة على التأخّر. تعرفين أزمة البحث عن مكان شاغر لركن السيارة في بروكسل. هل حضر الجميع؟

- نعم. ولات، كاترين، جورجينيو، وإيلس. نحن في منزل رولان، ننتظر مجيئك بلهفة.

- لست وحدي. معي زوجي جورج. هل ثمّة مانع من حضوره؟

- دقيقة. وضعت يدها على سمّاعة الموبايل وقالت لأصدقائها، بصوت خفيض: «معها زوجها. يريد الحضور. هل من مانع؟». أجاب الجميع: لا. فردّت على مارسيل: لا.. لا.. إطلاقاً. مرحباً به.

بعد مضي عشر دقائق، رنّ الجرس. فتح رولان الباب مرحّباً بهما. عرّفت مارسيل أفراد المجموعة بجورج. وذكرت أنه بات مطلعاً على تفصيل الموضوع، ويتضامن معهم. ثم اتجهت نحو كلارا وسألتها:

- هل جمعت المعلومات عن يان دو كاستيلير؟

- طبعاً. حصلت على ملفه الشخصي. وحسابه على الفيسبوك وتوتير. وطبعت نماذج من تقاريره الصحافيّة، من بيروت، حمص، جسر الشغور، أنطاكيا، التي يستشفّ منها أنه منحاز للثورة السوريّة. ولكن لدى ولات المزيد. فهو أيضاً أجرى تحرّياته واتصالاته بهذا الخصوص.

- هذا الشخص، رأيته في ساحة البورصة، أثناء الاعتصامات، يجري بعض اللقاءات الصحافيّة. استفسرت عنه من النشطاء السوريين في بروكسل، ومن الداخل السوري وفي لبنان وتركيا، فقالوا لي كلاماً إيجابيّاً عنه، على أنه مؤيّد للثورة. وبالتالي، أمّن له النشطاء لقاءات صحافيّة مع الضبّاط المنشقين عن جيش النظام. ولديه علاقات جيّدة معهم ومع مسؤولين أتراك ولبنانيين ومسؤولين في النظام السوري أيضاً. وحين سألتهم عن علاقته بالنظام، أجابوني بأن هذه مسائل أمنيّة لا يمكن الكشف عنها. لكن، فهمت منهم أنه مكلّف من قبل الثوّار بهذه العلاقة باعتباره عميلاً مزدوجاً. ولكنه يخدم الثورة، ويوهم النظام بأنه يخدمهم ضدّ الثورة.

جحظت أعين جورج ومارسيل مما سمعاه من معلومات حول هذا الشخص. فقال جورج:

- شخص يمتلك هذه القدرة على إقامة شبكة أخطبوطيّة من العلاقات، لا شكّ أنه في غاية الخطورة. لكن، بكل تأكيد، هو ليس مع الثورة، ولا مع النظام. هو مع مصالحه ومصالح الجهات التي يعمل لحسابها.

- كيف يمكننا اصطياد هذا الالعبان الذي يلعب على مئة حبل؟ حتى نعرف منه الجهة التي تورّد له الأعضاء البشريّة؟ تساءلت كاترين.

أجاب جورج:

- على طريقة «الموساد» في استخدام النساء. نكلّف فتاةً تستدرجه على أساس أنها من قرّائه وتتابع تقاريره الصحافيّة بشغف، ومعجبة بشجاعته، لأنه يتواجد في الأماكن الأكثر خطورة في العالم،

بحثاً عن الحقيقة. . .الخ. وأنها واقعة في حبّه. وفي حال سقط في الفخ، تدعوه الفتاة إلى ليلة ساخنة، وبضع لفافات ماريغوانا وعدّة كؤوس من الكحول إضافة إلى الجنس، سيسقط حتى ولو كان ديناصوراً. ثم نأخذ كل المعلومات الموجودة على هاتفه وحاسوبه، ونقوم بالدخول إلى حساباته على الفيسبوك والتوتير، وإيميلاته، ونقوم بتغيير كلمات السر لكل هذه الحسابات، بحيث يستحيل عليه دخولها مرّة اخرى. ثم نقوم بفحص المعلومات وأرقام الهواتف والمراسلات. وقتها، بالتأكيد، سنحصل على كنز من المعلومات التي لن نستفيد منها وحسب، بل وستفيد النشطاء السوريين على الأرض.

لماذا تنظرون إليّ بهذه الدهشة والغرابة؟ قالها جورج، بعد أن لاحظ نظرات المحيطين به وأفواههم فاغرة، ومنهم زوجته مارسيل التي قالت:

- مخطط رائع، لا يمكن أن يصدر إلّا عن رجل له باع في الأمور والخطط الاستخباراتيّة!!

- لا. . . لا. . لست رجل أمن. وليست لدي تجربة أمنيّة. فقط قرأت الكثير من الروايات والكتب التي تتحدّث عن التجسس والاختراقات الأمنيّة. والتجربة الإسرائيليّة مشهود لها في هذا الإطار. على العموم، يجب أن يكون كل ذلك طيّ الكتمان. ولا يتسرّب أي خبر أو معلومة عن هذا الشخص إلى النشطاء السوريين، لئلا يلجأ إلى التواري، ونفقد الاتصال به. ولكن من هي البنت التي يمكن أن نثق بها، وتتنطع للعب دور العاشقة الولهانة بيان دو كاستيلير؟!

اتجهت الأنظار كلها نحو إيلس بوصفها الأصغر سنّاً، وجميلة. لكن جورجينيو انتابته الغيرة عليها، ولم تعجبه أن ترتبط بعلاقة حتى ولو كانت غير حقيقيّة مع هذا الصحافي! وكيف يمكنه أن يقبل أن تمارس معه الجنس حتى تنتزع منه المعلومات؟! هذه الغيرة أثبتت له ولها، بأنه بات يحبّها. وأن علاقته معها لم تعد عادية. غيرة جورجينيو على إيلس، زادتها إعجاباً به. وقررت التضحية ولعب هذا الدور، شريطة موافقته. حاول الجميع إقناع جورجينيو بضرورة أن تؤدّي الدور، لصعوبة إيجاد فتاة أخرى من خارج المجموعة. في نهاية المطاف، أذعن للأمر، على مضض.

ذكرت إيلس بأنها لا تفهم شيئاً عن طريقة مخاطبة شخص صحفي، بلغة أدبيّة، تبدي فيها إعجابها بمهاراته وشجاعته. فقال ولات: «دعي هذا الأمر لي. سأكتب بالعربيّة، وكاترين تترجم للفرنسيّة. ونرسل النصّ النهائي لك. وبعد أن يبتلع الطعم. لن تحتاجي إلى لغة الأدب والصحافة، بل إلى مهاراتكِ في الإغراء والإثارة..! من يدري، ربما تصبحين نجمة سينمائيّة إذا نجحتِ في هذا الدور!؟!».

ضحك ولات. وأضحك الجميع.

* * *

سيدي العزيز يان دو كاستيلير،

صباح الخير

كالعادة، هذا الصباح، قرأت تقريرك الصحافي عن الأحداث في سورية. تقرير جميل وهادئ ومنحاز للضحايا، في زمن انحاز فيه

العالم للقاتل. بصراحة، أنا معجبة بأسلوبك في الكتابة، وصرت مدمنة على متابعة تقاريرك. أنت تكتب بشكل جميل ورشيق وجذّاب، وكأنّك تصوغ قطعة أدبية وليس تقريراً أو تحليلاً إخبارياً. الحسّ الإنساني في تقاريرك الصحافيّة، لا يكون على حساب الموضوعيّة.

اسمح لي أن أعبّر عن عميق شكري لك على جهودك وكتاباتك

مع خالص التحيّة

إيلس.

بعثت إيلس هذه الرسالة ليان على حسابه في الفيسبوك. (Jan de Kasteler) وإلى بريده الإلكتروني (Jandekasteler@brussl-vandaag.be). وأرسلت له طلب صداقة، فرأت أن صفحته على الفيسبوك، استكملت عدد الأصدقاء. ومن خلال المناشير والروابط التي ينزّلها يان على صفحته، عرفت إيلس أنه دائم الحضور على الفيسبوك. وبعد مرور نحو ربع ساعة، ردّ عليها بإرسال شارة الإعجاب، وعبارة: جزيل الشكر. على الفور، ردّت إيلس بإرسال ملصق باقة ورد. وذكرت له أنها حاولت إرسال طلب صداقة له، ولكن يبدو أن صفحته ممتلئة بالأصدقاء، ولا مكان لها بين أصدقاء يان، مع إرفاق ملصق الأسف.

دخل يان إلى صفحتها، كنوع من الاستكشاف، متجها نحو الصور. فوجدها فتاة في مقتبل العمر وجميلة. وترتدي ثياباً خفيفة، مع وجود حركات إثارة أثناء التقاطها للصور. لكنه لاحظ أن هذا الحساب على الفيسبوك، ليس قديماً. أرسل لها طلب صداقة، فوافقت على الفور، مع إرسال الشكر، وملصقات تعبّر عن السعادة. وكتبت له:

- أشكرك على إرسال طلب الصداقة. هذا من دواعي فخري وسروري أن أكون من ضمن الأصدقاء في صفحة الصحافي المعروف يان دو كاستيلير. وأتمنى أن تتحوّل هذه الصداقة الافتراضيّة إلى صداقة حقيقية. وهذا رقم موبايلي. حال تواجدك في بروكسل، سأكون مسرورة كثيراً إذا منحتني شرف اللقاء والتعرّف عليك عن قرب.

اكتفى يان بإرسال شارة الإعجاب، مع توجيه الشكر. ولكنه لمس في لغتها الودّ والدماثة، وأنها ليست فتاة عادية من اللاتي يبحثن في مواقع التواصل الاجتماعي عن شاب أو رجل، لتمضية الوقت معهم. وصارت إيلس تدخل صفحته باستمرار، وتبدي إعجابها بمنشوراته، وتعلّق على المنشورات، وتشارك فيها، ما خلق لديه إحساساً بأن هذه الفتاة فعلاً تكنّ له الإعجاب. خلال الأسبوعين الأوّلين من بدء التواصل، كان مقتصداً في الكلام معها. ويكتفي بالشكر وإرفاق ملصقات وشارات الإعجاب. ولكي تحاول إيلس إزالة هذا الفتور، بدأت تعلّق على صوره الشخصيّة المنشورة. وتكتب تعليقات فيها تغزّل به وبملامحه وإيحاءات حركاته أثناء الجلوس أو الوقوف أو شرب البيرة أو التدخين...

الحقّ أن يان شاب نموذجي من حيث الوسامة العالية التي لديه، لدرجة أنه يصلح لأن يكون عارضاً أو ممثلاً، شأنه شأن من تظهر صورهم في الإعلانات. طويل القامة، بملامح منمنمة ومتناسقة تماماً. بشعر متماوج شديد الشقار. عينان زرقاوان. أنيق في الهندام. منظره يغري أيّة فتاة. فتكتب له إيلس على الخاص قائلة:

- عزيزي يان...

الجمال والأناقة التي تتحلّى بهما، تخوّلانك لأن تكون أحد أبطال السينما أو دبلوماسيّاً أو مديراً لأحد البنوك. فما الذي رمى بك في هذه المهنة، مهنة الصحافة وما فيها من مخاطر ومتاعب وأهوال... كالتي تعيشها الآن في لبنان وسورية؟!

فردّ عليها:

- أشكركِ على هذه اللطافة.

العمل الصحافي منسجم تماماً مع طبيعتي وتكويني النفسي، كوني أحبّ المغامرة والسفر. إلى جانب وجود القلق والفضول والرغبة في الاستكشاف. بالإضافة إلى الرغبة في نقل الحقيقة، والتقليل من التضليل والكذب واللعب بأحاسيس الناس، عبر التأثير على عقولهم وعواطفهم. كل ذلك، دفعني إلى العمل في مهنة الصحافة، التي هي مهنة ليس فقط البحث عن المتاعب، بل والبحث عن المخاطر والأهوال وركوبها بهدف إنقاذ آخرين.

- رائع. حقاً رائع. كم أنت إنسان نبيل. معذرة منك، لم أكن أعرف أنك رقيق وشفاف وناضج لهذه الدرجة؟! اسمح لي بأن أقول لك وأصارحك، أنني يوماً إثر آخر، أزداد إعجاباً بكَ. وآمل منك أن تقبل دعوتي على العشاء في أقرب فرصة تسنح لك.

- أشكركِ. بعد ثلاثة أيّام سأكون في بروكسل. لدي بعض المشاغل والأعمال يجب عليّ أن أنهيها. أعتقد أنه سيكون هنالك متسع من الوقت كي نلتقي.

- أنا في غاية السرور والفرح لهذا الخبر. إذن، أنتظر منك اتصالاً لتحديد موعد اللقاء.

كانت إيلس تُطلع أصدقاءها على اتصالاتها مع يان، وإلى أيّة مرحلةٍ وصلت، دون ذكر التفاصيل. وصار الجميع متحمّسين لرؤية هذا الرجل. حتّى أن جورجينيو وورولان قررا متابعة اللقاء عن بعد. لكن كلارا نصحتهما بالعدول عن ذلك، خشية أن يخلق إرباكاً لها حين تشعر بأنها مراقبة. قَبِلَ الاثنان النصيحة، ولكن جورجينيو لم يعمل بها، ليس بدافع الفضول، بل الغيرة والخوف على إيلس.

اتصل يان من رقم خاص بإيلس، وكان ذلك أوّل مرّة تسمع فيها صوته:

- مرحباً إيلس. أنا يان دو كاستيلير. كيف حالك؟ أنا في بروكسل.

- مرحباً يان. مسرورة جداً لسماع صوتك. صوتك جميل جداً.

- شكراً. هنالك مطعم جميل اسمه «فيوليت» قريب من مبنى البورصة. هل تعرفينه؟ يمكننا أن نلتقي فيه بحدود الساعة الخامسة مساءً.

- أعرفه. سأكون هناك قبل الموعد بربع ساعة.

إلحاح جورجينيو على إيلس أجبرها على ذكر المكان وموعد اللقاء. ورغم أنها لم تسمع حتّى الآن، اعترافاً صريحاً بحبّه لها، بينما كل تصرّفاته ونظراته تفضح ذلك، صارحته إيلس بحبّها الجارف له: «أحبّك أيها الوغد الجميل»، وعانقته في الشارع وقبّلتهُ في فمه قبلة عميقة وساخنة. وبالكاد نجحت في اقتلاع نفسها من بين ذراعيه المشدودتين على جذعها وخصرها، اتجهت نحو مكان اللقاء، مكرهةً. وصلت إلى المطعم، كان شديد الاكتظاظ. جالت بين

الطاولات باحثة عن واحدة شاغرة. وفجأةً لمحت شخصين جالسين إلى طاولة موجودة بجوار الزجاج المطلّ على الشارع، يهيّئان نفسيهما للمغادرة، فسارعت بالاتجاه نحو الطاولة ووقفت مبتسمةً بوداعةٍ وودّ. فهَمَّ الشخصان بترتيب مغادرتهما، وأفسحا المكان لهذه الحسناء لئلا يطول انتظارها. شكرتهما وجلست بسرعة. أشارت إلى النادلة بضرورة تنظيف الطاولة.

يان وإيلس يعرفان بعضهما من خلال الصور المنشورة على الفيسبوك. بالنسبة لها، هي في مهمّة استخباراتيّة، يجب أن تنجح فيها. واختبارٌ لفحص مقدرتها على الجذب والإثارة وإسقاط الرجال في فخّها، كما كانت تقول لها كلارا. إذ ستمارس كيد النساء للحدود القصوى، مع علمها أنها تجالس مجرماً، وحشاً في لبوس إنسانٍ محترم.

«لا شكّ أن مهمّتك صعبة، بل فيها الكثير من المجازفة والمغامرة والمخاطرة. لكن أملنا معقود عليك. وأي خطأ، يعني نسف كل ما انجزناه». هكذا كانت تقول لها كاترين، أثناء تشجيعها على القيام بهذه المهمّة.

رتّبت إيلس هندامها وشعرها. ونظراتها موزّعة بين الموبايل الموجود على الطاولة، والمارّين بجانب المطعم علّها ترى يان لحظة دخوله إلى المكان. سهت هنيهةً وهي تنظر عبر زجاج النافذة الكبيرة المطلّة على الشارع، فانتزعها صوت نقراتٍ خفيفة على الطاولة من شرودها وأعادها إلى المكان، وإذا بيان واقف يتأمّلها بابتسامة عريضة. تفاجأت بوجوده. كان يحمل حقيبة كتف. بادرته بالابتسامة مع الوقوف بهدوءٍ وتثاقل، ورسم علامات الدهشة والإعجاب على

الوجه، في محاولة منها لإيصال مشاعر تفيد بأنها مفتونة ومسحورة بوجوده. مدّت يدها ببطء وارتخاء لمصافحته مع عبارة الترحيب والمفاجأة:

- ياللمفاجأة!! يان، أنت هنا؟! أتيتَ قبل الموعد بثلاث دقائق!

- نعم. كي أكسب مجالستك ثلاث دقائق أكثر. تكنولوجيا التقاط الصور تظلمكِ. أنتِ أجمل من الصور بكثير!

كعادة الفتيات حين يشعرن بالخجل، يحاولن وضع خصلة من شعرهن وراء إحدى أذنيهنّ، من نظرات منكسرة نحو الأسفل، واحمرار في الوجنتين، فعلت إيلس. مع إبداء كلمات الشكر.

- أشكركَ على تلبية الدعوة، ومنحكَ لي جزءاً من الوقت الثمين. أعرف أنكَ مشغول للغاية. لذا، لا أعرف كيف أعبّر عن سعادتي في هذه اللحظات.

- وأنا أيضاً سعيد بالتعرّف عليكِ. بعد كل هذه المراسلات. وأشكركِ على مشاعركِ الصادقة والنبيلة. هل ترغبين بشرب شيء، قبل تناول الطعام؟

- لا. أرغب في شرب كأس من النبيذ مع الأكل. ولكن، أنت ضيفي. احسب حسابك على هذا الأساس. قالتها إيلس مع الابتسامة والتلويح باليد ورسم شارة التنبيه.

- ليكن ما تريدين. أنا جائع جداً. وحين رأيتكِ، تضاعف الشعور بالجوع والعطش أكثر!

من خلال نظراته ونبرة كلامه، شعرت إيلس بأن «الصنارة غمزت»، وأن السمكة ابتلعت الطُّعم.

ومع حضور الأكل وتناولهما الطعام، كانت إيلس منصتة وتغرقه

بنظرات الإعجاب والافتتان والانبهار، وتترك له حرية الاسترسال في الحديث عن نفسه وعن مشاغله والإرهاق والمتاعب التي يواجهها في عمله.

- ما يقرأه الناس في خمس أو عشر دقائق، أحياناً يأخذ منّا جهد يوم أو يومين وربما أكثر. في أماكن النزاعات والحروب، كي نعدّ تقريراً إخباريّاً، نواجه الكثير من الأخطار والأهوال. تستهويني شخصيّة المراسل الحربي الذي ينقل الأخبار من قلب المعارك. صحيح أن المعارك التي تجري في الشرق الأوسط، ليست معاركنا التي تستحق أن نخاطر بحياتنا لتغطية أخبارها أو نموت في سبيل تحقيق أهدافها، ولكن الرغبة في ركوب الأهوال واقتحام الأماكن الخطرة هي التي تحدد قدرة وقوّة شخصيّة الصحافي. بصراحة لا أحبّ الجلوس في مكتبي أو بيتي، وأتابع الأخبار من وكالات الأنباء أو من شبكات التلفزة أو عبر المراسلات. أشعر بأن هذه الطريقة من العمل يمكن لأي شخص القيام بها. التحرّك والتواجد في ميادين الأحداث، يجعلان من الصحافي جزءاً من صنّاع هذه الأحداث، وليس فقط ينقلها إلى الآخرين.

- ألا تفزعكَ مناظر القتل والدمار والدماء والأشلاء البشريّة؟!

- اعتدت عليها، لدرجة صرتُ أكره الحياة الروتينيّة والرتيبة، كمن أدمن مشاهدة أفلام الرعب. لذا، أضحت كوارث كهذه أموراً جد عادية بالنسبة لي. من جهة أخرى، الصور التي نلتقطها لضحايا الحروب والأزمات، صحيح أنها نقل لمعاناة وآلام هؤلاء الضحايا، لكن بالنسبة للصحافي، هي جزء من صناعة مجده الشخصي، القائم على اقتناص لحظات بؤس ومآسي الضحايا. كل الصور الصحافية

التي تنقل مآسي وآلام ضحايا الحروب، يتم تكريم ملتقطها. بينما الضحيّة، فهو مجرّد رقم. بتعبير آخر، مجرّد حطب. يعني، الصحافيون هم أيضاً أمراء حروب. أبعد من ذلك، الكثير من الدكتاتوريات، ساهم الصحافيون في صناعتها وإشاعتها والترويج لها. إذا رجعتِ إلى تجربة هتلر أو ستالين أو أي دكتاتور في العالم، ستجدين كتيبة أو جيشاً من الصحافيين مساهمين في صناعتهم.

- وهنالك صحافيون انتقدوهم أيضاً؟!

- لكن، هل أسقطت هذه الانتقادات دكتاتوراً واحداً، عبر التاريخ؟!

- كأنني أشعر بأنك تنظر إلى مهنتك بسلبيّة؟!

- لا. ذكرت لك في البداية أنني أعشق مهنتي. ثم هل بقيت مهنة في العالم، محافظة على نبلها وجوهرها الإنساني؟! تمعّني في مهن الطب، الهندسة، الصيدلة، المحاماة...، كلها أصبحت مافيات. حتى في عالم الثقافة والأدباء والفنون والفلاسفة، يمكنكِ أن تجدي مافيات. هاتي لي بقعة واحدة في الحياة لم تصبح ملوّثة وملطّخة بالفساد؟! الحياة في الشرق المتخلّف أو الغرب المتطوّر، هي عبارة عن غابة، مع اختلاف وسائل أكل القوي للضعيف. يعني غريزة البقاء هي التي تجعلني أحبّ مهنتي.

حاولت إيلس إعطاء انطباع بأنها قريبة من أفكاره، وتكره العرب والمسلمين، عبر طرح كلام مختلف نوعاً عمّا كانت تقوله في مراسلاتها معه على الفيسبوك، وحديثها عن الإنسانيّة والحقيقة والعدالة...، فقالت:

- كل الذين يخوضون الحروب، مجانين. والعالم ليس مصحّاً عقلياً حتى يعالج هؤلاء من لوثاتهم وهوسهم بالدم والسلطة. على العالم تركهم وشأنهم، يطحنون بعضهم بعضاً. وجود هؤلاء، بما يحملونه من أحقاد وضغائن وثارات تاريخيّة، هو كارثة تهدد البشريّة.

- شخصيّاً، لا أحبّ الحروب، ولا أكرهها. فقط أحاول الاستفادة منها. لا يعنيني في شيء سواء أكان من يخوضون الحروب عقلاء أم جهلاء. ليست مهمتي عقلنة الجاهل أو تجهيل العاقل. هكذا يريد التاريخ لنفسه أن يمشي بأن يكون وقوده الحروب ودماء الضحايا. لا يمكنني تغيير وتعديل مزاج التاريخ وصيروته وسيرته. فقط أحاول أن أعيش أكبر قدر ممكن، وأجنّب نفسي الموت.

- لكنك تعمل في مساحات موبوءة بالموت؟!

- وهنا متعة الحياة. أن تمشي على سلكٍ مشدود، مأخوذةً بنسمات منعشة، ومن تحتكِ جحيم مستعر. قانوني في الحياة، هو مقولة لشاعرٍ فارسي متصوّف اسمه جلال الدين الرومي، مفادها: «كل نفس ذائقة الموت إلا أن الحياة.. لا تتذوقها إلا بعض الأنفس».

شعرت إيلس أنها تجالس مثقّفاً مريضاً، بحاجة إلى فريق من الأطباء النفسيين لمعالجته. وانتابها إحساس يعطيها إجابةً من دون سؤال: عتاةُ المجرمين، يمكن أن يكونوا ممتلكين ثقافة عالية. وربما نجد فلاسفة أو أدباء وفنانين أيضاً. لكنهم بالنتيجة جناة.

- ألا تعتبر ذلك، مازوشيّة؟! تساءلت إيلس.

- اتركينا من التنظير والتحليلِ النفسي. دعينا نعِشْ هذه اللحظة الجميلة.

شعرت بالخطأ في طرح سؤال كهذا. وأن مهمّتها ليست سبر أغواره واستكشاف أعماقه لأنه معروف ومكشوف لديهم مهما تمنطق وادّعى المثاقفة.

- تماماً. كلامك صحيح. أنا آسفة. يجب علينا الاستمتاع بهذه اللحظة التي أتمنى أن تمتدّ دهراً.

- آه!! ألمس لديكِ حسّاً شعريّاً؟... جميل.

- مَن تتعرّف على شخص مثلك، لا بدّ أن تتحوّل إلى شاعرة.

- أشكركِ على الإطراء.

- هذا ما أشعر به. سأحاول مغالبة خجلي الشديد، واسمح لي بالاعتراف لك أنني معجبة بكَ جداً.

- ككاتب وصحافي. طبعاً.

- نعم. وكإنسان ورجل أيضاً. معجبة بشجاعتكَ وصراحتكَ وعمقكَ.

أحسّ يان بصدق مشاعرها. وأن عيني هذه الفتاة تفصحان عما في قلبها قبل لسانها. فازدادت الثقة لديه بأنه ممثّل بارع. ويصلح للعب دور الرجل الوقور والمتزن، غير المتهافت على اصطياد الفتيات. لكن الحقيقة خلاف ذلك تماماً. نظر يان إلى ساعته، ملمّحاً أن اللقاء قاربَ على الانتهاء. فتساءلت إيلس:

- ما زال الوقت باكراً. لماذا الاستعجال؟!

- معذرة منك. للأسف، أنا مرتبط بموعد آخر. ما يؤسفني أن الجو الرومانسي الذي أدخلتِني فيه، شارفَ على الانتهاء، ومضطر للخروج منه إلى أجواء السياسة والعمل الصحافي المسمومة. بكل

تأكيد، سنلتقي مجدداً، وقريباً. شكراً على الدعوة وعلى الوقت الذي منحتِني إياه.

غادر يان المكان، بعد دفع الفاتورة. بينما إيلس واصلت تصنّع دور المتأسّفة على مغادرته والراغبة في بقائه. لكنها في قرارة نفسها، لا تعرف كيف تفكّ نفسها من هذا الشخص المنافق الكذّاب والشديد القدرة على الإقناع.

بعد التأكّد من خروجه، نزل جورجينيو من الطابق الثاني إلى الطابق الأول، وعلى وجهه علامات الحنق والتوتّر. حاولت إيلس الترويح عنه والتخفيف من الضغط النفسي الذي كان يعانيه طيلة اللقاء. ذلك أنه كان في وضع لا يُحسد عليه، حين يرى حبيبته تجالس شخصاً غيره وتتغزّل به، حتّى لو كان ذلك تمثيلاً. شكرته إيلس على وجوده، وأن ذلك ساعدها في تخيّل صورته أثناء الحديث مع هذا الشيطان.

أطلعت إيلس أصدقاءها على ما جرى بينهما. وعبّرت عن خشيتها من أن تطول مدّة الاستدراج والإيقاع لأنه شديد الذكاء والثقافة، لدرجة أنها باتت تخاف من أن يوقع بها قبل أن توقع به. فأخذتها كلارا جانباً للتحدّث معها بشكل خاص بعيداً عن المجموعة:

- عليكِ إثارته، عبر محادثات السكايب أو الفيسبوك. وأنك تريدينه وتشتهينه الآن. حاولي معه عدّة مرّات. ثم أخبريه بأنك تريدين شيئاً واحداً فقط في هذا العالم وهو إنجاب طفل منه. ورتّبي معه موعداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع لممارسة الجنس. وفي حال تحديد الموعد والمكان، سنضع خطّة مناسبة. حاولي ممارسة أقصى

حالات الإغراء معه كأنّك إحدى ممثلات أفلام البورنو. وأثناء الحديث معه، قومي بتسجيل الفيديوهات، لأننا سنحتاج إليها لاحقاً.

- أخشى أن أصبح مدمنة على هذه اللعبة.

ضحكت كلارا، وأجابتها: لا تخشي شيئاً. يمكنك ممارسة ذلك مع جورجينيو أيضاً. يجب علينا الحصول على موبايله وحاسوبه بأي ثمن، وفي أقرب وقت ممكن، لأننا، على أقلّ تقدير، سننجح في قطع علاقاته مع الشبكة المصدّرة للأعضاء في لبنان وسورية، ونعرقل عملهم، إذا لم ننجح في معرفة الشخص الذي أعضاؤه تعيش فينا.

* * *

لم يمانع يان طلب إيلس بممارسة الجنس الافتراضي عن بعد، عبر السكايب. ويبدو أنه كانت لديه تجارب سابقة مع فتيات أخريات قام هو باستدراجهنّ إلى شركهِ. سجّل يان كل اللقاءات الحميمة، كي يستخدمها في ما بعد ضدّ إيلس ويبتزّها، عبر التهديد بكشف التسجيلات في حال لم تمتثل لأوامره.

بعد عدّة لقاءات جنسيّة لاهبة على السكايب، طلبت منه إيلس أن يعيشا معاً، وأنها لم تعد تقوى على فراقه لحظةً واحدة. وأنها مستعدّة للسفر الى بيروت للعيش معه، مهما كانت المخاطر. وصارت تتوسّل إليه كي يقبل ذلك، إلى درجة افتعال البكاء وذرف الدموع. وحين لمست منه الرفض، ذكرت له أنها مهووسة به وذائبة في غرامه، ورغبتها الوحيدة في هذه الحياة، أن تنجب منه طفلاً أو طفلة. وإلّا فإنها ستنتحر.

امتثل يان لرغبتها في عدم اكتراثه بجديّة أن يكون له طفل منها، أو أن يكون لوجود هذا الطفل أي خطر على مستقبله. كما خشي أن تقدم على الانتحار، وتترك رسالة تذكر فيها سببه، ما قد يترتّب على ذلك من تحقيقات جنائيّة وتبعات قانونيّة ترتدّ عليه سلباً.

أظهرت له إيلس بأن العالم لا يتسع لسعادتها على تلبيته طلبها. وذكرت له:

- متى ستكون هنا؟

- في بداية الأسبوع القادم. وسأبقى لأسبوعين.

- رائع. إذن، يمكننا قضاء أسبوع كامل. سأقوم بحجز غرفة في أحد الفناق في المناطق الساحليّة. أي مدينة تختار؟: أوستند؟ كنوكه؟ كوكسايده؟...

ضحك، وأجاب:

- مستحيل. أنا مشغول للغاية. لكن يمكن أن نقضي يومي نهاية الأسبوع معاً. يستحسن أن تحجزي في مدينة بلانكنبيرغ. هي أيضاً جميلة وعلى بحر الشمال.

- وهو كذلك. سأرسل لك عنوان الفندق. وسنتجه معاً من بروكسل الى بلانكنبيرغ.

لم تنم إيلس ليلتها، كمن حقق إنجازاً كبيراً، بعد عناءٍ شديد. تملّكها شعورٌ بالغبطة والحبور، وما إن انتهت من كتابة رسالة جماعيّة أرسلتها عبر الإيميل لكل أصدقائها، حتّى ارتخت أعصابها، فرمت بنفسها على السرير مجدداً، مستلقيةً على ظهرها، فاردةً ذراعيها، مغمضةَ العينين، مسترخيةً تنشدُ الغفوة. ولم تشعر بنفسها كيف غطت

في نومٍ عميق، استيقظت منه على رنين موبايلها. تناولته، فرأت أن الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهراً، وأن أغلب الأصدقاء اتصلوا بها، أكثر من مرّة، دون أن تشعر بصوت الهاتف. ما أثار قلق أصدقائها، ومنهم جورجينيو. فتحت الموبايل:

- ألو إيلس! أين أنت؟!

- صباح الخير جورجينيو. أنا في البيت. آسفة كنت نائمة، وصوت جرس الموبايل كان منخفضاً.

- كنت قلقاً عليكِ كثيراً. بعد أن قرأت رسالتك، حاولت الاتصال بك أكثر من خمس مرّات. وقلت في نفسي: إذا لم تردّ إيلس على هذا الاتصال، فسأتجه إلى بيتها فوراً. بالفعل. خشيت أنه ربما أصابك مكروه.

- أنا بخير. حقاً أنا آسفة. معذرة حبيبي.

كانت هذه أوّل مرّة تلفظ فيها إيلس هذه الكلمة، بحنين من لم يرَ حبيبه منذ سنواتٍ خلت. ما جعل جورجينيو يشعر وكأنّ قلبهُ يخرجُ من صدره، يجرّهُ سرب عصافير.

- نلتقي مساءً في منزل كاترين. أحبّكِ يا مجنونة.

- وأنا أكثر.

* * *

انتهت المجموعة من ترتيبات ليلة استدراج يان والقبض على أجهزته الإلكترونيّة. تمّ حجز غرفتين بهويّات أجنبيّة مزوّرة من التي يبيعها المهرّبون للاجئين في أثينا. الأولى لفتاة بولنديّة، والثانية

لشاب روماني. فعلوا ذلك لأنهم متأكّدون أن يان سيلجأ إلى الشرطة ومراجعة الفندق لمعرفة: باسم من تمّ حجز الغرفة؟ الغرفة الأولى، محجوزة من يوم الجمعة ولغاية صباح الاثنين، حيث تمّ دفع أجرة ليلة سلفاً. بينما الغرفة الثانية، تمّ حجزها ليوم السبت فقط، وسيبقى فيها جورجينيو وولات، لمساعدة إيلس على الهرب. ورغم أن العمليّة يلزمها يوم واحد، إلّا أنهم حجزوا لإيلس ثلاثة أيّام تحسّباً لأي طارئ.

اتصلت إيلس بيان للاستفسار منه عن أحواله:

- يان، حبيبي. أين أنت؟ اشتقت لك.

- مساء اليوم، سأنهي كل مشاغلي. ونلتقي صباح الغد لنتجه الى «بلانكنبيرغ» معاً. كان أسبوعاً متعباً جداً. أشعر بإرهاق شديد.

- عزيزي.. كما ذكرت لك، حجزت غرفة جميلة، لها شرفة تطلّ على البحر في فندق «دريم بالاتس». متأكّدة أنها ستعجبك. سنقضي فيها أجمل يومين في حياتنا. كذلك قطعت تذكرتَي القطار، درجة أولى، من محطة بروكسل «ميدي» إلى محطة «بلاكنبيرغ».

- أوه!! عزيزتي! هذا كثير جداً!!؟

- لن أجلب معي أيّ شيء يربطني بالعالم. لا الموبايل ولا اللابتوب. أريد أن أكون لك وتكون لي في هذين اليومين.

قالت إيلس ذلك، بهدفِ استدراجه للكلام، وزيادة التأكّد من أن أغراضه ستكون معه أم لا! لأنه سبق وقال لها إن حقيبة الكتف ترافقه دوماً في حلّه وترحاله، وكأنّها صارت جزءاً من هندامه. هذه الحقيبة التي فيها كل متعلّقاته الشخصيّة من موبايل، ولابتوب، وكاميرا

فوتوغرافيّة، وجهاز تسجيل، بالإضافة إلى كتاب، هي التي تجعل العالم في متناوله.

- جميل. بودّي فعل ذلك. ولكنني مضطر إلى جلب الموبايل والكمبيوتر المحمول معي. لأنه ربما حدثت أمور طارئة متعلّقة بالعمل، يجب عليّ متابعتها. وأعدك بألا أستخدمهما إلّا في حالات الضرورة القصوى.

كان يان سعيداً بهذا القدر من الاهتمام الذي توليه إيّاه إيلس. وغاب عنه حدسه الصحافي والبوليسي الذي يثير لديه الفضول والتساؤل عن سبب هذا الاهتمام المفاجئ والمطرد بل والمتفاقم لهذه الفتاة به إلى درجة الهيام والوله! وكل ما كان يشغل باله أنه سيقضي يومي إجازة في منطقة سياحيّة هادئة، بعيداً من ضجيج بروكسل وأعباء العمل، يأكل ويشرب وينام ويمارس الجنس، مجّاناً!

في القطار، أثناء الطريق، لم تتوقّف إيلس عن التحرّش به وتقبيلِهِ، وتسخينه وتهييجه أكثر. ولأن مقصورة الدرجة الأولى، عادةً ما تكون شبه خاويّة، وتقتصر على وجود بعض الركّاب المسنّين أو من الذين يفضّلون شراء تذاكر الدرجة الأولى، لأنهم يعتبرون ذلك شراءً للهدوء والراحة وتفضيلها على الضجيج والاكتظاظ الموجود في مقصورات الدرجة الثانية، لذا، لم يكن هنالك ما يحرج إيلس من وضع يدها بين فخذيه وفرك عضوه وتحسس انتصابه من تحت البنطال. كذلك كان يفعل يان عبر رفع تنورتها وفرك الفخذين وما بينهما. بالإضافة إلى فرك صدرها. وحين تلاحظ إيلس أنه هاج أكثر مما ينبغي، تنكفئ عنه، مفتعلةً الغنج والدلال. بالإضافة إلى أن مرور موظفي الكشف عن التذاكر في الممر الموجود في المقصورة، كان

يحول دون انفجار الوضع ليصل إلى درجة ممارسة الجنس في القطار. وكلما كانت إيلس تقوم بتهييجه وإثارته، تختتم الأمر بالقول: توقّف يا مجنون. قريباً سنكون في الفندق. ونفعل كل ما نريد.

وصلا الفندق بحدود الواحدة والنصف ظهراً. وحال إقفال باب الغرفة عليهما، حملها يان ورمى بها على السرير وانكبّ عليها، كذئبٍ ينقضّ على فريسة. بقيت إيلس مغمضة العينين، تتخيّل أنها مع جورجينيو، تتلوى في حضنه وتتمرّغ به. لكنها كانت تخشى أن تتلفظ باسمه سهواً أثناء اشتداد الهياج. كانت مهمّتها في غاية الصعوبة، بأن تتخيّل أنها تمارس الجنس بجنوح ومتعة عالية التوتّر، كي توهمه بأنها معه بكل خليّة من جسدها، وكل نبض يسري في عروقها، وفي الوقت عينه، تدرك أنها في أحضان وحش، متورّط في جرائم حرب، وكي تغطّي على هذا الشعور الوضيع والذي أطلقت عليه وصف العهر النبيل، كانت تتخيّل أنها في حضن حبيبها جورجينيو. وتشعر باللذة الممزوجة بوخزات الألم، على أنها تمارس مكرهةً، كمن تتعرّض لحالة اغتصاب، لكن مع الاحتكاك والإيلاج، تتولّد اللذّة أيضاً. لذا، كانت تزيد من إطلاق التأوّهات والصراخ، بهدف تهييج يان أكثر وتسريع القذف لديه، وافتعال أن الرعشة واتتها حتّى قبل حدوث القذف لديه. فتحت عينيها للحظة، فوجودته أيضاً مغمض العينين. انتابها إحساس بأنه هو أيضاً، ربما يتخيّل امرأة أخرى، أثناء ممارسته الجنس معها. وبعد ارتخائه ونهوضه من على صدرها، وارتمائه إلى جانبها، بعدّة دقائق، سألته إيلس:

- لماذا تغمض عينيكَ أثناء ممارسة الجنس؟!

- هذا سلوك عام، لا يقتصر عليّ. أنت أيضاً أغمضت عينيكِ!؟
- أغمضت عينيّ لأنني أردت التواصل معك روحيّاً أيضاً وليس جسديّاً فقط. أردت التركيز والانقطاع عن المحيط. أحياناً، أثناء لحظات الفرح والسعادة، يغمض المرء عينيه لشدّة المتعة. كذلك حين يتذوّق طعاماً أو يرتشف مشروباً، وكتعبير منه على لذّة الطعم، يغمض عينيه.
- أعتقد أن الأمر يتعلّق بالرغبة في التخيّل. ويعود ذلك إلى فترة المراهقة، وبدء الشاب والفتاة ممارسة العادة السريّة وتخيّل كل منهما جسد حبيب مفترض والممارسة معه.

مجدداً، بدأت إيلس بمداعبته وملامسة جسده وتمرير يدها على بطنه، صدره، كتفيه والعودة إياباً نحو الفخذين، ودغدغة خصيتيه برؤوس أصابعها. ثم حكّ المنطقة الفاصلة بين الشرج والخصيتين. وحين لاحظت تسرّب الاشتداد في ذكره مرّةً أخرى، أمسكته وبدأت فركهُ ومصّه ولعق رأسه. واصلت ذلك، مع إصدار الأصوات التي تنمّ عن الاستمتاع. زادت من وتيرة الفرك، لحين إطلاق يان صرخة اللذّة والنشوة المترافقة مع القذف. وكل هدف إيلس من ذلك هو إنهاكه واستنزافه للحدود القصوى.

بعد نحو عشر دقائق، نهض يان متجهاً نحو الحمام، ليأخذ «دوش» كي يستعيد نشاطه. وبعد أن أغلق الباب، دخلت عليه واستأذنته استخدام موبايله، بهدف إجراء اتصال عاجل مع صديقتها، لأنها تركت موبايلها في المنزل. فردّ عليها يان:
- أرأيتِ كيف أن الموبايل ضروري؟! يمكنك فكّ قفل الموبايل عبر إدخال اسمي مع إضافة رقم 2012.

- شكراً يان.

أغلقت الباب بسرعة. واتجهت نحو الحقيبة واخذت الموبايل. واتصلت فوراً برقم عشوائي على أساس أنها تتحدّث مع صديقة وهمية لها اسمها كريستينا. قامت إيلس بذلك، بعد أن خطر لها هاجس مفاده: طيب ماذا لو كان الموبايل مقفلاً؟ كيف يمكننا فتحه وتغيير قفله؟!

حفظت إيلس قفل الموبايل وأعادته إلى مكانه. بعد خروج يان من الحمام، سألها:

- ألا تريدين الاستحمام؟

- لا. أريد أن أبقى مضمّخة برائحتك. رائحة تعرّقك وفحولتك.

شعر يان بالسعادة لسماعه هذا الكلام. ارتديا ثيابهما وخرجا من الفندق لتناول الغداء ثم السير على الرصيف البحري. كان الجو لطيفاً ومشمساً والناس مستمتعة بالمشي على الرصيف والرمال. كثيرون مستلقون على الرمال، وآخرون يسبحون. أصوات النوارس وبهجة الناس تخيّم على المكان.

مدّت إيلس يدها إلى حقيبتها وسألت يان:

- هل ألفّ لك أيضاً سيجارة ماريغوانا؟

- طبعاً. ممتاز. شكراً.

توقفا وأسندا زنودهما إلى سياج الرصيف، وبدآ تدخين السجارة، ونظراتهما إلى البحر. وبدأت علامات الهبل تظهر على يان، مع بدء مفعول السيجارة الأولى. إذ صارت تنتابه موجات ضحك من دون سبب. ومع حلول المغيب، وازدياد النسمات الباردة، طلبت إيلس العودة الى الفندق.

وضعت إيلس على الطاولة زجاجة ويسكي أمريكي، وعدة عبوات من بيرا «دوفيل» مع المكسرات وشرائح من اللحم. ومجموعة من لفافات الماريغوانا. سكبت كأساً من الويسكي، أخذت منها رشفةً ثم أعطته إيّاها، مع ابتسامة إغواء. تناولها يان مع الشكر ومبادلة الابتسامة. ثم قال:

- حقّاً إنها لحظات سعيدة أشعر بها أوّل مرّة. أخشى أن يكون هذا حلماً!

- إنها حقيقة. ويجب أن نعيش هذه اللحظات بعمق.

بعد أن انتهى من كأسه، أشعلت إيلس لفافة ماريغوانا، وأخذت منها نفساً، ثم أعطتها ليان، الذي اتجه بها نحو الشرفة. بعد أن انتهى منها، عاد إلى الغرفة مغلقاً باب الشرفة، ليرى إيلس في ملابس داخلية حمراء مثيرة جداً، تحمل كأساً أخرى من الويسكي. وأيضاً أخذت منها رشفة، وأعطته إيّاها. بدأت إيلس بالرقص والإثارة وهو يرتشف كأسه. وبعد أن أوشك على الانتهاء من الكأس، أمسكت بيده وبدأت تجرّه نحوها. أخذت منه الكأس، وصارت تخلع عنه ملابسه قطعةً قطعة. ثم انكبّت عليه. لم تتركه إيلس تلك الليلة بحيث جعلته يصل الى مرحلة النشوة والقذف ثلاث مرّات. شعر يان بتعب وإرهاق شديدين، ولم يعد يقوى على فتح عينيه من شدّة النعاس والإعياء، نتيجة شرب الحكول وتدخين الماريغوانا وممارسة الجنس. أعطته إيلس كوباً من الماء، أذابت فيه حبّة منوّم، ومن شدّة الإنهاك والتعب، لم يشعر يان بطعم الماء. وبعد أن تأكّدت إيلس أنه غطّ في نوم عميق، ربما لن يصحو منه حتى لو تمّ قصف الفندق بالقنابل، حملت حقيبته بكل ما فيها، ولم تترك له سوى ثيابه. على

الفور اتصلت بجورجينيو وولات وطلبت منهما النزول فوراً وترك الغرفة. نزلت إيلس الى الطابق الأوّل، وخرجت من الفندق، وبدا عليها شيء من الترنّح، اعتبره الموظّفون في الاستقبال، أمراً عاديّاً. ثم نزل الاثنان ولحقا بإيلس. كانا قد ركنا سيارتهما في مرآب عام، يبعد عن الفندق مسافة مئتي متر تقريباً. لم يشاءا ركنها في مرآب الفندق تفادياً للفت الانتباه أو حدوث أي طارئ.

ناولت إيلس ولات موبايل يان وأخبرته أنه يمكن فك القفل عبر إدخال اسم يان مع رقم 2012. وطلبت منه فوراً تغيير قفل الموبايل، وتغيير الرقم السري لحسابه على الفيسبوك والسكايب وبريده الإلكتروني، وربط الرقم السري بهاتفه. أثناء الطريق إلى بروكسل، أنجز ولات كل هذه المهام، بحيث بات من المستحيل على يان دخول حسابه على الفيسبوك وبريده الإلكتروني على «جيمايل». لأن كلا الحسابين كانا مفتوحين ومربوطين برقم الموبايل. كذلك فتح اللابتوب. ولحسن الحظ، أن مفتاح القفل الموجود على الموبايل، كان نفسه مفتاح قفل اللابتوب أيضاً. وبالتالي تمّ نقل كل المعلومات الموجودة في «هارديسك» الحاسب، إلى «هارديسك» خارجي. وبالتالي لم تعد هنالك أيّة حاجة إلى أجهزة يان.

قال ولات:

- وجدت في محفظته 245 يورو، وثلاث بطاقات مصرفية. بطاقتان عاديتان، وأخرى «فيزاكارد». كيف يمكننا معرفة الأرقام السريّة لهذه البطاقات، كي نسحب ما يمكننا سحبه منها، لأجل تمويل السفر إلى لبنان والبدء برحلة بحث جديدة هناك؟

- فكرة جيّدة جدّاً. ولكن لا أعرف كيف يمكننا ذلك. أعتقد أننا لن نستطيع معرفة الأرقام السريّة، لأنه حال استيقاظه سوف يخبر الشرطة وسيتصل بالبنك كي يوقف العمل بالبطاقتين.

ضحك ولات قائلاً:

- لكن بطاقته الشخصيّة وجواز سفره، معنا. وحصوله على بطاقة وجواز سفر جديد، يلزمه وقت. ولن يفعل البنك شيئاً ما دام لا يملك ما يثبت بأنه الشخص، صاحب رقم الحساب المصرفي. خلال هذه الفترة، يمكننا المحاولة، ربما ننجح فيها؟

- فعلاً. كلامك صحيح... ردّ جورجينيو ضاحكاً.

لم تكترث إيلس لكل ما يدور حولها من أحاديث وضحك. وغطت في نوم عميق وكأنّها لم تنم منذ شهر. قامت المجموعة بتفريغ كل الملفات والصور والأرقام والرسائل الموجودة في موبايله. كذلك تمّ نسخ المراسلات الموجودة في حسابه على الفيسبوك، ورسائل البريد الإلكتروني.

قامت إيلس بتغيير رقم موبايلها، وبتعطيل حسابها على الفيسبوك وتوتير، وفتح حسابين جديدين، لئلا يتّصل بها يان مطلقاً.

استيقظ يان من النوم، مهدودَ الحيلِ منهكاً، مشوّشَ الذهنِ، يعاني من صداع، ولم يجد إيلس إلى جواره. للوهلة الأولى، ظنَّ أنها ربما في الحمّام. نهض من السرير متثاقلاً مترنّحاً، فانتابه سعال شديد. أثناء دخولهِ الحمّام، شعر بالغثيان. جلس على كرسي التواليت وتبوّل بغزارة وحرقة. ومع غسله يديه ووجهه، بدأ يسترجع وعيه. لم يعرف التوقيت، كونه لا يحمل ساعة يد. ومع خروجه من

الحمام، سقطت عيناه على ثيابه المرمية على الأرض. لم يجد هاتفه النقّال الموضوع على الكومودينة الموجودة بجوار السرير. على عجل، التفت نحو موضع حقيبته، فلم يجدها أيضاً. شعر بأنه تعرّض لعمليّة سرقة. ارتدى ثيابه بسرعة، ونزل إلى قاعة الاستقبال ليسأل الموظفين هناك، عن صديقته البلجيكيّة التي حجزت الغرفة، فأجابته الموظّفة بأن الغرفة محجوزة ليوم واحد فقط باسم فتاة بولنديّة اسمها إيفا بيتروفيتش. ويبدو أنها غادرت الفندق، والساعة الآن هي الخامسة مساءً، وعليه دفع أجرة يوم آخر، بدلاً من صديقته. لأنه كان عليه مغادرة الغرفة في الثانية عشرة ظهراً. حين عرف يان أن الغرفة محجوزة باسم فتاة بولنديّة، تأكّد من أنه تعرّض لخديعة كبرى. فذكر للموظفة أنه ضحيّة عميلة احتيال وسرقة ويطالب بقدوم الشرطة. على الفور، اتصلت الموظّفة بأمن الفندق، ثم بالشرطة، كي يعرفوا قصة هذا الرجل. ذكر يان حكايته. ولأنه لا يمتلك شيئاً يدلّ على شخصيّته، اعتمد على مقالاته وتقاريره المرفقة بصوره، المنشورة في الصحيفة التي يعمل فيها، كي يتعرّفوا على شخصيّته. اتصلت الشرطة بالصحيفة التي يعمل فيها، لأخذ المزيد من المعلومات عنه. فطلب يان من أحد زملائه، تحويل أجرة ليلة واحدة في الفندق، وكذلك تحويل ثمن تذكرة القطار من «بلانكنبيرغ» إلى بروكسل. ولم يستطع يان أن يقدّم للشرطة أي دليل على شخصيّة إيلس، باستثناء ذكره بعض ملامحها. ذلك أنه لا يعرف بياناتها الشخصيّة، ولم يستطع الدخول إلى صفحته على الفيسبوك أو إلى حسابه في السكايب كي يأخذ صورة من صورها لديه. وصار يان يضرب أخماساً بأسداس. وأن هذا الاستدارج الذي سقط فيه، بكل تأكيد، ليس بداعي السرقة

المحضة. لأن دافع السرقة، لن يدفع فتاة تخطط كل هذه المدّة للإيقاع به. ومع فقدان الأجهزة والحسابات ورقم الهاتف، انقطع الاتصال بين يان والجهة المورّدة للأعضاء البشريّة. وحين عرف الدكتور إدوارد فاندرويه ما جرى، جنّ جنونه، بخاصّة أنه لم يعد هنالك خيط واحد، يمكن أن يربط يان بالجهة المورّدة، ما من شأنه إدخال المستشفى في أزمة، وإلغاء الكثير من مواعيد إجراء عمليّات زراعة الأعضاء، أو الاضطرار إلى شراء أعضاء بأضعاف الكلفة التي كانوا يحصلون عليها في لبنان.

خوفاً من الانعكاسات والتبعات القانونيّة، والخشية من تسرّب المعلومات الموجودة في أجهزة يان إلى الإعلام والصحافة، وما يترتّب على ذلك من تبعات وانعكاسات قانونيّة وعقوبات ماليّة، قطع إدوارد علاقته مع يان، وطرده من مكتبه. ولكن يان قام بتسجيل مقابلاته الأخيرة معه، بغية ابتزازه لاحقاً، في حال فقد عمله، وأصبح شخصاً منبوذاً وملاحقاً قضائيّاً. وصار كل منهما يعيش حالة رعب وقلق وترقّب وحذر كبيرة من هول المفاجأة التي تنتظرهما، لأنهما لا يعرفان الجهة التي تقف وراء هذه العمليّة؟! لكنهما متأكّدان أنها ليست حالة سرقة عادية قامت بها عصابة محترفة، بل ثمّة جهة ترصّدهما، هي التي خططت ذلك، ونفّذت عمليّتها بمهارة وخبرة. وصار إدوارد يفكّر بمن له مصلحة في إيذائه من الخصوم والمنافسين. وخلص إلى نتيجة وهي ضرورة قطع علاقاته مع كل شبكات توريد الأعضاء من الشرق الأوسط وجنوب آسيا، ريثما تتبيّن خلفيّات وتبعات ما حصل في «بلانكنبيرغ».

عمليّة تفريغ وفحص محتويات اللابتوب والموبايل والإيميل

والفيسبوك، من رسائل واتصالات وملفّات وصور...، وترتيبها وتحليلها، استغرق أسبوعين تقريباً. اكتشفت خلالها المجموعة الكثير من الأسرار حول يان وعلاقاته مع جهات عديدة متصارعة على الأرض في سورية، ابتداء بالنظام والمعارضة السياسيّة والمسلّحة. وأثناء تواصله مع كل جهة من هذه الجهات، يؤكد يان أنه موالٍ لها. لكن كل ذلك لم يكن مهمّاً بقدر أهميّة الكشف عن مصدر الأعضاء البشريّة، ومعرفة اسم الشخص وهو العميد في المخابرات العسكريّة السوريّة ذوالفقار العلي، ومعرفة حسابه على الفيسبوك باسم مستعار «فدائيي الأسد»، وصور لقائه بيان في بيروت، والمراسلات بينهما، ورقم هاتفه...! ومن خلال المراسلات بينهما عبر الإيميل والفيسبوك ورسائل «اس ام اس»، اتضح أنه لا يجيد الإنكليزيّة بطلاقة. ليس هذا وحسب، بل حصلوا على معلومات كاملة ودقيقة عن الشحنات وتواريخها، وعدد الأعضاء البشريّة المشحونة، وقيمة الأموال المقبوضة التي وصلت إلى ملايين الدولارات، وإشعارات التحويل. وحينها، رأت المجموعة أن الأمر لم يعد فقط مجرّد البحث عن هويّة شخص تمّ استئصال أعضائه وبيعها لأحد مستشفيات بلجيكا، بل صار قضية رأي عام، ويمكن إعداد ملّف كامل عن جرائم نظام الأسد، والجهات الأوروبيّة المتعاونة معه، في ما يتعلّق بتجارة الأعضاء البشريّة، واعتبار ذلك من الجرائم ضد الإنسانيّة. وأن هذه المهمّة، على خطورتها وحساسيّتها، هي خدمة صغيرة، يمكن أن تقدّمها المجموعة لسورية وشعبها. كما خصصت المجموعة ملفّاً خاصاً بالمراسلات بين يان وفاندرويه، تؤكّد تورّطه في الاتجار بالأعضاء،

وتدينه وتفتح عليه أبواب الجحيم والملاحقة القانونيّة والسجن، ووضع السلطات البلجيكيّة اليد على أرصدته ومتلكاته الموجودة في بلجيكا، بل في كل دول الاتحاد الأوروبي!

قررت المجموعة تكليف جورجينيو بمهمّة التواصل مع العميد ذوالفقار العلي، والتمهيد للقاء به في بيروت. ذكرت كاترين أنها تملك بيتاً في بروكسل، قيمته نحو 250 ألف يورو، ستعرضه للبيع، وأن لديها مدخرات من راتبها التقاعدي تساوي نحو 100 ألف يورو، وستضع كل ذلك في خدمة إنجاز هذه المهمّة. اندهش الجميع لسماع ذلك! استفسر ولات عن سبب كل هذا الإصرار في التكفّل بتغطية نفقات هذه المهمّة! أجابت كاترين:

- عشت في سورية أجمل خمس سنوات في حياتي. وأردتُ البقاء والموتَ والدفن هناك. هذا الحلم، سلبني إيّاه النظام السوري. وسبق أن حدّثتك عنه. أنا في السابعة والسبعين من عمري. وحين أموت، ستذهب هذه الاموال إلى البلديّة، لأنه لا يوجد من يرثني. ثم إنه ماذا تساوي كل هذه الأموال أمام الخمس سنوات التي عشتها في دمشق؟! ماذا تساوي هذه الأموال أمام جسد الإنسان السوري الذي تمزّق، وأعضاؤه موزّعة على أجساد جورجينيو وكلارا ورولان؟! صحيح أن هنالك تورّطاً أوروبياً في مأساة الشعب السوري، ولكن صحيح أيضاً أننا نحاول التبرّؤ من هذه السياسات وهذا العار!! أنا أتبرّع فقط بالمال. وماذا يعني هذا أمام تضحية إيلس بجسدها ومجازفتها حتى حصلنا على هذه المعلومات؟ ها هو جورجينيو سيغامر ويجازف بحياته لتحقيق هذه المهمّة. يا ليت كل مشاكل السوريين كان يمكن حلّها بالمال...!؟ يا ليت؟!

أثّر كلام كاترين في المجموعة، فالتفّوا حولها، يقبّلونها تقبيل الأولاد أمّهم الرءوم.

* * *

قبيل سفره إلى بيروت، ومن خلال العناصر الأمنيّة المنشقّة، جمع جورجينيو ملفّاً كاملاً عن العميد ذوالفقار العلي، وعرف عنه أن الإعلام يجهله، وأنه ينحدر من أسرة فقيرة من قرية جيبول الجبليّة في الساحل السوري، التابعة لمحافظة اللاذقيّة. لم يستطع دخول الثانويّة العامّة بسبب تدنّي درجاته في المرحلة الإعداديّة. ولكونه عضواً في حزب البعث، استطاع، بشقّ النفس، إكمال المرحلة الثانويّة المهنيّة. إخوته الشبان الأربعة وأخواته البنات الثلاث، كانوا يعملون في حقول التبغ والحمضيات التي تشتهر بها قريته، كي يؤمّنوا له مصاريف الدراسة. توسّط له أحد القيادات البعثيّة لدى المسؤولين الأمنيين كي يقبلوا به ضابطاً متطوّعاً في سلك المخابرات العسكريّة، كونه فشل في فحص القبول! نجحت الوساطة. وبعد إتمامه تدريباته، لحسن حظّه، تمّ فرزه إلى منطقة الجزيرة، شمال شرق سورية، الغنيّة بالمحاصيل الزراعيّة والنفط، وبقي هناك نحو 10 أعوام، جمع خلالها ثروة متواضعة، لكنها ضخمة، قياساً ببؤس الحال التي كان يعيشها سابقاً. هذه الثروة، جمعها من خلال ممارسة الابتزاز والتهديد والوعيد بحقّ الأكراد هناك. وعن طريق الرشوة والتقارير الكيديّة في زملائه، تمّ نقله إلى دمشق. في منتصف الثمانينيات وحتى مطلع التسعينيات، استلم الطريق العسكريّة التي تصل بيروت بدمشق. خلال تلك الفترة، تشعّبت علاقاته، وكسب ثقة مسؤوليه به، فازداد

ثراءً وبطشاً، حتّى بأهل قريته. حيث وضع يديه على بساتين بعض المزارعين البسطاء، التي كان يعمل فيها إخوته، وبنى في أحد البساتين فيللا كبيرة، تتوسّط أشجار البرتقال والتفاح والرمّان. من شرفة منزله الضخم، كان ينظر إلى ساحل البحر، وإلى المزارعين الذين تحوّلوا إلى فلّاحين يعملون في بساتينهم التي أصبحت ملكاً له.

أثناء عمله على الحدود اللبنانيّة - السوريّة، صار ذوالفقار يعرف كل التحرّكات السريّة للمسؤولين والضباط السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، بالإضافة إلى اطلاعه على حركة تنقّل السلاح من سورية إلى داخل لبنان، وعمليّات تهريب البضائع، إلى درجة أنه أصبح مصدر ثقة حزب اللّه اللبناني، حتى أكثر من المسؤوليين الأمنيين السوريين المكلّفين بإدارة لبنان في الخفاء، كالكولونيل محمد غانم وبعده الجنرالين غازي كنعان ورستم غزالي. ومع خروج الجيش السوري من لبنان بعد حادثة اغتيال رفيق الحريري، تمّت ترقيته إلى رتبة مقدّم إلى عقيد. وبقي في لبنان كونه يحمل الجنسيّة اللبنانيّة، على أنه مواطن لبناني من منطقة «جبل محسن» في محافظة طرابلس. لكنه يسكن في أحد الأبراج المطلّة على البحر، في حيّ الروشة. وقيل عنه إن ولائه لحزب اللّه وزعيمه، صار يتجاوز الولاء لنظام الأسد.

كان ذوالفقار على وشك أن يصبح نائباً في البرلمان اللبناني سنة 2009، إلّا أنه فشل، بأمر من بشّار الأسد، واستدعائه له بشكل مفاجئ إلى دمشق، وتكليفه بمهام سريّة، لم يُعرف عنها شيء في حينه. والآن، يدير ذوالفقار شبكة لتهريب الأعضاء البشريّة التي يتم استئصالها من المعتقلين، بهدف تمويل النظام. ومع ذلك، بقي

الجنرال ذوالفقار العلي، خارج لائحة العقوبات الأمريكيّة والأوروبيّة الصادرة بحق رجال نظام الأسد، على اعتباره مواطناً لبنانياً يعمل في الخفاء.

المعلومات التي حصل عليها جورجينيو من نشطاء سوريين وعسكريين منشقّين، كانت كافية لإحالة العلي إلى محكمة الجنايات الدوليّة، كمجرم حرب.

بدأ جورجينيو الاتصال به، معرّفاً عن نفسه بأنه مندوب المافيا الإيطالية، وأنهم يريدون التعاون معه على نطاق واسع وكبير، أضعاف التعاون الذي كان يجمع ذوالفقار والصحافي البلجيكي يان دو كاستيلير. وأنه ينبغي عليه أن ينسى هذا الشخص نهائيّاً، بسبب افتضاح أمره للسلطات البلجيكيّة. وأن كل الوثائق التي كانت بحوزة يان، وتدين العلي، صارت بحوزتهم، وأرسل جورجينيو بعض الصور الفوتوغرافيّة التي تجمعه مع يان في بيروت، ونماذج من إشعارات تحويل المبالغ له، وصوراً عن المراسلات البينيّة، كدليل على ذلك. مؤكّداً له أن المافيا الإيطاليّة لا تريد إلحاق الأذى به، في حال وافق على التعاون معها. في البداية، تجاهل ذوالفقار الردّ على رسائل جورجينيو، إلّا أنه بعد توجيه تهديد له بأنهم يعرفون ويراقبون تحرّكاته في بيروت ودمشق، وبإمكانهم الوصول إليه. وأرفق جورجينيو رسائله بالمزيد من الصور والوثائق المتعلّقة بلقاءاته مع يان. حاول ذوالفقار الاتصال بيان على الهاتف والإيميل والفيسبوك. . وكل قنوات الاتصال التي كان تربطهما، لكنه لم يتلقّ ردّاً، إلّا من جورجينيو المسيطر على كل حسابات يان، قائلاً له: «ألم أقل لك، انسَ هذا الصحافي البلجيكي. التوقيع: جورجينيو؟».

وقتذاك، قرر ذوالفقار الردّ والتواصل مع هذا الوافد الجديد، بعد أن لمس منه الجديّة والخطورة.

بعد عدّة رسائل، أقنعه جورجينيو بأنهم سيؤمّنون له الجنسيّة الإيطاليّة، وباسم إيطالي أيضاً. وسيبقى بمنأى عن الملاحقة الدوليّة في حال سقط نظام الأسد، الذي سيسقط عاجلاً أو آجلاً. فما عليه إلّا تأمين حياته. وأنهم سيساعدونه في نقل عائلته إلى أوروبا، وتبييض أمواله عبر إيطاليا. وحياته ستكون مؤمّنة حتّى أكثر من حياة بشّار الأسد نفسه.

وذكر له أنه قادم إلى بيروت، وسيكون بحوزته عقد أوّلي بقيمة 30 مليون دولار، لاستيراد كميّة من الأعضاء البشريّة، بحيث تكون مهمّة الحفظ والشحن عبر مطار بيروت الدولي، مسؤوليّة ذوالفقار. وأشار إلى أن هنالك عقوداً قادمة، تصل قيمتها إلى مئة مليون دولار. بالنتيجة حاول جورجينيو ممارسة كل أساليب الإغراء والترغيب والترهيب عليه بهدف إقناعه بالتعاون معهم. وفي نهاية المطاف، نجح في ذلك.

خلال فترة المراسلات هذه، شاهد جورجينيو الكثير من الأفلام السينمائيّة المتعلّقة بعصابات المافيا، والأفلام الوثائقيّة عن عالم الجريمة المنظّمة، وقرأ العديد من المقالات عن لبنان وبيروت، وعن حضور ودور المخابرات السوريّة في لبنان. وكان يطلع أصدقاءه على مراحل ومستوى التواصل بينه وبين ذوالفقار. وأخيراً، حزم أمتعته وقرر السفر إلى بيروت. حجز في فندق رخيص، بنجمتين، اسمه «ريجيس» في شارع ابن سينا، ولكنه أوهم ذوالفقار بأنه حجز في

فندق فخم اسمه «ريفييرا بيروت،» حين دعاه إلى تناول غداء عمل وتعارف في ترّاس الفندق المطلّ على البحر.

من خلال أرشيف الصور لدى يان، تمكّن جوجينيو من التعرّف على ذوالفقار بسرعة. رجل طويل القامة، ممتلئ، مفتول العضلات، أنيق، خفيف الذقن، ببشرة بيضاء وشعرٍ أشهب مصفف بعناية. ذو عينين عسليتين، شبه دائريتين تفيضان لؤماً كعيني نمس، حين تترصّد الطريدة. ملامحه ملتبسة، توحي لمن يحسن الظنّ به بأنه رجل ودود وأليف. الغموض في ملامحه مقلق ومثير للرهبة والتوجّس. ولكن جورجينيو بقي مجهولاً لديه.

دخل ذوالفقار مكان اللقاء، يصحبه أربعة رجال حماية، لا يقلّون عنه ضخامة وبأجساد قويّة وعضلاتٍ مفتولة. رحّب به رئيس النُّدُل وكأنّه يعرفه، واصحطبه الى الطاولة التي حجزها جورجينيو، وقال:

- أهلاً وسهلاً، مسيو ذوالفقار. تفضّل هنا. لحظات ويأتي مسيو جورجينيو.

اتفق جورجينيو مع رئيس النُّدُل، بعد أن أعطاه اسم وصورة ضيفه وأنه سيأتي إلى هنا، ويجب الترحيب به واصطحابه إلى الطاولة المحجوزة، والتأكيد على أنه قادم بعد لحظات. وكان جورجينيو يراقب الأمر من خارج ترّاس الفندق. كل ذلك، كي يدخل إلى قلب ذوالفقار شيئاً من الرهبة والترقّب وأن كل شيء مرتّب ومعدّ مسبقاً.

رن موبايل ذوالفقار، فظهر في الشاشة رقم خاص، ففتحه:

- ألو؟ من معي؟

- أنا جورجينيو أندريوتي. لحظات وآتي إليك. ولكن أخبرْ

رجال حمايتك بمغادرة المكان، وانتظارك خارج الفندق. أنت في أمان. لا تقلق.

نظر ذوالفقار حوله، فوجد الأمور طبيعيّة، وليس هنالك ما يثير الانتباه أو الشبهة. فطلب من مرافقيه انتظاره في السيارة خارج الفندق، لحين انتهاء اللقاء. بعد مغادرة الرجال الأربعة، وبقاء ذوالفقار وحيداً على الطاولة، فوراً جاء جورجينيو، ومدّ يده للمصافحة، معتذراً عن الطلب بضرورة مغادرة عناصر الحماية. معللاً ذلك، بأنه تدبير أمني، خشية أن يكون فريق الحماية مخترقاً.

تفاجأ ذوالفقار بأن الشخص الذي يلتقيه في عمر أولاده. لكنه شعر باطمئنان غريب تجاهه، لا يمكن أن يصدر من رجل أمن تجاه شخص مجهول، يلتقيه أوّل مرّة. هذه الطمأنينة التي لم يستطع أن يجد لها تفسيراً منطقيّاً، أسست لما يشبه الثقة أو الإقرار بصدق كلام جورجينيو لدى ذوالفقار. ربما لأن الشاب الإيطالي حاصره بالمعلومات والصور والوثائق المرسلة له، وبالوعود التي قطعها له، لقاء تعاونه مع المافيا الإيطاليّة في ما يخصّ تهريب الأعضاء البشريّة واستيرادها من سورية وتزويد شبكة من المستشفيات الأوروبيّة بها. بالإضافة إلى الأجواء السينمائيّة التي استقبله بها.

أرسل له جورجينيو صورة من العقد، كي يطلع على بنودهِ، قبل وصوله إلى بيروت. فأخرج نسخة من حقيبة صغيرة معه، كي يتمّ التوقيع عليه. وقبل ذلك، سأله جورجينيو عن أيّة ملاحظات على العقد، أو أيّة فقرات غير واضحة فيه.

ردّ ذوالفقار بالنفي، وأنه اطلع على كل بنوده. فذكّره بأن هذا العقد، صحيح أنه مبرم بين شركتين طبيتين، ولكنه في الأصل

والجوهر بين نظامين في بلدين: نظام المافيا الإيطاليّة والنظام الحاكم في سورية. وأن الالتزام ببنود العقود هو من مصلحة الجانبين. ومع ذلك، ستتعامل المافيا الإيطاليّة مع ذوالفقار بصفة خاصّة. وفي حال نجح هذا العقد، وتم التوقيع على عقود أخرى، سيصار إلى البدء بإجراءات منحه الجنسيّة الإيطاليّة. ونصحهُ جورجينيو ممازحاً بتعلّم الإيطاليّة من الآن. وقال له بشكل مباشر:

- بحسب ما لدينا من معلومات، فإنكم تستأصلون الأعضاء من السجناء المعارضين لكم. هل يتم ذلك بعد اتخاذكم قرار الإعدام تحت التعذيب بحقّهم؟ أم يتمّ ذلك وهم أحياء، وليسوا موتى سريريين؟!

استغرب ذوالفقار طرح سؤال كهذا، لأنه لا علاقة له بطبيعة العقد والاتفاق. فردّ عليه بسؤال آخر:

- وما الذي يفيدك في الأمر؟! المهم أن تستلم أعضاء سليمة، جاهزة للزرع، مطابقة لمواصفات العقد. وما دمتَ واثقاً بالمعلومات التي لديك، فلماذا تسأل؟!

حاول جورجينيو استدراك الأمر، واستدراجه للحديث، فردّ عليه مبتسماً:

- سؤالي كان من باب الاستئناس في الحديث، لأننا اتفقنا على كل شيء. ولم يبقَ ما يمكن أن نتحدّث حوله. وإجابتك لن تضيف شيئاً إلى معلوماتنا، لأنها مؤكّدة كما قلت لك.

- نحن نعتبر من نأخذ منهم الأعضاء، أسرى حرب.

- أي حرب؟!

- هؤلاء الخونة الذين يخرجون في المظاهرات ويريدون إسقاط نظام الحكم في سورية. هؤلاء إذا استلموا الحكم في البلد، فسوف يبيدوننا عن بكرة أبينا.

- من أنتم؟!

- العلويون. نحن أقليّة دينيّة. هذه التفاصيل لا تهمكم كثيراً. عموماً، نحن لسنا مثلكم. ونكتفي باستئصال عضو أو أكثر من الشخص، ونسلّم جثّته لأهله. ولم ننصب مثلكم الأفران والمحارق للناس، يعني لا نحوّل كامل الجثّة إلى رماد. نبقي على البعض منها، من قبيل الذكرى لذويه.

اختتم كلامه بضحكة خفيفة.

- نعم. هذا حقكم في الدفاع عن أنفسكم ومصالحكم. لا يغرّنّك كلام الأوروبيين. هم مسرورون لاستمرار هذه الحرب الأهليّة. فمن يهاجر، يتحوّل إلى يد عاملة رخيصة في بلادنا. أو يصبح أولاده ملكاً لمجتمعاتنا وثقافتنا. والمتبقي من السوريين داخل سورية، تصلنا أعضاؤهم كي نزرعها في أجساد مواطنينا. يعني نحن الرابح الأكبر من استمرار هذه الحرب. ما دام الغرب يقف معكم، فلن يسقط نظامكم حتى ولو انتفض الشجر والحجر عليكم. عموماً، هذا شعبكم وأنتم أحرار في الطريقة التي ترونها مناسبة لقتله.

أنهى جورجينيو كلامه، وافتعل ضحكة خفيفة. في حين أدخل هذا الكلام السرور إلى قلب ذوالفقار. ثم طرح عليه سؤاله الرئيسي:

- ذكرتَ أنكم تستأصلون أكثر من عضو من شخص واحد!؟

- نعم. نحن أحرار. أحياناً، نأخذ أكثر من عضو من الأشخاص

الذين تكون خيانتهم مضاعفة. وأقصد هنا من يكونون من ملّتنا وطائفتنا. بحيث يكونون خونة على أنهم يعارضون النظام بشكل عام. وأنهم خونة لأنهم انشقوا عن الطائفة، وصاروا يعادونها، بشكل خاص. هؤلاء، يكون غضبنا عليهم مضاعفاً وعظيماً. لا يمكننا أن نساوم في هذه المسألة. وسأقصّ عليك حكاية شخص من قريتي اعتقلناه واستأصلنا من جسده ما أمكننا من أعضاء.

- أنت من قرية جيبول، أليس كذلك؟! يُقال إنها جميلة. بودّي زيارتها، يوماً ما.

هدفُ جورجينيو من السؤال لم يكن التأكّد من اسم القرية، بل إشعار ذوالفقار بأنهم يعرفون عنه كل شيء!

- نعم، من جيبول. هذا الشخص كان ابن جيراننا، ومن عائلة معروفة ومتديّنة. ذكي جداً في المدرسة الابتدائيّة، ومحبوب من المدرّسين وكل بنات الصف كنّ يحببنه. كنت أحسده وأغار منه كثيراً. مستواي كان دون الوسط، بينما هو، فمتفوّق ويجلس على المقعد الأوّل، وأجلس على المقعد الذي يليه. في إحدى المرّات، اختلقت حجّة، وتحرّشت به، كي أضربه بشكل مبرّح، وأهينه أمام معجباته البنات، وأظهر لهنَّ مدى ضعفهِ وقوّتي البدنيّة. أدميته، فصار ينزف من أنفه وفمه. وحين سأله معلّم المدرسة: «من الذي فعل بك هكذا؟»، استدار وأشار بإصبعه نحوي وقال:

- هذا الطبل، ضربني.

انفجر المدرّس والتلاميذ بالضحك. فزاد المعلّم على كلامه وقال: ينبغي ألّا يكون اسمك ذوالفقار، إنما الطبل، بل البغل أيضاً.

لصق بي هذا اللقب، طيلة حياتي. وشاع في المدرسة وفي

القرية، ووصل إلى بيتنا. صار والداي ينادياني تارة بالطبل، وأحياناً بالبغل. وكان أبي يقول لي: حسناً فعل حيدر ابن الشيخ لقمان السنجاري، حين شبّهك بالطبل. حتى ولو أصبحت في يوم من الأيام باشا أو رئيس جمهوريّة، فستبقى طبلاً.

قتلني ذلك الطفل الذي كان اسمه حيدر. قتلني في المدرسة، والمنزل، وفي القرية. وحتّى الآن، وأنا ضابط كبير في المخابرات، ما زال الضباط الأعلى منّي رتبةً، والذين يعرفون حكايتي ولقبي، ينادونني في ما بينهم «العميد طبل.. العميد بغل».

- وماذا حدث لذلك الطفل حيدر؟

- كنت أمقته وأكرهه كثيراً. أحسست أنه قاتلي وقاتل أبي وأمّي وكل إخوتي. في المرحلة الثانويّة افترقنا. أنا أصبحت عضواً في حزب البعث. بينما هو صار شيوعيّاً، ينتمي لتنظيم سرّي معارض للنظام. اعتقل نهاية الثمانينيات، وبقي في السجن خمسة عشر عاماً. سررتُ جداً باعتقاله. وتأسّفت لأنني لم أشرف على تعذيبه. بعد الإفراج عنه، أصبح كاتباً مشهوراً، يكتب المقالات التي تستهدف الحكومة والدولة والرئيس ويريد إثارة الفوضى والنيل من هيبة الدولة والسلطة. وبعد نشوب الأزمة والمؤامرة على الدولة والحكومة، عاد حيدر إلى نشاطه المعادي للنظام. فاعتقلناه بسرعة، لأن هنالك علويين كثراً يسمعون له ولأفكاره المسمومة.

سمعت من أحد زملائي الضبّاط خبر اعتقال حيدر السنجاري. فطلبت منه مقابلته والإشراف على تعذيبه. فتمّ لي ذلك، التقيت به بعد مضي ما يزيد عن عشرين سنة. كان مقيّد اليدين، وآثار التعذيب واضحة على وجهه. سألته: «ألا تتذكرني؟!». أجاب:

- لا.

- اليوم، حانت الفرصة كي أنتقم لنفسي. أنا ذوالفقار، الذي أطلقت عليه وصف الطبل. حان الوقت كي أستردّ شرف وكرامة ذوالفقار منك أيّها الخائن العميل.

وجّهت له لكمة قويّة أوقعته أرضاً، فارتطم رأسه بالجدار، وتدفّق الدم من أنفه وفمه وأذنيه. على الفور، طالبت بنقله إلى قسم استئصال الأعضاء. استأصلنا القلب، الكبد، الكليتين، البنكرياس، المعدة، المثانة، الحالبين...، وكل ما يمكن استئصاله منه وبيعه في سوق الأعضاء.

- وهل ارتحت؟!

- تنهّد وقال: لا طبعاً. صار كابوساً يلاحقني في المنام.

- إيطاليا ستخلّصك من كل كوابيسك وأحلامك المزعجة. لا تقلق. عليك أن تثق بنا.

- على فكرة، ربما أعضاء حيدر السنجاري موجودة الآن في أوروبا.

- نعلم ذلك. في بلجيكا. وهذا يعني أنه لم يمت بالكامل.

- كيف لم يمت؟! أقول لك إني قتلته بلكمة واحدة. واستأصلنا أعضاءه؟!

- ألم يكن على قيد الحياة، حين أخذتم منه أعضاءه؟

- بلى. في موت سريري.

- هذه الأعضاء ما زالت حيّة. وربما تعيش الآن في أجساد أناس آخرين. يعني أن حيدر لم يمت بالكامل. وربما ينتقم منك لاحقاً.

- ماذا تقول؟!.... شعر ذوالفقار بالضيق والمفاجأة، لسماعه هذا الكلام. ضحك جورجينيو محاولاً طمأنته:

- أنا أمزح. هل تخاف من رجل ميّت؟!

- لا. لست خائفاً. إنما أنت طرحتَ فكرة غريبة! لدينا في الطائفة شيء اسمه عقيدة التقمّص. وهي انتقال روح شخص بعد موته إلى شخص آخر. وفي حال حدث ذلك مع حيدر، هذا يعني أنه ليست فقط روحه حيّة، وتتسبب لي بالكوابيس، بل أعضاؤه أيضاً، ما زالت حيّة، وموجودة في أجساد أناس آخرين!؟ وهذا ما استوقفني.

- ما دمنا معك، وإلى جوارك، فلا تخشَ شيئاً في هذا العالم. سررت جداً بهذا اللقاء وهذا الاتفاق. وعلى أمل أن يستمرّ ويتطوّر التعاون بيننا. وتكون الاستفادة متبادلة.

فهم ذوالفقار من كلام جورجينيو أنه يودّ إنهاء اللقاء. فردّ عليه بالإيجاب والترحاب.

- غداً، أنا مشغول جداً. لدي بعض المواعيد واللقاءات هنا في بيروت، مع بعض الجهات والمؤسسات والشخصيات. وآمل أن تقبل دعوتي على العشاء، في نفس هذا المكان. أنتظر منك اتصالاً لتأكيد مجيئك. وآمل أن تنقل تحياتي وتحيّات جماعتنا إلى مسؤوليك.

- وهو كذلك. نلتقي قريباً.

فور مغادرة ذوالفقار، اتصل جورجينيو بولات طالباً منه البحث عن معارض سوري اسمه حيدر لقمان السنجاري، من قرية جيبول. هنالك احتمال كبير أن يكون هو صاحب الأعضاء. ذاكراً أنه عائد

إلى بروكسل غداً أو بعد غد. فقد انتهت مهمّته بسهولة وسرعة قياسيّة، لم يكن أحد يتوقّعها أبداً.

باشر ولات اتصالاته بالنشطاء، والبحث في محرك «غوغل» فظهرت له صور ونتائج مبهرة...

الاسم: حيدر لقمان السنجاري. مواليد: 1962، قرية جيبول. كاتب معارض سوري، وسجين سياسي سابق. اعتقل في 20/ 5/ 2011. وذكر النشطاء والمنظمات الحقوقيّة ووكالات الأنباء خبر اعتقاله، وإنكار النظام وجوده في معتقلاته. ثمّ سلّمت جثّته لأهله بعد مضي أسابيع على اعتقاله، وقيل لهم إنه انتحر في السجن. لديه شقيق يصغره سنّاً، ضابط منشقّ برتبة نقيب، موجود في تركيا، اسمه علي لقمان السنجاري.

* * *

يقترب ماراثون البحث عن هويّة أصحاب الأعضاء من نهايته. ولم يبقَ إلّا البحث عن شقيق حيدر في تركيا واللقاء به، وإجراء فحص الـ(DNA) ومقارنة النتيجة مع الفحوصات السابقة، وفي حالة التطابق، سيتأكّد مئة بالمئة أن حيدر هو هذا الشخص الذي تسكن روحه أجساد رولان، كلارا وجورجينيو.

هذه المرّة، قررت كلارا تجشّم عناء السفر إلى تركيا. ومن خلال التقصّي والتحرّي عن هذا الضابط، عرفت المجموعة أن النقيب علي موجود في مخيّم «أبآيدن» القريب من الحدود التركيّة - السوريّة، المخصص للضبّاط والجنود المنشقّين. رتّبت كلارا للسفر، بعد أن اتصلت بالضابط علي، عبر مترجم، وأطلعته على التفاصيل،

وأنهم يريدون فقط فحص الـ(DNA) الخاص به ومقارنة النتيجة مع ما لديهم من نتائج، للتأكد من أن صاحب الأعضاء هو شقيقه حيدر أم لا. شعر عليّ بالتوجّس والقلق من هذه الاتصالات، ولم يصدّق رواية الفتاة الأجنبيّة. وشكّ في أن الأمر ربما يكون مخططاً من قبل نظام الأسد، بهدف اختطافه، كما حدث مع الضابط المنشقّ حسين هرموش. اضطرّت كلارا إلى الاستعانة بنشطاء سوريين في تركيا وأوروبا للاتصال بعلي كي يطمئنوه ويقنعوه بضرورة اللقاء. وبعد الحصول على موافقة علي، حجزت كلارا في فندق على أطرف مدينة أنطاكيا، اسمه «أونور»، وقطعت تذكرة الطائرة. وأرسلت تفاصيل موعد وصولها إلى مطار أنطاكيا، وعنوان الفندق إلى علي.

في البداية، أرسل علي موفداً من قبله للقاء كلارا. وتم الاتفاق على أنه سيأتي شخص ويأخذها لملاقاته والذهاب معاً إلى أحد مختبرات التحاليل الطبيّة في أنطاكيا.

أثناء اللقاء، اعتذرت كلارا عما تسببت له من قلق وإزعاج. وأنها كانت مجبرة على ذلك، وقطعت كل هذه المسافة، كي تلتقي به وإجراء التحليل الطبّي. وحاولت الاستفسار منه حول أوضاعه. أجابها بنبرةٍ منكسرة، مترعة بالخيبة والإحباط، كمن كان غارقاً في حلم، وفجأةً انهارت جدران الواقع والحقيقة المرّة فجأةً على رأسِ:

- سيدتي. أوضاعنا سيّئة للغاية. كأننا في معسكر اعتقال. يتعامل الأتراك معنا، وكأننا كباش أو عجول للتسمين، بغية إرسالها للذبح، في نهاية المطاف.

استغربت كلارا كلامه، ولم تفهمه، رغم استشفافها الملل والتذمّر والسخط. فتساءلت:

- لم أفهم ما تقصد بالضبط؟! الإعلام يقول إن تركيا مع الثورة وتدعم اللاجئين والمعارضة السياسيّة والمسلّحة ضد نظام الأسد؟!

- نعم، نعم... ولكنها مثل قناة «الجزيرة»، تريد فرض تصوّر معيّن على الأحداث، بما يناسب أهدافها ومصالحها. تركيا تريد من الضابط السوري العلوي والدرزي والكردي والسرياني والأرمني والإسماعيلي، أن تكون مرجعيته جماعة الإخوان المسلمين. والكثير من الضبّاط والجنود المنشقّين يرفضون ذلك أو يتحفّظون على الأمر. للأسف، هربنا من جحيم نظام الأسد لنسقط تحت رحمة تركيا وأجندتها السياسيّة والدينيّة. مضت أشهر، ولا تترك لنا تركيا هامش الحركة باسم «الجيش الحر». تصوّري صار الضبّاط والجنود المنشقّون، يقضون أوقاتهم في لعب الورق، والصراخ والتخوين، ومشاهدة تفاقم الأوضاع من شاشة التلفزيون. يحاول الاتراك الضغط علينا، كي نذعن لهيمنتهم وقرارهم. ومن يرفض المشيئة التركيّة، أو ينتقد الأتراك، يتم تخوينه وتقديمه على أنه مع نظام الأسد وضدّ الثورة. يوم إثر آخر، ترتفع وتيرة الخطاب الطائفي المعادي للعلويين. وصار الكل ينظر إليّ على أنني أمثّل النظام، رغم انشقاقي عنه وموت أخي في سجونه تحت التعذيب! في البداية، كنّا مفعمين بالأمل والحماس والرغبة في حماية المدنيين من هجمات نظام الأسد. ولكن الآن، لا أخفيك، أشعر بالمرارة وخيبة الأمل. الضبّاط والجنود، على وشك فقدانهم للياقتهم البدنيّة، ومعنوياتهم في تراجع، مع ارتفاع الأفكار المتطرّفة. حتّى أن البعض ندم، وصار يفكّر في العودة وتسليم نفسه للنظام. بصراحة، صرت قلقاً على حياتي. خدعنا الغرب وأمريكا، بأن وعدونا بالسلاح لمحاربة

النظام. ولكن اتضح أن كل ذلك كان كذباً. الكل يريد استخدامنا كجنود، لحسابه. مللت الحياة هنا. رقابة شديدة يمارسها الأتراك علينا، وكأننا متّهمون وإرهابيون سجناء لديهم. انظري إلى هذه الصور.

فتح علي موبايله، وبدأ يطلع كلارا على صور المخيّم: أبراج مراقبة، أسلاك شائكة، كاميرات مراقبة كثيرة، نقاط حراسة تحيط بالمخيّم من كل مكان. بالإضافة إلى مظاهر البؤس والفقر والحرمان التي تعيشها عوائل العسكريين المنشّقين. طلب علي من كلارا أخذ نسخة من هذه الصور وتسجيلات الفيديو بهدف إيصالها للعالم، وذكر أنه ربما يتم اكتشافها على الموبايل، وتحذف السلطات التركيّة هذه الصور والمشاهد.

تنهّد علي وقال:

- بشق النفس، حتى حصلت على تصريح الخروج من المخيّم. بصراحة، خسرنا كل شيء. لم نكن نملك الحرية والكرامة والعدالة، وانتفضنا على النظام، كي نحصل على هذه الحقوق. ولكن، يبدو لي ذلك بعيد المنال. خسرنا الأهل والبيت وكل شيء. أرجو منكم مساعدتي على الخروج من هنا إلى إحدى الدول الأوروبيّة، لربما يمكن تأمين مستقبل لطفليّ الصغيرين.

تألّمت كلارا لسماع كلامه، ورؤية الصور ومشاهد الفيديو الموجودة على موبايله.

- كي نستثمر الوقت، علينا الذهاب إلى مختبر التحاليل الطبيّة، ونجري فحص الـ(DNA) الذي أتيت لأجله. لا يمكنني أن أعدك بشيء، بخصوص السفر إلى أوروبا. ولكن سأفعل كل ما بوسعي.

وبعد مقارنة نتائج التحليل السابقة التي أجريت في بلجيكا مع التي أجريت في أنطاكيا، ذكر الأطباء أن علي لقمان السنجاري هو من أقارب الدرجة الأولى لصاحب الأعضاء المزروعة في أجسام رولان، جورجينيو وكلارا. وقتذاك، حدث جيشان في العواطف، فاغرورقت عيناها بالدمع، وتسرّع خفان قلبها، وتسارع تنفّسها، وعانقت علي، بلهفةٍ وشوق أختٍ لم ترَ أخاها منذ سنوات.

خليط من مشاعر الخجل والاستغراب والدهشة سيطرت على عليّ، أثناء معانقة الفتاة الأجنبيّة له، رغم علمه بأن كلية شقيقه حيدر، مزروعة في جسدها. مع ذلك، كانت مشاعره تجاهها محايدة بل وباردة، وصار يسائل نفسه: لماذا لا يشعر بنفس ما تشعر به هذه السيدة الألمانيّة إزاءه؟! وتذكّر أن علاقته مع حيدر أيضاً كانت باردة، بحكم عمله في الجيش، ومعارضة حيدر للنظام الحاكم.

- هل تحدثّني عن حيدر؟!... سألته كلارا، وصارت تسجّل صوت علي:

سحب علي نفساً عميقاً، وأطلق زفرةً قويّة، قبل بدئه حديثهُ:

- حين تمّ اعتقالهُ، كنت في العاشرةِ من عمري. علاقته مع جدّي كانت حميمة وغريبة. كان دائم التردد على عائلة في قرية «زاما» التابعة لمنطقة جبلة. لم أكن أفهم سبب ذلك. عرفت في ما بعد، أنه ذكر لوالديّ أنه مسكون بروح شاب انتحر وهو في العشرين من عمره. وكانت لحظة انتحار الشاب، هي نفسها لحظة ولادة حيدر. فانتقلت روحه فوراً إلى جسد حيدر. وكلما كانت أمّي تسأله: إلى أين يا حيدر؟ كان يجيبها ضاحكاً: «إلى زيارة أمّي وإخوتي في زاما».

انتحار الشاب العشريني بقي مجهولاً، لحين إفصاح حيدر عنه، وقوله:

- معصوم، كان شاباً ورعاً متديّناً يحرسُ أحد أضرحة الأولياء في قرية «زاما». وقع في حبّ فتاةٍ مسيحيّة. تملّكه عشقها حدَّ الصبابة والوله. ولم يكن يجرؤ على الإفصاح عن ذلك. اعتكف في المقام، وهجر الدنيا والطعام والكلام. عرضه أهله على الأطباء، فلم يفهموا منه شيئاً. ومع بزوغ فجر أحد أيّام آذار، شنق نفسه. وتم دفنه تحت الشجرة التي علّق نفسه بأحد أغصانها.

صحيح أن روح ذلك الشاب انتقلت إلى حيدر، كما كان يقول لنا، ويسرد تفاصيل حياته، باعتبارها البداية الخفيّة لحياته هو، إلّا أن حيدر كان شخصاً علمانياً، ولا علاقة له بالدين، ولا يعترف بعقيدة التقمّص أصلاً. وبعد أن وصل إلى سنّ العشرين، ومع ازدياد مشاغله السياسيّة، رويداً تراجع اهتمامه بعائلته الأولى في قرية «زاما».

أثناء حديثه عن شقيقه حيدر، لم ينتبه عليّ إلى أن عينيه ذرفتا دمعتين، بقي أثرهما على وجنتيه، بينما اختفت الدمعتان بين شاربه الكثيف. عاود عليّ حديثه:

- نسيت ملامح وجه حيدر، لأنني نادراً ما كنت أراه في المنزل. كان دائم الغياب.

بعد مضي عشر سنوات على اعتقاله، خاصّةً حين عرفنا أنه أودع سجنَ تدمر الرهيب، لم تحتمل أمّي غيابه، وهو بِكرُها، فماتت حزناً وكمداً عليه. لحق بها أبي، بعد عامين، وأورثني الفقر ورعاية إخوتي الثلاثة. كرهت حيدر بشكل لا يمكنكِ تصوّره. اعتبرته لعنةً مميتة

لحقت بأسرتنا، تسببت في موت والديَّ، وفي بؤسي وتعاستي، واضطراري للالتحاق بالجيش، كي أؤمّن لقمة العيش. بقيت لعنة حيدر تلاحقني حتّى وأنا داخل الجيش، إذ إن ملفّه الأمني كمعارض للنظام، وسجين سياسي، بقي يلاحقني ويعرّضني للاشتباه والمراقبة ويخلق لي المتاعب من قبل الضبّاط من أبناء المنطقة والطائفة، على اعتبار أن شقيقي حيدر خائن للطائفة والوطن والحزب. تماماً كما ينظر إليّ الضبّاط السنّة على أنني علوي، ومشكوك في أمر انشقاقه عن النظام.

بعد مضي خمسة عشر عاماً، خرج حيدر من السجن. كان قلبي بحراً هائجاً من الشوق إليه. ظننتُ أن عناقي له، من فرط الشوق، سيكون عناق البحر الذي سيغرق باخرة كبيرة، أو عناق الحريق الهائل الذي سيودي بمدينة! ولا أعرف كيف انقلبت مشاعر الكراهية والمقت، إلى هذا الهجيان والجيشان من الشوق إليه! ولكنني لم أجرؤ على زيارته. بعد محاولاته المتكررة الاتصال بي، أرسلت له رسالة شفويّة مع أحد الأقارب، أذكر له أنني مشتاق له كثيراً. ولكنني أخشى أن يكون مراقباً. اتفقنا أن نلتقي ليلاً، في بيت ذلك القريب الذي يسكن مدينة جبلة.

تصوّري يا سيدتي، بعد خمسة عشر عاماً، ألتقيه أوّل مرّة. رأيت في وجههِ وجهَي أبي وجدّي، لكأنّ غشاوةً انزاحت عن عينيّ وقلبي. ورغم أنه يكبرني، إلّا أنني عانقته عناقَ يعقوب ليوسف، وعناق الجد لحفيده. وأعتقد أنه هو أيضاً، كان مترعاً بهذه المشاعر. صرت أقبّله وأتحسس وجهه وجسده، كوجه شخصٍ عائدٍ من الموت، وسط لحظات من عدم التصديق لما تراه عيناي. غزارة الدمع كانت تشوّش

عليّ رؤيته بوضوح. اعتذرت منه ومن زوجته على إهمالي لهما. وبكيت بمرارة وحرقة، أكثر من بكائي على رحيل والديَّ. واختلطت مشاعر الحزن بالفرح.

أثناء اعتقالهِ، كنتُ أمررُ بعض النقود، كل شهر، إلى زوجته وطفلته، خفيةً، عبر بعض الأقارب. ولكن، لم يكن الأمر كافياً.

سألني عن جدّي الشيخ ومكتبته؟ فأخبرته أنه مات بعد وفاة والدي بسنة. وأنني عملت بوصيته، ودفنت كل كتبهِ معه. باستثناء كتابٍ واحدٍ فقط، عنوانه: «رحلةُ السؤال والتخمين في مقابر اليقين والتلقين»، أوصاني بأن أعطيه إيّاه. لأن جدّي كان شديد الثقة بخروجه من السجن، رغم فقدان والديّ الأمل، بعد انقطاع أخباره.

بعد مضي أشهر على خروجه من السجن، لم يكن حيدر يقوى على التحدّث بحريّة، شأنه شأن من أصيب بالشلل النصفي، المعرقل لعضلات الوجه والشفتين واللسان. حين تحسّنت حالته، رفض الحديث عما جرى معه في السجن، لئلا ينقل لنا حجم الألم والظلم الذي تحمّله. كان يقول دوماً إنه سيأتي اليوم الذي يتحدّث فيه بالأصالة عن نفسه، وبالوكالة عن جدران السجن والحجارة التي ترصّف الأقبية، ويسرد قصص التعذيب والزنازين التي جابها، وأسماء السجناء المحفورة على الجدران، وتواريخ تواجدهم، وأرواحهم التي بقيت تجوب الزنانين، وتخرج في الصباح وتعود في المساء. ولكنه لم يحقق ذلك، بعد اختطاف النظام له وتسليمه لنا جثّة هامدة.

موجة من البكاء المرير انتابت عليّ، فشاركته كلارا والمترجم بكاءه هذا.

- ماذا حصل لذلك الكتاب الذي تركه جدك لحيدر؟!

- موجود في منزل العائلة في القرية. ولا أعرف إن كان ما زال البيت هنالك، ولم يستول عليه الشبيحة أم لا!

- ألّا يوجد أحد ممن كان معه في سجن تدمر؟!

- بلى. صديقه الحميم والوحيد؛ هاغوب زارادشتيان. أرمني من حلب، يسكن في السويد، على حد علمي.

- هل من أحد يدلّني على عنوانه؟!

- هو سياسي وكاتب معروف. يمكنكِ الاستعانة بالنشطاء ومواقع التواصل الاجتماعي للوصول إليه.

* * *

تواصلت المجموعة مع هاغوب المقيم في ستوكهولم، وأطلعوه على تفاصيل رحلة كشفهم عن صاحب الأعضاء الموجودة في أجسادهم، وأنهم بصدد تأليف كتاب عنه، يذكرون فيه حكاية هذا الشخص الحيّ - الميّت، وأنهم بحاجة إلى مساعدته في تأليف هذا الكتاب، لكون هاغوب صديقه والشاهد الوحيد على تجربته داخل وخارج السجن. اتفق هاغوب مع المجموعة أن يأتي إلى بروكسل ويدلي بما لديه من معلومات عن صديقه، بالإضافة إلى الحديث حول طبيعة الكتاب الذي سيكون تخليداً لذكراه.

ولأن صالون بيت كاترين دو وينتر واسع، توافد كل أفراد المجموعة والأصدقاء إليه لاستقبال هاغوب الذي تفاجأ بالحضور. واندهش من حجم الاهتمام به، لكأنّهُ مسؤول كبير أو شخصيّة دوليّة هامّة. وبدأ سرد الحكاية من لحظة تعرّفه على حيدر لحين سماع خبر

اختطافهِ وتسليم جثّته لزوجته وابنته وأهله. هاغوب الذي كان يجيد الفرنسيّة والإنكليزيّة بطلاقة، وجّه كلامه لكلارا، جورجينيو ورولان:

- أشكركم على اهتمامكم بصديقي حيدر، وبذل كل هذا الجهد بحثاً عن حقيقته. حيدر، كما أنه يعيش فيكم عبر أعضائه المزروعة في أجسادكم، فهو يعيش فيّ كل لحظة. هو الآن معنا. روحه تحلّق بيننا. لا تطالبنا بالثأر والانتقام له، بل بتحقيق ولو جزء من أحلامه وطموحاته في الحريّة والعدالة والسلام.

حقيقةً، طيلة هذه المدّة، كنت عاجزاً حتى على كتابة مقال صغير عنه. لقناعتي بأن الكلام لم ولن يفيهِ حقّه. وللأسف الشديد، لا يوجد بين يدي من كتاباته، سوى أربع رسائل، كتبها لي في فترات متفاوتة، لأن كل أرشيف مراسلتنا تمّ إتلافه، بعد اختراق «الجيش الإلكتروني» التابع لنظام الأسد لإيميلي الشخصي، وفشلي في استعادته. ولم تنجُ من هذه الهجمة إلّا هذه الرسائل الأربع، التي كنت قد طبعتها، فور تلقّيها. ويا ليتني طبعت كل المراسلات، أو حفظتها على «هارد ديسك»، ولم أبقِ عليها داخل الإيميل. هذه الرسائل الأربع تكشف حجم التحوّلات التي طرأت على شخصيّة ونفسيّة حيدر، قبل وبعد الثورة السوريّة. وبحوزتي أيضاً مجموعة من الأوراق، مشروع عمل روائي، يتناول تجربة السجن، وحديث حيدر عن جدّه وعلاقته به. لكن، بعد اندلاع ثورة تونس، تنحّى الميل الأدبي لدي، على حساب المتابعة السياسيّة اللصيقة للأحداث، لحين وصولنا إلى الثورة السوريّة. وقتها، نسيت مشروع الرواية تماماً، وصرت أركّز على المقالات السياسيّة والتحليليّة فقط. وبموت حيدر تحت التعذيب، مات في داخلي الشعر والأدب تماماً. هذه الأوراق

يمكن الاستفادة منها، لأنها خلاصة ما ذكره لي حيدر، أثناء السجن، عن جدّه، وغرائبيّة رجل الدين هذا. في الحقيقة، هاجس كتابة رواية كان يؤرّق حيدر أيضاً. ولكن في السنوات الأخيرة، أصابه اليأس والملل من كل شيء. أتت الثورة السوريّة، فأعادت الحياة إليه، وأبعدته عن كل شيء اسمه الأدب والشعر. تماماً كما حصل معي، وحصل مع الكثيرين من الكتّاب والأدباء المعارضين. وكنوع من محاولة تحريك جمرة الأدب في خياله، كنت أرسل له هذه الأوراق كي يطلع عليها. وبعد الأخذ بملاحظاته، كنت أطبعها على الورق. لذا، نجت هي أيضاً من قرصنة «الجيش الإلكتروني».

ولأن ولات هو الوحيد الذي يجيد قراءة العربيّة، استأذنَ من هاغوب الاطلاع على الأوراق، فناوله إيّاها، قائلاً: لا ترددوا في طرح أيّ سؤال بخصوص تجربتي مع حيدر لقمان أزدشير السنجاري. والأهمّ من كل ذلك، أن نحاول مساعدة نوروز، ابنة حيدر وأمّها الموجودتين في أحد مخيّمات اللجوء في بيروت.

وبدأت الأسئلة تطرح على هاغوب، بينما ولات منهمك في قراءة الأوراق والرسائل الموجودة بين يديه.

- 1 -

المنفردة رقم 16

حجرٌ مسطَّحُ الأبعاد، مصففٌ بعناية هندسةِ القهرِ، مرصوفٌ لمثلهِ، مشكِّلاً إطاراً، هو مدماكٌ من مداميكِ صرحٍ من صروح الموت في الشرق. حجرٌ أعياهُ اللهاثُ من فرط تنقُّله بين أيدي

البنّائين، إلى أن يصلَ مستقرَّهُ في جدارٍ من جدرانِ القلعة. حجرٌ يصغي لمحيطِهِ بسمعِ الواثقِ من بقائهِ ممتصّاً ذاكرةَ محيطه. الحجرُ، وعيُ المكان، وحجّتهُ على أنهُ المكان، لا غيره. هذا ما خلُصَت إليه تجربةُ الرِّيحِ منذ نشأتها، وإلى لحظةِ مرورها بالقبورِ التي تقطنها العقول المارقةُ عمّا يراهُ الظلمُ صواباً.

قبورٌ مأهولةٌ، تعلوها قلعةٌ تحفةٌ من تحفِ التاريخ. قبورٌ تؤرِّخُ لسؤددِ القلعة، وقلعةٌ جاثيةٌ على تواريخ قبور، تؤلِّفُ مدينةً قابعةً تحتَ الأديم، هي سجنٌ فسيحٌ لماكثيهِ، من ناكثي عهدِ الطاعة لأولي الطاعة.

لم يكن يدري الوافدُ الجديد أن رقمَ قبرهِ في لوائحِ دهاقنة القتل من أمراءِ صنوف العذاب، هو 16. فما إن يفرغ من أداءِ فروض العذاب التي تجودُ بها قرائحُ عبقريةِ جلّاديه، كان يُدفعُ إلى زنزانته، مغمياً عليه، فاقداً الوعي. لقد اعتادَ على وجباتِ التعذيبِ التي لم تعُدْ تؤثِّر فيهِ، إلى درجة أنهُ كان يرهقُ جلاديهِ ويعذِّبهم. بصمتهِ.

يرمقُ صورة الزعيم التي تتوسَّط رايتين متشابهتين، متشابكتين على أحد الجدران، أثناءَ تلقيهِ الجلدات والضربات، وهو معلَّق بإحدى ساقيه بسقف غرفة التعذيب، فيرى الصُّورة والرايتين تترنَّحُ بشكلٍ مقلوب. بعدَ أن يُنزلوه من السَّقف، ويُوضع رأسهُ مرَّةً في حوضٍ ممتلئ بروث الخيل، ثمَّ في بولِ السَّجانين، ثمَّ في الماءِ البارد، ثم السَّاخن. وفي كلِّ مرَّةٍ يخرجون رأسه من أحد الأحواض، كانت عيناه تقعان على الصُّورة والرايتين. وبعدها، عندما كان يُوضعُ على كرسي الصَّعقات الكهربائية، كانت نظراتهُ

مصوَّبة باتجاه الصُّورة والرايتين. لم يكن يمعن في وجوه جلاديه، بقدر ما كان يمعن في تلك الصُّورة.

- أيها الحقير... يا ابن القحبة... يا شرموط، خائن، كلب، وغد... تريد الاشتراكيّة والحريّة...؟ تريد أن تصبح غيفارا...؟ إذاً، خُذْ... خُذْ... خُذْ... خُـــــذْ.... هذه لأجل الحريّة! وهذه لأجل الاشتراكيّة! وهذه لأجل غيفارا. وهذه أيضاً لأجل ماركس ولينين...

سكونٌ قفرٌ، وريحٌ خبلةٌ، راخيةُ المسار، تترنَّحُ بكسلٍ يشطرُ وحشةَ المكانِ الموبوءِ بالعتمة الرطبة، كسكِّينٍ صدئةٍ ثالمة تحزُّ عنق اللحظات. سقفٌ واطئ، يعتلي جدراناً أربعةً صغيرة، متقاربة متقابلة، أنهكها عبثُ الزمن بمصائر من ألقت بهم أقدارهُم في حلكةِ المرورِ من هنا. بردٌ دامسٌ، يضيقُ به المكانُ الخانق، لافّاً شخصاً منزوياً، تكوَّرَ على المتبقيَ من جسده، شادّاً ساقيهِ إلى جذعهِ، واضعاً ساعديهِ المتشابكين على ركبتيهِ، حانياً رأسهُ، إلى أن صارت جبهتهُ ضاغطة على عظْمةِ ساعده، مغمضَ العينين. وكأنَّهُ الجنينُ المنكمشُ على نفسهِ، في ظُلماتِ الرحم.

رويداً، بدأتْ تشفُّ لبِناتُ الحجرِ المشكِّلة لجدرانِ زنزانتهِ، عن وجوهٍ لأناسٍ، لم يرَهم في حياته، مع اتساعِ حيّز المكان؛ القبر - الزنزانة. حاولَ أن يجُرَّ بعقفةِ عكّاز التأمُّلِ عنقَ الذاكرة البعيدة، علّها تسعفهُ في التعرُّفِ عليهم، لكن، خابَ سعيهُ الكليل في ذلك.

- أنا آفاسيورس، أحدُ الذينَ هندسوا بناءَ هذا المكان. ولم نكن ندري بأنهُ سيصبحُ سجناً لعقولِ بانيه. فما إن فرغنا من بناء القلعة،

حتى جمعنا الملك ليكافئنا ببترِ أيدينا، وتوزيعنا على هذه الزنازين المنفردةِ المائة، لئلا نهندسَ قلعة أخرى لغيره، تضاهي أو تفوقُ قلعته.

وهنا مكمن الكارثة. أن تبنيَ شيئاً، فتصبحَ رهينَ الأسرِ فيه، عقاباً على ما اقترفهُ عقلكَ وخيالكَ البنَّاء بحقِّ الفراغِ الوحش، من اجتياحٍ فاجرٍ للكتلِ الصمَّاء، لصالح مرضاةِ سلطانٍ خادع، وإعلاء صرحه. ونصيحتي لك: ألَّا تبني شيئاً يسيءُ لفطرةِ الطبيعة، فتصبحَ نادماً أبداً. ويصنع منكَ الندمُ سجناً وسجَّاناً وسجيناً في آن.

أنهى الطيفُ الفارعُ الطويلُ، الضَّخمُ الجثَّةِ كلامهُ متجهاً للجلوسِ في زاويةٍ من زوايا المكان. فبدأ وجهٌ آخر من الانبجاسِ من حجرٍ آخر من حجارةِ الجدران، مواصلاً كلامهُ، إلى أن تكملَ هيئتهُ في وسط المكان، قابلة السجين.

_ أنا سرداريوس، اقتِدتُ إلى هنا، عقب فشلِ انتفاضةِ العبيدِ على مالكيهم في روما. كنتُ أحد العبيد الذين شاركوا فيها. لكن، ما يجهله التاريخ، ولم يعرفه أسياد روما عنِّي، هو أنني العقلُ المدبِّرُ الحقيقي للانتفاضة، وليس سبارتاكوس الذي كان صديقي، وينقادُ لرأيي.

سألني سيدي، بعد اعتقالي، ولم يكن يعلم بحقيقة دوري في الانتفاضة عليه وعلى أقرانه:

- أيها الوغدُ الحقير.. ألم تكن تعلم بأن تمرّدكم سيفشل...؟

- بلى...

- فلِمَ تمرَّدتم إذاً...!!؟

- يكفيني أنني عشتُ خمسة عشر يوماً حرّاً.

وهكذا، التاريخ، ليس سِفرَ الحقائق، أو متناً كاملاً للزيف. التاريخ، هو ما يكتبه الأقوياء، وما يدحضهُ الضعفاء. بدليل، أن حقيقتي، التي لم يكن يعرفها أحد، عدا هذه المنفردة، صرتَ تعرفها الآن! وسيعرفها الكثيرون نقلاً عنك.

اختتمَ الطّيفُ سيرتهُ مجاوراً في جلوسهِ الطّيفَ السَّابق، ليبدأ طيفٌ آخر، سردَ حكايته.

- أنا آزر بن عبد القديمِ بن عفَّة البصري الخارجي. مدبِّرُ وواضعُ خُطَّةِ اغتيالِ علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في آن. فقد كنت الرسولَ الخفيَّ الجائلَ بين عليٍّ ومعاوية. وما لا يعلمه أحد، غيري، بأنه كان ثمَّةَ اتفاقٌ ضمنيٌّ سرِّيٌّ بين الاثنين، على عكسِ ما كانا يظهران لبعضهما من الخصامِ والعداء. وينصّ الاتفاق على تسعيرِ شقَّة الخلافِ بينهما، حتى يقتسما التَّاريخ، فيجنحَ الخيالُ في حياكة القصصِ والأساطيرِ حولهما. فيسلك عليّ دربهُ نحو المجد معذَّباً، ويقضي معاوية دربه نحو المجدِ معززاً وسلطاناً. وما بين هذا وذاك، يُهْدَرُ الإسلام، ويُبدَّدُ إرثُ النبي الأكرم، صلواتُ اللّه وسلامه عليه. وقد كنت أحتفظُ بنسخٍ من المراسلات السرِّيَّة بين الطرفين معي. ولما فشلَ معاويةُ بانتزاعها منِّي، لأنني خبأتها في مكانٍ آمن. عَقبَ افتضاحِ أمري، زجَّني في هذه المنفردة، حتى قضيت نحبي، وماتَ هذا السِّرُّ معي. ولكن، الأسرار لا تموت. بدليل أنك صرت مطلعاً على سرّي، وستخرجه من هنا إلى فضاء الحقيقة والعلن.

- أنا رؤوفُ بن عبد الرَّب الحيدري الآمدي، أحدُ مجانينِ

حلب. أنا من صعدَ أبو الطيّبِ المتنبِّي علياءَ أمجادِ الشِّعرِ على أكتاف جنونه. كان يدعوني لدارِهِ، مجهِّزاً مأدُبةً عارمة باللذائذ، وبصحبتنا جاريته كهرمانة الفارسيّة التي كنتُ مجنونَ عشقها. وما إنْ أصل النشوة والثمالة، حتى تتفتَّقَ قرائحُ خيالي بأصنافِ القصيد. ويبدأ أبو الطيّب بتدوين ما أهذي، وارتجل من قويم الشعر، ويلقيها على أسماعِ أترابه، فيدهشهم ويصعقهم بها، ناسباً شعري لنفسهِ. وحين كشفتُ ما خفيَ من حقيقةِ زيف ادعاءِ أبو الطيّب، لم يصدقني أحد. وقالوا: مجنونٌ، مهبولٌ معتوه يتطاول على سيد الشِّعر. ولما هددتِ الجاريةُ بفضحِ الحقيقة للناس، إن لم يعتقها أبو الطيّب، قتلها، وطلبَ من سيف الدولة الحمداني أن يأمرَ صاحب الشرطة كي يزجّني في هذا السجن الصحراوي. وقد كان له ذلك. فبقيتْ حقيقةُ المتنبي حبيسةَ هذه الجدران. وها هي تريد الخروج الآن.

- 2 -

رحلة السؤال في اشتهاء الخيال

بعد ترحيلنا من سجن تدمر إلى سجن صيدنايا العسكري، صار بإمكاننا اللقاء أكثر ولفترات أطول. وكان حيدر، يسرد عليّ حكايته مع جدّه الشيخ أزدشير بن حيدر بن معصوم بن علي السنجاري، والأسئلة التي كان يطرحها عليه.

- ما الحياةُ يا جدّي؟..!!

- الحياة، عِلَّةُ الموت، وصِنوُهُ الكاشفُ لظواهرِ الخلق، مُمتحِناً دفائنها. الحياةُ، مِحكُّ العقلِ والروح في مدى سعي المرءِ في تجاوزِ

الذاتِ الصغرى، وصولاً للذاتِ الكبرى. الحياةُ آفةٌ، إن أضحتْ غايةَ النفسِ ومبتغاها الأوحد، وآيةٌ، إن أصبحت وسيلةً لبلوغ المنتهى والتوحُّد بهِ معه. وقد تكونُ وهماً.

- وما الموت؟..!!

- الموت، عِلَّةُ الحياة في استدراكِ المجاهيل السابقةِ واللاحقةِ لها. ونفقٌ واصلٌ بين بدايةِ العلومِ ونهايته. ونهايةٌ للأبدِ الفناء، وبدايةٌ للأبدِ البقاءِ. وعليه، فالموت هو البرزخ الفاصلُ بين أبَدَين. الموتُ، استطلاعٌ لأحوالِ الماضي من الفعل، ومجازاةٌ لها عليها، وفق تقديرٍ سابق له، موصوفٌ بفهم الخلق، موضوعٌ بأمرِ الخالق. لا منجيَ أو مُنقِذَ منه، ولا مُبعِدَ أو حائلَ عنه. لا بقاءَ فيه، ولا فناء. لا دعاءَ فيه، ولا رجاء. قادرٌ على إدراكِ الأجساد. عاجزٌ عن إدراكِ الأرواح. مقدورُ الكائن؛ لا مُعجّلَ له، ولا مُؤجّل. مخلوقٌ وليس بخالق. بدأ مع بداية الدنيا، وينتهي ببداية الآخرة. وقد يكونُ وهماً.

- وما الوجود؟..!!

- الوجود، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون. يفني، ولا يُفنى. ما تُدرِكهُ أو تعلمهُ الحواس، وما تجهله. هو الكُلُّ الذي لا عِلَّةَ قبلهُ ولا بعدهُ. مُلكُ اللّه الذي لا يمكن أن يتجاوزهُ اللّه إلى غيره. هو دارُ الفناء ودار البقاء، وما بينهما. وقد يكون وهماً.

- والفناء؟..!!

- الفناء! ما الفناء إلا بُرهةُ تحوّلِ الشيء لغيره. وربما يكون وهماً.

- وما الزمان؟..!!

- الزمان، سيلان الحياة. مخلوقٌ، لا قبلهُ ولا بعدهُ، إلا اللّه. خالقهُ جلَّ وعلا، ليكونَ ظِلَّ الوجود، ويكون الوجود ظِلَّه.

- وماذا عن الإيمان؟..!!

- الإيمان، إقرارُ القلبِ وإذعانُ الروح، وتصديقُ العقلِ بوحدانيةِ المطلقِ الأعظم، حدَّ الحلول فيه، هائماً بهِ في ملكوتهِ، ساعياً لمرضاتهِ عشقاً. قانعاً بنِعمهِ، طامعاً في كَرَمهِ. الإيمان تسليم للذات الصغرى للذات الكبرى، وعجزٌ عن الإحاطة بها وإدراكها. ثمة إيمان عن عشق، وثمّة إيمان عن خوفٍ ورعب. وثمّة إيمان عن عجز وانعدام حيلةِ التفكير والتقدير. الإيمان ليس فطرة بل هو موروثٌ ومكتسب. وخيرُ الإيمان ما أقرَّهُ العقل وصادقَ عليه القلب. وشرُّ الإيمان ما حاربَ العقلَ وبطش بالقلب. فهذا إيمان الجهالة. الكُفرُ والإلحاد، هو أيضاً إيمانٌ بوجود الخالق. إذ لا يمكن أن ترفض أو تكفرَ بوجود شيء، ليس موجوداً. فما بالك بهذا الخالق الذي ليس كمثله شيء!؟ يعني، الكفرة والملاحدة هم مؤمنون عصاة. وإلّا، هل يقبلون على أنفسهم محاربةَ ما يعتبرونه وهماً؟! وهل يمكن لهم أن يكنّوا الرفض والعداء لشيء غير موجود؟! ومع ذلك، يا بُني، من حقّكَ ألّا تؤمن بما أقوله لك.

- طيب، وما العقل؟..!!

- العقل، أضيقُ مسالك الإيمان، وأكثرها وعورةً ومشقّة. أداةُ التخييرِ والتحييرِ والتدبيرِ والتسييرِ والتقديرِ والتفسيرِ والتنويرِ والتطهيرِ والتنفيرِ والتعسيرِ والتحويرِ والتغييرِ والتحرير. قد أنعم اللّه به على كائناته من النور والنار والطين. حضورهُ سدادٌ وأمان، وغيابهُ ضلالٌ ونكران. العقلُ كاشفٌ لعلوم الغيب، وقائدٌ لدروبِ الشكّ والريب.

اجعلهُ سيّدكَ ودليلَ دربكَ، ولا تدعهُ يسلبكَ قلبكَ. إن حلّ العقلُ محلّ القلب، كان مفسدة للروح. والعكس صحيح. اجعلْ عقلكَ عينَ قلبكَ. واجعلْ قلبكَ شرفةَ عقلكَ.

- وما النفس؟..!!

- النفس، أمَّارةٌ بالخيرِ أيضاً. خصمُ العقلِ في تسييرِ وتخييرِ أحوال الجسد.

- والخطأ؟..!!

- الخطأ، مثلبُ العقلُ أو الروح في سعيهما نحو الحقيقة. لا صواب بدون خطأ. ولا خطأ بدون صواب. الخطأُ تصقيلٌ للفكرة، والصوابُ تعديلها وتبديلها. الخطأُ تمهيد، والصواب تعبيد. الخطأُ لا مناص منه، أثناء السعي نحو التحرر من أوثان الصواب وأغلاله. الصواب إن سقط في المعاندة والمكايدة، أضحى خطأً. الصوابُ أن يعترف الخطأ بأنه خطأ، ويسعى نحو تصويب نفسه، ولا يخشى السقوط في الخطأ. وليس من الصواب، أن يبقى الصواب أسير نفسه، عابداً لها. الخطأ هو الصواب مستتراً. والصواب هو الخطأ مُنقَّحاً مُصحَّحاً مُستبصِراً. وفي تعاقب الصواب والخطأ، تقوم الحياة.

- وما هي الخطيئة؟..!!

- الخطيئة، استقصاد الوقوع في شِركِ ما نهى عنه الربُّ. وقد يكون ذلك وهماً.

- والحبُّ، يا جدّي؟..!!

- الحُبُّ، دربٌ نحو الخالق، وميلٌ من الخالق نحو مخلوقهِ.

سموٌّ في الروحِ على المعاصي، وانحيازُ العقلِ لصالح الروحِ في تدبير وتسيير المشاعر. الحبُّ، أحدُ تجلِّيات الإيمان. انقيادٌ صوبَ المحبوبِ دونَ تفكير.

الحبُّ، بدؤه مُزاح، ومنتهاهُ جراح. لا يفهمُ حقيقتَهُ إلا من عاناهُ. فهو: اتصال وتواصلٌ بين نفوسٍ مقسومةٍ في الخليقة في أصل عنصرها. اطمئنانٌ وقلقٌ وأرقٌ في آن. والحبُّ أنواع وصنوف: أفضله ما كان للخالق. وحبُّ العاشق الذي لا عِلَّة لهُ إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. فكلُّ الخلائقِ إلى انقضاء، حالَ زوال عللها، عدا الحبُّ الصحيح، فهو لا فناء له، حتى بعد الموت. الحبُّ لهُ علاماتٌ لا يغفلها الفطين. مُبتدؤه، إدمانُ تأمُّلِ الحبيب والتهافت للحديث معه، والإسراع بالسير صوبَ مسكنهِ، بغية الظفرِ برؤيته. وخبرهُ، انجذابٌ وروعةٌ تجتاحُ المُحِبَّ آناءِ رؤيةِ المحبوبِ بغتةً. الحبُّ يقلبُ البخلاءَ جائدينَ كُرماء، والجبناءَ شجعاناً بواسل، وغلائظَ الطبائع، ظرفاءَ لطفاء رحماء، والجهلاءَ علماءَ أدباء. والعلامات تلك، ممهِّدةٌ لاستعارِ نيرانهِ وتأجُّج حريقهِ في النفوس. من عجيبِ الحُبّ، أنه يُوقِعُ بالمرءِ في شراكهِ حتى في النوم، برؤية صورة من لا يعرف. وأن يعشق دون رؤية الحبيب متجسِّداً، بل لمجرّد سماعِ صوتهِ. «فالأذنُ تعشقُ قبل العين أحياناً». وثمّة من يقعُ فيهِ من نظرة أولى، لأن للحبِّ حُكماً ماضياً، وسلطاناً قاضياً، وأمراً لا يُخالفُ أو يعصى أو يُرد. فهو مُبطلُ ومُحِلُّ المُبرم، ومُحلِّلُ المعصية والمحرَّم، ومُخِلّ بالموثوق الثابت، ومُشرعن الممنوع الكابت. من سماته، الكتمان باللسان، والإظهار بالأحوال للعيان، والجحود بالاعتراف، إن سئل عنه، والتصنُّع بإظهار الصبر عليه

والتهرّبِ منهُ. ويأبى السرُّ الدقيقُ منه إلا ظهوراً في الحركاتِ والعين والكلمات. سِحرٌ وساحرٌ ومسحورٌ في آن. تورُّطٌ يُدخِلُ المُحِبَّ في طاعةِ المحبوبِ طوعاً. فكم من شأسٍ شرسِ الخلقِ، صعبِ الشكيمةِ، جموح، ما إن يتنسَّمْ نسيمَ الحبِّ ويتورَّط في غمره، ويعوم في بحره، أصبحت شراسته ليناً، وجموحُ شأسهِ استسلاماً. إن الحبَّ مبرِّرُ الحياة وأصلها. فيَّاضُ النفوس، ومُنزِّهها ومُطهِّرها وعاصمها من الآثام، وساميها على العيوب. الحبُّ غزَّارُ الخيال ومُخصِبه. تصالحٌ مع الذات والآخر، وانسجام داخلي أولاً، وتوافق وتناغم خارجي ثانياً. لذا، فهو ائتلافٌ بين الأرواح، ومُعمٍ للبصر والبصائر، وترياق الخلود في آن. الحبُّ، أحد تجلِّياتِ اللّه في مخلوقه. وربما يكون الحبُّ وهماً.

- وما الجِنُّ؟..!!

- الجِنُّ، من لدنٌ النار الهفهافة، الفائقة الشفافيّة حدَّ الخفاء. خلائق عبيدٌ مُذعِنةٌ لربوبية الخالق الباري الذي لم يخلقهم إلا ليعبدوه. منهم من رحموا ذواتهم، فاعتصموا بحبل اللّه. ومنهم من طاشوا عن سواء السبيل، فأشركوا وأذنبوا ولوَّثوا ذواتهم. لهم ما للإنسِ من عقاب وثواب يوم يُحشرون. يَروننا، لا يمكننا رؤيتهم. يفوقونا قوةً وعلماً وإرادة. خُلِقوا قبلنا. يُولَدون ويَموتونَ مثلنا.

- والملائكة يا جدّي؟..!!

- الملائكة، خلائق نورٌ، أبرياءُ العقلِ والروح والطبائع. خيّرو الخُلُقِ والمزاج، ولطائفُ السلوك. خيرُ العابدينَ الطائعينَ لباريهم. وربما تصادف إنساناً في جسدهِ روح ملاك.

- وما الجحيم؟..!!

- الجحيم، هو الفقر، الظلمُ، المرضُ، القهرُ، الحرمانُ، الاستبداد في الدنيا. وحِممٌ سِجِّيلٌ أجيجٌ سعيرٌ لهيبٌ أوارٌ في الآخرة، وقودهُ الآفِكون الكفرة والحجارة في الآخرة. لا يُطفئها إلا من أوقدها للمارقين الساقطين من على صراطه المستقيم. هكذا نُقلَ لنا. وبظنّي - وثمّة ظنون ليس بعدها إثم - إن الجحيم، واهمٌ رادعٌ، تفاقم بحكم التراكم والتتابع في النقل عبر الأديان، هدفه التحذير من عاقبة الأمور والأفكار والأفعال والأحوال السيّئة المسيئة. الجحيم، مَن يفكّر به، يعشْهُ. ولا ينبغي أن يكون الخوف من الجحيم هو الطريق إلى محبّة الخالق. فأرحمُ الراحمين، واللطيفُ، العزيزُ، الباري، القدّوسُ...، لا يمكن أن يوقدَ جحيماً، كي يخافها خلائقهُ، فيأخذهم الخوف من عقابهِ إلى حبّهِ.

- والجنَّة؟..!!

- الجنَّة، هي المحبّة، الإيمان، العدل، السلام، الإحسان، الرفاه، الرخاء، القناعة في الدنيا. ومثوى الأنبياءِ والشهداءِ والأولياءِ والصالحينَ في الآخرة، الذين إذا ذُكِرَ اسم ربهم، وَجِلت قلوبهم، وخرُّوا خاشعين ساجدين. فيها من نِعَمِ الخالق كلُّها، وما نهى الخالق خلائقه عنها في الدار الدنيا، وحَرَم نفوسهم الزكيَّة التقيَّة التائبة منها. هكذا نُقِلَ لنا عبر الكتب والرسالات والصحف الأولى. وبظنّي - وثمّة ظنون ليس بعدها إثم - الجنّة، ثمرةُ خيال الكبت والعزوف عن مباهج الدنيا ونِعم اللّه، واجتنابها في مسعى مرضاة اللّه وطلبِ وصاله. وأن مكافأة اللّه لمن أفلح في ذلك هي الجنّة، على اعتبار أن الحياة الدنيا هي دار امتحان واختبارٍ للإيمان وتقوى اللّه

والالتزام بنواهيه واجتناب معاصيه. والجنّة لكل مَن يتخيّلها ويمنّي النفس بها، فهو يعيشها. ولا أعتقد أن الطريق إلى اللّه ومحبّته والإيمان به والإقرار بربوبيّته، هو الطمع في جنّته. محبّة اللّه والإيمان به، لا تحتاج إلى مكافآت في الآخرة. ومن سلك طريق اللّه، وعيناه على جنّته، فهو يسعى إلى الجنّة وليس إلى اللّه. وحاشى للّه العزيز القدير، أن يخلق جنّةً، يبتزّ خلائقهُ بها، كي يحبّوه ويعبدوه. وربما أكون مخطئاً عاصياً. والعلم عند اللّه.

- حدثني عن النَّار يا جدّي؟..!!

- النَّار، مخلوقةٌ قدُّوسةٌ من عناصرِ التكوين. قديمٌ خيرُها وشرُّها. جامعةُ الضدَّين في كنهها. تُنعِمُ على من يشاء النعيم، وتَنقُمُ وتَسقُمُ على من يشاء السقم. لا يمكن أن تكون إلا ناراً، تُحيي وتُميت، وتحيا وتموت، بإذن اللّه.. النَّارُ، رُشدُ الطهارةِ، وعِنايةُ العدمِ بأسرارِ الوجود. النَّارُ، بلاغةُ النهايةِ في التعبيرِ عن أكناهِ الديمومة، وبصيرتها في ترجيحِ كفَّةِ البدءِ على كفَّتِها الطاويةِ لمواثيقِ الشَّكلِ الأولِ، والشَّكلِ الأخير للوجود. النَّارُ، سِفرُ الفراش، وحُجَّة النُّورِ على ديجورِ العقلِ العتيق. النَّارُ، تفقُّهُ الآلهةِ في مداراةِ أحزانها عن أحزانكم الآتيةِ إليكم، خجلاً منكم... فإليكم بها عُشّاً، تؤوبُ إليها أرواحُكم عقِبَ البوحِ الأليم. إليكم بها قِرطاساً، تُدوِّنونَ عليها نبوءةَ الدّمِ السَّديدِ العليمِ، بما يطهوهُ الغيبُ لكم من شأنٍ متينٍ عظيم. النَّارُ، عِظَةُ الحقِّ لآلهِ، فاتعِظوا.

- وما الماءُ؟..!!

- الماءُ، مخلوقٌ قُدُّوسٌ من عناصرِ التكوين، خُلِقَ منه كلُّ شيءٍ

حيٌّ، وكلُّ شيءٍ ميّت. مُسَعِّرُ النَّارِ، إن قلَّ، ومُطفئهُ إنْ عَظُمَ وكَثُر. يتخثَّر فيغدو جليداً، ويتبخَّر فيغدو ريحاً حنونةً وصرصراً أحياناً. لكن، رغم تحولاته، لا يمكن أن يكون إلا ماءً. يُحيي ويُميت، ويَحيى ويَموت، بإذن اللّه. الماء، سِرُّ المتبقّي من الأبد، والآتي والماضي من الفناء. هَودَجُ الحقيقةِ وإكسيرها الممنوح للطِّينِ الكليم. برهانُ الحقِّ في إعجازه المُدوَّن على سُدرتهِ الدفينةِ في صُلبِ خلقهِ. الماء، وحيُ النَّارِ الشاعرة.

- والهواءُ يا جدّي؟. . !!

- الهواءُ، مخلوقٌ قُدُّوسٌ من عناصر التكوين. دائمُ الانسياب. لا زمان أو مكان لمولده. مُسيَّرٌ وليس مُخيَّراً. يُحيي ويُميت، ويحيا ويموت، بإذن اللّه. الهواءُ، تحايلُ الجهةِ على الجهةِ، في تحديدِ تخومِ المرئيِّ من شذرِ الآلهةِ الدنيا، واللامرئي من شذرِ الآلهةِ العُلى. الهواءُ، مَكمَنُ الوشاياتِ التي مرقَ من تحتها الموتى ذوو الأعينِ المشرَّعةِ على خزين الدنيا المليئةِ بإرثِ بُهرجها القديم، المتبقِّيَ من حروبِ الصَّلصالِ على الصَّلصال.

- وما الترابُ؟. . !!

- الترابُ، مخلوقٌ قُدُّوسٌ من عناصر التكوين. منشأ البشر والشجر والحجر. يُكسي الأرضَ رداءَ الخصب. ساترُ الأجسادِ، عقبَ فُراقِ الأرواح لها. الرَّحمُ الأولُ، والرَّحم الأخير. حُجَّةُ الدنيا على الآخرة، وحُجَّةُ الآخرةِ على الدنيا. أحدُ أسفار النَّارِ والماء والهواء على عظمةِ خالقها. التُّرابُ، طحينُ الوجودِ الذي عُجِنَ منهُ العجينُ البِكرُ لتكوينِ الشَّكلِ البكر. الترابُ، عِفَّةُ السَّماء، وامتحانُ خصوبتها في تشكيلِ وتحديدِ هويةِ الكائنِ الآبدِ، والفاني. التراب،

بوصلةُ الدَّمِ إلى الدَّم، والرُّوحِ للرُّوح. يقينُ الأزل، وقلقُ الماء من دنو الأَجَلِ. فدعْ روحكَ تغتسل بهِ، كلما هبَّ الخطبُ عليكَ. دعْهُ يطلقُ في دمكَ سِرَّهُ. فأنتَ وحدكَ خيرُ من يَسرُّ لهُ التراب.

- ماذا تقول عن الشَّكِّ؟..!!

- الشَّكُّ، مُحفِّزُ الإدراكِ والإرباك. مُسوِّغُ التخمين، ومعلِّلُ اليقين. لا عقلَ حاضرٌ بدونه، ولا يحضرُ، بدونِ عقل. شريكُ اليقين وقرينه. إنْ زاد عن حدّه، انقلب مرضاً وسواساً، وقيداً مميتاً.

- واليقين؟..!!

- اليقين، إقرارٌ بفهمِ الشيء كما كان، وكما هو كائن، وكما ينبغي أن يكون. مرادفُ الإيمان، لكن، لا يماهيه، ولا يضاهيهِ. لا يقينَ بدون شكّ، ولا شكّ بدون يقين. متلازمان، متعارضان، متواطئان، شريكان منذ الأزل وإلى الأبد.

- وماذا عن الصَّلاة؟..!!

- الصَّلاة، انقطاعٌ عن الوجودِ الأدنى، واتصالٌ بالوجود الأسمى. تحييدٌ للعقلِ، وارتقاءٌ بالرُّوحِ إلى سؤددها الأزكى. نكرانٌ للذاتِ الصُّغرى، وسعيٌ لمراقي الذاتِ الكبرى. الصلاةُ تأمُّلٌ وغوصٌ في عظمةِ الخالق، وسعيٌ روحيٌّ نحوه، قبل أن يكون سلوكاً جسديّاً ظاهريّاً، قوامهُ الركوع والسجود، والتسبيح والترتيل.

- والصِّيام؟..!!

- الصِّيام، تفكُّرٌ وتدبُّرٌ في تنزيهِ أحوال العقل والنفس والجسد والرُّوح عن الرجسِ والدنسِ. ظاهرُه انقطاعٌ عن الأكل الشرب، وجوهرُه انقطاعٌ عن الإثم، قولاً وفكراً وفعلاً.

- ما المرأة؟..!!

- المرأة، مسكنُ الرجل وثقتُهُ. قفلُهُ ومفتاحُه. كاملةُ عقلٍ ودين، إن أرادت. وريحانةٌ وقهرمانة في آن، إن شاءت. إن أحبَّتِ المرأة، أعطت دون سؤال أو حساب، فجادت وأغدقت. وإن كرهت، أخذت دون سؤال، فكادت وأحرقت. المرأة، سيّدة الكيد العظيم، والحبِّ الأعظم. ليست بمبتدأ أو منبعٍ أو موطئ الخطيئة البكر، كما قيل. المرأة، تفُوقُ الرجلَ خيراً وشرَّاً. هي الرَّحمُ والرَّحمةُ، أنعمَ اللّه بها عليكَ، فاشكره واحمدهُ.

- ما الحرِّيَّة؟..!!

- الحرِّيَّة، نعمةٌ من نِعَم الباري العليِّ القدير، ستُسأل عنها يوم النشور والحشرِ والنفير. الحرِّيَّة، مسؤوليةُ اختيارِ نمط الحياة في السلوك والتفكير والمعتقد، دون الإضرار بالذات والآخر. ودون إيذاء الحجر والشجر.

- والأخلاق يا جدّي؟..!!

- الأخلاق، زينةُ العقل والنفس والجَّسد، وروادعها عن الجموح والشطط.

- وما الحرب؟..!!

- الحرب، جهلٌ وعجزٌ عن ضبط ولجم الأحقاد والنزوع للشرِّ. تدميرٌ للأنا والآخر، آفةُ الدنيا الغرور، ومآلُ الكرهِ والشرور. في أفضل أحوالها، لا يمكن اعتبارها فتحاً أو جهاداً. لأن اللّه عزَّ وجلّ، جميلٌ يُحِبُّ الجمال، وسلامٌ يحبُّ المسالمين، ولا يمكن جرّ البشر إليه جرّاً وإكراهاً بالحرب والسّيف والدم، واعتبار ذلك فتحاً ونشراً لصحيح الدين. ذلك أنه لا إكراه في الدين!

- والحقيقة يا جدّي؟ الحقيقة؟..!!

- الحقيقة، هي فهمُنا للشيء عينهُ، بعينهِ، وفهمهُ قبلاً وبَعدَاً. لذا، لا إطلاق فيها، إلا اللّه تبارك وتعالى. الحقيقة متحوِّلةٌ متحرِّكةٌ، كلُّ ما في الوجودِ من زمانٍ ومكانٍ، هي أجزاء فيها. الحقيقة هي ما نعلمه بأمرِ الخالق، وما نجهله بأمرِهِ.

- جدّي، هل صحيح، كما يقول أهل القريّة، أننا من نسل الأمير الشيخ مكزون السنجاري؟

- أي بُني. لا تسأل عن حسبكَ ونسبكَ. فكلّنا من تراب وإليه عائدون. أصلكَ وفصلك، هو عملكَ في الدنيا الذي ستُحاسَب عليه في الآخرة. لا أحبُّ هكذا أسئلة. ولا أحبذُ من ينسب نفسه إلى نبيّ أو وليّ أو فقيه وملكٍ أو سلطانٍ أو حاكم. ذلك أن مقياس الفرز والفرق والتفضيل عند اللّه هو التقوى. فالحمد للّه على نعمته بأن جعل رسوله الأكرم دون ذريّةٍ من الذكور. فمع وجود ذريّتهِ من الإناث، وحدث ما حدث، فماذا كان حالُ المسلمين، إن كان هنالك للنبيّ أولاد ذكور؟! يجب أن تعلم أنني أحبُّ عليّاً، ليس لأنه ابن عمّ الرسول وصديقه وزوج ابنته فاطمة الزهراء، ووالد الحسن والحسين، بل لعلمه وشجاعتهِ وأخلاقه وأدبهِ. واعلمْ أيضاً، أن الحسن بن يوسف المكزون السنجاري، منّا ولسنا منه.

- معذرةً جدّي، ولكن اللّه، قال: «وخلقناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا...»؟!

- أكمِلْها! لماذا لم تكمل الآية؟! «لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم». مقياس التفضيل عند اللّه بين خلائقه، هو التقوى. تقوى اللّه ليست محصورة بالإسلام فقط. فربما تجدُ تقيّاً ورعاً، يعبد ربّه،

ويجتنب معصيته، بغير حساب، وليس من ملّة الإسلام. وعليه، لا إطلاق في تفضيل قومٍ على آخر أو دينٍ على آخر، أو مذهبٍ على آخر أو نسبٍ على آخر، إلّا بمقدار تقوى اللّه.

- وماذا عن النسبة إلى المكان؟ فنحن منسوبون إلى منطقة سنجار في العراق!

- أي بني. أن يُنسبَ إنسان إلى مدينةٍ أو قريةٍ أو جبلٍ أو عشيرةٍ، هذا تقليدٌ توارثهُ البشر، بحكم العادة. ولكن، لا أحبذه. الانتساب إلى المكان، فيه من العصبيّة شيء. واحرص على أن تكون ابن هذا الكون. ابن نهرٍ يجري في بلادِ الفرنجة، وابن شجرةٍ في قلبِ الشام، وابن وادٍ في الهند، وابن جبلٍ في كردستان، وابن نبعٍ في الأناضول، وابن نخلةٍ في العراق، ابن تلة رملٍ في الحجاز... وهكذا. ثم من يدري؟ اللّه وحده يعلم ابن من أنت؟ من أيّ نسلٍ أتى جدُّكَ العاشر أو العشرون أو الثلاثون؟ أكان عربيّاً أم فارسيّاً أم تركيّاً أم أفغانيّاً أم كرديّاً أم روميّاً؟!

- لكن الرسول محمد يُنسب إلى قريش؟!

- لا يهمّني نسبه، تهمّني رسالته والدين الذي أتى به، سواء أكان ابن قريش أو ابن أيّة قبيلةٍ أخرى.

- 3 -

ذكرَ حيدر أنَّ جدّه أزدشير حكى له عن أحد أيّامه:

- لا أذكر بالضبط، وربما كنتُ في الحادية عشرة من عمري. تقاطرَ النَّاس على مسجد والدي الشيخ حيدر بن معصوم بن علي

السنجاري، بعد أن نوديَ لصلاة الجمعة، يؤمُّهم والدي، بهيُّ الطلعةِ، شديدُ الهيبةِ، فارعُ القامة، ساطعُ الهالةِ، ذو وجهٍ صبوحٍ ولحيةٍ ناصعةٍ كالثَّلج، وعينان سوداوان واسعتان، تفيضانِ ورعاً وتُقى. يرتدي عباءةً بيضاءَ، يتعمَّمُ بشالٍ صوفيٍّ مائلٍ للصُّفرةِ. خطبَ في الجموع المحتشدةِ بصوتٍ جَهوريٍّ متهدِّجٍ عالٍ، مصحوبٍ بنبرةٍ من الأسى والتحدِّي قائلاً:

- يا إخوتي.. والذي نفسي بيده، إنَّ الحربَ أشدُّ كرهاً وأكثرُ مقتاً عندي من الكفرِ. أتَرَونَ كيفَ تُسَاقُ نساءُ وأطفالُ وشيوخُ إخوتنا في الإيمان باللّه، من الأرمن والسِّريان والكلدان النصارى إلى النحرِ كالبهائم..!! أترونَ كيفَ تُهتَك أعراضهم، وتُستباحُ حُرمَاتهم، وتُبادُ قراهم عن بكرة أبيها..!! أهذا شرعُ اللّه ورسالةُ رسولهِ الأكرم..؟!! وديني وإيماني، وعزَّة ربِّي وجلالهِ، إنْ كانَ في هذا من الإسلامِ شيء، فأنا تارك الإسلامِ لهم، باحثاً عن دربٍ آخرَ يقودني لمرضاة ربِّي. لكن، والسَّماء ومن رفعها، والأرض ومن بسطها، الإسلام من هذا براءٌ.. براءٌ.. براء، براءةَ الذئبِ من دمِ ابن يعقوب.

إخواني، حرامٌ على المسلمِ دمُ ومالُ وعرضُ أهلِ الذمّة والكتابِ، وغيرهم، دون وجهِ حقّ، إلى يوم الدين. ومن يُحرِّضُ على ذلك، فهو قاتلٌ كافر، مثواهُ سجِّيلٌ سعير، وبئسَ المصير. ومن يَسكُتُ على ذلك، فهو قاتلٌ كافر، ومثواهُ سجِّيلٌ سعير، وبئسَ المصير.

توقَّف عن الكلامِ هنيهةً، بعد أن اغرورقت عيناه وفاضتا بلآلئ الدمع التي سالت على لحيتهِ. من ثمَّ عاودَ الكلامَ بصوتٍ أجشَّ مرتعش، يعتصرهُ حزنٌ حارقٌ جارف:

- الجَنَّةُ ليست حانةً للخمرِ، ومبغى للعربَدَةِ والعُهرِ، يدخلها قتلةُ النفوس البريئة، كما يصوِّرونها لكم، لا . . وربِّ العرش العظيمِ، لا، وألف لا! الجَنَّةُ ليست مكاناً يباحُ فيه ما حرَّمه اللّه في الدنيا، بهذا السخفِ والبهتان. . ! هي أشرفُ وأطهرُ من أن يطأها آفكٌ قاتل، وواعظٌ جاهل، وعالمٌ باطل، وسافكٌ غافل، وقلبٌ قاحل، وعقلٌ ديجورٌ حالكٌ سافل، ومؤمنٌ ضعيفٌ خاملٌ كسولٌ وذابل.

إخوتي، في هذه الأيامِ الصِّعابِ العصيباتِ، الجهادُ والإيمانُ الأكبرُ، هما نجدةُ المستغيثِ وإغاثةُ الملهوفِ والمظلومِ من إخوتنا في الإيمانِ، وحمايتهم كحمايتنا أنفسنا، بل وأكثر. فأمامَ ربِّي وأمامكم، أعلنُ جهادي على السلطانِ وأعوانه من أدعياءِ الدين والمشيخة. ومن أرادَ منكم أن يقتلَ نصرانياً، ففي داري أكثرُ من مائةٍ منهم. لكن، فليقتلني أولاً. ومن أرادَ منكم أن يكونَ معي، فليحمل كفنهُ، وليتبعني.

إخوتي، قد لا ترونني بعد الآن. أوصيكم بتقوى اللّه والتعاضدِ والتراحمِ والتكافلِ والوقوفِ في وجهِ الظلمِ والاستبداد، أيَّاً كان مصدره ومنشؤه. أترككم تاركاً فيكم ثقلي وعترتي، آلَ بيتي، سيواصلون دربي. اتبعوهم فيما أمر به اللّه، وازجروهم واهجروهم فيما نهى عنه. واللّه وليُّ التوفيق.

نزلَ عن المنبر مع تعالي الهمهمة في جمهرةِ المصلِّينَ الذينَ اقشعرَّت أبدانهم، وفارَ الكلامُ من حناجرهم، وفاضت عيونهم دمعاً، مكبرِّينَ مسبِّحين، حائمينَ حولَ شيخهم، إلى أن أوصلوه داره.

لغطٌ محمومٌ من أقاويل تناقلها الغيمُ، الطيرُ، الشجرُ، الحجرُ والبشرُ فيما بينها عما آل إليه حال جدّي، بعد اختفائه بفترةٍ وجيزةٍ من إعلانهِ عصيانه. قيل: حتّى جبالهُ التي لاذ بها، واعتلى قممها متمرِّداً شاقاً عصا الطاعةِ على السلطان العثماني، قد خانتهُ، وابتلعتهُ، وقامت بتسليم ظلِّهِ جريحاً للإنكشارية..؟

قيلَ: إنَّ الجِنَّ المارقةَ استدرجتهُ لموالاتهم في عصيانهم المزمعِ على الطين..؟ قيل: إنَّ مشايخَ الدين في أرضِ الكنانةِ والحجازِ والشامِ والنجفِ وقُم، أفتوا بهدر دمهِ، بعد أن كفَّروه، متهمينهُ بالرِّدةِ عن الدين، وإقحامِ الزندقةِ والهرطقة، والتجذيف والتزييف فيه. وأقاموا الحدَّ عليهِ، وأحرقوا جثمانه، رافضينَ دفنَ رمادهِ في أيٍّ من مدافنِ أمَّةٍ لا إله إلا اللّه..!

قيل: إنَّ النَّارَ رافقتهُ وآزرتهُ مُذ وطئت قدماهُ سفحَ الجبالِ، حتى آخرِ قطرةٍ من صوته، وآخر رمقٍ من ظلِّه..! وقيل: إنَّها خانته..!

قيل: إنَّ عَسَساً من أهلهِ وعسكراً روميّاً قد حاصروا كهفاً لجأ إليه. وحينَ اقتربوا من فتحةِ الكهف، وجدوا قطيعَ ضباعٍ رابضةٍ في الكهف حوله، فطفقوا عائدين، ظنّاً منهم أنَّهُ لو كان في الكهف، لما كانتِ الضباعُ هناكَ قد تركتهُ حيّاً..؟! وقيل: إنَّ القطيع كان غزلاناً، ولم يكن ضباعاً..!

قيل: إنَّ أشجارَ البطمِ والجوز والسنديان قد أقسمتْ أن تكونَ جندَهُ، بعدَ أنْ أمَّ بالطيورِ مُصلِّياً، صلاةَ الجنازةِ على نسرٍ شهيد..؟ وقيل: إنَّ الترابَ تكفَّلَ بنقلهِ للجنَّة..! وقيل: إنَّ الترابَ انقلبَ عليهِ في آخرِ لحظة..!

ونُقِلَ عن جندهِ من الشجرِ: أنهُ أوصاهمُ بعدمِ دفنهِ، بل بوضعهِ في أعلى قمَّةٍ عارياً، مفتوحَ العينين، مشقوقَ الصدرِ والبطن، ليكونَ كبدهُ وقلبهُ وجسدهُ طعاماً للجوارح. أوصى بذلك، بعد أن اغتالهُ أيلٌ مدسوسٌ في جيشهِ المؤلَّف من الأيائل والوعول، طعناً بقرنيهِ، من الخلف، وهو يصلِّي صلاةَ الفجر.

قيل الكثير، وسيُقالُ أكثر في اختفاءِ جدّي. لكن، حصيلةُ الأقاويلِ هي: إنها ليستِ الحالةُ الأولى في اختفاء شيخٍ من سلالتنا. فسبق أنْ اختفى أحدُ أجدادنا، صاحبُ «رسائل الأرواح»، عقل الدين السنجاري بن الحسن الفارقيني العلويّ، بعد أن كفّرهُ العباسيون، وأهدروا دمهُ، وطاردوه، بتهمةِ أنه لا يدعو للخليفة في صلاتهِ. وأنَّهُ من أفسدَ خُلُقَ الحسين بن منصور الحلَّاجِ وعقلَهُ.

وشيخٌ آخر من أجدادنا، هو روح الدين نوراللّه الفارقيني العلويّ، هو أيضاً اختفى، بعد أنْ أمرَ السُّلطان صلاحُ الدين بقتلهِ، لمجرَّد أنه كتبَ له قائلاً: «بالنسبة لي، لا فرقَ بينَ الأقربين والأبعدين في المعروف. لكن، لا تتناسَ بني جلدتكِ، لئلا يتناسوك. فالتناسي ظلم. ولا يجتمع العدل والظلم في سلطان واحد. اعدِلْ واعتدلْ، إنَّ اللّه عادلٌ يحبُّ الاعتدال. حسنٌ أنْ تتسامحَ مع المختلفِ معكَ في الدين من النصارى. لكن، ظلمٌ أن تقسوَ على المختلفين معكَ في المذهبِ من الفاطميين».

اختفى الشيخ، ولم تقترب أيّ الأقاويل من تخومِ حقيقةِ اختفائه. اختفى، تاركاً وصيَّةً سِرّاً يتداولها آله فيما بينهم. لكن، لم يبقِ الأيوبيون ثم المماليك ثم الإنكشاريّة العثمانيّة على آله، وفتكوا بهم

ذبحاً وتشريداً وتنكيلاً. فقط بيتٌ واحد نجا من بين هذا النسل. كيف؟ لا أحد يعلم. واستقرّت بهم الحال في جبال اللاذقيّة.

- 4 -

ونحن في السجن، ذكر لي حيدر أن جدّه الشيخ أزدشير السنجاري قصّ عليه حكاية غريبة، جرت معه أثناء اختلائه بنفسه وتجواله في جبال اللاذقيّة، حيث استوقفته شجرة فخاطبها:

- ما بالُكِ تذرفينَ وارثَ ظِلِّكِ في أجيجِ حُزنٍ فائحِ الندم، أيتها التينةُ العتيقة..؟! وكأنِّي بأغصانكِ تحضُّكِ على البوحِ لي بما يُكدِّرُ خاطركِ..؟ أنا سامعُكِ، فقصِّي ما يؤرِّقُ روحَكِ..!

- يا شَيخي... روحي التي تسكنني، كانت لفتاةٍ أفغانيّةٍ عاشقة. ومن قبلها، لناسكٍ بوذي. ومن قبله، لنخلةٍ كربلائية. ومن قبلها، لطفلةٍ يمنيّة مخنوقة. ومن قبلها، لمحاربٍ أمازيغي. ومن قبله، لقرصان أسباني. ومن قبله، لشاعرٍ زنجي.

أمَّا الشَّاعر الزنجي، فلم يكتب سوى قصيدة واحدةٍ، رثى فيها عاشقةً بيضاءَ، يجهلُ مسكنها، وسبب موتها. وما إن انتهى الشَّاعرُ من التغنِّي بحرائقِ تلكَ العاشقة، حتى انتحر. فاستقرّت روحهُ في جسد طفلٍ أمازيغي، كَبُر وعاش خائناً لقومهِ، وماتَ شهيداً لأجلهم. فسكنت روحُه في جسدِ طفلٍ إسباني، أصبح بحّاراً، ثم قرصاناً جابَ البِحارَ والموانئ لصَّاً، باحثاً عن خارطةٍ ما لجزيرةٍ ما، كي يخبِّئ فيها كنوزَ خياله. قُتلَ القرصانُ على متن سفينة، إثر عراك مع قرصانٍ آخر. فاستقرّت روحُه في جسد طفلةٍ يمنيّة ولدت سِفاحاً، خنقتها أمّها. لأن زوجها هددها بالطلاق، في حال لو كان مولودها القادم

أنثى. لأن خلفته كانت كلها إناثاً، عاشرت الأمّ رجلاً آخر، علّها تظفر بمولدٍ ذكر، يثلج صدر زوجها. لكن عبثاً، وحين اكتشفت أن مولودها أنثى، فوراً خنقتها حتى قبل أن تطعمها الرضعة الأولى. تسرّبت روح الطفلة إلى نخلة كربلائيّة عتيقة، كانت الشاهدةَ الوحيدةَ المتبقِّية على مأساة الحسين بن علي ومقتله. هذه النخلة، احتطبها شيعيٌّ عجوز، كي يتدفّأ أولاده على حرق جُثَّة النخلة. وقال لها قبل نحرها: «أعلم بأنكِ الشاهدة الوحيدة. وكي أحرركِ من هذا العذاب، سأحرقكِ. فأن يتدفّأ الأطفال على حطبكِ، خيرٌ من سرد أقاصيص الحروب والمَقاتِل، واستدرار الدم للدم، وبقاء نيران الحرب مشتعلةً في النفوس، لألف سنة أخرى».

فاستقرَّت روحُ النخلة في جسد طفلٍ بوذيّ، شبّ عن الطوق، وتزوّج وأنجبَ أطفالاً، وماتَ كمداً وحرقةً، وهو يرى عيالهُ يُساقونَ للنَّحر والحرق أمام عينيهِ، كي يُجبرَ على تغيير معتقده، فما فعل. وذلك، بعد أن اقتيدَ عنوةً لقصر الوالي المسلم، كي يفسِّرَ له رؤياه قائلاً:

– يا سيّدي الوالي، الطفلُ الذي كنتَ تأكلُ لحمه، هو ابنكَ الذي ستبقى محروماً من إنجابه. الجمجمة التي يشرب بها شخصٌ ما الخمرَ، ولا تدركُ ملامحه، هي لكَ. والشخصُ، هو من خواصِّكَ وحاشيتك، سيغدرُ بكَ، بنفس الطريقة التي غدرتَ بالوالي السابق. والهياكل والعِظام التي تلاحقك، هم ضحاياك. أمَّا الصراخُ المتصاعد من خلف المقبرة التي كنت تنظرُ إليها من شرفةِ قصرِكَ. هذا الصراخ الذي كنتَ تألفه، دون أن تعرف لمن يعود، فهو أنتَ معذَّباً في الجحيم!

وما إن انتهى البوذي من تفسير الرؤيا، حتى استشاط الوالي غيظاً وغضباً وحنقاً، آمراً بإجبارهِ على تغيير دينه والدخول في الإسلام. وأسلم الروحَ، ولم يستسلم لهم.

فاستقرّت روح البوذي في جسد طفلة أفغانيّة ولدت في «قندهار»، كبرت وغدت صبيّةً تفيض جمالاً وأنوثةً. ولكنها ألقت بنفسها في قعرِ الوادي، بعد أن أجبرها أهلها على الزواج من ابن عمِّها، فرضيت مُكرهةً، وهي العاشقةُ لفتى آخرَ يبادلها حرائقَ الغرام. وإذ بابن عمِّها خائرُ الذكورة، أخرقُ الوتدِ، عديمُ الدفقِ، سقيمُ الدَّاء. ولدرءِ الفضيحة عن أعين الخلق، تولّى عمُّها مهمَّة ابنه. فأثمرَ عزمُ العمِّ، وأنجبت منهُ ثلاثةَ أشقَّاءَ لزوجها. أمام النَّاس، هم أولادٌ أقحاحٌ من زوجٍ ضخمِ الجثَّة، شديدِ الهيبة، مفتولِ العضل. وأمامَ نفسها وزوجها وحماها، هم أولادٌ زورٌ لزوجٍ زورٍ، فاقدِ الفحولةِ والشفقة، لا تكنُّ له ولأبيه ولأبيها إلا الحقد والبغض. كانت تعيشُ الذُّلَّ والمهانة والرعب والخوفَ من القتل، إن باحت بالسرِّ حتى لأهلها أيضاً. بقيت تقيمُ في جحيمٍ مكين، دون أن يدري بعذابها أحد. وفي ليلة صقيعية العتمة، ضاقت الدنيا بها، وفاضَ بها الكيدُ والكدرُ، فدسَّت السُّمَّ في العشاءِ، وقتلت كُلَّ من في البيت، بمن فيهم، أطفالها الثلاثة. وفرَّت إلى بيت أبيها، وقصَّت عليهم حكايتها، حتى تلك اللحظة. فلم يصدقوها، وأوسعوها ضرباً مبرِّحاً. ففرَّت من بين أيديهم أيضاً، وألقت بنفسها من قمة جبل في قاع وادٍ سحيق.

بعد استماع جدّي كلام شجرة التينة الجبليّة، مسح يده اليمنى على جذعها قارئاً آية الكرسي. ثم اتجه نحو كلبة عجوز، رابضة على صخرة قبالة الشجرة، وسألها:

- ماذا عنكِ أيتها الكلبة الهرمة. .؟ ما لي أراكِ باكيةً، تلعقينَ هذهِ الصَّخرةَ الكتوم. .؟!

- يا شيخي. . . ما أستطيعُ قولهُ لك: أنني لستُ كلبة. ومحرَّمٌ عليَّ البوحَ بقصَّتي لإنسيٍّ. يمكنكَ أن تسل هذي الصَّخرة عنِّي.

فقالت الصخرة:

- يا شيخي. . . هذه الكلبة، قبلَ مئتين وثمانين عاماً، كانت ابنةَ أحد أمراءِ الجنِّ الأخضر، الذين يدينون بالإسلام. وقعت في هوى إنسيٍّ سريانيّ مسيحيّ. عَلِمَ بها أهلوها، وحاولوا تحذيرها وطالبوها بالعدول عن ذلك، فرفضت. فحكموا عليها بأن حوَّلها أبوها إلى كلبة، طيلة حياتها. أمَّا هي، فاستطاعت أن تكسب صداقة الشاب السرياني، بعد أن أخذها إلى بيته، فأصبحت كلبته التي تحمي داره، وترافقه في الصَّيد. السريانيّ لم يكن يدري ما بالكلبة من احتراقٍ دفينٍ، وهي تعاني لعنة عشقها له. ومرَّةً، وإذ بأخيها الجنِّي يتقمَّصُ هيئة قاطع طريق، ويعاركُ عشيقها السرياني. فآزرتهُ الكلبة الجنِّية على أخيها. لكن الجنِّيَّ أردى السريانيَّ قتيلاً. ولما رأت الكلبةُ حبيبها غارقاً في دمائه، ما كان منها إلا أن عضَّت عنق أخيها، ولم تتركه، حتى أتلفت روحه. وقامت بدفن حبيبها هنا، إلى جواري، بعد أن استطاعت حفر قبرٍ لهُ في سبعة أيامٍ متواصلة بلياليها. دفنت حبيبها هنا، كي أكون شاهدةَ قبره، لأنه كان يأتي ويجلسُ عليَّ، عازفاً النَّاي، في سويعات المساء. وقرّرت الكلبة أن تقضي حياتها وهي تحرسُ قبرَ حبيبها. تجوبُ النهار بحثاً عن قوتها، وتعود في المساء، كي تبكيهِ وترثيهِ. وبقي لموتها خمسون عاماً، بتوقيت الجن.

اتّجه جدّي نحو نهرٍ يجري بالقرب من المكان، وسأله:

- أيُّها النهر، ماذا يعتملُ روحكَ، وأنتَ تسبِّحُ بحمدِ خالقي وخالقِكِ..؟

- يا شيخي... منذ ثلاثة آلاف عام، وأنا صائلٌ جائلٌ بين هذه الجبال. أشهدُ مصائرَ حيواتِ القاطنين والعابرين من هنا، من الإنسِ والجنِّ والشجرِ والنباتِ والبهائم والرِّياح. إلى أن اعتلَّ خيالي بداءِ ذاكرة المكان. فأشارَ عليَّ حكماءُ الماءِ أن أكتبَ الشِّعرَ بلغةِ المكان. أمَّا فقهاءُ النَّار، فأوصوني بتغيير مساري نحوَ السَّماء. لكنَّ التُّرابَ حذَّرني من ذلك قائلاً: إن السَّماءَ ستعتبركَ خائناً لأرواحِ المكان. والسَّماءُ ليست موطناً للخونة. استعذْ من شرِّ النسيان، وعليكَ بغناءِ الكرد والأرمن صلاةً تقيكَ من الضَّلال. مقدورُكَ مصاحبةُ الرِّيح، دونَ أن تحبّها. مقدورُكَ الركونُ لمشيئةِ دماءِ الورد.

- 5 -

كنتُ منكبّاً على قراءة «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعرّي، ولم أنتبه لجدّي أزدشير السنجاري يناديني. ظننتُ الصوتَ آتياً من صميم الكتاب. وتفاجأت بيده تقطعُ عليّ متعة القراءة، وتطبق دفّتي الكتاب، وتلقي بهِ جانباً، ممسكاً بذراعي، قائلاً:

- تعال، أطلعكَ على ما هو أهمّ من المعرّي ورسالته. هذه المراسلات، ورثها جدّي عن أجداده. وسترثها عنّي. اقرأها...

بسم اللّه الرَّحمن الرَّحيم

إلى الشيخ الجليل روح الدين نوراللّه الفارقيني العلويّ...

السَّلام عليكم ورحمةُ اللّه...

أمَّا بعد. . .

نحنُ نفرٌ من الجنِّ الرهبان، نشهدُ أن لا إله إلا اللّه، ولا نعبدُ سواه، ولا نشركُ به أحداً. وما خلقنا اللّه وإياكم، إلا لنعبده. ندين بالإسلام، المختلف عن دينكم، يا معشر الطين الكليم. ولسنا مضطرِّين لأن ندينَ بدينكم. وحُجَّتنا في ذلك، أننا خلائق ميَّزنا اللّه عنكم بالكثير. وخصَّنا اللّه بما لم يخُصَّكم، بأن خلقنا من مارجٍ من نار. نراكم، ولا يمكنكم رؤيتنا. نفوقكم في علوم الغيب، وعلوم البواطن والظواهر. نفوقكم عمراً وقدرةً وقوَّةً ومداركَ. فلماذا نتبعكم، في وقتٍ لم نطالبكم باتّباعنا. . .؟! ألم تقتلوا غالبيةَ رُسلِ اللّه إليكم. . .؟! ألم تنشقُّوا على أنفسكم، واختلفتم وتخاصمتم فيما بينكم لأجل خلافة خاتم أنبياء اللّه إليكم، بعد وفاته، تاركين جثمانه دون دفن لفترة، وهو القائل: «إكرام الميّت دفنه». . .؟! ألم تتحاربوا وتتناحروا، وقتل بعضكم بعضاً، وتفرَّقتم شيَعاً ومذاهبَ تكفِّرُ بعضها بعضاً. . .؟! لماذا تودُّون لنا أن نكون أتباعكم، ندين بدينكم، لا، بل ساجدين لكم أيضاً. . .؟! أمَّا نحن، فليس في اختلاف ألواننا وأقوامنا وعقائدنا، ما هو مدعاةُ التّطاحُن والاحتراب والتمييز والتعصُّب، مثل ما أنتم عليه!

أيها الشيخ الجليل. . . تضامناً معكَ، فيما أنتَ فيه وعليه، من محنةٍ، سنعينكَ على بلواك، بأن نجلي لك الغيبَ كاملاً، فتحتاط للنوائب المحدقة بك. وإن شئت، أصبحنا جندكَ، نأتمرُ بأمركَ، بإذن اللّه. لكن بشرط، أن تأكلَ مما نأكل، وتشربَ ما نشرب، وتقرأ ما نقرأ، وتقرأ ما نكتب، وتكتبَ ما نقرأ. وللّه عاقبة الأمور. . .

كبير كهنة الجنّ المؤمنين باللّه

يس وأ كنش وه

في تمام الساعة 97 و79 دقيقة من يوم السبيع/ شهر السابع السبعين/ سنة 977997

* * *

أعوذُ بربِّ الفلقِ من شرِّ الضَّلالِ المكين

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إلى كبير كهنة الجنِّ يس وأ كنش وه

السَّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته...

أمَّا بعد...

لقد كرَّمني ربِّي من بين خلائقه، بأن جعلني سليلَ آدمَ عليهِ السَّلام، وخلقني في أحسن تقويم، وأنعم عليَّ بأن جعلني خليفته في الأرض، وخيَّرني بين الدنيا والآخرة، وسيَّرني في الدنيا والآخرة. ولم يشأ لي ربّي إلا أن أكون إنسيّاً، لا غير، لحكمةٍ في أمرهِ أجهلها ويعلمها هو، جلَّ في عُلاه. فإن أردتم إعانتي على البرِّ والهُدى، وتليين القلوب والعقول القاسية، ليكن دون شروطٍ وفروض. وهذا آخر ما يمكنني قوله لكم، شاكراً لطفكم وعَرضكم. وليكن ملتقانا يوم النشور والحشر العظيم. وللّه عاقبة الأمور.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

العبد الفقير: روح الدين نوراللّه الفارقيني العلويّ

في تمام الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والخمسين/ فجر يوم الخميس الخامس عشر من جمادي الأولى، سنة 585 هـ / 1188 م.

* * *

سألتُ جدّي عن معنى الرسالتين، فأجاب:

- جدّك وجدّي، الشيخ روح الدين نوراللّه الفارقيني العلويّ، كان صديقاً حميماً للمتصوّف العلّامة شهاب الدين يحيى السهروردي. وحين أمر صلاح الدين الأيوبي بقتله، صدر أمر مماثل بقتل جدّنا أيضاً. فاختفى، ولم يجد أحد أيّ أثرٍ له. ولم يتمّ العثور إلّا على هذه المراسلة في كهف من كهوف جبال دياربكر في تركيا، مكتوب عليه اسمه ووصيّته: «لمن يوصله إلى أهلي في حلب، له أجرٌ عند اللّه، وفلاحٌ عظيمٌ في الآخرة».

من ردّ جدّنا، يتضح أنه رفض شروط الجان، ومعاونتهم إيّاه ضدّ سلطة صلاح الدين. لربما أن الاثنين ينحدران من الأرومة نفسها. وربما لسبب آخر، نجهلهُ ويعلمهُ اللّه.

* * *

بعد انتهاء ولات من قراءة الأوراق، أعادها لهاغوب، ويده ترتجف، وعلامات الانبهار باديةٌ عليه. ولم يقوَ على التعليق وإبداء رأيهِ بما قرأه، وسط استغراب المحيطين به.

* * *

اكتلمت الصورة لدى رولان، كلارا وجورجينيو، وكلّ أصدقائهم، بعد استماعهم لأحاديث هاغوب المطوّلة عن حيدر. وقراءتهم رسائلَهُ الأربع الأخيرة. اتفقت المجموعة مع هاغوب على كتابة سيرة حيدر لقمان أزدشير السنجاري، ورحلة البحث عنه. مع إضافة الرسائل الأربع، وهذه الأوراق التي كان من المفترض أن

تصبح أجزاء من رواية مشتركة بين حيدر وهاغوب. وأنه ستتم ترجمة الكتاب إلى الفرنسيّة، الإنكليزيّة، الإيطاليّة والألمانيّة.

بعد مضي أربعة أيّام على تواجده في بروكسل، قرر هاغوب العودة إلى استوكهولم نهار يوم 20 أيّار 2013. فاتفق الثلاثة، رولان وجورجينيو وكلارا، على إيصاله إلى مطار بروكسل الدولي. لكن طائرة هاغوب أقلعت دون أن يلحق بها. إذ شاء القدر أن يأخذه والثلاثة الذين يصطحبونه إلى حيث يتواجد صديقهم حيدر السنجاري. وذلك بعد أن صدمت شاحنة مجنونة سيارتهم، على بُعد خمس كيلومترات من مطار «زافينتم» الدولي.

من 1/ 11/ 2015 لغاية 05/ 04/ 2016

أوستند / بلجيكا

هوشنك أوسي

العابرون بهذه الأسطر، عابرون بأنفسهم. والماكثون فيها، ربما ينتظرون عابراً معيّناً، ينتشلهم مما يجهلونه ويجهلهم!. منهم من يعتبرُ الخشية من الحقيقة، حقيقة. والمروق منها باطلاً. والباطل بتجلّياته، هو أيضاً حقيقة. ومنهم من يخشى أن تكون الروحُ رسالة الجسدِ، والجسدُ آبداً، والروحُ فانية. وثمّة من يخشى أن تكون الروحُ والجسدُ، رسالتين متضاربتين، خطّها، ويخطّها المجهولُ لمجهولٍ آخر.

ثمّة هاجسٌ يحاصرُ جميع الماكثين والعابرين في آن، قائلاً:

- فائضُ الخراب والدمار الذي تعيشونه، وترونه وتُعلونه، تمعّنوا فيه جيّداً، لكونهِ سيصبح مداميك عمارة الذاكرة التي ستوارثونها، جيلاً إثرَ آخر، وستتصارعون على هذا الإرث، حتى يقضيَ الليلُ فجراً كان منتظراً. حياتكم ليست لكم. وموتكم ليس لكم. فانتظروا... انتظروا أكثر!. هي الحياة، آلامُ المجهول في تدوينه سِيَرَ المعاليم. والموت، منطوقُ المعلوم بلسان المجهول، سِفراً يوثّق تناوبَ المجاهيل والمعاليم في تعاقبِ الأمكنة والأزمنة. لذا، أرووا الحياة ولا تواروها. ارووها، لا كما عشتموها، بل كما عاشتكم الحياة. وارووا الموت، لا كما متموه، بل كما عاشكم.

... ولكن، هل حَدَثَ كلُّ هذا، كما رويَ. أم أن الأمرَ محضُ التباسٍ، لا أكثر؟!.

دار سؤال

ISBN: 978-614-8020-35-3

9 786148 020353

www.darsoual.com

dar_souaal@outlook.com

@darsouall2014

Dar Soual